

مفاتيح التجديد عند الأستاذ فتح الله كولن

د. جمال السفرتي



مفاتيح التجديد

عند الأستاذ فتح الله كولن



مفاتيح التجديد عند الأستاذ فتح الله كولن

الطبعة الأولى

Copyright©2020 Dar al-enbeath

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تأليف

د. جمال السفرقي

تحرير

نور الدين صواش

تصميم

ياوز يلماز

غلاف

محمد نور الدين

رقم الإيداع

2020/5805

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6704-08-9

رقم النشر

017

دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع

Tel: +20123201002 - +201066067034

E-mail: daralinbiath@gmail.com

www.daralinbiath.com

مفاتيح التجديد

عند الأستاذ فتح الله كولن

د. جمال السفرتي



د. جمال جمعة سليمان السفرتي

تاريخ الميلاد: ١٥/٥/١٩٦٨ م.

الجنسية: أردنية.

المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية / دمشق.
- ماجستير في الدراسات الإسلامية / بيروت.
- دكتوراه في الدراسات الإسلامية / تخصص الفكر الإسلامي المعاصر / بيروت.

الأنشطة الفكرية والثقافية:

- عضو رابطة علماء الأردن.
- أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة بدر / ألبانيا.
- مستشار المشيخة الإسلامية الألبانية.
- مدير مركز النور الخالد للدراسات والأبحاث / عمّان.
- شارك في العديد من المؤتمرات والملتقيات المحلية والعالمية، وألقى العديد من المحاضرات والندوات داخل المملكة الأردنية وخارجها؛ في دول الخليج، والدول العربية، ودول أفريقية، وأمريكا، وأوروبا، وماليزيا، وإندونيسيا، وروسيا، والشيشان وغيرها.
- يشارك في العديد من البرامج التلفزيونية والإذاعية.

فهرس

مقدمة.....	١٣
العصر والبيئة.....	٢١
الحالة التاريخية.....	٢١
الحالة الاجتماعية والدينية.....	٢٥
الجماعات الإسلامية في تركيا.....	٣٠

الفصل الأول

النشأة والتكوين.....	٣٥
أولاً: من هو محمد فتح الله كولن؟.....	٣٥
١- الولادة.....	٣٥
٢- مدينة أرضروم.....	٣٦
٣- النسب.....	٣٨
٤- لقبه العائلي.....	٣٩
٥- العائلة ومكانتها.....	٤٠
٦- النشأة الأولى.....	٤٣
ثانياً: شخصيات وأحداث أثرت في تكوين فكره.....	٤٩

- ١- بيت العلم الذي نشأ فيه ٤٩
- ٢- شيوخ محمد فتح الله كولن ٥٣
- ٣- أهل العلم والإصلاح ٥٤
- ٤- الشغف بالقراءة ٦١
- ٥- الانشغال بقضايا العصر ٦٣
- ثالثاً: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن ٦٨

الفصل الثاني

- منهج الأستاذ كولن في بناء الذات وتكوين الإنسان الحركي ... ٧٧
- أولاً: منهجه في البناء العلمي ٧٧
١. المدرسة التقليدية ٧٨
٢. الذاتية في التعلم ٨٠
٣. مع الكتب ٨٥
٤. رسائل النور ٨٧
- أ- أثر رسائل النور في الأستاذ والحركة ٨٩
- ب- الإمام بديع الزمان النورسي في كتب الأستاذ كولن ٩١
- ج- هل الأستاذ وريث الإمام النورسي؟ ٩٨
- ثانياً: منهجه في البناء الروحي ٩٩
١. العبادة ٩٩
٢. مجاهدة النفس ١٠٤
٣. الخلوّة "الكهفية" ١١٢
٤. الجلوّة "المخالطة" ١١٣

٥. إنفاق المال ١١٦
٦. مسلك العزوبية ١١٩
٧. الذكر والدعاء ١٢١
٨. البكاء ١٢٣
- ثالثاً: منهجه في تكوين الإنسان الحركي ١٢٩
١. بداياته الدعوية ١٣٢
٢. الواعظ المتجول ١٣٧
٣. الخطابة ١٣٩
٤. التدريس ١٤١
٥. منهج التدريس في حلق الأستاذ ١٤٤
- رابعاً: منهجه في التأليف ١٥٣

الفصل الثالث

- حركة محمد فتح الله كولن التجديدية ١٦١
- أولاً: التعريف بالحركة ١٦١
١. الحركة خدمة إيمانية ١٦٣
٢. الحركة خدمة دعوية ١٦٦
٣. الحركة خدمة اجتماعية ١٦٨
٤. الحركة خدمة إنسانية ١٧١
٥. الحركة والصفوية ١٧٤
- ثانياً: التجديد في الحركة ١٧٨
- ثالثاً: أهداف حركة كولن ١٨٤

رابعاً: المحركات الأساسية للحركة..... ١٨٨

١. سعة الضمير ١٩٠

٢. إعلاء كلمة الله..... ١٩٢

٣. هدف الإحياء..... ١٩٣

٤. نذر النفس للحق وللخلق..... ١٩٣

٥. التضحية والإخلاص والوفاء..... ١٩٦

٦. التمثيل والتبليغ..... ١٩٧

خامساً: المضامين النظرية للحركة..... ١٩٨

١. اتباع نهج الصحابة..... ١٩٨

٢. الابتعاد عن السياسة..... ٢٠٢

٣. الأخوة الإيمانية..... ٢٠٣

٤. الهدف رضا الله..... ٢٠٤

٥. شرعية الوسائل..... ٢٠٥

٦. ملاءمة الفكر لروح العصر..... ٢٠٥

٧. التفاني ونكران الذات..... ٢٠٧

سادساً: المضامين العملية للحركة..... ٢٠٩

١. الفداء والتضحية..... ٢١٠

٢. الزكاة والإنفاق..... ٢١١

٣. الوقف والمتولي..... ٢١٣

٤. التعليم والمعلم..... ٢١٤

٥. تنظيم قطاعات المهنيين..... ٢١٦

- ٢١٧ ٦. الحوار والتفاؤل
- ٢٢١ سابعًا: مفاهيم ومصطلحات خاصة بالحركة.
- ٢٢٢ ١. أطباء الروح
- ٢٢٤ ٢. أجيال الأمل
- ٢٢٦ ٣. الإنسان الجديد
- ٢٢٧ ٤. الأجيال المثالية
- ٢٢٨ ٥. الأرواح المجرمة
- ٢٢٨ ٦. الأصناف
- ٢٢٩ ٧. التوتر المفقود
- ٢٢٩ ٨. الخدمة
- ٢٢٩ ٩. الروح المثالي
- ٢٣٠ ١٠. الهمة
- ٢٣٠ ١١. جنود الإرشاد
- ٢٣١ ١٢. الحركية والفكر
- ٢٣١ ١٣. جيل البكاء والضحك
- ٢٣١ ١٤. الهجرة
- ٢٣٢ ١٥. فدائيو المحبة
- ٢٣٢ ١٦. أبطال المحبة
- ٢٣٣ ١٧. مهندسو الروح الريانيون
- ٢٣٤ ١٨. وارثو الأرض
- ٢٣٥ ١٩. رجل الدعوة

٢٠. "المجتمع المثالي" و"الإنسان المثالي" ٢٣٦
٢١. الأجيال المثالية ٢٣٧
٢٢. "إنسان الجسد" و"إنسان الروح" ٢٣٨
٢٣. الغرباء ٢٣٩

الفصل الرابع

- منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في التجديد والإصلاح ... ٢٤٣
- أولاً: منهجه في العمل الدعوي ٢٤٤
- ثانياً: منهجه في التربية والتعليم ٢٥١
- ثالثاً: منهجه في تحويل المعرفة إلى سلوك ٢٦٤
- رابعاً: منهجيته في الحوار والانفتاح على الآخر ٢٧١
- خامساً: منهجيته في الفهم الخاص للقرآن الكريم ٢٧٧
- سادساً: منهجيته في الفهم الخاص للسيرة النبوية ٢٩٧
- سابعاً: كيف تعامل الأستاذ مع الصحافة والإعلام؟ ٣١٨
- جريدة زمان ووكالة جيهان ٣٢١
- مجلة حراء ٣٢٤
- ثامناً: منهجه في تناول التصوّف ٣٢٥
- تاسعاً: موقف الأستاذ من بعض القضايا المعاصرة ٣٣١
١. القضية الفلسطينية ٣٣١
٢. قضية الإرهاب ٣٣٣
٣. الفن ٣٣٦
٤. المرأة ٣٤٠

٥. الإساءة إلى النبي ﷺ ٣٤٣
٦. العلمانية ٣٤٥
٧. تصريحات بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر ... ٣٤٨

الفصل الخامس

- تجربة الأستاذ محمد فتح الله كولن في الميزان ٣٥٣
- أولاً: عوامل نجاح حركة الأستاذ كولن..... ٣٥٣
١. الموازنة بين القلب والعقل ٣٥٧
٢. الاستفادة من التجارب السابقة..... ٣٦٠
٣. الملائمة لروح العصر ٣٦٢
٤. التكيف مع الواقع ٣٦٤
٥. التصالح مع الإنسانية..... ٣٦٦
٦. التخطيط ٣٦٩
٧. الرقي الروحي ٣٧٢
٨. العمل المؤسسي ٣٧٣
٩. الموازنة بين التراث والحداثة..... ٣٧٤
١٠. المورد البشري..... ٣٧٦
١١. المورد المالي ٣٧٨
١٢. شخصية الأستاذ وسمعته ٣٨٠
١٣. العمل بدل التنظير ٣٨٥
١٤. التقييم المستمر ٣٨٨
١٥. الإخلاص ٣٨٩

٣٩١	١٦ . الابتعاد عن السياسة
٣٩٢	١٧ . التوازن
٣٩٤	١٨ . وضوح الهدف
٣٩٥	١٩ . إيجابية الحركة ومثلها العليا
٣٩٧	٢٠ . السرية والكتمان
٣٩٨	ثالثاً: إنجازات الحركة العملية
٣٩٩	١ . المدارس
٤٠٥	٢ . الجامعات
٤٠٦	٣ . وقف الصحفيين والكتاب "منبر أُنبت للحوار"
٤١١	٤ . الجمعية الإغاثية "هل من أحد؟! أو "كَيْمَسِي يُوكُ مُو"
٤١٣	٥ . مجموعة "فَيْتَق" للنشر
٤١٤	٦ . مجموعة "درب التبانة" (Samanyolu)
٤١٥	ثالثاً: مآخذ حول الأستاذ والحركة
٤١٦	١ . حركة إسلامية ذات أهداف سياسية
٤١٨	٢ . الحركة امتداد لحركات سابقة
٤١٩	٣ . الحركة تمثل قاعدة جماهيرية معينة
٤٢١	٤ . الحركة تسعى وراء انقلاب إسلامي كالإيراني
٤٢٢	٥ . الحركة تمول من الخارج
٤٢٣	٦ . ضعف دور المرأة في الحركة
٤٢٥	الخاتمة



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يمتلك الإسلام بحسبانه الدين العالمي الخالد قوة ذاتية مكتته من التمدد والانتشار حتى في أحلك الظروف، فلم يشهد تاريخ الأديان والثقافات أن تقوم أمة غالبية باتباع دين وثقافة الأمة المغلوبة إلا في تاريخ هذا الإسلام العظيم، كما وقع للمغول الذين غزوا بلاد المسلمين وهزموهم، لكن الإسلام تمكن من قلوبهم فعادوا مسلمين. هذه القوة الذاتية آتية من طبيعة هذا الدين العظيم التي تلي حاجات الإنسان المادية وتستوعب أشواقه الروحية، وتفتح له كل أبواب العقل للولوج إلى مملكته بسلاسة ويسر.

ولقد منح الله هذا الدين عددًا من المنح الربانية، منها منحة التجديد الدوري التي يتولاها رجال ربانيون اعتصموا بحبل الله المتين، وارتفعوا بإيمانهم في سماوات المجد والفاعلية حتى صاروا نُجْمًا تطاول الشمس وتبدد ظلمات الحيرة وحوالك الليالي السود^(١). وهذه مساهمة بوجهة نظر في موضوع التجديد والإصلاح،

^(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"، القاهرة، دار النيل، ط١، ٢٠١٢م، ص: ٨٣.

فمع مرور الزمن ظهرت مدارس فكرية في كل عصر تحمل روح الإصلاح والتجديد، فيها الكثير من تجارب المفكرين الذين منحوا وجودهم وطاقاتهم في شتى الحقول، من أجل أن يصوغوا ساحة الحياة - التي أتيحت لهم أن يتحركوا فيها - صياغة إسلامية خالصة، صياغة أناس عاشوا إسلامهم بعقولهم وأفكارهم ووجدانهم، فمنهم من نجح، ومنهم من أخفق، ومنهم من أصاب، ومنهم من أخطأ.

ومن هؤلاء الدعاة والمفكرين في العصر الحالي، ما نجده في شخصية الإمام محمد فتح الله كولن. ونتيجة الوقوف على بعض مؤلفاته، ومن خلال التوجه إلى إسطنبول معقل عمل محييه، وإلى سائر أنحاء تركيا، ومعظم العالم العربي والأفريقي والأوروبي، والاطلاع على المؤسسات والجامعات، والفضائيات ووسائل الإعلام، ومئات المدارس وبيوت الطلبة "التربوية"، والمصانع والمتاجر التي كان سبباً في وجودها بمنهج إسلامي إنساني حضاري استطاع من خلاله اختراق الأسوار العلمانية المتطرفة التي حاولت أن تحاصر كل عمل إسلامي راشد. فقد تبين لي أن هذه المدرسة الفريدة تستحق الدراسة والعناية والوقوف على أسباب نجاحها أو إخفاقها والإفادة من دروسها وتجربتها.

ففي هذا الكتاب سأتناول تجربة أو حركة الإمام محمد فتح الله كولن، من خلال استخراج بعض المعلومات من المصادر والمراجع المتوفرة، كذلك من خلال اللقاءات والحوارات التي أجريتها مع بعض رواد حركته وتلامذته ومحييه، واستقراء منجزاته داخل تركيا وفي معظم أنحاء العالم.

إن أي متقصدٍ لآثار الإمام محمد فتح الله كولن وعوالم عقله، سيلمَسُ الثبات والتناسق في جوهر أفكاره، فلقد تكاثرت آثاره حتى أضحت مدرسة متكاملة تستحق الدراسة والاهتمام والتقييم.

وقد سعيَتْ جاهداً لإبراز رؤية الإمام كولن في مظاهر التزعزع والتخريب والفوضى، التي يعيش فيها العالم الإسلامي عامة والتركي خاصة، وغياب الأنموذج الحقيقي للإسلام الحضاري، وأسباب الغياب والانبعاث الجديد في العالم الإسلامي، وحضور الإسلام على المستوى العالمي مرة أخرى، والمحركات والخصال الأساسية للجيل الذي سيحقق هذا الحضور.

إن العالم الإسلامي كله تَوَاق إلى الانبعاث بعد الموت وإلى الولادة من جديد، من أجل محق الانحرافات الحاضرة وإقامة حياة جديدة وصحيحة.. انبعاث يحتضن الحياة كلها ويستجيب لحاجات أنماط البشر كلهم. من أجل ذلك رأيتُ أن أبحث في فلك هذا الإنسان الذي حاول أن ينسج من آفاق المستقبل رؤية مثالية تستنهض الهمم، ومن جهة أخرى يمحص ويعلل حاضر العالم الإسلامي بمعضلاته وأزماته والعوائق الاجتماعية والتاريخية المعرقة لتجديد بناء الفكر الإسلامي.

ولا يفقد الإمام كولن -في خضم ذلك- ثقته بهذه الأمة التي لم تخمد فيها جذوة الانبعاث أبداً. وقد اشتهر محمد فتح الله كولن بانشداده إلى شعبه ومحركاته الحيوية التاريخية، ووقوفه العميق على معطيات الفنون المتنوعة في الأدب والهندسة والفلسفة، وغيرها من الفنون التي ارتقت إلى الذرى في مسيرة التاريخ لهذه الأمة العظيمة.

ونحن نشهد ولهُه وعشقه لجذور الأمة الروحية ومحركاتها الأساسية في كل ما كتبه، لذلك أرجو أن أكون قد خرجت بتقييم حقيقي لهذه التجربة يترك أثراً وفائدة لهذه الأمة.

وقد خصصتُ هذا البحث لنشر جوانب من فكر الداعية الإمام محمد فتح الله كولن الذي أسس حركة الخدمة الإيمانية القرآنية التي انطلقت من بلاد الأناضول تنشر الخير والنور إلى الإنسانية كلها، من خلال مشروع حضاري إسلامي معاصر وليس من خلال الأقوال فقط، بل من خلال المؤسسات التي تقوم على التقوى والأمانة والخلق القويم، والتي تقدم البديل الإسلامي الإنساني المعاصر في كل مجالات الحياة، ابتداءً من الأسرة، ثم المدرسة النموذجية، ثم المؤسسة الإعلامية الملتزمة بالمهنية وبالأخلاق، ثم المؤسسة الصحية القائمة على الرحمة، وصولاً إلى كل مجالات الحياة التي تربي في النهاية الفرد المسلم الذي تتحقق على يده رسالة الإسلام وعالميته.

تجربة "محمد فتح الله كولن" وهو شيخ عالم فقيه، تجاوز السبعين من عمره، يعيش الآن في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه يعيش في تركيا في الوقت نفسه بروحه الموجودة بين محبيه الكثيرين ومدارسه التي تعد بالآلاف داخل تركيا وبالمئات في خارجها، في دول الاتحاد السوفيتي السابق، والبلقان، وأوروبا، وأمريكا، وأستراليا، وأفريقيا، ومصر، والمغرب، والجزائر، والعراق، والأردن، وأربيل، وغيرها.

وهناك العديد من الجامعات والكليات، والمراكز الإعلامية والصحية.. والمؤسسات تتبع ما يسمى نظام "الخدمة"؛ حتى الاسم،

فليس لهم مجرد اسم، ليس هناك تنظيم لهذا الوجود يُلمس، لكن هناك أتباع وتلاميذ ومحبون ومتعاطفون، وعشرات القنوات الفضائية وعشرات الصحف والمجلات.

إنه الإمام محمد فتح الله كولن، أحد أشهر علماء الإسلام المصلحين ودعاته المعاصرين على مستوى العالم. ومما يشهد له بهذه المكانة حصوله على المرتبة الأولى في قائمة "أهم مائة مثقف معاصر في العالم"، وذلك لتجاوزه تأثيره حدود بلده، وذيوع صيته الثقافي في مختلف أنحاء العالم؛ بحسب نتائج الاستطلاع الذي أجرته في صيف ٢٠٠٨م مجلة السياسة الخارجية "Foreign Policy"^(١) وهي مجلة أكاديمية أمريكية ذائعة الصيت بالتعاون مع مجلة "Prospect" البريطانية المشهورة، وقد أنشأت له عدة جامعات في الولايات المتحدة، وأندونيسيا، وأستراليا، أقساماً خاصة باسمه "كرسي أكاديمي" ومراكز علمية متخصصة، وانهقدت مؤتمرات وندوات دولية عديدة في جامعات عالمية لدراسة أطروحاته ونظرياته الدعوية والفلسفية والإصلاحية والتربوية^(٢). وهو أول مسلم يحصل على جائزة غاندي العالمية للسلام في شهر أبريل ٢٠١٥م.

ونتيجة لتعدد الآراء التربوية والثقافية والحضارية المختلفة وتزاحمها على حساب الفكر التربوي الثقافي الإصلاحي والحضاري الإسلامي، أصبحت الأهمية لهذا الفكر التربوي التجديدي

(١) www.foreignpolicy.com بتاريخ ٣-٨-٢٠٠٨م.

(٢) شهاب الدين عبد الله المحمدي، فتح الله كولن.. إسلام بطعم الحكمة، مقال منشور على موقع الأستاذ محمد فتح الله كولن، www.fgulen.com.

الإصلاحي الإسلامي ضرورة ملحة.

والإمام محمد فتح الله كولن، له ريادة فكرية إسلامية إصلاحية تربوية، وفي مجالات شتى، جنباً إلى جنب مع العديد من المفكرين والدعاة المسلمين الذين لهم دور كبير في إحداث الصحوة الإسلامية، وله نتاجه العلمي الكبير الملموس، وله حواراته الكثيرة وأسلوبه المتميز.

ولأن هذه الدراسة لم يسبق أن تناولها أحد من الباحثين تحت هذا العنوان وبهذه الخصوصية، وكانت قد جرت العادة أن يُبحث في رجال ومفكرين قد قضاوا نحبهم، ويتعذر على الباحثين الإجابة على بعض التساؤلات وتصحيح ما يمكن أن ينشأ من لبسٍ عن أفكارهم ومواقفهم، فإن هذه الدراسة تأتي عن مفكرٍ ما زال حياً يمكن الأخذ عنه من قرب، وتصحيح ما قد ينشأ من لبسٍ.

ولمحاولة إبراز آراء الإمام كولن ودوره في النهضة الفكرية للأمة الإسلامية، وجهوده التربوية المتميزة والتعليمية من أجل المحافظة على الشخصية الإسلامية، ولكي لا يغيب فكره التربوي الإصلاحي عن الناس، وتواصل مع الباحثين في إظهار التراث الإسلامي للأجيال الإسلامية الحاضرة والمقبلة.. تأتي أهمية هذا الكتاب وغيره.

وقد اقتصرنا في هذه الدراسة على محمد فتح الله كولن ومنهجه في التجديد والإصلاح، وآرائه فيما يتعلق في الجانب الفكري والدعوي والتربوي التعليمي، إضافة إلى تسليط الضوء على الواقع التركي المعاصر، على أن تكون الدراسة تأصيلية وليست تجميعية.

ويمكن تحديد إشكالية الدراسة من خلال نقطتين رئيسيتين:

١- كيف عاش محمد فتح الله كولن حالته التعبدية التنسكية وهو صاحب مدرسة فكرية إصلاحية تربوية تجديدية تحتاج إلى جهد وعمل وتفريغ واهتمام.

٢- منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن كان مع عدم الوقوف ضد أي مؤسسة من مؤسسات الدولة ولم يكن يمثل معارضة، فكيف يستوي ذلك مع منهجه الدعوي.

والله تعالى أسأل أن يكتب لي من خلال هذه الدراسة سهمًا في هذه الأمانة التي حملها الإمام محمد فتح الله كولن مع إخوانه عن نبينا وإمامنا سيدنا محمد ﷺ.





تمهيد العصر والبيئة

الحالة التاريخية

الحياة الاجتماعية والفكرية للإمام فتح الله كولن وكفاحه، هي انعكاس لظروف العالم والحياة الاجتماعية والفكرية للإمام فتح الله كولن وكفاحه، وهي كذلك انعكاس لظروف العالم الإسلامي لما تعرضت له هذه الشخصية الأنموذجية من محن وإحن وفتوحات وتوفيق.

وقد دخل العالم الإسلامي في القرن العشرين، بأربع مراحل مهمة، تشكل كل واحدة منها تكاملاً في المجال النظري والعلمي. المرحلة الأولى تشمل الربع الأول من هذا القرن حتى انهيار الخلافة، وقد قام العالم الإسلامي -بما فيه الخلافة العثمانية- بآخر حركة مقاومة تجاه الغرب الأوروبي، وشهدت هذه المرحلة الانعكاسات النظرية والعملية للكفاح ضد الاستعمار الأوروبي في العالم الإسلامي.

وفي ظل مرحلة تميزت بعلاقات دولية مؤسسية على المنافسة الاستعمارية، كانت (إستراتيجية) السلطان عبد الحميد الثاني في مقاومة الضغوط الاستعمارية مستندة إلى فكرة الاتحاد الإسلامي، التي لم يتح لها الخروج إلى النور. والمرحلة الثانية تبدأ من إلغاء

الخلافة وتنتهي بالحرب العالمية الثانية، حيث فقد فيها العالم الإسلامي نقاطاً هامة أمام مقاومة النظام العالمي الاستعماري مجتمعةً أو كلُّ على حده. وظهرت فيها تغييرات جذرية في تاريخ الحضارة الإسلامية من منظور المجتمعات الإسلامية، وهذا ليس جديداً. وفقدت جميع المؤسسات والمفاهيم الإسلامية التقليدية فاعليتها في هذه المرحلة، وألغيت الخلافة التي كانت تمثل وحدة المسلمين، وأقحمت المبادئ والمؤسسات الإسلامية في غيبوبة، واستُعمرت جميع البلدان الإسلامية ما عدا تركيا وإيران وأفغانستان، وأُهملت في هذه البلاد المؤسسات والثقافة السياسية التي تؤمن خاصية القوة السياسية والاجتماعية الحقيقية للإسلام.

اختارت المجتمعات الإسلامية التي فقدت مركزها طريق الدفاع عن الإسلام تجاه الأيديولوجيين المعاصرين إقامة لدينها في المجال النظري بواسطة تشكيل هيئات جماعية لمواجهة صفوة الإدارة الاستعمارية. فكان من نتائج هذا السعي أن تشكلت جماعات إسلامية تسعى للقيام بمهمة الدفاع عن الإسلام.

المرحلة الثالثة وتبدأ من الحرب العالمية الثانية وخاصة حرب قبرص، وتستمر حتى الربع الأخير من هذا القرن، حيث اضطرت تركيا إلى منازلة الغرب في قبرص، حتى لا تفقد هيبتها ومكانتها. وفي النصف الأول من هذه المرحلة توفي بديع الزمان سعيد النورسي في الخامس والعشرين من رمضان المبارك سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٣ آذار ١٩٦٠ م. ونستطيع أن نقول إن بديع الزمان هو الوحيد في ذلك الوقت الذي طرح أفكاراً عجيبة جداً تتعلق بمستقبل

تركيا والإسلام. فمثلاً أجاب على سؤال رئيس جامعة الأزهر الشيخ بخيت الذي كان موجوداً في تلك المرحلة في إسطنبول: "ما تقول في حق هذه الحرية العثمانية، والمدنية الأوروبية؟ فأجابه سعيد: إن الدولة العثمانية حاملة بدولة أوروبية وستلدها يوماً ما، وإن أوروبا حاملة بالإسلام وستلده يوماً ما"^(١).

ولقد حصلت الولادة الأولى وشاهدها العالم، حيث إن تركيا سبقت أوروبا في بعدها عن الدين. أما الولادة الثانية فهي التي ستظهر لاحقاً على يد العديد من المصلحين والمفكرين أمثال الإمام محمد فتح الله كولن.. التي انطلقت دعوته الإصلاحية من تركيا وأفريقيا وآسيا وأوروبا إلى العالم أجمع، لتتكون عندها المرحلة الرابعة.

أما بديع الزمان سعيد النورسي فقد عاصر عهد السلطان عبد الحميد الثاني أواخر عمر الدولة العثمانية الآيلة للسقوط، وعاصر تكالب الأعداء وتزاحمهم للقضاء على هذه الدولة. إذ بعد تنحية السلطان عن الحكم عام ١٩٠٩م، جاء الاتحاديون بالسلطان "محمد رشاد" وجزوا الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى دون مبرر، مما أدى في خاتمة المطاف إلى تمزقها شر ممزق. وهرب القادة الاتحاديون إلى خارج البلاد تاركين الأمة تعاني نتائج هذه الحرب المدمرة التي أوقعت البلاد تحت وطأة الجيوش الأجنبية. وجاء السلطان "محمد وحيد الدين"، والدولة قد خسرت الحرب واستولى الإنكليز واليونان والإيطاليون والأرمن على مناطق مختلفة من

(١) بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، القاهرة، دار النيل للطباعة والنشر،

تركيا، وحتى إسطنبول نفسها كانت تحت الاحتلال الإنكليزي. أي إن السلطان كان في واقع الأمر أسيراً بيد الإنكليز، ولم يعد الشعب التركي يملك غير الإيمان العميق يتحدى به الأعاصير الهوج، ويتقي به سهام الأعداء وخراب المستعمرين. فوقف يحشد ما بقي من قواه، ويهيئ ما تبقى له من طاقات، وقرر أن يخوض حرباً تحريرية ضد الغزاة، وهي التي سميت "حرب الاستقلال"، لكن ما إن استقر الأمر وطرده الغزاة حتى ظهر العداء السافر للإسلام، والمحاولات الجادة لقلع الإيمان الراسخ في قلب الأمة^(١).

هنا وفي هذا المنعطف الخطير في حياة الأمة وأمام هذه الأعاصير الهائلة المزعزعة للحياة الاجتماعية بأسرها، ظهر الأستاذ محمد فتح الله كولن ليتابع رسالة معلمه الأستاذ بديع الزمان النورسي الذي لم يلتق به أبداً، ولكنه ما غاب عن قلبه وعقله طرفة عين، ليحمل هموم الأمة التي حملها أستاذه العظيم، ويقوم بأعباء رسالة الإنقاذ والإصلاح التي نذر نفسه وحياته لها، بعيداً عن المحافل السياسية، وانكب على دراسة "رسائل النور" مرجعه الأعظم بعد الكتاب والسنة، ونشرها وتعليمها بين أبناء الأمة في ظروف غاية في الدقة والصعوبة ليهيئ بها مجتمعاً إسلامياً كاملاً يتوقف بالحيوية والعتاء والإيمان. وستظهر انعكاسات مختلف خواص المرحلة ومتطلباتها عند تناول حياة الأستاذ محمد فتح الله كولن وآرائه المتعلقة بالعالم الإسلامي، فنكتشف الفكرة ونخرجها إلى طور التصور لأجل صناعة اليقظة.

(١) مأمون فريز جزار: العالم يتصفح رسائل النور، عمان، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط١،

الحالة الاجتماعية والدينية

بعد تأسيس الجمهورية وضعت مادة في دستور عام ١٩٢٤م تذكر: "الإسلام هو الدين الرسمي للدولة"، كما قامت الدولة بالإبقاء على وزارة الأوقاف والوزارة الشرعية، وعلى المؤسسات الوقفية التي كانت بأعداد كبيرة وإدارتها وتسهيل تقديم خدماتها الدينية، وفي نفس العام قامت الحكومة بتأميم الأوقاف، ثم أسست وزارة الشؤون الدينية التي كانت بمستوى مديرية عامة، وألغيت وزارة الأوقاف، وفي السنة نفسها ألغيت المدارس الدينية، وبعد فترة سُدت مدرسة "الأئمة والخطباء" التي كانت تخرج الأئمة والخطباء للمساجد، وكذلك كلية "العلوم الإسلامية" الوحيدة، وفي عام ١٩٢٨م حذفت مادة "دين الدولة الرسمي الإسلام"، وفي عام ١٩٣٣م تم تغيير الأذان فأصبح باللغة التركية، وفي عام ١٩٣٧م وضعت مادة "أن الدولة التركية دولة علمانية" في الدستور^(١).

أما المدارس الدينية التي كانت في العهد العثماني، فقد أغلقت بعد الإنقلاب الجمهوري، أو حُولت إلى مدارس لتعليم الإلحاد وترسيخ العلمانية الجاحدة، ولم يبق لطلاب الشريعة سوى الفرار إلى البوادي النائية، والمدن المنعزلة.

وبذلك فالجمهورية التركية الحديثة منذ أن تأسست في بداية القرن العشرين رفضت الميراث التاريخي للعثمانيين، وعملت على تضيق حيز النطاق الديني، وألغت مشيخة الإسلام التي كانت تضطلع بدور

(١) سعاد يلدرم: التجربة التركية في مجال الوسطية، المنتدى العالمي للوسطية، سلسلة الفكر الوسطي "٢١"، ص: ٧.

مهم في النظام الإداري منذ عهد السلطان الفاتح، وأنشأت بدلاً منها رئاسة الشؤون الدينية؛ حتى تحكم قبضتها على الحياة الدينية المدنية^(١). وهذا ما يوضحه الأستاذ مصطفى أوزجان فيقول: "عندما أسست الجمهورية التركية قامت على رد الميراث "القيم والجذور الدينية" وهذا خطير جداً بالنسبة للمسلمين، فقد رفضوا الميراث التاريخي كاملاً، وحاولوا إغلاق المساجد وإلغاء الملابس والعادات الإسلامية، لكنهم لم ينجحوا. وعملوا على إعادة بعث القومية التركية الطورانية من جديد، وأطلقوا على الشوارع أسماء بعض الأقاليم التركية القديمة". ثم يضيف: "في البدايات اختار النظام الجمهوري عدواً له الإمام سعيد النورسي، ثم أصبح الأستاذ كولن عدواً أساسياً للجمهورية بعد الثمانينات، أرادوا بذلك أن يصوروا للناس أن الإسلام هو العدو الأكبر والأخطر للنظام الجمهوري"^(٢). وهذا ما يؤكد المهندس ناجي طوسون، فيقول: "كنا في مرحلة معظم الناس فيها بعيدون عن الدين حتى إنك مثلاً إذا قلت لأحدهم في الجامعة "السلام عليكم" فإنه لا يعرف كيف يجيبك. كانت المسألة الأمنية في البدايات معقدة.. لا أحد يثق بأحد.. وصعب جداً أن تجد ثلاثة أشخاص يستطيعون أن يجلسوا معاً من غير أن يستشعروا

(١) علي بولاج: الدين في تركيا، والتغيرات الاجتماعية، وفتح الله كولن، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية" القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، ص: ٢٨٥.

(٢) في لقاء خاص مع الأستاذ مصطفى أوزجان (Mustafa Ozcan): في إسطنبول، تركيا، والأستاذ مصطفى هو: (رئيس مجلس إدارة جامعة الفاتح سابقاً) ولد في مدينة كوتاهيا بتاريخ ١٩٥١/٧/١م، تولى عدة مناصب داخل تركيا وخارجها.

الخوف. هناك جو من الخوف الأمني، لا يستطيع أحد أن يلتقي مع الآخر أو أن يطرح مسألة دينية على أحد.. لذلك كنا إذا أردنا أن نعقد جلسة لا بد من أحد يقف حارسًا يراقب الطريق أو الباب"^(١).

لم تبق هناك أي مؤسسة تقوم بتعليم الدين للشعب، أما العلماء القليلون الباقون الذين كانوا يعلمون الدين ويدرسونه فقد طُردوا وضيق عليهم الخناق، وأصبحت المساجد دون أئمة إلى درجة أن السيد "تحسين بانكو أوغلو" وزير التربية والتعليم لحزب الشعب الجمهوري الذي احتكر قيادة البلد وحكمه منذ تأسيس الجمهورية، اضطر عام ١٩٤٩م إلى فتح دورات إلى تخريج الأئمة والخطباء، وفتح كلية للعلوم الإسلامية بعد أن توالى الضغوط على الحكومة، وبعد أن توالى الشكاوى من الشعب من أنهم لا يجدون حتى إمامًا يؤدي صلاة الجنازة.

ومع أن تركيا -تحت تأثير عوامل مختلفة- انتقلت إلى نظام تعدد الأحزاب عام ١٩٤٦م. إلا أنها لم تصل إلى مرحلة "الديمقراطية" الكاملة، إذ بدأ عهد من الديمقراطية الموجهة، وقد ظهر المؤسسون الأربعة للحزب الديمقراطي، عدنان مندريس إلى جانب ثلاثة نواب آخرين -الذي كان الحزب المعارض الرئيس- من بين صفوف حزب الشعب الجمهوري الذي كان يحتكر قيادة البلد حتى عام ١٩٥٠م. ومع أن مبادئ وأفكار هذا الحزب لم تكن تختلف كثيرًا عن أفكار حزب الشعب الجمهوري إلا أنه كان أكثر ليبرالية منه، لذا يمكن اعتبار

(١) لقاء خاص مع المهندس ناجي طوسون: من تلاميذ الأستاذ الأوائل.. وهو ممن تربى على يد الأستاذ مباشرة (رئيس شركة قاينق "لوجيستك التربية والتعليم".

الحزب الديمقراطي حزباً تأليفيًا، ولكن السيد عدنان مندريس الذي تسلم منصب رئاسة الوزارة كان يحترم عقائد ومشاعر الشعب التركي، فقام بتخفيف الضغوط البيروقراطية في موضوع الدين... ولكن الذين لم يعجبهم المركز القومي الذي بدأت تركيا تشغله في منطقة الشرق الأوسط أنهوا حكم هذا الحزب بانقلاب عسكري سنة ١٩٦٠م، حيث تم في أعقابها إعدام رئيس الوزراء مع وزير الخارجية ووزير المالية^(١). وكانت إدارة الحزب الواحد التي استمرت ٢٧ سنة (١٩٢٣-١٩٥٠م) تمثل وقتًا عصيبًا بالنسبة للحياة الدينية، ولكن بانضمام تركيا إلى حلف شمال الأطلسي سنة ١٩٥٠م انتقلت إلى الحياة الديمقراطية الحزبية، وفي هذا النطاق وصل الحزب الديمقراطي إلى السلطة، فأثرت هذه الأمور تأثيرًا عميقًا في العلاقة بين الدين والدولة، ولقد طالب حلف شمال الأطلسي تركيا بالقيام بأمرين اثنين عند انضمامها له، أولهما: القضاء على إدارة الحزب الواحد، والانتقال إلى الحياة الحزبية التعددية. وثانيهما: رفع الضغوط عن التعليم الديني، فأخذ الأذان الذي ظل يرفع خمس عشرة سنة تقريبًا باللغة التركية يرفع باللغة العربية لأول مرة، وفتحت مدارس الأئمة والخطباء، ويعد هذا من العلامات المميزة في هذا التغير الجذري^(٢). ولكن الهوية الإسلامية للشعب الذي تقوقع على نفسه بقيت مثل جمره نار متقدة تحت الرماد، وقد أدت كل هذه الضغوط إلى قيام الشعب بالبحث عن طرق لأداء الخدمات الدينية تحت هذه

(١) سعاد بلدرم: التجربة التركية في مجال الوسطية، ص: ٧-١٠.

(٢) علي بولاج: الدين في تركيا، والتغيرات الاجتماعية، وفتح الله كولن، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، ص ٢٨٥.

الشروط القاسية، ففي هذه الأعوام التي تم فيها إسكات الجميع ظهر الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي الذي تم نفيه من محافظة "وان" في شرقي البلاد إلى قرية "بارالا" الواقعة غربي الأناضول، فقام في ظروف قاسية وفي ظل إمكانيات قليلة جداً ومتواضعة بتأليف ونشر الكتب والرسائل التي تقوم بتثبيت وتقوية الإيمان في نفوس الشعب والمجتمع، ولما كان من المستحيل القيام بطبع هذه الكتب في المطابع، لم يكن هناك سبيل إلا القيام بشيء لا يخالف القانون وهو استنساخ هذه الرسائل يدوياً وتكثيرها وتوزيعها، ولكن الحكومة تدخلت سنة ١٩٣٥م، وأوقفت هذا النشاط ومنعته، وسبق الشيخ بديع الزمان والعديد من طلابه إلى سجن "أسكي شهير" وقدموا إلى المحكمة التي أصدرت قرارها بتبرئتهم، ولكن الحكومة قامت هذه المرة بنفي الشيخ النورسي إلى مدينة "قسطموني" في شمالي البلاد، واستمر الشيخ النورسي بنشاطه فلم تتأخر الحكومة في سجنه مع جمع كبير من طلابه في سجن مدينة "دنيزلي".

وبعد عقد عدة جلسات أصدرت المحكمة قرارها بالتبرئة ولكن الحكومة فرضت عليه هذه المرة الإقامة الجبرية في مدينة "أميرداغ" الواقعة غربي تركيا، وفي سنة ١٩٤٩م وضع أيضاً مع العديد من طلابه الموجودين في جميع أنحاء البلاد في سجن مدينة "أفيون"، وبعد أن بقي في هذا السجن مدة عامين كاملين وفي ظروف صعبة وقاسية صدر القرار ببراءته، وقد ادعى المدعي العام لهذه المحكمة بأن عدد نسخ كتب النورسي بلغ ٥٠٠ ألف نسخة، ومن الواضح تمامًا كيف أن مثل هذا العدد الكبير يمثل نجاحًا كبيرًا جدًا ولاسيما

في الظروف التي كانت موجودة قبل ستين سنة، والإقبال الشعبي الكبير لكتب النورسي يُظهر مدى ظمأ الشعب التركي للإسلام ومدى صبره وقوة ردود فعله لمحاولات إبعاده عنه.

ومثل هذه المقاومة الصابرة أجبرت حكومة حزب الشعب الجمهوري إلى القيام -في أيام حكمه الأخيرة- بوضع مادة الدين للتدريس في المدارس في العام الدراسي ١٩٤٨-١٩٤٩م، وبعد أن هُزم حزب الشعب الجمهوري في انتخابات عام ١٩٥٠م وحل محله الحزب الديمقراطي الذي أتاح نسبة معينة من الحرية الدينية، وجدت دعوة الأستاذ النورسي -مع غيره من الدعاة- مجالاً واسعاً للانتشار^(١).

الجماعات الإسلامية في تركيا

مع أن التجربة الإسلامية في تركيا صاحبة ماضٍ طويل وجذور تاريخية عميقة؛ فإن ظهور الحركات الإسلامية المعاصرة مرتبط بتاريخ التحديث التركي عن قرب. حيث كان الدين يحظى بمكانة مرموقة في المشروع السياسية والاجتماعية في العهد العثماني، في حين أصبح الدين والقيم الدينية المصدر الوحيد لكثير من السلبيات والتخلف في العهد الجمهوري. هذا التحول رآه المتدينون كفقد للذاكرة وجرح ثقافي بكل معنى الكلمة. لقد تأسس النظام الجديد على فلسفة "رفض الموروث" تماماً في مجال التاريخ والدين. وتمسكت النخبة السياسية التركية -إن لم يكن في البداية ف فيما بعد- بنموذج اجتماعي حاسم وكما لي ووضعي. وكانت مرتبطة بنموذج مرجعهم الفكري والسياسي والفلسفي الفرنسي للجاكوبين "اليعاقبة". وهذه الرؤية لم تكن تقبل

(١) سعاد يلدرم: التجربة التركية في مجال الوسطية، ص: ٨-٩.

أي ظهور اجتماعي للدين. من المؤكد أنها لم تكن في الظاهر لا دينية. لكن رؤيتها للدين لم تكن هي نفس رؤيتها للموروث الإسلامي الذي شكل رؤية الشعب للعالم ووجهات نظرهم السياسية والاجتماعية والثقافية على مر القرون. لقد كانت رؤية دينية وضعية تبعد الدين عن الحياة الاجتماعية والسياسية تمامًا وتحبسه في المساجد والضمائر أينما كان. وبسبب هذه الرؤى فإن النخب الكمالية اعتبرت أن كل كيان إسلامي مستقل عن الدولة تهديد لهم ولأيديولوجية الدولة. ولهذا السبب اعتُبرت الحركات الإسلامية التي وجدت في تركيا، وإن ظهرت في الحقيقة في ملابسات تاريخية وسياسية مختلفة، ممثلة للمعارضة المدنية والاجتماعية لسنوات طويلة. في هذه الفترة وحتى وقت قريب قدمت الحركات والجماعات الإسلامية نموذجًا لتنظيم سري بدرجة ما في أرضية اجتماعية. وأبدعت نسيجًا إسلاميًا لينًا يعطي أولوية للتبليغ والدعوة ويجتهد لتوجيه رسالة للإدارة الموجودة من خلال نموذج لمجتمع مؤمن وأخلاقي وفاضل^(١).

ومن هنا فقد كانت الجماعات الإسلامية في تركيا على عدة أقسام منها:

١. جماعات سياسية: أهم ما تمتاز به أن لها سياسة ومذهبًا ورسالة.
٢. جماعات تركز على النشاط الاقتصادي: أهم ما تتسم به هي أنها منظمة، وسلمية، وتتصرف بمنطقية.

(١) محمد أنس أركنه: نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ / أكتوبر ٢٠٠٩م، القاهرة، دار النيل، ط ١، ٢٠١١م، ص: ٢٩٥-٢٩٦.

٣. جماعات تتمحور حول القائد، وقد بنيت ثقافتها على فكر المنقذ.
 ٤. هناك نموذج آخر للجماعات في تركيا وهو الطائفة التي يمكن أن نطلق عليها "جماعة ذات نطاق محدد". أهم ما يمتاز به تلك الطائفة أنها منظوية على ذاتها، وليس لها فكر أو رأي، لا تهتم بالحدثة ولا بغيرها في حياتها اليومية، لا تتدخل في السياسة كلية، ولا تعبأ بما يقال أو يكتب عنها.

٥. أما النموذج المعاصر والمتميز للجماعات فيمكن أن نعتبره نموذج جماعة الإمام محمد فتح الله كولن، وهي جماعة تعتمد في مرجعيتها على الفكر والقائد معاً. أهم ما تتسم به هذه الحركة أنها اجتماعية، وطنية، منظمة، لديها استعداد للانفتاح على العالم. ليست طريقة صوفية، فغالبًا ما يتم الخلط بين الجماعة والطريقة، وقائد الجماعة كذلك ليس بشيخ.

لذلك نرى أن ما قام به الإمام فتح الله كولن من تشكيل جماعة فتيّة تضم بين جوانحها عددًا كبيرًا من التجار والصناع وأرباب الحرف لهو أعظم ميراث ورثه من التاريخ. تستمد الجماعة إطارها الشرعي من أصول الفقه المستقاة من الإسلام السني والتي يقرها علماء الإسلام. وترغب في التناغم والتوافق مع المدنية، والاشتراك في الحياة الحديثة، وتسعى إلى أن تتبوأ مكانتها بين الناس وتؤثر فيهم^(١).



(١) علي بولاج: الدين في تركيا، والتغيرات الاجتماعية، وفتح الله كولن، ص: ٢٩٠.

الفصل الأول النشأة والتكوين

- ◆ من هو "محمد فتح الله كولن"
- ◆ شخصيات وأحداث أثرت في تكوين فكره
- ◆ مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن



النشأة والتكوين

أولاً: من هو محمد فتح الله كولن؟

١- الولادة^(١)

(١) من المفيد تسجيل ما يلي حول تاريخ ميلاد الأستاذ فتح الله كولن نظرًا للورود تواريخ مختلفة في بعض المصادر قد تُوقع القارئ في حالة من اللبس، ولعل هذا التوضيح يزيل اللبس الموجود حول هذا الموضوع. لقد ولد الأستاذ محمد فتح الله كولن يوم ١١ من شهر نوفمبر ١٩٣٨، فذهب والده رامز أفندي إلى إدارة تسجيل المواليد ليسجله، وكان ذلك في عهد حكم الحزب الواحد حيث سيادة الفكر السلطوي العلماني مستحكمة. وما أن سمع الموظف باسم "محمد فتح الله" حتى ثار محتدًا وقال "ممنوع تسجيل هذا الاسم". فغضب والده وعاد إلى قريته خاوي اليدين. بعد عامين ونصف ولد لرامز أفندي مولود آخر أحب أن يسميه "صبغة الله"، فلم يذهب إلى إدارة التسجيل إلا بعد عام ونصف، أي بعد ولادة فتح الله بأربعة أعوام، ولكن هذه المرة استعان بضابط مخفر القرية الذي كان يحترم رامز أفندي ويحبه. فذهبا معًا إلى مصلحة التسجيل، وعندما اعترض الموظف مرة أخرى، صرخ الضابط في وجهه وطلب منه أن يسجل الاسم وفق طلب الوالد، ثم غادر المصلحة. ولكن الموظف أبى إلا أن يسجلهما كما يحلو له، حيث سجل "صبغة الله" بـ"سيف الله".. وسجل "محمد فتح الله" بـ"فُتُ الله" (بحذف الحاء وحذف محمد)؛ كما سجل تاريخ ولادتهما في نفس العام، أي ١٩٤٢. فكان تاريخ ميلاد فتح الله ٢٧ أبريل ١٩٤٢ في السجلات الرسمية، بدلاً من ١١ نوفمبر ١٩٣٨. وفي عام ١٩٥٩م، قدم الأستاذ فتح الله طلبًا في مدينة أدرنة ليتم توظيفه إمامًا في أحد المساجد، فبدأ أن عمره لم يتجاوز ١٧ سنة حسب التسجيل الرسمي ومن ثم يتعذر عليه أن يتولى وظيفة رسمية، حيث يجب أن يكون عمره ١٨ سنة، فراجع المحكمة، فتم تكبير عمره سنة واحدة، وتم تغيير تاريخ الميلاد إلى ٢٧ أبريل ١٩٤١، وذلك هو المسجل رسميًا في بطاقة هوية الأستاذ فتح الله كولن اليوم. "فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص ٢٥ (الحاشية)".

ولد "محمد فتح الله كولن" في ١٧ رمضان سنة ١٣٥٧هـ - ١١/ تشرين الثاني/ ١٩٣٨م في قرية "كوروجك" التابعة لمدينة "حسن قلعة" في محافظة أرضروم، و"كوروجك" قرية صغيرة يستمر موسم الشتاء فيها تسعة أشهر في السنة، وأغلبية عائلاتنا وفدت إليها من مدينة "أخلاط" التاريخية، التابعة لمحافظة "بتليس" الواقعة في أحضان الجبال العالية في شمال شرقي الأناضول^(١). وقد زُرت هذه القرية الوادعة النابتة في شرق الأناضول ووقفت على مشاهدنا وأحوالنا وقلت للناس: يا لله! ما أعظم فضل الله وكرمه!.. من هذه القرية الصغيرة المجهولة في عمر الزمان يخرج هذا النور ليضيء الزمان والمكان.

٢- مدينة أرضروم

ومدينة أرضروم تقع في الشمال الشرقي من تركيا، وهي مدينة محافظة لدرجة كبيرة من الناحية الاجتماعية والثقافية. وقد حملت عصورًا طويلة القيم الدينية والمليّة وحمّتها. تشتهر أرضروم بكثرة العلماء. وأهلها -شأنهم شأن أغلب الأناضوليين- معروفون بتمسكهم بتعاليم الإسلام، والمداومة على أداء فروضه، والمحافظة على شعائره، والحب الشديد لرسول الله ﷺ ولصحابته الكرام، وتوقير العلماء والأولياء والدعاة إلى الله. واشتهرت قرية "كوروجك" وهي مسقط رأس فتح الله كولن

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، القاهرة، دار النيل، ط١٢٠١١م. ص: ٢٢٠.

بالتدين، فهي تنتمي إلى أكثر محافظات الأناضول تديناً، وخاصة أنها تشرفت بالانتماء إلى الإسلام منذ عصر الراشدين، حيث اعتنق أهلها الإسلام في زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكم كانت دهشتي وفرحتي عظيمتين عندما وصلت إلى أرضروم. كان ذلك في شهر أبريل ٢٠١٥ وكان إلى جانبي على مقعد الطائرة التي أقلتنا من إسطنبول الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على مجلة حراء، وقبل الوصول بأكثر من نصف ساعة رأينا من الأعلى ذلك المشهد الرهيب وتلك الجبال الشاهقة المترامية الأطراف في كل الاتجاهات وقد كستها الثلوج تماماً وكأنك وصلت إلى قارة أخرى أو إلى عالم آخر.

نزلنا من الطائرة إلى مناخ ربما هو أدنى درجة من الصفر، ولكن المفاجأة كانت في حرارة الاستقبال ودفء القلوب التي أحاطنا بها فرسان الخدمة هناك، كما عودونا عليها دائماً في كل مكان. تجولنا في أرضروم في مدارسها ومؤسساتها المدنية والخيرية والصحية.

وفي اليوم التالي توجهنا إلى قرية كوروجك، كانت الأشواق تسابقني، فلطالما حنَّ قلبي إلى هذا اليوم، ولطالما كنت أحلم بهذه اللحظات... أن أصل إلى مكان وُلد فيه هذا الجبل الأشم. تحركت السيارة من أرضروم إلى القرية الموعودة، كنت قد رسمت في مخيلتي عشرات الصور لهذه القرية، ولكنها لم تشبه أيَّ واحدة منها.. وقفت وقد تملكتني الدهشة وأسرتني الحيرة ببساطة هذه القرية وتواضعها. كل شيء فيها طبيعي.. لا تختلف كثيراً عن غيرها من القرى التي لم يعرفها أحد ولم يسمع بها أحد.

فقلت، سبحانك ربي لا إله إلا أنت، كيف كنا سنعرف هذه القرية أو نسمع بها لولا فضلك وكرمك أن أخرجت منها هذا العطاء وهذا الضياء.

وقلت لأهل أرضروم: يا أيها الكرام.. كوروجك قرية في آخر الأرض لا يعرفها إلا من وصل إليها، ولكن خرج منها نور ملاً أركان الأرض.

ذُكرتني كوروجك بقرية زُرْتُها مرة قبل سنين، هي أيضاً قرية لا يعرفها إلا المقربون ولكنها أيضاً خرج منها نور وصل إلى أركان الدنيا الأربع.. إنها قرية نوى مسقط رأس الإمام النووي رحمه الله تعالى. وهنا تجدد يقيني بأن الله تعالى يُحبي الزمان والمكان بأشخاص، ويرفع قدر من لا قدر له، ويُعلي شأن من لا شأن له برجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

٣- النسب

اسمه إلى جده الرابع هو: محمد فتح الله، بن رامز أفندي، بن شامل بن الملا أحمد، ابن خورشيد بن خليل آغا، الأناضولي موطناً، التركي جنسية، السني، الحنفي مذهباً.

الجدور الأولى لعائلته ترجع إلى تلك المدينة -أخلاق- التي كانت ولا تزال ذات نسيج سكاني شديد التنوع؛ فهي مزيج من أقوام شتى وفدت إليها منذ أزمان موعلة في القدم. سكنها علماء وأولياء، وقادة عسكريون، وهاربون من الأخطار والمظالم، وسادة أشرف من ذراري آل الرسول ﷺ؛ فكل هؤلاء وجدوا في "أخلاق" المدينة المنية ملاذاً آمناً يلجأون إليه، ويستقرون فيه. ولكن خليل

آغا، الجد الأكبر لفتح الله كولن، هجر أخلاط واستقر هو وأسرته في قرية "كوروجك" بأرضروم.

كان لخورشيد بن خليل آغا ولدان من الذكور، أحدهما "سليمان أفندي" وكان تاجرًا ناجحًا، والآخر الملا أحمد، وهو جد "محمد فتح الله". وقد عُرف الملا أحمد بين الناس بالاستقامة والزهد والاقتصاد في تدبير شئون حياته وحياته أسرته... ومن أبناء الملا أحمد؛ "شامل أفندي" وهو الجد المباشر للشيخ محمد فتح الله... الذي سلك مسالك الورع والتمسك بتعاليم الدين، كما سلك السلوك المحافظ الذي اعتاده أغلب مسلمي الأناضول على مر الزمن... أنجب سبعة أبناء؛ ستة ذكور أحدهم رامز والد الشيخ فتح الله، وبتًا واحدة^(١).

٤- لقبه العائلي

لقبه العائلي "كولن" ومعناها بالعربية "البسام"، ولكن محمد فتح الله كولن "البسام" لا يكاد يبتسم إلا نادرًا، وجل أحاديثه وخطبه ومواعظه مبللة بالدموع، عيناه اللتان أجهدهما طول السهر والبكاء تمتلآن بكثير من العطف والإشفاق على ما آلت إليه أحوال الإنسان التركي، وإنسان الأمة الإسلامية، وإنسان العصر الحديث عامة. وقد استخدم الشيخ فتح الله المعنى العربي للقبه "كولن" وهو "الضحاك" كاسم مستعار نشر به مقالاته أثناء اختفائه من سنة ١٩٨٠م إلى سنة ١٩٨٥م؛ حيث كان مطلوبًا للمحاكمة بعد انقلاب الجيش بقيادة "كنعان إفرين" سنة

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي.

١٩٨٠م. ويلقبه أنصاره بلقب ثنائي هو "خوجة أفندي"^(١). ويتحدث فريد الأنصاري في روايته عودة الفرسان "سيرة محمد فتح الله كولن" عن رمزية اسم "البطل" فتراها تحمل في دلالتها معاني البشرية التي أناط القدر بالداعية الإمام مهمة زرع فسائلها وملء الحقول من حوالبه بها.

"فَتَحَّ اللهُ سِيرَةَ بَكَاءِ! لِقَبِّهِ الْأَسْرِيِّ: "كُولُنْ"، ومعناه "الضحك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضاً! فهو بَكَاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهو الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحداً أجرى دمعاً منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعاً تفجرت أنهارها من بين جفنيه! لقد أخطأ من ظنه يبكي ضعفاً أو خَوْراً، وإنما هو جبلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض، فبكى.. الوعظ سرٌّ من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه فتبكي لبكائه كل الدنيا".

٥- العائلة ومكانتها

وُلد محمد فتح الله كولن في عائلةٍ محافظةٍ لها سبعة أولاد، خمسة منهم ذكور هو أكبرهم، وبتان إحداهما أكبر منه سنًا، هذه الأسرة المعروفة بالتمدين والصلاح، وفي حديث الأستاذ عن نشأته يذكر جده شامل آغا وجده الأكبر الملا أحمد بن خورشيد آغا بن خليل أفندي "والد شامل آغا" فيقول: "الملا أحمد كان إنساناً غير عادي، ما يميزه عن غيره من الناس معرفته وشفقته. وخلال الثلاثين سنة الأخيرة من

(١) إبراهيم البيومي الغانم: المرجع السابق، ص: ٢١٩.

عمره لم يمدّ ساقيه على سرير أبداً حين ينام وذلك احتراماً وهيبة لله ﷺ... أما جدي "شامل آغا" فقد كان يشبه أباه في بعض النواحي، وكان هو أيضاً على ما يبدو إنساناً من عالم آخر. لقد كانت جدّيته وتديّنه قد أثرا في أهل القرية^(١).

عاش "محمد فتح الله" طفولته وصباه في كنف جده "شامل" وجدته "مؤنسة"، وعندما توفيا معاً في يوم واحد سنة ١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م، كان هو قد بلغ سن السادسة عشرة. وإذا كان الطبع -في جانب منه على الأقل- يؤخذ بالمخالطة، فيبدو أنه أخذ من جده شامل طبع الجدّية، والوقار. وأخذ من جدته رقة القلب، ورهافة الحس، وغزارة البكاء من خشية الله.

ويتحدث محمد فتح الله كولن عن تأثره بجدته مؤنسة هانم وعن حبها له، التي كانت كثيرة التفكير والبكاء، وتحترم المشايخ والعلماء الكبار، وتهتم به اهتماماً خاصاً، فقد بكى حين وصله خبر وفاة جده شامل، وجدته مؤنسة في ليلة واحدة، وشعر بغربة شديدة بعد مفارقتهما الحياة. ويقول: "إن جدي شامل كان كل حياتي، أما جدتي "مؤنسة هانم" فما كنتُ أتخيل أنني أستطيع مواصلة حياتي من دونها، وإذا بي أفقدتهما معاً في يوم واحد، فكيف أقوى على تحمل حزني وأساي على فراقهما؟ حتى تضرعت إلى الله "إلهي توفني وألحقني بهما"^(٢).

(١) Ali Unal and Alphonse Williams: Advocate of Dialogue, Published by The Fountain, USA, 2000, p: 9.

(٢) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي، ص: ٢٢٢-٢٢٣.

تلقي محمد فتح الله كولن دروسه الأولى في حفظ القرآن الكريم وهو في الرابعة من عمره على يد والدته "رفيعة هانم" التي عرفت بأخلاقها الحسنة، وإيمانها العميق بالله، وعمل الخير، ومساعدة نساء قريتها وأطفالهن في حفظ القرآن الكريم، ويذكر ذلك عن والدته، فيقول: "إنها كانت مثلاً للحنان، وقد علمتني القرآن، كما علمت جميع نساء القرية"^(١). وكان بيت والده -الذي عمل إماماً حكومياً في جوامع مدنٍ عديدة- محطّ رحال العلماء والصالحين المعروفين في أرضروم، ما أتاح له مجالسة الكبار والاستماع إلى أحاديثهم، ففتح وعيه واتسعت مداركه، وتعمقت معارفه^(٢)، وحفظ القرآن الكريم وتعلم العربية والفارسية على يد والده "رامز أفندي" في سن مبكر^(٣).

تكشف سيرة أسرته -والده ووالدته- وكذلك سيرة عائلته الممتدة إلى جده الأعلى السيد خليل، عن أن خصال الطيبة، والتدين، وحسن السيرة بين الناس، هي القيم التي شكلت المشترك العائلي لمحضنه الاجتماعي الأول الذي نشأ فيه، وتأثر به في مراحل الطفولة والصبأ ومطالع مرحلة الشباب. وينسجم هذا "المشترك العائلي" بنزعه للتدين والمحافظة مع "المشترك الأناضولي" الذي يتسم هو الآخر بذات النزعة التي تشمل الغالبية العظمى من مسلمي هضبة الأناضول منذ شرع أهلها يعتنقون الإسلام عندما فتحها المسلمون سنة ٣٣هـ/٦٥٣م في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وكان الأناضول ولا يزال موطناً رحيباً

(١) Ali Unal and Alphonse Williams: Advocate of Dialogue, p: 9.

(٢) ملحق مجلة حراء، العدد ١٨، كانون الثاني - آذار ٢٠١٠م، ص: ١٢.

(٣) نوزاد صواش: فتح الله كولن إسلام بطعم الحكمة، مقال منشور على:

لكثيرين من العلماء والأولياء ومشايخ الطرق الصوفية الكبار. أسرة محمد فتح الله كولن ذات جاه اجتماعي تستمد من تدينها، وحبها للعلم، وتمسكها بالقيم ومكارم الأخلاق الحميدة. وهذه القيم هي أهم ما ورثه محمد فتح الله من عائلته الممتدة؛ إذ لم يرث ممتلكات تذكر من الأراضي الزراعية، أو العقارات المبنية، أو الودائع المصرفية... ولأسرته وعائلته مكانة أعلى بكثير من وضعها الطبقي الاقتصادي. وهو نفسه له مكانة أعلى بكثير من وضعه الاقتصادي؛ حيث لا تُعرف له أملاك خاصة به، ولم يشغل مناصب رفيعة في الدولة... وإنما أساس المكانة العالية له هو ما توافر له من الجاه المركب من العلم، ومكارم الأخلاق، وكثرة الأنصار والمحبين، وذيوخ الصيت والسيرة الحسنة^(١).

٦- النشأة الأولى

قضى طفولته في هذه البيئة المحافظة على القيم المعنوية وفي جو تقليدي من أجواء التكية والمدارس الدينية. ولكن كان يحمل بين جوانحه عشقاً خاصاً للعلم ورغبةً كبيرةً للمعرفة والفهم. لذا توجه -وهو في هذه المرحلة المبكرة من عمره- بعقله واهتماماته إلى النشاطات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تُمارس في العالم الخارجي. وبتعبيره هو فقد كثف اهتماماته من حين لآخر في السنوات الأولى من وجوده في المدرسة الدينية على المشكلات الاجتماعية. وكلما كبر هذا الدماغ الصغير ونضج شيئاً فشيئاً، بدأ بالتعرف على دنيا

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي،

الفن والأدب والسينما والمسرح والحركات الفكرية الموجودة في بيئته. أنهى دراسته بالمدارس التقليدية العتيقة في وقت قصير، ولكنه لم يجد فرصة للتعلم في المدارس الرسمية، ولم تكن جميع مؤسسات الجمهورية قد ترسخت بعد. وكان البلد يشهد منذ عهد التنظيمات وحتى تلك السنوات مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية بعضها قديمة والأخرى في طور الولادة^(١).

ولم تكن آنذاك مدارس ولا معاهد -بالمعنى الحقيقي- للعلوم الدينية واللغوية في منطقة أروم ونواحيها. فمن ناحية قضى الانقلاب العلماني على كل أشكال التعليم الديني في بلاد الأناضول كلها، ومن ناحية أخرى بدأ جيل العلماء ينقرض شيئاً فشيئاً. ولم يكن قد أتيح للخلف أن يكون في نفس المستوى إلا نادراً. فما كان من ملقني العلوم الشرعية آنئذ إلا بعض أئمة المساجد، المتناثرين هنا وهناك، بين القرى والبوادي، لا يحمل أغلبهم من العلم إلا بضاعة مزجاة. وذلك كله بالإضافة إلى عوامل أخرى، جعلت الفتى فتح الله لا يكاد يستقر عند شيخ من الشيوخ، إلا شهراً أو شهرين، ثم يحمل عصا ترحاله من جديد بحثاً عن شيخ جديد. ولقد وجد في ذلك من مرارة البحث المستحيل. ومعاناة السفر من هنا إلى هناك، بلا مِرْوَدَةٍ ولا زاد؛ ما جعله يروي غليله بنفسه بمطالعه الكتب الدينية واللغوية بشتى أنواعها، دراسةً واستظهاراً حتى نبغ وفاق كثيراً من شيوخ زمانه ولم

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، دار النيل،

تزل زهرة عُوده يومها تبرعم ما بين الطفولة والشباب^(١). وقد انتبه الذهن اليافع والحساس للإمام محمد فتح الله كولن في السنوات المبكرة من عمره إلى المسائل والنزاعات السياسية والحزبية والأزمات الاقتصادية المتعاقبة والفقر السائد والمشاكل الاجتماعية العديدة. بدأ وهو شاب يافع بالتفكير الجدي في علاج وحلول لما أنتجه انحطاط عصرين كاملين. فتناول -من جديد- هذه المشكلات الثقافية المزمنة القديمة في ضوء القيم الثقافية الحديثة، وحاول القيام بتنشيط وهزّ الحركات الفكرية التي كانت في نوم عميق منذ عصرين، ووضعها أمام المسلمين كمشاكل عاجلة تتطلب الحل، وذلك بعد فرز المسائل الحيوية من بين هذه المشكلات المعقدة والمتشابكة. وكان يرى أنه لا بد من نفسٍ جديد ورغبةٍ جديدة في حل المشكلات المعقدة.

غير أنه كانت هناك صعوبة معينة؛ فكان هناك منذ عصرين خيطان اثنان حول أسباب الانحطاط والحلول المقدمة لها في ظل المدينة المعاصرة، وحول كيفية الاشتراك في هذه المدينة، أحدهما من قبل الأوساط الدينية والآخر من قبل الأوساط المثقفة بالثقافة الغربية. كان الخط الأول محافظاً جداً، بينما أنكر الخط الثاني تاريخ الأمة وتقاليدها وقيمها الاجتماعية، محاولاً الدخول إلى العالم المتمدن دون هوية ودون شخصية.

وبينما كان الخط الأول يبحث عن ديناميكية وآلية التقدم في

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان "سيرة محمد فتح الله كولن"، دار النيل، القاهرة، ط ٢،

التراث في الخط المحافظ الذي حظي بالقبول في سيره الاجتماعي والتاريخي، كان الخط الثاني يرى أن الحل يكمن في القيم المادية والثقافية، وفي الحياة التي جاءت به الحضارة الغربية. وطبعاً كان هناك من اقترح طريقاً ثالثاً ورابعاً، ومن اقترح مزج الخطين الأول والثاني. وهكذا فقد نشأ الأستاذ محمد فتح الله كولن في بيئة محافظة جداً، فكان من الطبيعي أن يسير في الخط المحافظ التقليدي، لأن أي فكر جديد أو تفسير جديد كان يعد خارج نطاق المقبول آنذاك. وفعلاً نرى أن محاولاته الأولى قوبلت بردود فعل من هذا القبيل. ومع أن فتح الله كولن إنسان محافظ جداً مرتبط بقوة بالقيم التقليدية إلا أن هذه القيم الثقافية التقليدية لم تكن مانعة له من التفاعل مع المدينة الغربية المعاصرة. لذا نرى أن مبادرته ومساهمته كانت من الناحية الفكرية والنظرية ومن الناحية العملية محتوية على تفاسير جديدة للفكر المحافظ وللفكر الحديث. ونرى أنه -سواء في نشاطاته الدينية والاجتماعية الأولى أم في ساحة التعليم فيما بعد- كان يحاول إظهار عدم وجود تناقض أو صراع بين القيم الثقافية الدينية والحقائق العلمية، بل وجود تلاؤم كبير بينهما، وأنهما يستطيعان تقديم خدماتهما إلى الإنسانية.

لم يحاول الأستاذ محمد فتح الله كولن إخفاء هويته الدينية أبداً، لأنه حقق ذاته ضمن تجربة دينية وروحية عميقة، ورأى حكمة وجوده في هذه التجربة، فهو لا يوافق على صحة عزل هوية أي إنسان وتجربته الدينية والروحية عن كيانه الاجتماعي، لذا فهو يملك نظرة متكاملة عالمية عامة، ويؤكد على الدوام أن الإنسان المتدين الحقيقي

سيكون ذا فائدة كبيرة للمجتمع والدولة وعملاً في رقيهما.
 وبينما نرى أن المفكرين المعاصرين يركزون اهتماماتهم على مسائل معينة كالدولة والمدنية والاقتصاد نرى أن فتح الله كولن يتجه إلى الإنسان الموجود في أسس هذه الاهتمامات، وهو يرى أن أهم مشكلة في المدنية المعاصرة هي مشكلة تعليم الإنسان وإعداده وتربيته، فإذا أصبح الإنسان إنساناً فاضلاً أصبحت الدولة فاضلة، وكذلك "المدينة" والاقتصاد.

ثم إن فتح الله كولن لم يتناول الإنسان كموضوع للنقاش على المستوى الثقافي، بل حوّل هذا إلى مشروع جدي في الحياة العملية. من جهة أخرى فإن تصرف أي شخص محافظ أمام المسائل الجديدة يكون عادة في الاستمرار في السير على الخط المحافظ لأنه يراه أكثر أماناً. والأفكار الجديدة والنظرات الجديدة لم تكن تكتسب شرعية إلا بمقياس عدم تعارضها مع القيم التقليدية ومع الأقوال التي ترسخت وتشكلت ضمن مراحل التاريخ الطويلة، لأنه كان يُخشى أن تختلط بها الآراء والتجارب الشخصية. ولكن الأستاذ فتح الله كولن حاول تجربة تقديم خط جديد في هذا الصدد، فهو من جهة متمسك بشعور الثقة التي تهبها قيم التقاليد، ومتمسك من جهة أخرى بالقيم الاجتماعية الجديدة.. كانت هذه محاولة كبيرة في عملية التركيب الفكري.

ووجد الأستاذ فتح الله كولن نفسه في المحيط الذي نشأ فيه بين قيم حضارتين؛ بين قيم المدرسة الدينية، والثقافة الإسلامية، وبين قيم الثقافة الغربية المعاصرة والحضارة الأوربية. إن ثلاثة أجيال قبله

عاشت في حُمى البحث عن هويتها بين هاتين الثقافتين والحضارتين. ولم يكن هذا البحث عن الهوية -على الأقل بين هاتين الحضارتين- قاصراً على التجربة التركية. فقد عاشت جميع البلدان وكافة الثقافات التي كانت خارج نطاق الحضارة الغربية، عهد بحثٍ ونقاشٍ حول طبيعة هويتها.

كان فتح الله يستطيع أن يرصد عن قرب التغيير الثقافي الذي يعيشه العصر، فكونه رجلاً محافظاً لم يجعله يكتفي فقط برصد التطورات والتغيرات الاجتماعية ويتركها لتيار الزمن. ولم يكتف -كرجل محافظ- بمشاعر عاطفية، والتحسر على التغيرات الاجتماعية والأخلاقية التي تجري أمام ناظره، بل استعمل مخزونه الشخصي وتجاربه أمام هذه التغيرات ونسج علاقات فعالة معها، وفضل الاستعانة بالقيم التقليدية التي تملك ماضياً عريقاً وطويلاً، والمساهمة بها بشكلٍ واعٍ في التغيرات الاجتماعية اليومية، أي وسَّع إقامة أهدافه ومثله الأخلاقية والشخصية والثقافية^(١).

لقد كان فتح الله كولن يرعى غنمه في حمى قريته البرية وكان يتأبط كتابه ويحتضن سره ويقول: "صحبة الأغنام في مسارح الخلوات، هي أول مدارج الأنبياء إلى مقام الوصل العالي، وهي طريق الأبدال إلى تلقي الأحوال. وعرفت طريقي فاتبعت آثار الأغنام، فتلك مواقد النور اللاهب تشتعل عند مراعيها"^(٢).

دخل الأستاذ فتح الله كولن محيط هذه الأفكار وهو في الخامسة

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية"، ص: ٣٣.

(٢) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ٦٤-٦٥.

عشر من عمره، فقد كان شاباً يافعاً نضج مبكراً. والحقيقة أنه لم يعش طفولته وشبابه، فبيئته المحافظة والمدرسة الدينية التي درس فيها جعلته شاباً ناضجاً في وقت مبكر، إذ كان يحمل في قلبه تجربة روحية ومعنوية عميقة، وفي عقله نشاطات وحماسة كبيرة، وأملاً عظيماً في الإصلاح والتنوير.

ثانياً: شخصيات وأحداث أثرت في تكوين فكره

يمتاز الإمام محمد فتح الله كولن بسعة الاطلاع وثراء الفكر وقوة الحجة، وذلك لاطلاعه على معارف متنوعة في مجالات متعددة، فتنوع المصادر وتعدد الشيوخ وكثرتهم يجعلون المتعلم أكثر عمقاً وانفتاحاً ويسهمون في تشكيل ثقافة واسعة، فهو ينهل من تجارب متعددة بظروف مختلفة فيستفيد من الجوانب المضيئة في هذه التجربة ويسعى بالابتعاد عن عثرات السابقين، فتشكل لديه رؤية واضحة يستطيع من خلالها تشكيل رؤية خاصة للحياة والكون والإنسان.

إن أكثر ما يصقل شخصية الفرد الداعية بشكل خاص ويشكل الثراء الفكري والمعرفي هو الاطلاع على حياة الدعاة والعلماء والمصلحين والمجددين، وكذلك كثرة الأسفار، والانفتاح ومعرفة عادات الشعوب وتقاليدها وأديانها.

١- بيت العلم الذي نشأ فيه

فقد احتضنته أسرة كبيرة محافظة، حيث كان والده "رامز أفندي" خير عون لابنه في طلب العلم، فقد كابد معه حفظ القرآن الكريم، وتلقى على يديه أول الدروس في اللغة العربية، وقراءة بعض الكتب،

وكان للمطالعة برنامج يومي حين يعود من عمله، حتى في طريقه للعمل ذهابًا وإيابًا يستظهر محفوظاته، ويردد الأشعار والمواعظ التي كان يلقيها في المسجد، وبذلك تلقى الفتى الكثير من المعلومات من والده عبر السماع.

وكان والده رامز أفندي محبًا للشعر، وكان كثيرًا ما يردد قصيدة "البردة" للإمام البوصيري في مدح الرسول ﷺ: ومنها قول البوصيري في بث الأمل وعدم اليأس من رحمة الله:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت

إن الكبائر في الغفران كاللّم

لعل رحمة ربي حين يقسمها

تأتي على قدرِ العصيان في القِسَمِ

ويتحدث محمد فتح الله كولن عن والده أن جسده كان يرتعش كلما سمع اسم رسول الله ﷺ، أو ذكر اسم صحابي أمامه، وتهطل عيناه بالدموع، فهذا مثلي الأعلى الذي تربيت في حجره، إنه غمامة من الإيمان والأحاسيس والمشاعر تتهاطل عليّ دائمًا فتشفي كل أجزاء نفسي.

فيورد الإمام: "أنه كان لوالدي تأثير كبير في حياتي، لقد عاش متبعًا للإسلام... كانت لديه عينان مليئتان بالدموع، ولم يضيع وقته أبدًا، على الرغم من أنه نشأ في بلدة صغيرة وفقير شديد، ولكنه كان يبدو للآخرين وكأنه نشأ نشأة ملكية لشدة أدبه ودقة نظام حياته"^(١).

كان الأثر الأكبر الذي تركه الوالد في ولده فتح الله هو حبه

(١) Ali Unal and Alphonse Williams: Advocate of Dialogue, p: 9.

الشديد لصحابة رسول الله ﷺ حتى باتت الكتب التي اقتناها في سيرة الصحابة شبه ممزقة من كثرة قراءتها وهو يبكي من فرط تعلقه بهم. وترك هذا أثراً بالغ الغور في وجدان فتح الله... فيقول: "كنا نحبههم وكأنهم أفراد عائلتنا، وعندما يتحدث أبي عن الصحابة كان ينهمر في البكاء وكأنه يعيش في عصرهم". إضافة إلى أن المشايخ كانوا أغلب ضيوف والده، فيجلس الفتى مع أبيه بين العلماء في هذه السن المبكرة، فيتلقى الكثير من مسائل العلم فانطبعت فيه أخلاق الرجولة ونضج عقله وهو طفل صغير.

وكما قد ذكرنا سابقاً عن دور أمه "رفيعة هانم" التي صنعت منه رجلاً كما صنعت من بنات جيلها نساءً صالحات مربيات، فهي معلمته الأولى التي لقتته أول دروسه في "حب القرآن الكريم" وحفظه؛ إذ كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم لنساء القرية وأطفالهن، وحفظ على يديها قصار السور وهو في سن الرابعة؛ الأمر الذي ساعده على إكمال حفظ القرآن كاملاً في الثامنة أو في التاسعة من عمره.

تأثر محمد فتح الله بوالدته التي يقال إنها تنحدر من أصول عربية شامية، فقد كانت تتمتع بخصال تشبه خصال والده من رقة المشاعر، والتمسك بتعاليم الدين، وحب الخير ومساعدة المحتاجين من أهل القرية والعطف على المساكين، والتعلق بالرسول ﷺ واتباع التقاليد التي درج عليها مسلمو الأناضول؛ بما في ذلك لبس النقاب عند الخروج من المنزل، حتى إنه عندما تيسر لها الذهاب إلى الحج بعد أن بلغت الثمانين من عمرها كانت -كما يقول الأستاذ كولن- تردد "لو لم يكن كشف النقاب عن الوجه من شعائر الحج لكنت أكثر راحة،

حيث كانت تشعر بالحرَج من كشف وجهها وهي في الإحرام^(١).
 أما الجدة "مؤنسة هانم" فكانت امرأة غير عادية، فهي كثيرة البكاء والتعب، دائمة التبسم في وجه حفيدها، التي طالما تحدثت له عن مصاعب العيش التي مرت بها مع زوجها "شامل آغا"، المرابي الأول الذي تعلق به فتح الله، والذي كان يزرع فيه القيم ويحثه على الفضائل واحترام أهل العلم والصلاح من خلال حكاياته عن الأزمات والمحن التي مرت بها البلاد بشكل عام وعائلته بشكل خاص، والتي جعلت من شامل آغا رجلاً مهيباً جاداً يحسن إدارة الشدائد. وبذلك فلم يتلق الفتى على يدي جديّه دروساً بالورقة والقلم وإنما تعلم من سلوكهما القويم وسيرتهم الحسنة، فأخذ دروساً عمليةً أثرت في مستقبله^(٢).

نشأ محمد فتح الله كولن "البسام" في أسرة مستورة تنتمي بالكاد إلى الطبقة المتوسطة. والطبقة المتوسطة في أغلب المجتمعات المعاصرة هي مستودع القيم، وهي الأمانة على العادات والتقاليد، وفيها تزدهر أيضاً النزعات الساعية للتغيير والإصلاح، إلى جانب التطلع الدائم نحو المستقبل عبر بناء الذات، وبذل أقصى ما في الوسع للنجاح فيما تمارسه من أعمال ومهن مختلفة. وينطبق هذا السميت العام للطبقة المتوسطة" على الوضع العائلي والأسري للشيخ فتح الله.

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي، ص: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) محمود خليل: فتح الله غولين، تحاور مع الآخر تفهمه، بحث منشور على:

٢- شيوخ محمد فتح الله كولن

لم يكن للطفل محمد فتح الله حظ من التعليم الرسمي، فهو لم ينتظم في التعليم الحكومي إلا مدة سنتين ونصف فقط، وبعدها منعه والده من الذهاب إلى المدرسة في قريته "كوروجك"؛ حرصاً على سلامة التزامه الديني، وذلك لما كان يعانيه التعليم آنذاك من هيمنة العلمانية، فقد كان الفتى يلاقي الصعوبة من أجل أداء الصلاة، ونتيجة لذلك فقد اتجه إلى تلقي الدروس على يد بعض المشايخ. بعد انتقاله من "كوروجك" إلى "ألوار" مع والده، تابع بعض دروسه على يدي معلمي التكايا والمدارس التقليدية، الذين كانوا يترددون على بيت والده، ومنهم "صدقي أفندي" الذي تلقى عنه دروس التجويد وحفظ القرآن، والذي كان يسكن بقرية حصن القلعة فيذهب إليه الفتى كل يوم، لأنه لم يجد مكاناً للمبيت فيقطع أكثر من أربعة عشرة كيلومتراً سيراً على الأقدام ذهاباً وإياباً، إلى أن أمره والده بالانقطاع عنه لطول الوقت الذي يقضيه في الطريق، فاقترح عليه "الإمام الألوارلي" أن يرسله ليدرس عند حفيده الشيخ "سعدي أفندي". وبعد وفاة "الإمام الألوارلي" وتركه لمدرسة "الشيخ سعدي أفندي" التحق بحلقة الشيخ "عثمان بكتاش" الذي درس على يديه النحو والبلاغة والفقه والأصول والعقائد والأدب، واهتم به الشيخ عثمان اهتماماً كبيراً لما رأى من تميزه ونبوغه^(١).

وكان للإمام "محمد لطفي الألوارلي" تأثيرٌ كبيرٌ على الأستاذ وهو

(١) أفرح ناثر جاسم: الإسلام الاجتماعي في تركيا، "فتح الله كولن أنموذجاً"، مقال منشور

في تلك السن المبكرة، فيقول: "فكل كلمة كانت تخرج منه تبدو وكأنها آتية من عالم آخر، كنا نصغي إليه باهتمام كلما تكلم لأننا كنا نشعر وكأننا نستمتع إلى أشياء سماوية تنزل إلى الأرض... كان الشخص الأول الذي أيقظ في داخلي الوعي والمدارك الحسية"^(١).
ويضيف: "كنت أتذوق كلامه كمن يتذوق شهذاً خالصاً. كنت إذا تحدثت، أنصت إليه، وكأن على رأسي الطير، فكلامه ينفذ سريعاً إلى أعماقي، كنت أشعر أنني بإزاء عالم عظيم الشأن... والدي ووالدتي كان ارتباطهما به ارتباط مريدين بشيخهما، وكنت أنا جزءاً من هذا الكل الروحاني... رغم مرور السنين لا زلت أشعر بطزاجة لمسات الشيخ محمد لطفي الحانية على أذني، وهو يقول لي: أَلنْ أذُنِك، وأصغ جيداً لكي يتفتح ذكاؤك وتقوى فراستك"^(٢).

٣- أهل العلم والإصلاح

تشرب الأستاذ محمد فتح الله كولن من أفكار بعض الإصلاحيين، وكذلك اجتهادات عدد من العلماء في القرن العشرين، منهم من التقى به، ومنهم من سمع عنه، ومنهم من قرأ عنه دون أن يلتقي به، فقد كان الأستاذ معجباً بهم ومعترفاً بفضلهم بعد دراسة أفكارهم بتعمق، وحاول تعريف الأجيال بهم من خلال ذكرهم في كتابه "ونحن نقيم صرح الروح"، وذكرهم في قسمين:

(١) Ali Unal and Alphonse Williams: Advocate of dialogue, p: 10.

(٢) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي، ص: ٢٤٢.

القسم الأول: أبطال الحقيقة^(١): وهم رجال استقامة مديدة يشعرون ضياءً، ومنهم:

أحمد حلمي فيليبه: رفع راية فكر "الاتحاد الإسلامي" وأصدر مجلة بهذا الاسم ومن ثم جريدة الحكمة وتصدى لجمعية "الاتحاد والترقي". قتل بالسب في سن شبابه من قبل أعدائه الماسونيين.

وفريد قام: رجل فكر وذوق وبيان فريد نادر، أستاذ اللغة الفرنسية، والاستطلاع الفلسفي الذي أوقعه في قلق لمدة قصيرة، ثم لجأ إلى التصوف في أحضان العناية الإلهية، وبعد ذلك نشر أحاسيسه في مجلتي "الصراط المستقيم"، و"سبيل الرشاد" وقد تعرض للعزل من الوظائف ولكثير من المحن والمضايقات بسبب آراءه وأفكاره الإصلاحية حتى لقي ربه.

والشيخ مصطفى صبري بك: "إنسان الكفاح" و"شيخ الإسلام"، فقد كان نائباً في البرلمان، ورئيساً للتحريير في مجلة "بيان الحق"، وعضواً في فرقة حزب الحرية والائتلاف، فأمضى حياته في كفاح مرير لخدمة الإسلام العظيم.

أحمد نعيم بابان زاده: الغني والواسع في عالمه الحسي والفكري، فكان نبغاً مهماً ارتشف منه المجتمع التركي فكراً وروحاً، وترك من خلفه ميراثاً غزيراً من العلم والعرفان للأجيال القادمة.

محمد عاكف: وهو من نوادر المثقفين الترك، لقد كان مخلصاً ووفياً في مراحل حياته كلها ومدرساً للآداب في دار الفنون. وهو

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، دار النيل، القاهرة، ط ٥، ٢٠١١م، ص:

واضع نشيد الاستقلال التركي العظيم، فيصفه الأستاذ بأنه "الابن البار والمخلص لهذا الوطن"، ويستشهد بأشعاره ومن ذلك قوله في تصوير المرحلة المظلمة التي يعيشها المسلمون بعيداً عن التعاليم الحقيقية للإسلام العظيم بكلمات مفعمة بالحسرة والانكسار، فيقول:

قد انسلخ الحياء وانحسر، فالعار ملء البوادي والقفار

كم وجه قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار

فلا وفاء، والعهد عدم، والأمانة لفظ بلا مدلول

والكذب رائج، والخيانة ملتزمة في كل حال، والحق في المجهول

العقل مرتعب جزع، يا رب: كم رهيب هذا الانقلاب

ضاع الدين والإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب^(١)

محمد حمدي يازر: قامه مرفوعة معلومة للعالم، تتلمذ على يد مشايخ بصورة خاصة، فهو من الشخصيات البارزة - كما يرى الأستاذ فتح الله -

التي ينبغي أن نتوقف عندها ملياً باسم حياتنا الفكرية وعملنا الحركي.

نجيب فاضل: صاحب المدرسة الفكرية "الشرق الكبير" المسماة

باسم الدورية التي أصدرها مرات، وهو أحد أفذاذ أساتذة الشعر

والنثر ومهندسي الفكر المستقبلي، وقد بدأ حياته علمانياً متغرباً

متنكراً لتراث أمته الإسلامية ثم تحول إلى الإسلام ومرجعيته، وكان

له بعد ذلك دور في نقد التوجهات التغريبية والعلمانية، ويرى الأستاذ

فتح الله أنه يجب تعريف جيل الشباب التركي والعالم بهذا الإنسان

العملاق وتوجيهاته، ويأمل بتأسيس معهدٍ لدراسة هذه الشخصية.

سليمان أفندي: هو شيخ ابن شيخ، ورجل كفاح قلّ مثيله ممن لا

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٦.

يعرف الكلل في عمله الحركي، فكان في عمره منافحاً صادقاً وثابتاً عن فكر أهل السنة والجماعة... واجتهد في إشباع قلوبنا من أصول وجودنا بالدورات التعليمية ومساكن الطلبة وبيوت الإقامة في كل أنحاء البلاد، فلم ين ولم يفتر عن غايته هذه ورسالته حتى رحيله.

فالأستاذ في كتاباته نجده "ينوه إلى إسهامات عدد كبير من رجال الفكر والثقافة والسياسة، ومن يسميهم "أبطال الحقيقة" الذين أفنوا أعمارهم في حمل هموم الدعوة والإصلاح. وهذا التنويه مسألة بالغة الأهمية؛ لأن معالم خريطة الفكر والمفكرين المعاصرين في تركيا ستظل ناقصة ما لم تتضمن أسماء وأعمال هؤلاء وأمثالهم ممن انطلقوا من المرجعية الإسلامية، وضحوا من أجل استعادتها إلى الواقع المعاصر"^(١).

القسم الثاني^(٢): مُنَوَّرُ النصف الثاني من القرن العشرين يتذكرهم الأستاذ، ويشيد بفكرهم العميق، ويتوجه لهم بالشكر والامتنان، وهم: نور الدين طوبجي، وسزائي قارة قوج، وأسعد أفندي، وسامي أفندي، وحضرة الأرواسي، وعلي حيدر أفندي، ومحمد زاهد قوطقو، وإمام "ألوار"، وشيخ سيذا "سردهل"، ومحمد راشد أفندي. ومن ثم فصل الأستاذ في حديثه عن الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، فهو أكثر أهل العلم تأثيراً فيه، ونرى هذا التأثير واضحاً في

^(١) إبراهيم البيومي غانم: المأزق الكبير للعلمانية التركية، صحيفة السبيل الأردنية، مقال منشور بتاريخ ٢٠١٠/٩/٣م.

^(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٦٩.

كتبه^(١)، فما يكاد مؤلف من مؤلفاته إلا ويذكر فيه الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وما أن يذكر قضية أو مسألة إلا ويورد فيها كلاماً له، بما يشعر بالتأثر الشديد والتقدير الكبير لهذا الإمام الجليل، من قوله: رجل العصر الأول، مولانا، وما أجمل ما قال، وكذلك كثرة تكراره في مؤلفات الأستاذ، وبين معالم جهاده في الدعوة إلى الله، وأبعاد تأثيره فيه، فبعد أن ذكر مُتَوَرِّي النصف الثاني من القرن العشرين يقول: "هل يعقل أن لا نذكر بديع الزمان النورسي خاصة، وهو الذي قلب مخططات دنيا الكفر والإلحاد رأساً على عقب بإيمانه وفكره وعمله الحركي المدهش؟ لقد كُتِبَ وقيل عنه الكثير الكثير. العالم كله يتحدث عنه..."^(٢).

وقد تحدث الأستاذ عن إخلاص الإمام النورسي في حديثه عن القرآن والسنة، فيرى أن هذين المصدرين "هما لأصحاب القلوب فوارة العشق والشوق وَمَنْجَمَ الجذب والانجذاب. فلن يعود خائباً

^(١) ومن خلال تتبع بعض مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن نرى ذكر الإمام النورسي في الكثير من المواطن، منها:

- أضواء قرآنية في سماء الوجدان، دار النيل، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٩م، ص: ٧، ١٣، ٤٥، ٦٥، ٧٦، ٨٥، ٩٦، ١٠٢، ١٠٩، ١٢٧، ١٢٨، ١٤١.

- ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٦٤، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٩٠، ٨١.

- التلال الزمردية "نحو حياة القلب والروح"، دار النيل، القاهرة، ط ٤، ٢٠١١م، ص: ٩٩، ١٠٠، ١١٣، ١٣٧، ١٣٩، ٢٤٤.

- طرق الإرشاد في الفكر والحياة، دار النيل، القاهرة، ط ٥، ٢٠١١م، ص: ٣٤، ٢١، ٤٥، ١٠١.

- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، دار النيل، القاهرة، ط ٥، ٢٠١٠م، ص: ١٣، ١٥، ١١٨.

^(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٦٩.

من يراجعهما بصفوة الحس وإذن الاحتياج، ولن يموت أبداً من يلجأ إليهما. والمفيد أن يلجأ اللاجئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني السرهندي والشاه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورسي^(١).

فالأستاذ يرى أن النورسي علمٌ ينبغي التفكير فيه باعثناء وتعريفه للإنسانية بأبحاث مستفيضة، فهو رجل العصر الأول، وهو يختزن شخصية راسخة قلما تتوافر في غيره أو في كل زمن من جهة حياته الفكرية وعمله الحركي، وهو مفكر وكاتب بزّ أقرانه المعاصرين له، عاش حياته كلها إنساناً محاكماً منطقياً عقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق... ملتزماً في رسالته ودعوته بفلك الكتاب والسنة لا يغادره.

فبديع الزمان هو من أرشد إنسان عصره المترنح برجة تصيبه بعد رجة... ونفخ في جموع البشر هواء "الانبعاث بعد الموت" أينما رحل وحط، في زمان شؤم أوقع الفكر المادي فيه حياتنا الفكرية في تشتت الهرج والمرج.

صار النورسي طبيباً حكيمًا، مفكرًا، وباحثًا عن الحلول، وفاحصًا ومشخصًا، ثم واصفًا دواء هذه الأمراض، لزمن الفتن والهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والهموم الاجتماعية، ويُسلط عليه مئات الحوادث المرعبة في أنحاء الوطن كافة، ويثن تحت ركام القيم الإسلامية والملية التي تهدمت فوق رأسه. فهو رجل عاش منذ البداية مشدودًا دائمًا، مفكرًا، مقدمًا الحلول البديلة للدولة والمجتمع.

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٣٦.

فالإمام النورسي يرى أن الأمراض والمفاسد كلها تكمن في الجهل والفقر والتفريق. فالجهل أول الأسباب لمآسينا الاجتماعية ومقدمة الدواعي إلى بؤسنا السائد، وأعظم مصائبنا هو الجهل بالله وتناسينا للنبي ﷺ وترك روابطنا بالدين... فنذر حياته على محاربة هذه الجرائم القاتلة وأعلن الحرب على الجهل والفقر والتفريق. وثم يصف الدواء لهذه الأمراض، ويقدم الحلول البديلة والناجعة فيرى بأن ما يلزم لتقدم الشعب نحو المستقبل هو التخلية ثم التحلية، أي أن تُهدم القناعات الخاطئة، وتُزال الانحرافات الاجتماعية، وتُنظف القناعات المتعفنة، فننتقل من الحسّن إلى الأحسن، والتخلص من كل فاسد والتزود من كل صالح^(١).

ولذلك فقد دعا إلى نفي التعليم العام، ولم يمل من الإصرار على القراءة والتفكير والعمل... فكان يلح على "المعارف" و"التربية والتعليم". فيحث بالضرورة على نشر المعارف والتربية والتعليم في كل مكان وبكل وسيلة... فيرى أنه لا بد من انخراط المساجد والمدارس والمعسكرات والدروب والمنتزهات، بل حتى السجون في هذا النفي... فهو يؤمن بأنه بالمعارف وحدها تتحقق الوحدة العقلية والمنطقية. فالذين لا يتوحدون عقلاً بعقل، ولا ينصهرون على ذلك، يعجزون لا محالة عن السير معاً في طريق معين زمنياً طويلاً، ولا يحفظون تساندهم وتعاضدهم، فينبغي أن يتوحد الوجدان أولاً حتى تتوحد القلوب والأيدي^(٢).

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٧١-٧٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٧٧.

هذه النخبة من أهل العلم والإصلاح التي يستشعر الأستاذ محمد فتح الله مكانتها، ودورها في تاريخ تركيا الحديث الثقافي والفكري بشكل عام، وفي شخصيته بشكل خاص قد تأثر بهم واستقى من أفكارهم. فهو يقدر هؤلاء المجددين، والمنافحين عن مرجعيتهم الإسلامية، ويعتز بهم، ويرى أنه جاء من بعدهم ليؤدي دوره، ويواصل الطريق على أثرهم؛ لذا فهو يوجه الباحثين والدارسين إلى دراسة هذه الأعلام، والنهل من معينها، وإطلاع الآخرين على تجاربهم والبناء عليها.

٤- الشغف بالقراءة

وبالاطلاع على سير العلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين نرى بأن القراءة الحرة لها تأثير أكبر مقارنة مع القراءة النظامية في الهيئات والمؤسسات الرسمية، واجتهاد الشخص على نفسه أكبر عامل في تكوينها وشحذها، ذلك أن التعلم لا يتوقف على التعليم بل على الرغبة الجادة في طلبه والحرص عليه.

ولعل من أهم مصادر تكوين شخصية الإمام محمد فتح كولن المواظبة على القراءة التي كان يقررها له الأساتذة، بل أكثر مما كان يقرره عليه الأساتذة والمعلمون ويستعير من زملائه ما لا يستطيع شراءه من الكتب، فشكلت القراءات الحرة مصدرًا من مصادر بناء وعيه وتكوين فكره الثقافي في وقت مبكر من حياته.

ومما ساعد الأستاذ على هذه القراءات الحرة والمطالعة الجادة هو بعده عن التعليم الإلزامي، مما فسح المجال أمامه لمطالعة الكثير من الكتب التي كانت تقع بين يديه، وخاصة تلك التي كانت في مكتبة والده المتواضعة التي تحتوي على كتب في سيرة النبي ﷺ

وصحابته الكرام رضي الله عنهم، وهو يرى والده يكثر النظر فيها والبكاء كلما ذكر اسم النبي صلى الله عليه وآله أو أحد صحابته الكرام رضي الله عنهم، فقد ورث هذا الحب للنبي صلى الله عليه وآله وصحابته عن عائلته التي عرفت بذلك، فازداد شغفه في قراءة سيرهم والتعلق بهم من خلال كتب السيرة والتراجم.

وبذلك فقد شكل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسيرة النبي صلى الله عليه وآله وصحابته الكرام مرجعية معرفية في الدعوة والإرشاد والتأليف، ونرى ذلك واضحاً في كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" والذي نلاحظ فيه الفهم الدقيق لكتاب الله العزيز بمنهج فريد، وكذلك في كتابه في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله "النور الخالد محمد صلى الله عليه وآله مفخرة الإنسانية" وقد كان له منهجٌ خاصٌ في التعريف بالنبي صلى الله عليه وآله من خلال صفاته، والتربية التي صنع بها صحابته، وقدرته على التخطيط وحل المعضلات، وعن عصمة النبي صلى الله عليه وآله، فهو لم يقف عند السرد التاريخي بل تجاوزه إلى بيان كيفية اقتداء المسلم المعاصر بالنبي صلى الله عليه وآله وصحابته في حياته.

أما في القراءات الحرة من المؤلفات الحديثة فكانت "كليات رسائل النور" للعلامة بديع الزمان النورسي هي التي تفتّح وعيه عليها. وهي التي نبهته إلى مفهوم الخدمة الإيمانية وهو ما عرفت به حركة الإمام فتح الله كولن عبر العالم، على الرغم من أنه لم يلتقِ بالعلامة النورسي من قبل، وسرى هذا التأثير من الأستاذ إلى تلامذته ومحبيه.

يمتاز الأستاذ بقدرته على هضم ما يقرأ وحسن إدراكه بشكل دقيق، بالإضافة إلى قدرته على توظيف هذا العلم، مما نراه واضحاً في مؤلفاته، فمثلاً استوعب النظريات الغربية الفلسفية والعلمية

والسياسية والاجتماعية التي أنتجتها أكبر العقول، وقد كانت له قراءات واسعة في مصادر الفكر الغربي ونظرياته وفلسفته المعاصرة الوضعية والماركسية والوجودية، وقرأ كتب كثير من أعلامها مثل ماركس وديكارت وغوته وداروين وفرويد وغيرهم، فأفاد من البعض، ورد وفند البعض الآخر، مثل نظرية الخلق والتطور عند داروين، في مؤلفه "حقيقة الخلق ونظرية التطور" فقام بمناقشة هذه النظرية التي شغلت الناس فترة من الزمن وفندها تفنيدياً منطقياً علمياً دينياً^(١). بالإضافة إلى ذلك فقد قام بعرض الكثير من النظريات الغربية، وناقشها فأفاد منها أحياناً، ودحضها أحياناً أخرى بأدلة عقلية ونقلية في كتابه: "أسئلة العصر المحيرة".

وتظهر هذه القدرة في هضم الفكرة وإعادة قراءة التراث الإسلامي من خلال قراءاته الغزيرة والمتعددة في ميدان التصوف بالإضافة إلى تجربته الخاصة، فاستطاع أن يقوم بتجديد الخطاب الصوفي، وتوضيح عباراته، بعيداً عن الغموض والألغاز في كتابه "التلال الزمرية". ولتعمق الأستاذ في قراءاته في التراث الإسلامي استطاع أن يعيد معالجة بعض القضايا التي طرحت من قبل وأجيب عنها برؤية عصرية جديدة لتوضيح التساؤلات التي تدور في ذهن المسلم المعاصر، ومن أهم كتبه في هذا الميدان: كتاب "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" و"القدر في ضوء الكتاب والسنة".

٥- الانشغال بقضايا العصر

اتسمت المرحلة التي عاصرها الإمام محمد فتح الله كولن

(١) محمد فتح الله كولن: حقيقة الخلق ونظرية التطور، دار النيل، ط٤، ٢٠٠٩م. ص: ٢٦-٤٥.

بالصراعات والحروب والأزمات على المستوى العالمي من الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وما نتج عن ذلك من صراعات فكرية وفلسفية وسياسية. وعلى مستوى وطن الأستاذ "تركيا" فقد عاش أصحاب التوجه الإسلامي في مضايقات واعتقالات ومحاكمات وسجون؛ لتوجيه أصابع الاتهام إليهم في كل انقلاب من سلسلة الانقلابات التي عاشتها البلاد، حتى إن الأستاذ سُجن على أثر انقلاب ١٩٧٠م، وطلب للمحاكمة على أثر انقلاب ١٩٨٠م^(١).

الأستاذ محمد فتح الله كولن عايش هذه الأحداث، ورأى ما في بلاده من انحلال أخلاقي، وجهل عند الناس بشؤون دينهم، وسيادة المفاهيم العلمانية والإلحادية والمادية، ويتصور الناس أن الدين لا علاقة له بالعلم ولا بالتقدم ولا بالحياة ومشاكلها. فأخذ الأستاذ على عاتقه تبصير الناس بدينهم من خلال خطبه ومواعظه، فوضع يده على الجوهر الحقيقي للإسلام وأنه نظام حياة شامل، فلم يكن واعظاً تقليدياً بل أعطى للخطبة والموعظة روحها، وأزاح ما عرف عنهما من انطباع سلبي باعتبارهما عمل روتيني؛ لأنه لم يكن في معزل عما يدور حوله، فكان يعرف المجريات والأحداث المحيطة، واحتياجات إنسان هذا العصر^(٢).

ولهذا فالإمام محمد فتح الله كولن يرى "أن من لا يعرف مجريات عصره كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثاً يحاول أن يبلغ شيئاً عن الدين

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "حوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي، ص: ٢٥٧.

(٢) علي فؤاد باشكيل: موقف الدين من العلم، ترجمة من التركية أورخان محمد علي،

والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث ستفقدته التأثير إن عاجلاً أو آجلاً، من هنا فعلى المؤمن أن يفهم ويبلغ ما ينبغي أن يفهم بأسلوب ملائم ومنسجم مع المستوى الفكري والعلمي والثقافي لعصره... إن من لا يعرف عصره لا يختلف عن من يعيش تحت الأرض، بينما المبلغ أو الداعية يجب في الفضاءات"^(١).

نعم فلقد كان الأستاذ يطوف في أرجاء وطنه، ويتنقل من مدينة لأخرى، يلتقي مع الجماهير التي بدأت تلتف حوله من الشباب المثقف وطلاب الجامعات، وهو يناقش قضايا عصره من خلال المحاضرات وكتابة المقالات وتأليف الكتب والمناظرات العلمية؛ لتقويض النظريات والأطروحات الغربية مثل نظرية فرويد، ونظرية داروين، والنظرية الماركسية... محاولاً إنقاذ الشباب من الإنجراف وراء التيارات الغربية الداعية إلى الإلحاد والإنحلال الأخلاقي، وحمايتهم من موجات التغريب، بل إنه لم يقف عند تقويض هذه النظريات ولكن صرف الجهد الأكبر إلى مهمته الكبرى وهي البناء، فكان ذلك أداة جذب للشباب في الجامعات وغيرهم من الفئات المثقفة الذين رأوا فيه أنموذجاً للداعية الذي يعيش عصره، ويدرك احتياجات مستمعيه، وليس واعظاً تقليدياً يلقي عليهم ما قرأه في بطون الكتب"^(٢).

وهو يرى أن واقعنا مما يُبكي العيون ويُدمي القلوب، وأن الآخرين استلبوا شبابنا وأبهرهم بالعلوم، فيقول: "وهذه الحالة المؤلمة نابعة

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، دار النيل، القاهرة، ط ٥، ٢٠١١م.

ص: ٩٤-٩٥.

(٢) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ١١.

-إلى حد ما- من ضحالة ثقافة من يتقدم إلى الإرشاد والتبليغ. إذ لا يمكن من يجهل ثقافة عصره ومدى فهمه وأسلوب خطابه أن يفهم إنسان عصره شيئاً... فلقد صرعوا جيلنا بالفيزياء، وأرکعوهم بالكيمياء، وأنزلوا على رؤوسهم الشهب بالفلک... دینٌ عليك أن تأخذ بيد هذا الجيل مستعملاً الوسائل نفسها لترفعه من كبوته وتضمده جراحاته المادية والمعنوية وتسمو به إلى الأعالي من جديد.

نلاحظ من خلال مؤلفات الأستاذ كولن الاهتمام بالقضايا التركية والإسلامية والغربية المعاصرة، ومن ذلك الصراعات الفكرية التي ظهرت بعد الانهيار السوفيتي مطلع التسعينيات في أطروحات تتحدث عن: "نهاية العالم" و"صدام الحضارات" و"العولمة"، لكن ظل الأستاذ فتح الله يتصدى لمثل هذه القضايا من خلال الانشغال في النقاشات الدائرة حولها، وكذلك الرد على تلك الأطروحات الفكرية، فبادر بفكرة "حوار الحضارات" ودعا أتباعه إلى تفعيل دور الحوار، محلياً وعالمياً، ونبذ العنف مع الآخر، والدعوة إلى الحب والتسامح. وصدرت كتبٌ تثنى جهود الأستاذ محمد فتح الله كولن في حوار الحضارات وفض النزاعات الدولية. ومن ذلك: "محاورات حضارية.. حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني لجيل كارول" وهو كتاب فلسفي قائم على المقارنة بين ما كتبه الأستاذ كولن من جهة وما كتبه الفلاسفة الآخرون أمثال: ميل، سارتير، كونفشيوس، كانت، أفلاطون، من جهة ثانية، فالمقارنة بين كل مفكر من هؤلاء المفكرين وبين كولن، مع التركيز على نقاط الاتفاق والالتقاء لا على نقاط التفرق والخلاف، حول المفاهيم

العامة التالية: الحرية، الإنسان المثالي، التربية، الشعور بالمسؤولية. كما أصدر الأستاذ فتح الله -خلال إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية- كتاباً بعنوان "نحو حضارة عالمية للحب والتسامح" الذي يدعو فيه إلى حوار بين الحضارات وأتباع الديانات، فعالج فيه مشكلات العولمة، والعنف، والإرهاب، وناقش قضايا الرحمة، والتسامح، والحوار، وخاصةً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، وما ظهر بعدها من الحروب والعدوان باسم القضاء على الإرهاب. بالإضافة إلى ذلك نشاطه على المستوى الدولي من خلال عقد المؤتمرات والمنتديات عبر مؤسساته التعليمية والإعلامية والفنية، وذلك خارج تركيا في أوروبا، وأميركا، وآسيا، وأفريقيا، والعالم العربي^(١).

وبذلك نرى أن الأستاذ كولن لم ينفك أبداً عن الاهتمام بكل ما يدور حوله إلى هذا اليوم، من هموم القرية الصغيرة "كوروجك" وهو ما زال صغيراً، إلى القضايا العالمية التي تهم البشرية جمعاء، على الرغم من سنه والآلام التي يعاني منها، فما زال فكره خصباً وعطاؤه مستمرًا، فهو يرى ويحلل ويحل المشكلات والمعضلات بعدسة القرآن والسنة. وكثيرون هم من يستنبطون برأيه، ويتظنون أفكاره وتوجيهاته لتتحول إلى إنجازات عملية في كل أنحاء العالم. وتقديرًا لجهود الأستاذ محمد فتح الله كولن وإنجازاته العالمية، وتكريماً له على إسهاماته الكبيرة لتحقيق السلام العالمي منحتة جامعة "بنجاب" الباكستانية الحكومية درجة الدكتوراه الفخرية ولدعمه باكستان عن

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي،

طريق تشجيع الشركات العاملة في مجال التعليم لفتح أول مدرسة تركية أهلية في البلاد قبل ١٧ عامًا.

ثالثًا: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن^(١)

(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية لمجلة يني أميد) مترجم إلى العربية جزاء	سلسلة ونحن نقيم صرح الروح
	الجزء الأول: ونحن نقيم صرح الروح
	الجزء الثاني: ونحن نبني حضارتنا
(جمهرة مقالات الأستاذ حول تزكية الأنفس) أربعة أجزاء	سلسلة التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح
مترجم إلى العربية	الجزء الأول: التلال الزمردية-١
مترجم إلى العربية	الجزء الثاني: التلال الزمردية-٢
	الجزء الثالث: التلال الزمردية-٣
	الجزء الرابع: التلال الزمردية-٤

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى "الأكاديميا باعتبارها جماعة علمية"، دار النيل، القاهرة،

ط١، ٢٠١٢م، ص: ٢٧٩-٢٨٣.

- أرطغرول حكمة: فتح الله كولن قصة حياة وسيرة فكر، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م،

ص: ١٣٠-١٣٤.

(جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة سيزنتي من العام ١٩٧٩ حتى اليوم) تسعة أجزاء	سلسلة العصر والجيل
	الجزء الأول: العصر والجيل
	الجزء الثاني: الإنسان في دوامة الأزمات
	الجزء الثالث: نحو الجنة المفقودة
	الجزء الرابع: شريحة الزمن الذهبية
	الجزء الخامس: أيام تتنفس أنساماً ربيعية
	الجزء السادس: أفكار في طور الاخضرار
	الجزء السابع: أفق يلوح منه النور
	الجزء الثامن: حركة نماذجها من ذاتها
	الجزء التاسع: دوي الصمت
(حكم ربّانية مستقاة من الكتاب والسنة، وممزوجة بخلاصة التجارب، مترجم إلى العربية)	الموازين أو أضواء على الطريق
(جمهرة مقالات الأستاذ الإفتتاحية في مجلة يغمور "الغيث" الأدبية)	البيان

(ديوان شعري جمع فيه جملة ما كتبه الأستاذ من قصائد وأشعار)	المعزف المكسور ريشة العزف المكسورة
(تأملات لتجليات أسماء الله وصفاته في مظاهر الكون والوجود) مترجم إلى العربية	ألوان وظلال
	حزم وقبسات
(سبعة أجزاء، في سيرة النبي ﷺ) مترجم إلى العربية	سلسلة النور الخالد.. محمد ﷺ مفخرة الإنسانية
	الجزء الأول: النبي المرتقب
	الجزء الثاني: من صفات الأنبياء
	الجزء الثالث: عظمة الفطنة
	الجزء الرابع: فن التربية وحل المعضلات
	الجزء الخامس: الرسول ﷺ قائدًا
	الجزء السادس: العصمة النبوية
	الجزء السابع: السنة النبوية
(نخبة مختارة من مجموعة من التساؤلات التي وجهت إلى الأستاذ في المساجد) مفرغ من الأشرطة، أربعة أجزاء	سلسلة أسئلة العصر المحيرة
مترجم إلى العربية	الجزء الأول: أسئلة العصر المحيرة-١

	الجزء الثاني: أسئلة العصر المحيرة-٢
	الجزء الثالث: أسئلة العصر المحيرة-٣
	الجزء الرابع: أسئلة العصر المحيرة-٤
(دروس الأستاذ المسائية) مفرغة من الأشرطة، ثمانية أجزاء	سلسلة المنشور الضوئي
	الجزء الأول: المنشور الضوئي-١
	الجزء الثاني: المنشور الضوئي-٢
	الجزء الثالث: المنشور الضوئي-٣
	الجزء الرابع: المنشور الضوئي-٤
	الجزء الخامس: مناخنا نحن
	الجزء السادس: ملاحظات على الدرب
	الجزء السابع: بيدر الفكر
	الجزء الثامن: في تهجي خط سيرنا
(دروس الأستاذ المسائية) مفرغة من الأشرطة، خمسة أجزاء	سلسلة الفصول
	الجزء الأول: من فصل إلى فصل-١
	الجزء الثاني: الفصول-٢
	الجزء الثالث: الفصول-٣
	الجزء الرابع: الفصول-٤
	الجزء الخامس: أطلس الفكر

<p>(دروس الأستاذ المسائية في الولايات المتحدة الأمريكية) مفرغة من الأشرطة، عشرة أجزاء</p>	<p>سلسلة الجرة المشروخة</p>
	<p>الجزء الأول: الجرة المشروخة</p>
	<p>الجزء الثاني: صحبة الحبيب</p>
	<p>الجزء الثالث: آفاق الغربية</p>
	<p>الجزء الرابع: فنار الأمل</p>
	<p>الجزء الخامس: غيث الأصيل</p>
	<p>الجزء السادس: نداء البعث</p>
	<p>الجزء السابع: إكسير الخلود</p>
	<p>الجزء الثامن: تباشير الوصال المرتقب</p>
	<p>الجزء التاسع: بوصلة القلب</p>
	<p>الجزء العاشر: في ارتقاب الجمرة</p>
<p>(خلاصة جهود الأستاذ في تعليم العربية لطلابه) صدرت في منتصف السبعينات، خمسة أجزاء</p>	<p>سلسلة تعليم العربية بطريقة حديثة</p>
	<p>الجزء الأول: تعليم العربية بطريقة حديثة-١</p>
	<p>الجزء الثاني: تعليم العربية بطريقة حديثة-٢</p>
	<p>الجزء الثالث: تعليم العربية بطريقة حديثة-٣</p>
	<p>الجزء الرابع: تعليم العربية بطريقة حديثة-٤</p>

	الجزء الخامس: تعليم العربية بطريقة حديثة-٥
(مجموعة الأوراد والأدعية، النص الأصلي باللغة العربية)	القلوب الضارعة
(مجموعة الأدعية الماثورة المنتخبة من كتب الصحاح)	مجموعة الأدعية الماثورة
(مترجم إلى العربية)	طرق الإرشاد في الفكر والحياة
(مترجم إلى العربية)	القدر في ضوء الكتاب والسنة
(مترجم إلى العربية)	روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
(نظرة بيانية تحليلية في بعض النصوص القرآنية، مترجم إلى العربية)	أضواء قرآنية في سماء الوجدان
(مترجم إلى العربية)	حقيقة الخلق ونظرية التطور
	تأملات حول سورة الفاتحة
	في ظلال الإيمان
	الحياة بعد الموت
	البعد الميتافيزيقي للوجود
(كتاب في تربية الأولاد في الإسلام مترجم إلى العربية)	من البذرة إلى الثمرة
	في عالم القرآن الذهبي

(نظرة آفاقية في البعد الإقتصادي في الإسلام وحله لجميع مشاكلنا الآنية)	عالمنا الفسيح
	مقابلات صحفية
	١. دنياي الصغيرة
	٢. جولة في الآفاق
	٣. مع فتح الله كولن في ديار الغربية
	٤. التسامح العالمي وحوار نيويورك مع الأستاذ فتح الله كولن
	٥. أحد عشر يوماً مع فتح الله كولن
(كتاب فيه ملامح وخطوات للداعية ليسلك طريق النجاح)	الموشور





الفصل الثاني

منهج الأستاذ كولن في بناء الذات وتكوين الإنسان الحركي

- ◆ منهجه في البناء العلمي
- ◆ منهجه في البناء الروحي
- ◆ منهجه في تكوين الإنسان الحركي
- ◆ منهجه في التأليف



منهج الأستاذ كولن في بناء الذات وتكوين الإنسان الحركي

أولاً: منهجه في البناء العلمي

لقد لخص الأستاذ منهجيته في طلب العلم من خلال الاعتماد على النقد كأساس للعملية التعليمية إضافة إلى ضرورة ربط العلم بالوحي والتحذير من الجهل وآفاته، والتوجه إلى الخلق كبوابة عظيمة للعلم، وركز على ضرورة اقتران العلم بالعمل وإلا فمصيره الذبول. حيث يقول: "لا يظهر اليوم عندنا مكتشفون ولا مخترعون، بل يظهر المقلدون، نحتاج إلى نفسية متمردة تقوم بتغيير كل شيء تقريباً. يجب أن يتغير كل شيء الكتاب، المدرسة، ومن أجل هذا التغيير فإن البداية بالنقد هي الأساس. والعلم مرشد مهم للهداية، فإن استند إلى الوحي وتغذى به وصل إلى أبعاد تتجاوز الأرض والسماء، وحاز على قيمة لا تقدر بثمن. والجهل أسوأ صديق، والعلم أخلص صديق.

وعندما يتحد العلم مع الخلق اللين يصل إلى أعماق كبيرة، عندما يغضب الجاهل يصرخ ويسب، أما العاقل فيقوم بالتخطيط لما يجب عليه عمله. وتقف الفضيلة على أسس ثلاثة هي العلم والحلم والعبادة. وإن لم يستند العلم إلى العمل فمصيره الذبول، والفهم شيء، والمعرفة شيء آخر، وبدلاً أن تعرف ألف شيء فمن الأفضل

أن تفهم شيئاً واحداً حق الفهم. وعود نفسك أن تقول: لا أعلم، لكي تتخلص من خجل قول "لا أعلم" كلَّ الوقت^(١).

ونبّه إلى العلوم إن لم ترتق بنا إلى المستوى الإنساني اللائق فيقول: "العلوم مفيدة لنا بدرجة قيامها بتأمين سعادتنا والارتفاع بنا إلى المستوى الإنساني اللائق. أما إن أصبحت العلوم والتكنولوجيا الكابوس المرعب لبني الإنسان فليست إلاً شيطاناً رجيماً تقطع علينا الطريق.

ويضيف: "رد جميع العلوم الوضعية والادعاء بأنها بأجمعها لا تساوي شيئاً أنموذج للجهل وللتعصب، أما رد كل شيء خارج هذه العلوم فسذاجة وتعصب أحمق. أما الإدراك بأن كل معرفة جديدة تأتي بأكوام من المجاهيل والأسئلة فهو الإدراك اللائق بالتفكير العلمي الصحيح، والعلم والتكنولوجيا في خدمة الإنسان وليس هناك من مبرر جدي للخوف منهما، لأن الخطر لا يكمن في العلم ولا في تنظيم الدنيا حسب مقتضى العلم، بل يكمن الخطر في الجهل وعدم الإحساس والتهرب من تحمل المسؤولية"^(٢).

١. المدرسة التقليدية

كعادة المميزين والنوابغ فإن فتح الله كولن اتصل بعلماء المنطقة ليساعده على إيجاد البنية المعرفية المتكاملة في ذاته التائقة إلى العطاء والخدمة والتجديد فأخذ علوم الفقه والتفسير والحديث

^(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، دار النيل، ط٦، ٢٠١٠م. ص:

^(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٩٩.

والأصول والنحو والبلاغة، وكذا مقارنة الأديان. وقرأ في مختلف مجالات العلم، والمعرفة فيما بعد، ودرس أعلام الفكر الإسلامي المعاصر وأمعن في قراءة منظري الإصلاح في القرون الأخيرة، وتابع التيارات الإصلاحية التي ظهرت في شتى البلدان الإسلامية، واستوعب النظريات الغربية الفلسفية والاجتماعية والعلمية والسياسية والأدبية الحديثة^(١).

وقد درس في المدرسة الدينية في طفولته وصباه، وكان يتردد إلى "التكية" أيضاً، أي تلقى تربية روحية إلى جانب العلوم الدينية التي بدأ يتلقاها أيضاً من علماء معروفين من أبرزهم "عثمان بكتاش" الذي كان من أبرز فقهاء عهده، حيث درس عليه النحو والبلاغة والفقه وأصول الفقه والعقائد، ولم يهمل دراسة العلوم الوضعية والفلسفة أيضاً. وينتقد الأستاذ التعليم التقليدي فيقول: "والمدرسة التقليدية أطلت على الحياة من حافتها وأطرفاها، والتكيتية (الزاوية) دفنت نفسها في الوجدانيات تماماً، والثكنة أظهرت القوة وحدها وزمجت بالقوة وحدها. فكيف يمكن نشر هذا الفهم في المجتمع، وهل يتوقع أن تكون هذه المبادئ جزءاً من الحياة؟! في تلك المرحلة، هيمنت الفلسفة المدرسية (Scholastic) على التعليم التقليدي ولم يُتنفس إلاّ هواءها، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لغلغ أبوابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسلّت التكية والزاوية نفسها بقراءة المناقب بدلاً عن العشق والشوق^(٢).

(١) نوزاد صواش: فتح الله كولن، إسلام بطعم الحكمة، مقال منشور على:

www.algomhoriah.net بتاريخ 2010/10/5.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٤٢.

٢. الذاتية في التعلم

بدأ فتح الله كولن يدرك مشاكل المسلمين من خلال مجالس والده التي كان يحضرها مع بعض الصلحاء من قريته ومنطقته، حيث كان أبوه إماماً لأحد المساجد وبدأ الابن يتعامل مع القضايا الإسلامية بروح المسؤولية، فكان شيخاً في إيهاب طفل. وكان العمود الرئيسي في المبنى العلمي لكولن هو القراءة والتعلم الذاتي، وبهذا تتلمذ على أيدي فطاحلة الأمة كالغزالي وابن تيمية وابن القيم وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم من القدامى، وأمثالهم من المحدثين كحسن البنا وسيد قطب وأبو الأعلى المودودي ومحمد إقبال وبديع الزمان النورسي وغيرهم، وقد أخذ من الجميع وترك، وبالتالي أوجد ذاته المستقلة المتميزة. وبقدر اهتمامه بالعلوم التي هي غذاء العقل، فقد اهتم بمجالس الذكر التي هي غذاء الروح، ومن هذه المرحلة المبكرة بدأ اكتساب التوازن الشديد بين العقل والروح^(١).

ظل ديدن العباقرة في كل زمان ومكان هو التعامل الفريد مع الزمان والمكان، وهذا ما ظهر في سيرة كولن في أوضح صورة، فقد فاق أقرانه، وكان ذلك سبباً في عدم مواصلته للدراسة في التعليم الرسمي النظامي، بجانب عوامل أخرى بالتأكيد. فعندما فتحت أول مدرسة ابتدائية في قريته من قبل الحكومة لم يسمح له بدخولها لصغر سنه، لكنه بسبب شغفه بالعلم وعشقه للدراسة، أصر على الانخراط فيها كمستمع، واستمر على هذه الحال لمدة ثلاث سنوات، وكانت المفاجأة التي صعقت أساتذته هي تفوقه على زملائه الرسميين والذين

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٢٦.

يفوقونه في السن، وكأنه كره بعدها أن يعود إلى الوراثة للدراسة الرسمية، فاكتمى بالمشاركة الحرة، وهي نوع من التعليم غير النظامي، حيث أكمل الشهادة الابتدائية على هذا النحو مكتفيًا بها.

وانتقل بعدها كما كان أثناءها إلى التعليم الذاتي، وسبق أقرانه بالدخول في وقت واحد في عدد من الجامعات غير التقليدية، بسبب قدرته الخارقة على استيعاب معارفها، وعطشه الشديد إلى المعرفة، وجوعه المسعبي إلى التربية، ثم قدرته الهائلة على تشرب العلوم من سائر المنابع التي كانت تبدو لكثيرين كأنها متناقضة، إنها جامعات العلماء الموسوعيين.

فقد ذهب إلى العلماء القرييين منه ونهل أفضل ما عندهم، وعكف على كتب كبار علماء الأمة في العصور المشمسة، حيث اقتبس الضياء من كل من يملك منه نصيبًا، مهما كان اتجاهه الفكري ومذهبه الفقهي وفرقه الكلامية وطريقته الصوفية، ولم يتوقف عند علماء الطوائف والتيارات الإسلامية، بل تجاوزهم إلى فلاسفة ومفكري وأدباء الغرب، حيث اقتبس منهم بعض ما يشبع النهم أو يروي الظمأ، من أطعمة الحكمة ورحيق الخبرة، فلم يهتم بهوية النحل لكنه اهتم برشف العسل ما دام مصفى.

ولما كانت تركيا من أعرق بلدان العالم، لكنها من أشدها تطرفًا في القفز إلى الحداثة إلى حد هضم الماضي ومحاكمة الأمس وجلد التاريخ، فقد نشأت علاقة وثيقة بين كولن والزمن بأبعاده الثلاثة، ففي المدن العريقة والمساجد العتيقة تعلم أن الحاضر بدون عراقة الماضي وجذوره التليدة يصبح يبابًا وعدمًا، وفي أفضل الأحوال

يصبح بنياناً أسس على شفا جرفٍ هارٍ. ولهذا عمد إلى استجماع الزمن، فجعل الماضي أساساً متيناً لمبنى الخدمة، وجعل الحاضر أداة للبناء ورافعة للإطلاقة على القادم واستشراف المستقبل، من خلال امتلاك أفكار الانطلاق، وتجهيز مواد التشكيل، وابتكار وسائل الصياغة وأدوات الضبط وفق مقاصد الإسلام ومصالح الأنام^(١).

ولعل ذاتية الأستاذ في التعلم جعلته يرى أن إزالة انحراف أفكار المسلمين وجمودها وفسادها وعدم وصول الإسلام إلى العالمية، "لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة. إن إزالة هذا الانحراف الهرم، المادّ جذوره إلى عصور خلت، المُمدّد بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وإثارتنا للشعور الإسلامي من جديد بمنطق إسلامي وعقل إيماني، وإلى جهد متواصل وهمّة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافذ وأمل حيوي وإرادة صلبة وتأنٍ بعد تأنٍ. وبخلاف هذا، إن لم نجد أسلوبنا الذاتي، ولم نبرح تخبطنا في البحث عن سبل الخروج من الحفرة التي سقطنا فيها في غير مظانها، فإننا نخدع أنفسنا ونُعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى^(٢). وإن كان الأستاذ لم يجد فرصة للالتحاق بالمدارس الرسمية فقد قضى طفولته في هذه البيئة المحافظة على القيم المعنوية وفي جو تقليدي من أجواء التكية والمدارس الدينية. ولكنه كان يحمل بين جوانحه عشقاً خاصاً للعلم ورغبة كبيرة للمعرفة والفهم. ولم يكن

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٣٨-٣٩.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٨-١٩.

في مقدور هذه البيئة الضيقة إشباع تطلعاته لذا توجه وهو في هذه المرحلة المبكرة من عمره بعقله واهتماماته إلى النشاطات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمارس في العالم الخارجي وبتعبيره هو فقد كثف اهتمامه من حين لآخر في السنوات الأولى من وجوده في المدرسة الدينية على المشاكل الاجتماعية. وكلما كبر هذا الدماغ الصغير ونضج شيئاً فشيئاً، بدأ بالتعرف على دنيا الفن والأدب والسينما والمسرح والحركات الفكرية الموجودة في بيئته^(١).

ولم يكتف أن يعب من كل التيارات الإسلامية، فقد انفتح على الثقافة الغربية بعقله المنهجي الممتلك باقتدار لغربال الحكمة، حيث اقتبس كل ما بدا له مفيداً، وفقاً لمعرفته الواسعة بمقاصد الإسلام وحقائق الواقع، فكان فقيهاً وحكيماً حتى وهو ينهل لأنه جمع بين فقه الواجب وفقه الواقع. لم يتحوصل فتح الله كولن ولم يتفوق، بل انفتح وغربل، فرد واقتبس، ولا شك أنه كان ممن أحسن تمثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٨) ومن المؤكد أنه جسد مقولة المصطفى ﷺ "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها" (رواه الترمذي).

وجد الأستاذ فتح الله كولن نفسه في المحيط الذي نشأ فيه بين قيم حضارتين؛ بين قيم المدارس الدينية والثقافة الإسلامية، وبين قيم الثقافة الغربية المعاصرة والحضارة الأوروبية. إن ثلاثة أجيال قبله عاشت في حُمى البحث عن هويتها بين هاتين الثقافتين

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٣٢.

والحضارتين. ولم يكن هذا البحث عن الهوية -على الأقل بين هاتين الحضارتين- قاصراً على التجربة التركية. فقد عاشت جميع البلدان وكافة الثقافات التي كانت خارج نطاق الحضارة الغربية، عهدَ بحثٍ ونقاشٍ حول طبيعة هويتها.

كان فتح الله يستطيع أن يرصد عن قربِ التغيّر الثقافي الذي يعيشه العصر. كونه رجلاً محافظاً لم يجعله يكتف فقط برصد التطورات والتغيرات الاجتماعية ويتركها لتيار الزمن. ولم يكتف -باعتباره محافظاً- بمشاعر عاطفية، والتحسر على التغيرات الاجتماعية والأخلاقية التي تجري أمام ناظره. بل استعمل مخزونه الشخصي وتجاربه أمام هذه التغيرات ونسج علاقات فعالة معها، وفضّل الاستعانة بالقيم التقليدية التي تملك ماضياً عريقاً وطويلاً، والمساهمة بها بشكل واع في التغيرات الاجتماعية اليومية. أي وسّع آفاق أهدافه ومثله الأخلاقية والشخصية والثقافية.

وتبدو الذاتية بادية للعيان في تكون هذا المفكر الحكيم، فقد درس "رسائل النور" للإمام النورسي، ورغم إعجابه الشديد به، إلا أنه لم يحاول أن يكون نسخة أخرى منه، ولم ينغلق على أفكاره، بل انفتح على تيارات التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي، قارئاً لها، آخذاً منها كل ما يرى أنه مفيد لبناء مشروع النهوض الجديد في ظل الظروف التركية الخاصة والمتغيرات العالمية المتسارعة^(١). وأرى أن ذلك يعود لاختلاف ظرف الزمان والمكان والحالة السياسية والدينية والفكرية، وحتى الاجتماعية والاقتصادية التي

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٨٥.

كانت سائدة في زمان النورسي وتجاربه وتوظيفها حسب ما يناسب المناخ والظروف التي يعيشها هو.

٣. مع الكتب

كانت خريطة الأرض يوشك أن تُرسم بريشة الإلحاد. ونظر الأستاذ "خوجه أفندي" حوله وتساءل أليست وراثية الأرض للصالحين؟ واتخذ قراره، لن نترك الأرض لظلمة الإيمان، وراح يغوص في جهود أبطال الإحياء، والبعث بالإيمان.

قرأ إحياء علوم الدنيا في تراث الأسلاف، وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي، وحجة الله البالغة للدهلوي، وأبحر في عالم المعاصرين المجددين في تركيا والشام والهند والجزائر، وأسعدته تلك القراءات المعاصرة للقرآن، تلك التي جمعت بين التفسير، والتربية والفقه والتذكير، قرأ التحرير والتنوير لابن عاشور، ومجالس التذكير لابن باديس، وقرأ الظلال، وقرأ -قراءة عميقة- "رسائل النور" لأنها الأقرب إلى نفسه، في الزمان والمكان والتحديات.

وقد أتبح لصاحب رسائل النور -نتيجة ظروفه- أن يعيش مع الطبيعة، وأن يتصل بالكون، وبخالق الكون، من خلال كلمات الله الكونية... فجاءت رسائل النور كأنها تنزيل من التنزيل.. ونفذت أشعتها -مع أشعة الشمس- إلى قلوب الناس وكيانهم وعقولهم... فتأصلت... وحملت العناية الربانية كلمات الرسائل وبذورها الإيمانية مع الرياح السائرة هنا وهناك، لتسقط منها حبة هنا، وحببات هناك.

وقد اعتنى الأستاذ إلى جانب العلوم الشرعية بالعلوم الوضعية، وحض على الاهتمام بها حيث يقول: "الابتعاد عن العلوم الوضعية

بحجة أنها تؤدي إلى الإلحاد تصرف صيباني. أما النظر إليها وكأنها تعادي الدين وأنها وسيلة للإلحاد وطريقٌ إليه فهو حكمٌ مسبق وجهلاً مطبق^(١).

ويضيف: "كان عالمنا زمنًا يسابق العصر في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجماليات، وفي كل مجال ومضمار، بدهاءٍ نفسوا الوجود كالخوارزمي والبيروني وابن سينا والزهراوي؛ وبأساتذة الفقه والحقوق كأبي حنيفة... والسرخسي والمرغاني، وبدوي استعدادات اجتازت المعايير الإنسانية وعاشوا في محور الوجدان بتغليب مزيح القلب والمنطق على المنطق الصرف كالإمام الغزالي والرازي ومولانا جلال الدين الرومي والشاه النقشبند؛ وبأبطال المحاكمة والفطنة كالإمام الماتريدي والتفتازاني والجرجاني والدواني؛ وبعمالقة الفن كالمعمار خير الدين والمعمار سنان وعطري وديده أفندي..."^(٢).

ويقول: "للعلم وللعلوم الوضعية التجريبية فروع مختلفة، لكل فرع فوائده، ومع أن جميع هذه الفروع مفيدة، إلا أن عمر الإنسان قصير وقابلياته محدودة، لذا يستحيل عليه الإحاطة بجميع فروع هذه العلوم. لذا كان على كل فرد تعلم ما يفيد ويفيد أمته، ولا يضيع عمره في ساحات أخرى غير ساحته"^(٣).

ويوضح الأستاذ ذلك في موضع آخر حيث يدعو إلى التخصص

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٩٩.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٩-٣٠.

(٣) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٠.

والتفرع فيقول: "فالخير في أن يتخصص امرؤ في فرع من الفروع، ثم يرتقي إلى ذروة عرش الكمال فيه، ويسعى إلى نيل أرقى المنى في تلك الساحة... لكن مع العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله"^(١). وبعد التمكن من علوم التعليم العتيق، تفتق عقل الإمام محمد فتح الله على كتب الأدب والفكر والفلسفة، وانطلق في مغامرة جديدة من نوع آخر. ولم يزل يصحب الفلاسفة والأدباء في خلواته، يطوي مراحل التاريخ وطبقات الزمان طياً؛ فيتفرس وجه هذا أو ذاك في ضوء شمعته الصغيرة، منصتاً إلى درس عالم أو مناقشاً لنظرية فيلسوف حتى صار من مخزونه الفكري ما يضاهي مخزون مكتبة واسعة مزدحمة الرفوف والأركان. ولم تزل رحلته بين مسالك الكتب ترتقي به -عبر منازل المعرفة بالحياة والإنسان والكون- ما جعل أفقه المعرفي يتسع إلى درجة بزّ فيها كثيراً من المتفلسفين، ورد أباطيل سفستتهم^(٢).

٤. رسائل النور

تركيا بلد إسلامي أدى دوراً محورياً في تاريخ العالم عامة وتاريخ المسلمين خاصة... هذا البلد تعرّض منذ نهاية القرن التاسع عشر لرياح الخماسين وأعاصير السموم، وإذا كان العرب قد قالوا: "إن بيت الأسد لا يخلو من العظام" فإن الوطن التركي رغم العقود العجاف التي عاشها، إلا أن أرضه شهدت خلال هذا العصر ولادة نجمين من نجوم الفكر الإسلامي الوسطي العظيم، فساهما في إنارة الكثير من

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٩.

(٢) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٦٢.

الدروب الحالكة، وهداية جمّ غفير من الحيارى والتائهين.
 الأول: ولد عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٣م في قرية نورس في شرق تركيا، وهو سعيد النورسي الذي أصبح أعجوبة زمانه، حتى تظافر الناس على تلقيبه "بديع الزمان" ليطنغى هذا اللقب على اسمه الحقيقي...
 والآخر فتح الله كولن الذي ولد في ١١ نوفمبر ١٩٣٨م في شمال شرق هضبة الأناضول التركية ليصبح الوارث الروحي للنورسي وحكيم الفكر الإسلامي المعاصر^(١).

الأستاذ كولن مثل الأستاذ النورسي، ومثل قطاع متميز من أهل الله، عاشوا كينونتهم في صيام وقيام، إذ قدّروا أن لا وقت لديهم ينفقونه في غير ما يحقق معنى الكمال الإنساني الذي به تتحقق الاستخلافية، استخلافية الإنسان في الأرض.

ولا تكاد تجد كتاباً أو مقالاً أو لقاءً للأستاذ إلا وأتى فيه على ذكر النورسي. فالإمام محمد فتح الله كولن يعبر عن حبه الشديد للإمام على الملاء، ومن ذلك قوله في محاضرة للشباب في أنقرة في عام ١٩٩٥م: "إن الشخصية الخارقة لو رأى مثلكم عشرة من الشباب ذوي الوجوه النيرة لكان عيداً له.. واليوم كنتم تعيشون أفراح عيد بينكم. فهو يشاهدكم بهذا المشهد وهو في قبره ولكنني كلما أراكم وألتقيكم أحسّ بالانكسار وأتساءل، ماذا يكون لو كان هو جالساً في هذا الكرسي بدلاً عني. فهو الذي عانى وجاهد وكد من أجل نهضة هذه الأمة، ونظر إليكم وقرأ أزهير الربيع على جبينكم. نعم، أنتم باقية مختارة من الزهور قد جمعت واختيرت من أماكن مختلفة وأصبحتم

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٨٤.

باقات زهور جميلة. وأنا أقدمكم له وهو راقد في قبره كهدية بمثابة سورة الفاتحة. وأقول أسأل الله أن لا يخزيك في قبرك ولا يخزينا. وليرض الله عنك فقد أضأت لنا الطريق وعلمتنا السلوك...".

واستطاع الأستاذ "فتح الله" أن يؤسس بواسطة طلابه الأكاديميين، كرسيًا علميًا للدراسات الإسلامية، باسم بديع الزمان النورسي في جامعة "جون كارول" بمدينة "كليفلاند" الأمريكية، يشرف عليه باحثون أتراك. ومن خلاله يتم تأطير بحوث الماجستير والدكتوراه، وعقد ندوات ومؤتمرات علمية^(١).

أ- أثر رسائل النور في الأستاذ والحركة

كانت حركة هذا النجم النورسي عظيمة على كل الصعد، وإنجازاته لا تكاد يأتي عليها الحصر، لكن أجلّ الخدمات التي قدمها لأمته كانت رسائل النور، التي مثلت قراءة عصرية للقرآن الكريم، حيث تعامل مع القرآن كأنه يتنزل في هذا العصر، مما أدى إلى إشاعة النور في كل زوايا تركيا، وليساعدها ذلك في الخروج من النفق المظلم وحُجر التقليد الحضاري المقيت^(٢).

ومما لا يرقى إليه شك أن كليات رسائل النور أحدثت تغييرًا بالغًا في أدبيات الحركة وغذتها فكريًا ومعنويًا. ثم إن رسائل النور وحدت أفكارها وألّفت بين قلوب أفرادها وصانتهم من التشتت والضياع. والجدير بالذكر أن رسائل النور هي مؤلفات فريدة من

^(١) حازم ناظم فاضل: تعرف الأستاذ محمد فتح كولن على رسائل النور، مقال منشور في مجلة "دنيا تايمز" بتاريخ ٢٠١٢/٩/٧م. www.dunyatimes.com.

^(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"، ص: ٨٤.

نوعها، وقيمة في مضامينها ومواضيعها، ومدونات دونت في ضوء العقيدة الإسلامية ونهت على المسائل الإيمانية وانتهجت منهج أهل السنة والجماعة.. وقد أحدثت تأثيراً معنوياً واجتماعياً في نفوس أبناء المجتمع الذي يتداولها، فلها تأثير معنوي قوي على الحركة بشكل واضح وبدهي. وقد لا تملك هذه الرسائل المنهجية التي تملكها الكتب العلمية الحديثة من ناحية الترتيب والتنظيم، إلا أن كيفية تناولها للموضوعات والحلول الجذرية التي تقدمها تجعل لها تأثيراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والإنسانية^(١).

وفي تسجيل الأستاذ لومضات تنفدح في ذهنه حول آيات من القرآن الكريم، يذكر طلاب النور والإمام النورسي بعد الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، كان طلاب النور عندما يتعرضون لأي أذى أو أي ظلم وتعسف، يذكرهم الأستاذ بديع الزمان بضرورة تكرار قراءة هذه الآية وتفسيرها. وكشخص مثلي استفاد من درس الأستاذ النورسي لنقرأ هذه الآية مرة أخرى ولنأخذ منها الدرس الواجب أخذه^(٢).

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٩٢.

(٢) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٠٩.

تألم الأستاذ وتحسر على الوقت الذي مضى ولم يتفهم المثقفون النورسي ويعينوه ولكنه لا يقطع الأمل فيقول: "ولو تفهم عدة مئات من المثقفين بديع الزمان وأعانوه، عندما كان يسعى حثيثاً ويلهث ركضاً في كل ناحية من أرجاء البلاد، عارضاً رسالته، فربما كنا اليوم أغنى من كل دولة، وأسبق شوطاً في الحضارة بين الأمم، وربما بلغنا قوة كانت تؤهلنا لاجتياز العراقيل التي وضعت في طريقنا لاحقاً، فكنا انخرطنا في طريق النور -الذي يبدو كأننا انخرطنا فيه الآن- منذ بداية القرن العشرين، ولم يكن الكثير من مشاكلنا الحالية تواجهنا اليوم"^(١). وهكذا نرى أنه في أثناء أعوام دراسته الأولى تعرف برسائل النور وتأثر بها كثيراً. فقد كانت حركة تجديدية وإحيائية شاملة بدأها وقادها العلامة بديع الزمان سعيد نورسي مؤلف هذه الرسائل^(٢). ولولا رسائل النور التي عدلت موازين هيجانه الفوار، وألجمت فرس عاطفته الجموح؛ لكانت روحه قد اقتحمت نار هلاكها منذ زمان.

ب- الإمام بديع الزمان النورسي في كتب الأستاذ كولن

في كل حرف يخطه الأستاذ في كتبه إن لم تقرأ فيه اسم الإمام النورسي تلمس روحه، وحين يتكلم الأستاذ كولن عن إنسان الفكر والحركة ويتوقف مع الشخصيات البارزة، الصادقة، المخلصة، التي خلفت ميراثاً عظيماً للأجيال، متوجهاً لهم بالشكر والامتنان يقول: "ثم هل يعقل أن لا نذكر بديع الزمان النورسي خاصة، وهو الذي

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٧٨.

(٢) محمود حبيب: دار حراء، خطوة على طريق تعاون إسلامي في نشر الثقافة الدينية المستنيرة بين مصر وتركيا، جريدة الأخبار المصرية، ٣ يوليو، ٢٠٠٩م.

قلب مخططات دنيا الكفر والإلحاد رأساً على عقب بإيمانه وفكره وعمله الحركي المدهش؟ لقد كُتِبَ وقيل عنه الكثير الكثير. العالم كله يتحدث عنه. وهو من الأوائل الذين يحوزون على أكثر عدد من القراء في العالم وبلغات عديدة.

بديع الزمان سعيد النورسي، علّم ينبغي التفكير فيه باعتهاء وتعريفه للإنسانية بأبحاث مستفيضة، فهو رجل العصر الأول الذي أبرز إيمان العالم الإسلامي ومعنوياته وعمقه الوجداني الفسيح، وبصورة صافية ومؤثرة. ولا نحسب أن مقتربات الملاحظات العاطفية لفهم شخصيته وأفكاره مقتربات سليمة لمعرفته ومعرفة تراثه وآثاره. فالعواطف لا تتألف مع جدية المسائل العالية الزخم التي أظهرها وأبانها بشجاعة عظيمة في كل زمان وآن. فقد عاش حياته كلها إنسان محاكمة منطقية وعقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق، في حال العشق والحماس العميق.

ومهما تغاضى بعضهم أو تناسى، فقد لقي بديع الزمان قبولاً بأنه مفكر وكاتب بَرَّ أقرانه المعاصرين له، وصار رائداً وترجماناً لجمهور الناس، لكنه لم يصب بالعُجب قطعاً، ولم يميل إلى الظهور والرياء، ولم يقرب منه الكِبَر. فمن بياناته الذهبية قوله: "الشهرة عين الرياء وعسل مسموم يميت القلب"^(١).

ويتحدث عن إصراره على القراءة والعلم والتفكير والعمل المبذول فيقول: "فيحث بالضرورة على نشر المعارف والتربية والتعليم في كل مكان وبكل وسيلة... فينبغي عنده انخراط المساجد والمدارس

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٦٩-٧١.

والمعسكرات والدروب والمنتزهات، بل حتى السجون، في نفيير التعليم العام. فبالمعارف وحدها تتحقق الوحدة العقلية والمنطقية. فالذين لا يتوحدون عقلاً بعقل، ولا ينصهرون على ذلك، يعجزون لا محالة عن السير معاً في طريق معين زمنياً طويلاً، ولا يحفظون تساندهم وتعاضدهم. فينبغي أن يتوحد الوجدان أولاً حتى تتوحد القلوب والأيدي^(١).

وحين تناول الأستاذ مهمة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما فيها من المشاعر والمصاعب، فبعد حديثه عما عاناه الأنبياء العظام من أقوامهم، فيقول: "وإذا ما عُصر كلام السعداء الذين تعهدوا هذه الوظيفة وأخذوها على عاتقهم من بعد عهد رسول الله ﷺ، نجد الانكسار نفسه يتقطر منه (النورسي): "لم أذق طوال عمري البالغ نيفاً وثمانين سنة شيئاً من لذائذ الدنيا... قضيت حياتي في ميادين الحرب، وزنانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أترعرع؛ عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفِيتُ وغُرِّبت في أرجاء البلاد كالمشردين، وحُرمت من مخالطة الناس شهوراً في زنانات البلاد، وسُمت مراراً، وتعرضت لإهانات متنوعة، ومَرَّت عليَّ أوقات رجحت الموت على الحياة ألف مرة. ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، فربما كان سعيد الآن تراباً تحت التراب"^(٢).

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٧٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٢٠-٢١.

وبعد ذلك يذكر فدائبي المحبة الذين نذروا أنفسهم لتحيب الله إلى الإنسانية جميعاً من الأنبياء عليهم السلام والأولياء والأصفياء وما في قلوبهم من محبة وشفقة على الخلق فهم شمس البشرية وأقمارها، فهي "وظيفة الذين يرغبون عن أذواق عيشهم ليتنعم الآخرون. إنها وظيفة من لا يتنعم حتى في الجنة إن لم يرشد أفراد مجتمعه إلى طريق الجنة.. مثلما قاله مثال الشفقة: "لقد ضحيْتُ حتى بأخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغبٌ في الجنة ولا رهبٌ من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليوناً فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآنا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضاً سجنًا لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن أحرق في لهيب جهنم؛ إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور"^(١).

ويرد الأستاذ الفضل للإمام النورسي كيف أنه استشعر الداء ووصف الدواء، فيقول: "لقد أرشد بديع الزمان إنساننا المترنح برجّة تصيبه بعد رجّة، إلى السبل الموفية إلى نبع "الخضر"، ونفخ في جموع البشر هواء "الانبعاث بعد الموت" أينما رحل وحطّ، في زمان شؤم أوقع الفكر المادي فيه حياتنا الفكرية في تشتت الهرج والمرج، وجن فيه جنون الشيوعية، وسقط العالم في أسوأ أيام الضياع والظلمات والمحن. وذلك بمصنفاته التي تفوح منها

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٣٤.

نفحات الإيمان والأمل. قد استشعر وشخص الداء الأعظم قبلنا وقبل الناس جميعاً، ألا وهو الفوضى الناشئة من الكفر والإلحاد، فتصدى لها. لقد نث في إنساننا طوال حياته ضرورة التغلب على وباء العصر هذا^(١).

تأتي كلمة "البدعة" من الجذر نفسه، وهي كل ما أحدث فيما بعد في الدين مما ليس منه من فكر أو عمل. وقد عرفت كلمة البدعة تعريفات مختلفة، مثلاً: "هي أي عمل لم يفعله رسول الله ﷺ ولا الخلفاء الراشدون بنية العبادة". أو "كل عبادة أو عمل صالح ظهر بعد الرسول الأكرم ﷺ وبعد الخلفاء الراشدين، ولم يقم برفع أي سنة من سنن النبي ﷺ". ويختلف موقف العلماء تجاه البدعة، فمنهم من يقف ضدها بكل عنف، ومنهم من له مواقف لينة. وموقف الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله موقف وسط ومعتدل. فإن كان ما أحدث في الدين غير معارض من ناحية الأصول لأي أساس أو قاعدة عدت بدعة حسنة، فإن لم يكن في الإمكان التوفيق بينها وبين أي قاعدة أصولية كانت بدعة سيئة. والله أعلم بالصواب^(٢).

وفي شكر النعمة يقول الأستاذ ذاكراً مثلاً عن الإمام النورسي: إن ما نريد الإشارة إليه هنا هو أن النعمة مهما كان مصدرها يجب مقابلتها، فإن تذكرنا الحقيقة التي أشار إليها الإمام بديع الزمان النورسي في الكلمة الأولى من أن الإنسان يعطي البقال أو بائع الفواكه دراهم مقابل ما يشتريه منه.. حسناً، ولكن ماذا نفعل تجاه

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٧١ (الحاشية).

(٢) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٦٥ "الحاشية".

الله تعالى مالك وخالق كل شيء وواهبه؟ أو ماذا يريد هو منا؟ طبعاً يجب أن تكون مقابلتنا النعمة هذه حسب ما أراه منا^(١).

ويرى الأستاذ أن الله قد أنعم علينا بنعم عظيمة وجليلة لا نحس بقدرها وقيمتها إلا عندما تزول عنا، لذلك لا بد من الشكر بوجودها والصبر عند ذهابها، فيقول: "لا توجد هناك نعمة نستطيع أن نقول عليها إنها نعمة صغيرة. إذن يجب أن يكون هناك شكر كثير لهذه النعم. وعندما تذهب هذه النعم -لحكمة من حكم الابتلاء- يستوجب هذا الذهاب صبراً جميلاً والنبى عليه السلام أيوب عليه السلام مثال أنموذجي للصبر الجميل. والأستاذ بديع الزمان النورسي يقول عنه إنه كان "بطل الصبر"، فبعد أخذ جميع النعم الدنيوية منه لم تتغير حاله أو طوره أو توجهه نحو الله تعالى. ثم إن بطل الصبر والعرفان هذا الذي كان صبره نتيجة لإيمانه لم ينحرف إلى اليأس أمام جميع المحن والشدائد التي تذهب بالصبر، لأنه كان يدرك المعنى الحقيقي لأسباب المشقات والمحن، وكان يدرك جيداً أن للشروع جوانب خيرة. لذا كان قلبه مفعماً بالإيمان ولم ينزلق إلى القلق بل إلى الشكر والحمد في أوقات صبره على المحن"^(٢).

وفي ومضات الأستاذ كولن حول قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، يرى أن ترك الدنيا تماماً غير مطلوب وأن الكافر الذي ينكر وجود الله يتمتع بالدنيا ولكن هناك عالم أبدي سيكون فيه الحساب عن كل صغيرة وكبيرة، ثم

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٧٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٨٥.

يقول الأستاذ كولن في حق المؤمن: "ونظرة الأستاذ سعيد النورسي للموضوع هي أن نتيجة الإيمان بالله ومحبته سبحانه هي رؤية جمال مقدس وكمال من منزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى... هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف سنة من نعيم الجنة ذلك النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف سنة من حياة الدنيا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق"^(١).

ثم يتحدث الأستاذ عن أنه لا مجال للمقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ثم يقول: "وهناك التفاتة من قبل الأستاذ النورسي في هذا الموضوع لم أرها عند أحد غيره. فهو يقول إن للدنيا ثلاثة أوجه: الوجه الأول متوجه للأسماء الإلهية الحسنى، والثاني متوجه نحو أهواء الإنسان وشهواته. والوجه الثالث هو الوجه المتوجه نحو كسب الحياة الآخرة، وهي التفاتة عميقة"^(٢).

وفي تقديم الأستاذ كولن لـ"كليات رسائل النور، المشوي العربي النوري" للإمام النورسي يتكلم عن شجاعته العظيمة، ونضاله الطويل في إيقاظ الأمة ونشر الحق، فيقول: "وفي تلك الأيام الحالكة السواد التي لم يكن هناك من يتجرأ على التفوه بأي شيء حول الحقائق الدينية، قام هو بإيقاظ الجماهير التي أُريد تخديرها وتويميها، فأعلن الحرب على الجهل والفقر والفرقة، وهزّ أركان الأوهام الكثيرة المختلفة التي أحاطت بالمجتمع، فكما أعلن حرباً ضروسة ضد الإلحاد وإنكار الخالق، فقد أغرق الأباطيل والخرافات في تناقضاتها

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٧١-٢٧٢.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٢٧٢.

وسدَّ الأبواب أمامها. وبشجاعة منقطعة النظير قام بتشريح مشاكلنا وعِـلَلِنَا المزمَنة منذ عدة عصور، وقدم طرق علاجها والشفاء منها^(١).

ج- هل الأستاذ وريث الإمام النورسي؟

في عام ١٩٦٠م ترجل بديع الزمان النورسي عن فرسه الدنيوية ليلتحق بالرفيق الأعلى، ومثل كثير من الدعوات التي كان روادها أصحاب شخصيات "كاريزمية" أسرة، فقد بدا بأن التيار النورسي انكفأ على ذاته، منشغلاً بشخصية المؤسس وأفكاره، أكثر من انشغاله بمنهج هذا المصلح وأهدافه، مما أظهر للعيان مساحات فارغة في جُـدُر هذه الدعوة العظيمة، لاعتقاد مجاميع من هذا التيار أن الوفاء للشيخ يقتضي مثل هذا الأمر^(٢). وجاء الأستاذ محمد فتح الله كولن ليملأ هذا الفراغ ويشغله بذات القلب والفكر والروح التي لطالما ملأته طوال تلك السنوات السابقة.

والمتقصي للحقائق والباحث عنها يرى هذا الأثر العظيم واقعاً ملموساً في كل شارع وفي كل بيت أو زقاق وصلت إليه الخدمة.. بل وعلى كل حجر ومدرو.. وربما كل قطرة مطر تحدثك اليوم عن الرجل الذي حمل إرث أستاذه النورسي بأمانة وصدق ووفاء.. كل شيء مشاهدٌ وواضح، الدموع تشهد والرجال تشهد والأرض تشهد والمؤسسات تشهد والسماء تشهد وقبل ذلك كله الله العظيم جل جلاله يشهد كيف استطاع الأستاذ محمد فتح الله كولن أن يحيل رسائل النور

^(١) بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور، المشوي العربي النوري، دار النيل، ط١،

القاهرة، ٢٠٠٩م. ص: ١١-١٢.

^(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٨٥-٨٦.

إلى واقع حياة وعمل وكفاح كما أرادها لها مؤلفها وصاحبها.
نعم.. هذا الذي رأيناه عياناً جهازاً نهاراً وبكل وضوح، لقد حمل
الأستاذ الفكرة وحولها إلى عمل، ونقلها إلى واقع منير... فهل بزّ
التلميذ أستاذه.. هذا ما لا يستطيع مثلي أن يحكم عليه.. ولكن
أستطيع أن أحكم بما رأيت ولمست وشاهدت، بأنه حمل الأمانة
والإرث النورسي -الذي يمثل حقيقة الإرث المحمدي- بكل
وفاء وانتماء.. حمل هذا كله وسط بحار الدموع والأنين والآهات
والآلام.. من غير توقف ولا جزع ولا سكون.. حمل الرسالة مع
أصحابه وإخوانه وهم معه يردّون الفضل إلى أصله.. إلى أستاذهم
ومعلمهم بديع الزمان سعيد النورسي.. فيذكره دائماً ذكر التلميذ
لأستاذه والمريد لشيخه وإمامه.

وبذلك وبحسب ما اطّلت وعلمت وشاهدت ووفقاً لما وقفت
عليه. فإن الإمام محمد فتح الله كولن هو الوارث الروحي والفكري
لأستاذه ومعلمه الجنان وبديع الزمان النورسي. وهذا يزيد الإمام
كولن شرفاً وتواضعاً، ويزيد الإمام النورسي فضلاً وسعادة وبشراً.

ثانياً: منهجه في البناء الروحي

١. العبادة

العمق الروحي الذي يعيشه الأستاذ والخدمة هو ثمرة لبناء روحي
حقيقي، بدأ به بذاته ثم بمن حوله من طلاب العلم الذين رأوا حال
الأستاذ وصلته الروحية وبكائه وضراعتة فتعلموا من حاله قبل مقاله،
ففتشت هذه الروح وسرت بين جميع أبناء الخدمة، وظهرت للعيان

بادية، وانعكست على أعمالهم إخلاصًا، وعلى سلوكياتهم التزامًا، وعلى شخصياتهم انمحاءً.

ويصف شيئًا من ذلك، الأستاذ علي بولاج في مقالته المنشورة في جريدة الزمان بعنوان: "ثمانية أيام" فيقول: "لم أجرب من قبل مثل هذا التوجه نحو العبادة، والاشتراك فيها بمثل هذا العمق الروحي! تصوروا مكانًا، أعظم وأهمُّ نشاط فيه هو إقامة الصلوات في وقتها مع مراعاة أركانها وأصولها؛ حيث قلوب الجماعة معلقة بأوقات الصلاة... يقوم الجميع بالاستعداد الروحي والبدني للصلاة قبل رفع الأذان في معظم الأحيان، ثم يأخذون أماكنهم من الصفوف أو ينتظرون في المكان الذي جلسوا فيه... حقًا إن الإنسان عالم صغير، ولم أدرك هذه الحقيقة يومًا من الأيام مثلما أدركتها في تلك الصلوات التي أقمناها بذلك المكان خلف هذا الأستاذ الفاضل، وأنا مستمع للآيات المرتلة وخائض في دلالاتها العميقة... لأول مرة أحظى بمثل هذه التجربة الروحية وبهذا المستوى الرفيع"^(١).

لأن هؤلاء القوم أدركوا تمام الإدراك أن الحياة الحقيقية هي حياة القلب. والإنسان الذي يحيا بحياة القلب يصبح كيانًا فوق الزمن، ويستطيع دق أبواب الماضي والمستقبل ويراهما وجهين لعملة واحدة يمكن فتحهما. مثل هذا الإنسان لا يأبه بالأم الماضي ولا بتهديدات المستقبل.

أما الذين لم يجدوا أنفسهم في قلوبهم فتراهم - وهم يتقلبون

(١) علي بولاج: ثمانية أيام، مقال منشور في جريدة الزمان التركية، ١٩ مايو ٢٠٠١، الترجمة عن التركية: ياووز أجار.

في حياتهم الضحلة- في شكوى دائمة، وتشاؤم مستمر. فالماضي في نظرهم قبر رهيب، والمستقبل بئر لا قعر لها... فهم في عذاب مستمر سواءً عاشوا أم ماتوا^(١).

ترتيل القرآن ترتيباً غير متعجل، وقراءة الآيات بروية وتمهّل بحيث يفتح المجال للتفكير في معانيها، يجعلان ذهن الإنسان يفيض فرحاً وحبوراً؛ وذلك لأن بين الذهن والقلب قناة مباشرة تعبّر عن المعاني الطالعة في سماء الذهن طلوغاً أسرع من سرعة الإشعاع من خلالها إلى أعماق القلب.

أما قراءة القرآن قراءة متعجّلة دون الوقوف على معاني الآيات في الأوقات الأخرى، فما هي إلا ترداد لبعض الكلمات والألفاظ التي تُتمّم بها بين شفتينا، فلا تجتاز حناجرنا لتتمكّن من الوصول إلى أعماق قلوبنا، ولا تفتح نوافذ جديدة، وأبواباً مباركة في آفاق التفكير، لنستطيع النفوذ منها إلى العوالم العلوية السامية المتفتّحة أبوابها دائماً لمن جدّ في الطلب. وكما قال الشاعر:

فأكثرُ هذه الصلوات لكبيراً علينا

وكانها ضريبة نقدّمها للمحصّل لتتخلص منها^(٢)

وكثيراً ما يركز الأستاذ على نوعية العبادة لا على كمها، وعلى روحها وجوهرها لا شكلها ومظهرها. فإذا كانت العبادات من صلاة وصيام وحج ودعاء بلا روح، أصبحت جيفة هامدة، وتبقى

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٦.

(٢) علي بولاج: ثمانية أيام، مقال منشور في جريدة الزمان التركية، ١٩ مايو ٢٠٠١، الترجمة عن التركية: يابوز أجار.

عبودية جسم لا قلب، لذلك ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفًا في العبادات، والكلمات وسيلة والروح والصدق أساسًا في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازماً. وفي كل هذه الله غاية القصد... الصلاة ليست قيامًا وعودًا... ولا الزكاة مالا مطروحًا تبرئة للذمة لا يعلم أين ذهابه... ولئن صار الصيام جوعًا وعطشًا، فما اختلافه عن الحمية؟ والحج إن لم يجر في فلكه الحقيقي، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تكسب بعضهم عملاتٍ أجنبية؟ والعبادات قد تصير كلعب الأطفال إن انحصرت في الكم... وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الحلو... والحج والعمرة إن صارت مشقة تُحتمل للتسلي بحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف نخرج في المعاني والمرامي^(١). ويقول الأستاذ علي بولاج في وصف الخشوع والمذاكرة عند تلامذة الأستاذ كولن "أما الذين يستمعون للأذان بهذا المكان المبارك، في سكوت وتفكير عميق، ومراقبة نفسية هادئة، وبإدراك تام للدلالات والمقاصد التي ينطوي عليها، فهم خاشعون للرحمن، فلا تسمع منهم إلا همسًا. لا يرفعون أصواتهم ولا يصطرخون، وإنما هم يتدارسون ويتذكرون، وهم يستمعون أكثر مما يتكلمون"^(٢).

ذلك لأنهم فهموا الدين حياة وليس منحصرًا على العبادات فقط، فيقول الأستاذ: "إن أساس حياتنا المعنوية قائم على الفكر

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٦.

(٢) علي بولاج: ثمانية أيام، مقال منشور في جريدة الزمان التركية، ١٩ مايو ٢٠٠١، الترجمة عن التركية: ياوز أجار.

الديني والتصورات الدينية، ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء. إن الدين الذي يهدف إلى غايات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدُّنَى، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصرًا على العبادات، إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعًا... ويتدخل في كل شيء لنا.

فكل حركة أو سكنة في حياة المؤمن عبادة، فلا فصل بين الدنيا والآخرة، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له، ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له، متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى... ولا برزخ بين قلبه وعقله... وعواطفه ومنطقه مزيج واحد... ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته^(١).

العبادة تعبير من العبد للمعبود، ومن المخلوق إلى الخالق، فالعبادة هي الطريق الموصل إلى الله، ومن لم يقم بالعبادة الخالصة لله فقد ضل الطريق، فيقول الأستاذ عن العبادة: "العبادة هي طريق وصال. وآداب هذا الوصال وضعها الله تعالى لنا للوصول بها عن طريق الإيمان إلى سعادة الدنيا والآخرة. والذين لم يعثروا على هذا الطريق ولم يحصلوا على هذه الآداب لا يمكنهم الوصول أبدًا إلى الحق تعالى... إن كثيرًا من الذين انغلقت قلوبهم وأرواحهم دون الحقيقة يمضون حياتهم

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٤-٢٥.

وراء مسائل نظرية وخيالية. وحتى لو قضى هؤلاء حياتهم في ظل أفصح بيان وأبلغه فلن يستطيعوا تسجيل تقدم شبر واحد^(١).
 كثيرًا ما ترد كلمة العبادة والعبودية بمعنى إقامة أوامر الله، فالعبادة هي قضاء الحياة بامثال أوامر الله وتكاليفه. وتقابلها العبودية التي هي البقاء بشعور الرق لله. والعبودية هي مرتبة يمنحها الله سبحانه وتعالى لأصفيائه، فقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (الإسراء: ١) وهذا الخطاب من الله إلى أشرف وأكمل البشرية محمد ﷺ. ومولانا جلال الدين الرومي لا يعتر بأنه سلطان الكلام وأنه قد فاق زمانه، ولا بالعمق المحير لفكره، بل يفخر بعبوديته لله ويجيش قائلاً: أصبحت عبداً، أصبحت عبداً، أصبحت عبداً، فأنا في طاعتك خاضع متضرع. العبيد يسعدون عندما يحزرون، أما أنا فقد سعدت بعبوديتي لك^(٢).

٢. مجاهدة النفس

عاش الأستاذ حياته مجاهداً لنفسه جهاداً عظيماً منذ شبابه المبكر، بدءاً من يوم كان نزيل النافذة التي أوى إليها في مدينة أدرنة حيث كان يسكن الشاب فتح الله كولن في منزل، إلا أن موقعه كان في زقاق مسدود وكان بابه آخر الأبواب. وعلى طول الزقاق كان نسوة الحي يقضين أوقاتهن على أرصفة الدرب، من أول النهار حتى وقت متأخر من الليل! وكن يجلسن متبدلات، فأدرك الفتى أنه وقع في حرج عظيم، فليستطيع الوصول إلى بيته كان مضطراً للعبور

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٥٨-١٥٩.

(٢) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية، ص: ٩٧-٩٨.

بينهن، فكان في كل خطوة يشعر كأنما يطأ على الجمر... وبقي على ثباته، تجرأت عليه الأوانس بكلمات لاسعة مستفزات إياه بما لا قبل له بسماعه، فلما كان اليوم التالي خرج قبل الفجر ولم يعد إلا بعد منتصف الليل، وبقيت تلك عادته حتى نهاية الشهر. فلقي من ذلك العنت ما كان الله به عليم.

وفي المسجد الذي كان يعمل به، بدت له إحدى نوافذه الكبرى وكأنها ترحب به، فارتمى إليها بوجدان جريح، أتعبه لهيب الأزقة المتعفنة، فما أن دخلها وأغلق عليه أبوابها، حتى شعر بجوانحها تحضنه، وتضمه إليها بعطف دافئ كأنها أم حنون. كانت نوافذ المسجد عالية فسيحة وكأنها أبواب، كما هي العادة في هندسة أغلب المساجد السلطانية بالعهد العثماني، يرتفع بابها نحو مترين، أما عمقها فيتسع إلى متر ونصف، وقد سدت من الخارج بشباك حديدي متين وثابت، ومن الداخل بأبواب خشبية لصيقة بشباك الحديد، ذات مربعات فارغة يملؤها الزجاج الشفاف لتغمر المسجد بأشعة الشمس، ثم جعل لكل نافذة من داخل المسجد باب خشبي متين، يُفتح ويُغلق. فصارت النوافذ بذلك أشبه ما يكون بغرف، أو بمقصورات صغيرة. وقد تشرفتُ بزيارة أدرنة ومسجدها المبارك، وسعدتُ بالجلوس في نافذته التي كانت فيها إشراقته الروحية.

وَضَع فَتْحُ اللَّهِ فِي النَافِذَةِ مَمْتَلِكَاتِهِ كُلِّهَا بَطَانِيَّتَيْنِ، وَصَحْنَيْنِ لِلطَّعَامِ، وَمَلْعَقَةً، وَكُوبًا لِلشَّايِ. وَبَقِيَ أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فِي نَافِذَتِهِ المَحْبُوبَةِ لِمَدَّةِ سَتَيْنِ وَنِصْفِ. هِيَ خَلُوتُهُ، وَهِيَ مَعْرَاجُهُ، وَهِيَ مَسْتَرَاحُهُ وَمَطْعَمُهُ، فِيهَا يَنَامُ، وَفِيهَا يَسْتَقْبَلُ ضِيُوفَهُ، وَلَمْ يَفْكَرْ قَطُّ فِي

تغييرها حتى نودي للخدمة العسكرية^(١).

ولقد كانت لحظات مهيبة تلك اللحظات التي وصلت فيها إلى أدرنة واستقبلني الإخوة هناك بكرمهم المعهود، وبعد الإكرام بدأنا جولتنا سريعاً.. زُرْتُ ذلك البيت الذي سكن فيه الأستاذ ومَرَزْتُ من ذات الزقاق الذي لطالما أوقعه في حرج شديد.

ثم انتقلنا إلى المسجد المبارك ودخلناه بخشوع ورهبة وسجدنا لله تعالى تحيةً لوجهه الكريم، ثم بدأ الشرح والتوضيح ولكني كنت أبحث هنا وهناك فسألني الإخوة ماذا تريد؟ قلت: أريد النافذة. فأشاروا إليها. واستأذنتهم أن يتركوني وحدي قليلاً مع هذا الكهف. وقفت أنظر متأملاً إلى هذه الغرفة أو المبيت أو ربما هي القصر المنيف بالنسبة لأستاذنا.. دخلتُ هذا الصَّرح بقلبٍ مرتجف.. جلستُ، واستلقيتُ وبكيتُ وتنهدتُ، فكم نحن محرومون من هذا التجلي.. لحظات قضيتها في نافذة الأستاذ كانت عامرة بالأنس والصفاء. وأيقنت عندها أن النقاء والصفاء لا يمكن أن يسلك طريقه إلى أرواحنا وقلوبنا ما لم يكن في حياتنا "حراء".

ثم عاش مرحلة تكهفية أخرى بالإيواء إلى سقف خشبي يوم عُيِّن قِيَّماً في أول مدرسة عمل بها، ثم دأب على حياة التكهف، وذلك بالإقامة فيما اصطلح على تسميته "الطابق الخامس"، وآل الأمر به في نهاية المطاف إلى أن يستقر من مقام الكهفية الروحية في الذروة، إذ اختار العيش التبتلي، جاعلاً بينه وبين الحياة مسافة من التقوى، من حيث مضى يفاعل المدنية المعاصرة بفكره وروحه وقلبه، مقلِّصاً من

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٣٦-١٣٩.

مطالب الجسد إلى حد أدنى من الضروري؛ ليتأتى له التسديد الحاسم. لقد هدَّ الجسر المادي الذي يصله بالحياة الفاتنة، وتخطى إلى العدو الأخرى من النهر (نهر التجرد)، وبات على هدي السلف، يلقي بأطواق النجاة إلى السالكين، يستنقدهم ويصمم لهم معابر إلى النهضة تقلهم بأقل التكاليف. إنه من موقعه ذلك، يقف متأملاً الجموع وهي تدور في الحلقة المفرغة، يبطش السيل الجارف بها، فتهلك النفوس، وتضيع النفائس، ولا يفتأ هو يحدو الجموع لما يصلحها، ويكفل لها النهوض والسعادات. وما زال كولن ينوّه بأسرار سورة الكهف، ويرى أنها أتم مدونة سلوك وضعها الخالق لعباده، يعتصمون بها إزاء التمحيصات الكفرية، وإزاء صولات الجبارين وغشمهم.

ففترة التكهف كما يراها كولن ليست انقطاعاً عن الحياة، أو انسحاباً يخلي الميدان للقوى الطاغية والمترتبة، وتركها تفعل ما تشاء، بل إنها اجتزاء لشطر من الوقت تتأهب فيه الروح، وتأخذ بأسباب القوة والثبات، تهيئة للشروط التي تكفل معاودة الجولة، قضاءً على القهر، وانتصاراً للحق^(١).

لذلك اهتم الأستاذ كولن بحياة القلب اهتماماً خاصاً، فهو بيت الحقيقة، وطريق الوصال والسلوك إلى الله تعالى، فيقول: "إن البناء القلبي والرعاية الروحية للفرد وتحول إيمانه ومعتقداته إلى جزء من طبيعته، يُعيّن حدود العقد وإطاره"^(٢).

(١) سليمان عشراي: هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، دار النيل،

القاهرة، ط ١، ٢٠١٢م. ص: ٨٦-٨٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٠٢.

فالكهفية هي الطريق لحياة القلوب. وحياة القلب بالطاعات وبالإقبال على الله تعالى وبالخدمة لخلق الله. وخرابه بالمعاصي والتكبر على أداء الخالق العظيم. وللقلب أهمية كبيرة ومكانة عظيمة، كونه موضع نظر الله سبحانه وتعالى كما ورد في الحديث الشريف: "إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"^(١). "القلب هو بيت الحقيقة.. إنه وحده الذي يستوعب الأشواق الربانية والآفاق الكلية ذات الصلة التي تربط بين الخالق والمخلوق!.. يفقه بالقلب أكثر من العقل، ويخفق قلبه فيشعر بحقائق الأشياء، وبه سعة لطيفة تشعر بمعنى الزمان والمكان الماضي والحاضر والمستقبل. إن القلب هو الذي يشعرك بعمق السعادة وبحرقة الشوق والجمال ورائحة الزهور والورد. إنه وحده الذي يدرك معنى ترانيم الروح وأشجان القلب، ويجعلك مع أصحاب القلوب تشعر بأعماق الحياة في الإسلام كما أنزله الله"^(٢).

ويرى الأستاذ أن الإنسان جسم وروح، وحقيقته الإنسان وسر حياته بروحه، فإذا اهتم بالجسم وأهمل الروح فتآكلت، فإن مصيره إلى الخذلان والضياع. وهذا ينطبق على الأفراد والجماعات والدول، هو ذا التاريخ -وما أشبهه بمقبرة للأمم المنقرضة- يصرخ عاليًا بصوت الحقيقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) التآكل الروحي والمعنوي في عالم الداخل الذاتي

^(١) أبو الحسين مسلم ابن الحجاج القشيري النيسابوري: (٣٦١/٥٨٧٤ م)، الجامع الصحيح، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٦م، كتاب البر والصلة، حديث رقم ٢٥٦٤، ص: ٦٥٥.

^(٢) عبد الحليم عويس: فتح الله كولن إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢م، ص: ٢٨-٢٩.

للمجتمع، يوصل إلى انقطاع الأنعم الإلهية عنه. هذه الآية الكريمة تذكرنا بقاعدة مهمة في الظهور والخذلان، أو العز والذل، وتحدد هذا الفراغ الهائل في مسلمي العصر الحاضر.

ولعلنا نوجز هذا الفراغ بالتآكل الذي أصاب المسلمين جميعاً في بنائهم الداخلي من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلّفهم بمراحل طويلة عن العصر في بنائهم الداخلي، وسواءً علينا في الحاصل إن كانت العلة في هذا التآكل أو التخلف هي الموانع الخارجية المتتالية منذ قرن أو قرنين، أو هي جهلنا وضعفنا وعجزنا. لكن الثابت هو أن أمة الإسلام تنزف الدم في القرون الأخيرة، وتبدو غير مبالية بمصادر قوتها التي بها انتصبت على قدميها وجعلتها في عزها وارثة الأرض حقاً وصدقاً. أرجوكم التفكير ملياً، هل نجراً على القول بأن الذين ادّعوا تمثيل الإسلام في مرحلة تعيسة من حياة شعبنا هم أصحاب حياة قلبية وروحية عميقة الغور بمقاييس الأوائل؟ وهل نشهد أن مسلمي تلك المرحلة كانوا في توتر وانشداد وحماس من أجل ديمومة نمط الحياة للصحابة الكرام، بله الرغبة إلى حياة كحياة الصحابة؟ كم وجهًا بهيًا نلّقَى في تلك المرحلة، يختار أن يموت عزيزاً على أن يعيش ذليلاً كما في القول الذي سار مثلاً: "إما الدولة في الأمجاد أو الغربان على الأجساد؟" وكم روحاً منوراً لم يستسلم أبداً لأعدائنا ولم يحد مطلقاً عن استقامة دربه؟^(١)

الأستاذ كان في جهاد عظيم لنفسه لتستسلم وتنقاد للإسلام وذلك لأن القلوب التي لم تتغذ به، ولم تتشربه تبقى فجة وفارغة،

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٤-١٥.

وحظوظها سوداء مظلمة. وقد تلتهم أحياناً وتُبهر بعض العيون، ولكنها لا تستطيع اللمعان طويلاً، ولا إضاءة ما حوالها أبداً^(١).

في كهفية المسجد، وبعد صراع مرير ضد النفس والشيطان، اكتسب كولن الطبيعة الثانية (وهي التي تعني عنده الرقي بالنفس والروح إلى مرتبة العشق) وأزال عنه الطبيعة الرثة، تماماً كما يجدد الطفل أسنانه اللبنية ليستتبت أخرى، أقوى وأصلب. كان المسجد رحماً تخلق فيه كولن واكتسب شخصية المهندس الروحي، المعبى بحمىة التعمير والعمران. فمن على أرضية المسجد وضع كولن التصاميم، وضبط البيداغوجية^(٢)، ورسم خطة العمل المستقبلي، ورفع عقيرته بالأذان، يستنفر الجموع ويراودها للسير وراءه، تصنع الغد^(٣).

فالكهفية ليست انفصالاً عن المجتمع ولا هروباً من الواقع بل هجرة إلى الله، ولإعادة التوازن الروحي عند الإنسان وفراراً إلى رب العزة تبارك وتعالى لإتمام البناء الروحي، فيقول الأستاذ عن ذلك في معرض تفسيره لسورة الكهف: "والحقيقة أن الكهف هو مكان لإتمام عملية الشحن، موضع لاكتشاف الإنسان لنفسه... لم؟ ذلك لأن النضال ضد الكفر (ولا سيما في الأوقات التي لا يوجد هناك أي توازن بين قوة الكفر وقوة الإيمان) وهزه ثم الانتصار عليه لا يتم إلا بعزم يقارب عزم الأنبياء.

(١) محمد فتح الله كولن: ترانيم روح وأشجان قلب، دار النيل، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٩، ص: ١١.

(٢) البيداغوجيا: مصطلح تربوي أصله يوناني ويعني لغويًا العبد الذي كان يرافق الأطفال إلى المدرسة، وبصفة عامة تعني البيداغوجيا مجموع طرق التدريس.

(٣) سليمان عشراي: هندسة الحضارة، ص: ٩٤-٩٥.

تأمل حياة الرسول ﷺ، ألم يقض مدة ستة أشهر في تأمل وتحنث في مغارة لأجل استكمال الاستعداد اللازم لتلقي الوحي؟ ونجد أن من جاء من بعده ممن ساروا على نهجه لا بد وأن في حياتهم فترة غار أو كهف. أجل هناك فترة غار في حياة الإمام الغزالي والإمام السرهندي ومولانا خالد والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي... فترة شحن، وفترة رجوع إلى النفس... فترة انزواء لتجميع الطاقة والقوة لمواجهة الإلحاد والكفاح ضده^(١).

مجاهدة النفس صنعت من رجال الخدمة رجالاً، ليسوا كأبي رجال في هذا العالم المادي، فهم يتنافسون على البذل والعطاء بكل تواضع ونكرانٍ للذات جعلت من يراهم رأي العين، يقول: لم يكن من المتّوقع لنا إطلاقاً على أي مقياس من مقاييس العالم الحديث أن نقابل رجالاً يملكون هذا القدر من المال والطاقة للعمل الخيري التطوعي يتصفون بمثل ما رأيناه من ورع وتواضع وتفانٍ منقطع النظر، يبتهلون إلى الله ليلاً ونهاراً أن يوسّع في أرزاقهم حتى يستطيعوا رعاية الآخرين دون أي استعلاء أو شعور بالفخر.. رأيناهم يعملون في نفس المجالات دون أدنى إحساس بالتنافس بينهم، بل الكثير من التعاون والتعاطف، لأن هدفهم أسمى وأعلى من كل قيمة بشرية قد تحض على حب الذات أو الأنانية، ولا أستطيع أن أخفي عليكم أو أخجل من أن أذكر في النهاية وبعد كل ما حاولته سابقاً من تقديم لوقائع مادية مثبتة، إنني كنت أشعر في هذه الجلسة التي جمعتنا بهؤلاء الرجال ليحكوا لنا عن انضمامهم لهذه الخدمة

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٩٧.

وتأثرهم بها، إننا كنا نقابل رجالاً ليسوا من البشر، ولكن صفات الملائكة كانت هي الأقرب إليهم^(١).

٣. الخلوّة "الكهفية"

دخل فتح الله في صراع مرير مع الشيطان، لكن هذه المرة ليس عن طريق السلوك الروحي، وإنما عن طريق الجدل العقلي والحجاج المنطقي، والسؤال المتسلسل الذي لا يلد إلا سؤالاً!... وصاحب كتب الفلسفة أيضاً زمناً، فورثته وسوسة قاتلة، وأسئلة محيرة حول قضايا عديدة.

وشاهد فتح الله عجزه وفقره معاينة، ووجد أن مجاهداته ورياضاته، وجميع ما اكتسب من معارف وعلوم، كل ذلك تبخر ولم يعد يجدي في دفع وسوسته شيئاً، وأدرك المعنى العميق لحقيقة أنه "لا ملجأ من الله إلا إليه"، وأن "القلب الذي لم يثبتته الله فلا ثبات له من دونه" ووجد أن نجاته إنما كانت بالدعاء والبكاء تضرعاً إلى الله^(٢).

والأستاذ كولن يصنع من الخلوات والبكاء حركة وبناء، تسري منه إلى طلابه وأتباعه، ونرى ذلك واضحاً في هذا الموقف الذي ذكره الشباب الملازم للأستاذ في خلواته وبخاصة من أواسط الثمانينيات إلى أواخر التسعينيات أن الأستاذ كان دائم الحزن والبكاء والتألم من حال المسلمين حتى إنه في يوم من الأيام دعا هؤلاء الطلبة وأمرهم بمغادرة "الطابق الخامس" وبالعودة إلى ديارهم، أي أنه طردهم من

(١) إيمان قنديل: "لقاء مع ماء الطاحون"، إحياء عصر الصحابة-٥، مقال منشور في صحيفة

حزب الوسط الجديد، بتاريخ ٧ أغسطس ٢٠٠٩.

(٢) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٦٣.

مرافقته، فحزن هؤلاء وعينوا وفداً لمحاورة الأستاذ ومعرفة السبب، فلما سمح لهم بدخول غرفته بعد يومين من القطيعة والهجران جلسوا فاحتجوا وعبروا عن عواطفهم، وبعد دقائق تحول المجلس إلى حلقة للبقاء، فبكى الأستاذ طويلاً وبكى الطلبة على إثره.

وقال الأستاذ: "إني أحمل همًا كبيرًا لكنني وجدتكم تضحكون وتمرحون وتستسيغون النوم، فكأن شيئًا لم يقع، وكأن أمة المصطفى ﷺ اليوم بخير وعافية... والحق أني أريدكم حاملي هم... فوالله لو أن الله تعالى أقدرنى لنثرت على قلوبكم شرارات من الهم، إذا لجفاكم النوم إلى الأبد"^(١) وكانت خلواته مفتاحًا لدعوته ومنارًا يقذف منه النور إلى القلوب.

٤. الجَلوة "المخالطة"

ثم أدرك فتح الله أن مجاهدة النفس، وتهذيب غرائزها؛ لا بد أن يكون من خلال الانخراط في المجتمع، وخوض غمار الحياة الاجتماعية، ومشاركة الناس همومهم وآلامهم... وأن العزلة الروحية المطلقة مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب. ثم شاهد عياناً أن مجاهدة النفس وترويضها، بالسير في مسلك الدعوة إلى الله، وخدمة الدين ونصره في البأساء والضراء، هو أكبر ضمان لتحقيق توازنها الروحي، وحفظها من الانزلاق إلى منعطفات الهاوية.

وشيئاً فشيئاً بدأت علاقات الفتى الداعية تتطور، وتفتح مختلف دوائر المجتمع.. ثم صار يكتشف سر وجوده في "أدرنه"، وحقائقه

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة، دار النيل، القاهرة، ط١،

الوظيفة الربانية التي ساقه القدر من أجلها إلى هنا! وبدأ فتح الله يحب مدينة أدرنه بل وجد أن روحه قد تعاطفت مع أشجانها، فصار يئن لأنينها ويكي لبكائها! وإذا بقلبه الشاب يتسع ويكبر؛ حتى أصبح يستوعب بحبه كل أهلها، ويعانق صالحيتها، ويعطف على ضلّالها وجهالها، ويشفق على فساقها وعصاتها! وصارت أدرنه جزءاً من حياته، وركناً من أركان كيانه^(١).

ترى لو كان الأستاذ منعزلاً عن الناس في معبده هل سيحقق مشروع الخدمة كل هذه القفزة الحضارية الفريدة؟ أو أنه كان مخالطاً للناس على الدوام دون خلوة للرياضة النفسية والإيمانية، هل ستبلغ الخدمة هذا المدى؟

النموذج الذي ميز الخدمة في موقفها من العزلة والمخالطة يزن بميزان دقيق بين القطبين، فلا يغلب جانباً على جانب، يقول الأستاذ: "وفي الحقيقة ليس في الخلوة الماورائية تجرد عن الخلق واعتزالهم، مستشهداً بمقولة جلال الدين الرومي، "إن الإنسان في مثل هذه الخلوة كالفرجال، إحدى ساقيه في أفق اللاهوت والأخرى في قطب الناسوت"^(٢).

ولم يصل كولن إلى هذه القناعة، ولا إلى هذا المسلك، بيسر وسهولة؛ لكنه عانى المعاناة كلها؛ حتى هداه الله إلى أقوم سبيل، فيورد الأنصاري حادثة وقعت للأستاذ في "أدرنه" هي نقطه تحول في حياته الخاصة، بل في حياة "البراديم كولن" كله، لولاها لكان الأمر غير ما

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٤٤-١٤٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية، ص: ٥٢.

هو عليه، ولشهدنا طريقة "تصوفية متخدرة خالية من الروح".
ففي "أدرنه" حاصرته الفتن والابتلاءات من كل جانب، فكان
كغصن أخضر ينتصب وحيداً في غابة من الحطب المشتعل، وآثر
الرياضة الروحية القاسية حصاراً لنفسه الأمانة، أن تضعف بين يدي
فتن "أدرنه". وكان سلوكه في هذه المجاهدة غير مألوف، فلم يكن
ينام إلا قليلاً، ولا يأكل إلا قليلاً، ولا يتكلم إلا قليلاً، واستمر به
الحال على ذلك، فاستمر الفتى في رياضته الروحية الغربية حتى
صار إلى نوع من الشعور بالاستيحاش من الناس، وتوالت عليه
المشاهدات والرؤى، فتجلت له نفسه مرة على صورة قطة، ثم على
صورة دب، ثم على صورة غوريلا.

بينما هو كذلك من حال غريبة إلى حال أغرب، حتى حدثت
الحادثة المفصل حيث تهاوى جسم السالك الحيران؛ حتى أقعد
المستشفى مدة نصف شهر كاملة تحت الرعاية الطبية، وهنالك تلقى
خبير مرض والده، فازدادت حالته سوءاً وتدهوراً، وكانت تلك مناسبة
للدخول في منزلة المراجعات.

وأخيراً أدرك فتح الله أن نفسه لَبَسَتْ عليه، ودَلَّسَتْ عليه الباطل
في ثياب الحق، فأتته من حيث لا يحتسب، وجعلت تستدرجه إلى
الهلاك المبين. أخيراً وجد باب الخروج، واتضح له معالم مسلكه
الجديد، وأدرك أن مجاهدة النفس، وتهذيب غرائزها؛ لا بد أن يكون
من خلال الانخراط في المجتمع، وخوض غمار الحياة الاجتماعية،
ومشاركة الناس همومهم وآلامهم. وأن العزلة الروحية المطلقة
مغامرة حقيقية غير مضمونة العواقب! ثم شاهد عياناً أن مجاهدة

النفس وترويضها، بالسير في مسلك الدعوة إلى الله، وخدمة الدين ونصره في البأساء والضراء، هو أكبر ضمان لتحقيق توازنها الروحي، وحفظها من الانزلاق إلى منعطفات الهاوية^(١).

من خلال هذا الوصف الأدبي البديع لما حدث لكولن في "أدرنه" نفهم موقف الرجل أولاً، وموقف الخدمة تبعاً، من أحد أعقد إشكالات الحركة والدعوة في العالم الإسلامي اليوم، أي العزلة والمخالطة؛ أيهما المشروع وأيهما البدعة؟ لمن تكون العزلة ديناً ولمن تكون عصياناً؟ وهل كل الناس مطالب بالمخالطة؟

الجواب الشافي من منظور "البراديم كولن" يكمن في هذا السلوك الذي سلكه فتح الله، وكاد يفقد فيه مهجته، إلى أن كسب الرهان وأكسب للملايين من المنتمين، ممن صاروا يعطون لكل حال حقها ومستحقها، بعيداً عن الرفض المطلق أو القبول المطلق^(٢).

٥. إنفاق المال

نشأ فتح الله وقد تشرب ثقافة الإنفاق وأنها من أعظم وأجلّ القربات إلى الله تعالى.. ومن ذلك أن جريدة أسبوعية "جريدة الرجل الحر" كانت الصوت الوحيد للمسلمين في تركيا، فكان فتح الله يطلب منها أربعين نسخة زائدة فيشتريها جميعها بنقوده ثم يوزعها مجاناً! وكان يشتري أحياناً بكل راتبه نسخاً من "رسائل النور" وبعض الكتب التي يراها مفيدة، ثم يوزعها مجاناً كذلك! حتى إنه ربما

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٤٢-١٤٤.

(٢) محمد باباعمي: البراديم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص: ٦٠-٦٢.

استدان من أجل ذلك، أو ربما ظل أيامًا يصارع الجوع^(١)! لدى الأستاذ فلسفة عامة في إدارة رأس المال، فأى حركة إن لم يكن لديها قدرات تستطيع أن تسيّر الموارد البشرية والأخلاقية والفلسفية والفكرية في ذاتها لا يمكن أن تستمر على المدى الطويل، لذلك فأصناف التجار ينتجون رأس المال ويديرونه.

عند الأستاذ مصطلح الاستغناء، وهو مصطلح صوفي في الأصل ولكن الأستاذ يحمل عليه مسؤولية حركية واجتماعية أكثر... يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧)، والغنى خُلِقَ من أخلاق الله عز وجل. وهذا الاستغناء حوله الأستاذ إلى استغناء عن باقي الحركات، فالحركة لم تأخذ أي معونة من الخارج، فالأستاذ يرفض أي مساعدة من خارج الحركة، لأن الحركة لا بد أن تولد مقوماتها من داخلها، فكان إذا احتاج إلى بيت جديد للطلبة كان بإمكانه أن يحصل على تبرعات من خارج الخدمة ولكنه لا يقبل، ويقول نتظر حتى نجمع المال من عندنا.

هنا جاءت فكرة كيف نكسب المصدر المالي من عندنا "المورد الذاتي" وهذا لا يمكن من الصدقات والزكاوات والتبرعات، فالأستاذ جاء بتفسير جديد للزكاة، واستخدم مصطلح الإنفاق بدلاً من مصطلح الزكاة. فالإنفاق أوسع من الزكاة، فالإنفاق هو العطاء المفتوح بلا نهاية، وقد فسر الأستاذ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٤)، بطريقة مختلفة عن التفسير التقليدي وهو أن (هؤلاء يعطون زكاة أموالهم)، ففسرها الأستاذ

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٤٨.

أن هؤلاء المؤمنين يعيشون ويعملون ليعطوا ويدفعوا من أموالهم. وهذه مشروعية الأصناف -التجار- على وجه الأرض، فالمدرس عمله في المدرسة، أما التاجر فعمله في الإعطاء، وعلى هذا ربي الأستاذ الأصناف، رباهم على الإعطاء، فكما يربي الطلاب ويتزكون بالذكر فإن الأصناف يربون ويزكون بالإعطاء، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣).

الخدمة التي أرسى بنائها الأستاذ كولن نجحت في التحول بزكاة مجتمع التكف (اقتصاد التقشف والتقلل التي سادت عصر الانحطاط) إلى زكاة التساهم والتشجيع التمولي المنتج والفائض عن الكفاية.

"الأخذ يفرق"، فالصحابه رضي الله عنهم في لحظة الأخذ تفرقوا فمهما كانت طريقة التقسيم تفرّق، حتى وإن لم تُعلن، سيبقى الآخر نافرًا عن الآخر، لذلك نحن نعرف قصة غزوتي أحد وحنين، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)، فالأخذ يفرق، وكل مشروع تجديدي يحمل بذرة الأخذ مألّه إلى الفناء والفرقة. كل مشروع تجديدي أُسس على فلسفة الأخذ لا تنتظر منه كثيرًا، ستصل إلى اللحظة التي سيختلفون فيها. الأستاذ فتح الله أُسس الخدمة على دلالة العطاء وليس على دلالة الأخذ؛ تعطي بلا حساب، تنفق وقتك ومالك وجهدك وطاقتك وعواطفك. والأستاذ هو أول من أعطى كل شيء ولم يترك لنفسه أي شيء، فليس له شقة ولا بيت ولا غرفة ولا سيارة، حتى في أميركا لا يوجد عقدٌ كُتِبَ فيه محمد فتح الله كولن، فالعطاء يوحّد والأخذ يُشَتِّت.

٦. مسلك العزوبية

كثير من علماء الأمة الكبار لم يتزوجوا، حتى اشتهروا بلقب "العلماء العزاب!" والمقاصد لها تأثير في الأحكام. والحقيقة أنهم هم "علماء المحنة!"، فأغلبهم كان تفضيله للعزوبية راجعاً إلى طبيعة الزمان الذي عاشوا فيه، أو إلى طبيعة المهمة التي تحمّلوها، أو إليهما معاً^(١). تحدث الأستاذ في مقالة "الزواج وعش الزوجية" عن أهداف الزواج، فقال: "ليس الزواج من أجل الحصول على اللذة، بل هو لتشكيل أسرة، ولتأمين بقاء الأمة ودوامها، ولإنقاذ أحاسيس الفرد وأفكاره من التشتت، وللسيطرة على أهوائه وغرائزه الجسدية. وكما في مسائل فطرية عديدة، فإن اللذات ليست إلا جوائز للترغيب".

ويحث الأستاذ المقبلين على الزواج أن لا يكون همهم المظهر الخارجي أو اللباس لرفيق العمر، ولا بد من التوفيق والتأكد بشكل جيد قبل عقد النكاح لتكون أسرة مستقبلية مباركة. "كم من أسرة مباركة أسست من اللحظة الأولى -باللجوء إلى الحق تعالى- على أساس سليم من العقل والمنطق، فأصبحت طوال حياتها بمثابة مدرسة تخرج طلاباً نافعين يُعدّون ضماناً لبقاء أمتهم ودوامها. وأي زواج لا يتم بتفكير وتمحيص لا يخلف وراءه سوى أزواج بُعيون دامعة وأطفال في ملاجئ الأيتام وجرائم تفتت القلوب والأكباد"^(٢).

وعلى هذا الطريق ارتفعت أعلام أئمة كبار من العلماء العزاب، كشيخ المفسرين أبي جعفر الطبري، والإمام الزمخشري، والإمام

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٦٥.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٥-١٤٦.

النووي. ثم جاءت أزمة المحن! فدشنها الإمام ابن تيمية -وهو الفقيه الحنبلي الصارم- بالتزام عزوبة قهرية! وأنى له أن يتزوج في ظلمات السجون... وكيف يتزوج بديع الزمان النورسي في زمن المشانق والمحارق؟... وعلى معالم الطريق جاء الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله!... لكن فتح الله لم يكن يلغي فكرة الزواج من ذهنه مطلقاً، إلا أنه لم يشغل بها باله إشغالاً!... حتى قرر الإضراب الكلي عن اتخاذ زوجة، والتفرغ الكامل لخدمة الدين والدعوة الإسلامية. فصار ذلك جوابه الثابت لكل من يعرض عليه فكرة الزواج.

الأستاذ اختار مسلك العزوبية في فترة المحن، فأراد ألا يكدر حياة امرأة بزواج لا تكاد تسكن إليه حتى يختطف منها، وألا يجرع أطفالاً أبرياء ألم التجويع والترويع كلما قرعت الشرطة الأبواب في غسق الليل، أو كسر الجنود رتاجه بأعقاب السلاح! وفتح الله وإن كان أسداً في الوعي فإنه إزاء الأحبة شفوق ودود.

فلما أنهى الأستاذ فكرة الزواج كان كل من يفتح معه موضوع الزواج يُردّ برفق لا يخلو من صرامة، فيقول "إنني لا أريد أن يرفرف أمام عيني سوى علم خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن قضاياه"^(١). حياة العزوبية التي عاشها الأستاذ كانت من أهم عوامل نبوغه في الإدارة والترتيب. فقد كان يدير شؤونه ويرتب أولوياته صغيرها وكبيرها. والأستاذ كولن هو إنسان روحاني، ولكن العزوبة عند أهل الله هي الإعلان الأظهر عن الخيار التبتلي الذي لا مجال فيه للبس أو استرابة، وأن من يختارها نهجاً في الحياة يكون في وضع مثالي، من

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٦٦-١٦٨.

حيث التأهب للعمل الصالح، والتأهل للسعي والاحتساب الدائمين. فالعزوبة التي يلتزمها المبجلون، لا تعني فحسب، التفرغ للعبادة التي هي مناط وجودهم، ومحور حركتهم وسكونهم، ولكنها تعني أيضاً تجسيد مقاصد الإيمان الأساسية التي هي السير بالناس والمجتمعات نحو البر، وإرشادهم إلى الخدمات والأداءات والتمميزات التي تعزز في الإنسان خيريته، وتجعله يمضي قدماً على طريق تحصيل رضا الله^(١).

٧. الذكر والدعاء

الدعاء غذاء الروح. ويجب إعطاء هذا الغذاء للروح دون انقطاع. الدعاء سحر يمنح الإرادة جناحين. ولا يفهم سر هذه القوة إلا المداومون على الدعاء. الدعاء يجتاز الأسباب الظاهرية، وهو إعلان ثقة بقدرة الله تعالى من جهة والضعف البشري من جهة أخرى^(٢).
الدعوة والدعاء - عند الأستاذ فتح الله - شيان متلازمان لا ينفكان... فالدعوة عبادة، ومخ العبادة الدعاء كما ورد في الحديث الشريف... فنستطيع أن نقول دون حرج إن الدعوة كلها دعاء، وليست شيئاً آخر غير الدعاء^(٣). وإن أفضل حال للإنسان حال يدعو به ربه ويناجيه ويشغل بالأذكار الواردة من سيد المرسلين عليه أكمل التحايا^(٤).

(١) سليمان عشراطي: الانبعث الحضاري في فكر فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م. ص: ٢٢١.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٠٧.

(٣) أديب إبراهيم الدباغ: الضاربون في الأرض، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ص: ٨٤.

(٤) محمد فتح الله كولن: مجموعة الأدعية المأثورة، أسكودار، إسطنبول، ٢٠٠٦م، المقدمة، ص: ٥.

والدعاء نداء وتضرع، وتوجه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلب ورغبة وطرح لما في الصدور من آلام. والداعي يشعر بضالته أولاً، وبعظمة صاحب الباب الذي يتوجه إليه ثانياً، لذا يكون متواضعاً جداً... والدعاء أهم من كثرة الصلاة وكثرة الصيام من حيث كونه ينم عن خالص العبودية؛ لأن معنى الدعاء هو طلب أمور تتعدى التصورات وتتجاوز الأسباب والمسببات، من حضرة المولى المسبب للأسباب.

ولا بد لكل مؤمن من المداومة حيثما كان فليس للذكر وقت معين؛ فالصلاة التي هي سيّدة العبادات وعماد سفينة الدين تقام في أوقات مخصوصة، وهناك أوقات تكره فيها الصلاة، أما ذكر الله فله الحرية المطلقة في السير في أجزاء الزمان، وليس مقيداً بأي حال من الأحوال، كما هو مضمون الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩١) فليس له حدّ لا زماناً ولا حالاً. ذكر الله كالدم الساري في عروق كل عباده... وهو كذلك في كل زمان. فلم يكن شيء بغير ذكر الله، ولن يكون شيء إلا به اليوم. فليس لنا وسيلة لقوة ارتباطنا بالله تعالى إلا ذكر الله. وإن الغفلة عن ذكر الله وترك الأوراد والأذكار يورث فينا ضعفاً شديداً، ويرخي تعلقنا بالله تعالى.. حفظنا الله من ذلك!.. ومن أراد أن يرى عمراً مليئاً بالمناجاة والبث ليل نهار، فلينظر إلى حياة رسول الله ﷺ. فلينظر ولتشهد الإنسانية معنى الدعاء، وآداب الدعاء، وما يكتسبه الإنسان بالدعاء مادياً ومعنوياً... فلتشهد، ولتعتبر به... وعلى كل مؤمن قد وهبه الله تعالى أنعمًا متنوعة،

أن يكثر من الأوراد والأذكار، بقدر درجته ومرتبته. ولا بد له أن يشد من قوة تعلقه بربه. وإلا فما أدى ما عليه من حق لموقعه^(١).

٨. البكاء

فالبكاء سيرة حياة عند الأستاذ يرافقه في كل مراحل حياته، طفولة وشباباً وكهولة، فهو يسمع ويرى ما لا يسمع الآخرون ويرون "رجل وحده يسمع أنين الأسوار القديمة... فيبكي... ورجل وحده يسمع صهيل الخيل القادمة من خلف السحب، ونداء الغيب المحتجب... ويرى ما ليس يُرى.. فيبكي! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛ فتبكي لبكائه كل الدنيا! ولقد رأيت يبيكي طفلاً وشاباً، ثم كهلاً وشيخاً! ولم يزل يبكي ويبكي..."^(٢).

فقد ورث من والدته كثرة البكاء، وكثرة التضرع إلى الله تعالى ومداومة الذكر، فيقول: "كانت تضع مجموع "حزب أنوار الحقائق النورية"^(٣) عند رأسها على السرير، وهي تختم قراءته كل يوم... وتكشف سيرة العائلة عن أن فيها سلسلة من "البكائين"؛ عيونهم كثيرة الدمع من خشية الله. تبدأ السلسلة من الجد "الملا أحمد"، والجددة "مؤنسة هانم"، ثم الوالد "رامز أفندي"، والوالدة "رفيعة هانم"، وتستمر مع "فتح الله" نفسه؛ الذي أضحي "كبير البكائين"

(١) محمد فتح الله كولن: القلوب الضارعة، توغرا للكتب، نيو جيرسي، ط١، ٢٠١١م. المقدمة، ص: ه-و.

(٢) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٤-١٥.

(٣) "حزب أنوار الحقائق النورية": عبارة عن كتاب للشيخ سعيد النورسي، وهو يحتوي على مجموعة من الأذكار والأوراد والأدعية.

المعاصرين؛ إذ لا يكاد يلقي عظة أو درسًا دون بكاء^(١).
 فالأستاذ كولن يحترق، لذلك هو يبكي إذ يتدفق هاتفه على
 شاطئ صدره، فينادي مِنْ عَلَيَّ منبره: أَلَا يَا خَيْلَ اللَّهِ أركبي!.. ويا
 سيوف البرق التَّهْبِي!.. وَيَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!^(٢).
 وللبكاء عند الأستاذ قصة، ففي مقالة له بعنوان "هذا موسم البكاء"
 يفتتحها بمقطوعة فريدة فيقول:

"ذهني" من صروف الدهر يبكي،

البستانُ يبكي... والبستاني...

صَوَّح الزهرُ، وراح الوردُ يبكي دمه،

مُدَّ هجر البلبُلُ الوُلْهُانُ روضتَهُ... (ذهني)^(٣)

فالبكاء هو سمة الصالحين على مدى العصور، يبكون وينتحبون
 ويصنعون البحيرات من دموعهم، بحيرات للأسرار تشكلت من
 دموع الصديقين لم تزل ترفدها منذ قديم الزمان دموع الحواريين،
 وأشجان الصحابة الكرام، ومكابدات النُّسَّاك المتعبدين، وزفراء
 أويس القرني، وبكاء الحسن البصري، وشهيق أبي العالية الرياحي،
 وأسرار الإمام الجنيد، وأنفاس بشر الحافي، ومواقع الحارث بن
 أسد المحاسبي، ومواعظ الإمام عبد القادر الجيلاني، ومجاهدات
 الشيخ أحمد زروق الفاسي، ومواقع عبد الواحد بن عاشر

(١) إبراهيم البيومي الغانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي" محمد فتح الله "البسام" الأناضولي،
 ص: ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٤.

(٣) محمد فتح الله كولن: "هذا موسم البكاء" مقال منشور في مجلة "يَعْمُور" التركية، أكتوبر
 ٢٠٠٢؛ الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الأندلسي، ومشاهدات بديع الزمان النورسي^(١).
الأستاذ مرهف الحس، صافي القلب. والحق أن صفاء القلب،
ورقة الروح، ورهافة الحس، وسمو الذوق... كلها ثمرات يانعة
طيبة لبذور الحب والعشق والشوق، وقد بذرت في أرض المجاهدة
والذكر والفكر.

وشتان بين البكاء على الأطلال، على إيقاع "فقا نبك..."، والبكاء
الذي يسقي الكون عطفًا ورِيًّا، ويحيل القلوب الصخور حبات للندى
والنسائم، وزهورًا عطرة ندية، تنشر الشذى، وتزرع الأُنس والأمن.
البكاء الأول قد يكون فطريًا، ظاهريًا، غير مكتسب؛ أما الثاني
فهو نتيجة جهاد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، ورياضة روحية كبيرة؛
﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٥٥)؛
حتى إن فتح الله قد جرب هذا النهج واعترف أنه وعمر، فقال: "نعم،
إن السير في مجاهدة الإنسان نفسه لبلوغ هذه الذروة من صفاء
القلب ورقة الروح شاق وعسير، ولكن بلوغ الهدف في الذروة أيضًا
حظٌ عظيم وسعادة كبرى"^(٢).

ويوجه الأستاذ من يسأل عن سر هذه الدموع الدافقة من قلوب
أهل القلوب، قائلاً: "إذا كنت تروم دموعًا انبثقت من أرض الإيمان
والعرفان، وهاجها الحبُّ والوجد والشوق، فهذا يقتضي معرفة
بالحق جل وعلا، وإحساسًا به عند كل كائن، وتشوفًا لوصالٍ مجهول
الأوان ليلاً ونهارًا، ووجلاً من مخافته وارتعادًا من مهابته، وتخشعًا

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ٢٣-٢٤.

(٢) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١١٤-١١٥.

عميقاً بين يدي حضرته العلية. وهذا اللون من الدموع نادر عزيز، لم يحظَ بمثله إلا ثلثة من السعداء.. كما أن استمراره منوط بأن تقرأ آثاره تعالى في كل شيء، وتحس به في كل شيء، وتبحث عنه في كل شيء، وتعرفه لدى كل شيء، ويذكره لسانك عند كل شيء^(١). وقد شاهدت مقطع فيديو للأستاذ يتكلم فيه بدموعه قبل لسانه، وبحاله قبل مقاله، عن "غربة القرآن"، القرآن الذي هو كتاب الله، المشع بالأنوار أصبح يتيماً، والأستاذ يصيح: "أفديه بروحي" ومن حوله يصيحون، فالكثيرون لا يعرفون لسان القرآن، وقد تركته الأمة، فأصبحت هي في واد والقرآن في واد آخر. وأثناء كلامه، كان فتح الله يعتذر عن تقصيره عن إبلاغ الدين هذا المبلغ العالمي الكوني العظيم؛ وهو يجهد بالبكاء، ولم تتوقف دموعه المنهمرة على خديه ودياناً، قائلاً: "عزأؤنا أننا على طريق المتألم الأواه للجميع -محمد ﷺ الذي قاسى من الآلام والأوجاع- سائرون"^(٢).

هذا المقام العالي الذي وصل إليه الأستاذ هو نتيجة تربية ومجاهدة للنفس فيقول: "والذين يُغذّون أرواحهم كل يوم بمثل هذا الوصال، ومن الخيالات المتداعية المترافقة لجميع هذه الوصلات وللوصول الكبير، ومن أنواع الجمال المتدفقة إلى مشاعرهم، ومن براعم الأمل النابتة في صلب عباداتهم، ومن الأذواق الروحية التي يحصلون عليها من المعاني الهادرة من القلوب والعيون المؤمنة،

(١) محمد فتح الله كولن: "هذا موسم البكاء" مقال منشور في مجلة "يُغْمُور" التركية، أكتوبر ٢٠٠٢؛ الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

(٢) مقطع فيديو من مواعظ الأستاذ فتح الله كولن إزمير / تركيا / ٢٤ يونيو ١٩٩٠م، بعنوان "غربة القرآن".: <http://www.youtube.com/watch?v=vctspwraJSU>.

يرجعون لأنفسهم وينغمرون مع هذه المعاني في صمت مهيب حيث يدعون أنفسهم لأحلام الوصال الكبير الذي سيتحقق في ذلك العالم الآخر، ويتخيلون أنفسهم وكأنهم يسبحون في نهر ساحر وأنهم أبحروا إلى ما فوق الزمان^(١).

أما من يتصنعون البكاء فهم مخادعون لأنفسهم ولمن حولهم، ويحذرنا من هذه الدموع الباردة التي تنهمر لغير وجه الله، فإن التباكي الذي لا ينبعث من صميم القلب عذاب للعيون وإهانة للدموع وخديعة للناس كافة. ومن هنا فإن تصنع البكاء لا يُفرح إلا إبليس، بل ويلوِّث إكسيرا عجبيا صنعه الخالق ليطفى نيران جهنم، ويُبطلُ مفعوله الخارق بما يحمل من آفة الرياء^(٢).

ويقول الأستاذ: "ما أسوأ حظ من تقدم به العمر ولم يصل بعد إلى فهم وشعور العبودية لله تعالى! وما أكثر خسارته مع تيسر الريح له. ولو أدرك هذا لكان الأجدر به أن يبكي بحرقة وينتحب ندما وأسى بدل الضحك والقهقهة"^(٣).

ويبين متى يكون البكاء؛ يكون عندما يتقد الضمير فتطفئه دموع العين فيقول: "عندما يشتعل الروح يشتوي الوجدان ويتقد، عند ذلك يبدأ الإنسان بالبكاء. في هذه الأثناء تهرع الدموع للنجدة فتطفئ لهيب الروح. وأنا أعتقد بأن العلاقة بين عين الماء (أي النبع) وبين

(١) محمد فتح الله كولن: ترانيم روح وأشجان قلب، ص: ١٣٠.

(٢) محمد فتح الله كولن: "هذا موسم البكاء" مقال منشور في مجلة "يغمور" التركية، أكتوبر ٢٠٠٢؛ الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

(٣) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٨.

عين الإنسان هي هذه العلاقة^(١).

ويعبر الأستاذ عن حقيقة البكاء عنده فيقول: كثيراً ما نحس بأحاسيس ومشاعر في أعماق أرواحنا، ولكننا نعجز عن التعبير عنها، عند ذلك نئن تحت ألم العجز ونقول كما قال الشاعر محمد عاكف:

أبكي وأنوح..... ولكن لا أستطيع إثارة البكاء!

أحس بالألم..... ولكن لا أستطيع بث لواعجي

آه من قلبي الأخرس.....! كم أشكو منه!

أجل! هناك العديد من الأشخاص الذين لا يستطيعون التعبير بدقة عن أحاسيسهم العميقة عندما يتحدثون أو يكتبون فيطوون قلوبهم على آلام هذا العجز^(٢). الأستاذ يبكي لواقع الأمة التي تعيشه، يبكي فيبكي كل من حوله... الأشخاص يبكون، الجدران، الأعمدة، من يرى بكاءهم يبكي ربما قبل أن يعرف سبب البكاء، ويشفق على الباكي من شدة نحيبه. وفي أحد مقاطع الفيديو كان الأستاذ يستعرض فيه أصحاب رسول الله ﷺ ثم يتوقف بالحديث عن سيدنا خالد ؓ وكيف أنه تم عزله وسلم القيادة دون أدنى تردد وبدون أي تفكير في أي شيء من مباحج الدنيا بل كل ما يهمه أن يحصل على الشهادة، ثم تحين وفاة سيدنا خالد ؓ على فراشه وهو يقول: "ليس هناك بقعة في جسدي إلا وفيها جرح سيف أو طعنة رمح، ولكنني لم أمت فارساً، وها أنا ألقى حتفي كميتة البعير، فلا نامت أعين الجبناء" وهنا يبكي ويصيح الأستاذ وهو يقول: "حبذا لو

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٨١.

(٢) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣١-٣٢.

متنا وبقي هو... عاش من غير أثقال... البطل الذي لم يكن له لباس صيفي ولباس شتوي... مات ولم يترك شيئاً".

ثم يعود الأستاذ إلى نفسه وهو يرى عجزه وتقصيره فيقول: "أشكو إلى الله نفسي، أشكو أفكاري، أمراضي، للأسف لم أكن مثل خالد، لم أكن قدوة لكم، عاشوا في الدنيا وكأنهم يعيشون في فرح الآخرة، لم يفكروا في حق التمتع والاستفادة والكسب. لكن أنا أخذت خلال ربع قرن راتباً من الدولة.. كذبت عليكم كنت مرأياً..". وهنا يمسك بالمصحف ويرفعه ويقول مخاطباً إياه: "أعتذر إليك، لقد كذبت عليك، كان ينبغي أن يتوقف قلبي عندما أضمك إلى صدري.."^(١).

إن شفافية روحه جعلته بكاءً، حتى لقبه بعض محبيه بـ"النأي" لكثرة معزوفاته البكائية، لكن ليس البكاء على الأطلال، بل البكاء الذي يحيل الانفعال إلى فاعلية، بفضل (الأفكار) الرشيدة التي صارت (أفعالاً) سديدة، وصلت به إلى منتهى الفاعلية^(٢).

لذلك فهذه الدموع عزيزة عند الله، دموع الصدق والإيمان. فمن أراد الفتح والعطاء والمنة والفضل من الله فليقبل بقلبه على مولاه، وليسكب العبرات، فبعض قطرات الدموع قد تكون وسيلة لفتح قلوب عديدة^(٣).

ثالثاً: منهجه في تكوين الإنسان الحركي

لقد نهج الأستاذ في دعوته منهجاً فكرياً حركياً وقد أوضح رؤيته

(١) سليمان عشراي: هندسة الحضارة، ص: ٦٠.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٨٨.

(٣) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٩٩.

الدعوية ملخصًا إياها بكلمتي الحركية والفكر، حيث يقول: "يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر... حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن جهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبذلك الأنظمة. وإن أهم شيء وأشدّه ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات، ونفتح صدورنا أمام معضلات، الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل، فإن لم نتحرك نحن، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغمًا عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزنا عن حماية جزيئاتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا.

ينبغي على الذين يبرمجون لبقاء الذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميولهم وقلوبهم ووجدانهم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توترًا تامًا في الجوهر الإنساني. نعم، يقتضي الوجود بداية، ثم إدامة الوجود، ذراع الإنسان وجناحه وقلبه ورأسه. ونحن إن لم نضحّ منذ الآن بقلوبنا ورؤوسنا من أجل وجودنا في الغد،

فسيطلبها منا الآخرون بوقاحة في مكان وزمان لا نفع لنا فيه قطعاً. إن أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي هو أن يكون وجودنا ذاتنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، (ويعني الحفاظ على خطنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلها).

ومن لا يرتبط باعتبار عالمه الخاص بعموم الوجود، ولا يحس بعلاقاته مع الكائنات، وينكفي في روابط مطالبه الفردية والجزئية في مواجهة الحقائق الشاملة للعالم، فإنه يقطع أواصر ذاته عن الوجود كله، ويجردها، ويسقطها في حبس الأنانية القاتل. ولا شبهة في أن الباعث على انقطاع الإنسان عن الوجود وبقائه وحيداً بذاته، هو الشهوات البدنية والصراعات الواقعة في أطراف الجسمانية، وكل سلوان فارغ الفحوى وذوي بُعد وهمي، يرجع في جذوره إلى تلك الشهوات البدنية والصراعات الجسمانية. إن دنيا رجل الحركية والفكر الحقيقي، وسعادته في دنياه، ذات تلونات عالمية الشمول مؤطرة بالأبد. فكأن دنياه لا بداية لها ولا نهاية، أو أنها تتجاوز تصوراتنا.

ولذلك، نتذكر أمثال أولئك حينما نقول "الإنسان السعيد". وهل تسمى "سعادة" بحق سعادة لها نهاية أو بداية؟ إن الحركية - من مقرب أفضل - هو احتضان الإنسان للوجود كله بأصدق وأخلص القرارات، والتدقيق فيه، والسير من خلال المعابر التي فيه إلى اللانهاية، ثم إحلال دنياه في فلك غاية الخلفة الحقيقية مستخدماً الطاقة الكلية

لذكائه وإرادته بالسر والقوة التي اكتسبهما من اللامتناهي^(١).

١. بداياته الدعوية

بدأ فتح الله يخرج من عزلته.. وحاول أن يربط علاقات مع المجتمع العام، فوجد نفسه أنه لم يكن قد تعرف إلا على بضعة أفراد من الشباب. فانطلق ذهنه يفكر بقوة في فتح مسلك جديد، وإحداث ثغرة في الجدار الشيطاني الذي بات يحاصر المدينة! ذات يوم بعد أن سلم من صلاته بالناس، انتصب واقفاً، وبدل أن يذهب إلى زاوية نافذته، ذهب مباشرة إلى المقهى! وهناك بمجالس الشاي، انخرط فتح الله مع الناس مشاركاً إياهم الحديث عن هموم الدين والوطن! وما هي إلا لحظات حتى أخذ الفتى بزمام الكلام، فاستقطب الاهتمام، والتفتت إليه العيون والأذان! ثم أوقد من لهيب روحه مدافئ تجمع حولها كل الحاضرين! فما تفرق عنه المجلس إلا على شوق للمزيد! كان يوماً ممتعاً ومختلفاً؛ فقد وجد أن حماسه الديني قد توقد أكثر، وأن رصيده الإيمان قد ارتفع بقلبه عاليًا! فتجلت له مدارج المسلك الجديد واضحة المعالم، وعلم أنه إنما خلق لهذا الطريق!

ثم بدأت علاقاته الدعوية تؤتي أكلها بإذن ربها، فكان -أول الأمر- إذا أذن المؤذن غادر المقهى إلى المسجد فردًا! وبعد أيام استطاع أن يصطحب معه مصلياً جديداً واحداً! ثم بعد أيام أخرى اصطحب اثنين، فثلاثة وأربعة.. وتوالت كرامات الهدى تتدلى عناقيدها بالمقهى؛ حتى قويت بها جماعة المصلين، وأينعت شجرتها! ثم

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٥٧-٥٨.

جعل يحارب العادات السيئة في جلساته مثل التدخين، وما والاه، فبادر كثير من الأفواه المؤمنة إلى التطهر بماء التوبة^(١).

هكذا بدأ حياته الدعوية يختار المكان والظرف المناسبين لدعوته.. فيقتحم اقتحام الفرسان ليصل إلى هدفه ويحقق مراده. ويهتم الشيخ فتح الله كولن كثيرًا بالدور الدعوي للمعرفة، فلا جدوى من العلم إن لم يقترن بالتبليغ والإرشاد، كما أنه لا جدوى منه إن لم يقترن بعمل^(٢).

ولقد كان يعرف أن الحركة التي وفقه الله إلى استحداثها عشية تلك الانعطافة، والتي بدأ في التجهيز لها على مدى عقود حالكة اشتدت فيها قبضة الطغيان، تُضيق الخناق على الإيمان، وتحارب رموزه، كانت حركةً دفع بها الله إلى الوجود ولا رادَ لأمر الله؛ ذلك لأن كولن يعتبر أن خطته الخدمية هي حراك مستمر في الزمن، وإن خفي عن الأعين، انتهت إليه موجة الدفع المنبعثة من أعماق التاريخ، فأنعشته وبعثت فيه الروح.. تلك الموجة الولود التي حصلت على يد صاحب الرسالة الأشرف ﷺ وصحابته المكرمين، وشاء الله لها أن تستمر في الزمان، تتجدد على يد الأجيال المتلاحقة كلما تهيات أسباب اليقظة وانتهت إليهم مدود الروح المنبعثة من عهود العز، فينهضون ويستأنفون السير، ويمضون على سبيل يشاء أن يوطئه لدينه ولأتمته خادمة الإنسانية.

سدّد كولن حيث أخفق الماديون والإستراتيجيون المغترون

(١) فريد الأنصاري: عودة الفرسان، ص: ١٤٤-١٤٥.

(٢) عبد الحليم عويس: فتح الله كولن إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، ص: ١٣٦.

بأيديولوجياتهم، والعُمون بقوانين الجدلية والحتمية والتحدي، وبتوهّمات دوغمائية ربطوا بها فهمهم للتاريخ، فلم يعودوا معها يلتفتون إلى الأبعاد القدريّة التي هي جزء راسخ في ماهية الوجود وحياة البشر وسير الأحداث واسترسال أطوار التاريخ.

لقد ظل كولن متيقنًا من أن حركته الدعوية التي بدأت بسيطة وغرة، وغير ذات طوّل، سترتب عنها النماء المتزايد، والتوسع المتسارع، والبركات المترادفات التي ستغدو بها قوة تنويرية وبنائية تشق طرقها بالدعوة إلى الحقيقة والسلام، وستطال روافدها الخيرية كل صقع وبقعة من العالم، وستصل إلى الناس كافة^(١).

"إن الفكر عمل حركي داخلي. فالفكر المنظم والهادف هو التساؤل من الكائنات بذاتها عن المجاهيل التي تجابهنا في وتيرة الوجود، والاستماع إلى جوابها عنها. أو بتصريح آخر، فعالية الشعور الباحث عن الحقيقة في لسان كل شيء وفي كل مكان، بتأسيس قرابة بين ذاته والوجود كله.

إن روح الإنسان يلتف ويتألف مع العالم بالفكر وفي ظل الفكر، فيتعمق باستمرار في ذاته وداخل نفسه.. ويمزق قوالب العقل المعاش الضيقة ليفيض خارجًا، ويتحرر من الأوهام المنسلة إلى أغوار الروح.. يتحرر، فيوائم الحقائق التي لا تُزيغ ولا تُضل. وبعبارة أخرى، الفكر هو تفرّغ داخل الإنسان من أجل أن يتسع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله بالذات. هذا هو أول مدارج الفكر، وأما المدرج الأخير في ذلك السلم فهو الفكر المتحرك.

(١) سليمان عشارتي: الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، ص: ١٢٩-١٣٠.

إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية.. في حال لا يمكن به فصل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني. فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور، خاصة شعبنا، باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية.. وظهر بارزاً بالأعماق التي يختزلها في ذاته كلما توجه إلى الإسلام، كما يتسامق البذر إلى السنبل متى ما استقر في صدر التراب، وكما يفتح البرعم حين يستقبل النور"^(١).

الأستاذ كولن في مطلع شبابه، وبحافز ما كان يسكن فؤاده من تطلع وإحسان، شرع في استقطاب أفراد تلاميذ إلى حلقاته التنويرية، يعينهم على دروسهم، ويفتح بالحكمة صدورهم للإيمان. ولقد بدأت التجربة محفوفة بكثير من المشاق، واقتضت أحماً من الصبر والروية، ثم مع السنوات بدأت المجاميع تبرز، وتطور أسلوب التواصل، وازدادت الحلقات عدداً، ثم شب التلاميذ وصاروا أكفاء، وتحولوا بدورهم إلى وسائط تلقين ودعوة، ثم نفذت الدعوة إلى الأسر والبيوت وأماكن العمل، وسرت بعد ذلك كما يسري الماء في الأرض، أينما مر أمرع"^(٢).

عندما بلغ محمد فتح الله العشرين من عمره عين إماماً في جامع "أج شرفلي" في مدينة "أدرنه"، حيث قضى فيه سنتين ونصف السنة في جو من الزهد ورياضة النفس، وكان قد قرر المبيت في الجامع وعدم الخروج إلى الشارع إلا للضرورة. وحين جاء موعد أداء الخدمة العسكرية، أداها في "ماماك" و"إسكندون"، ثم رحل إلى أدرنه ومنها

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٥٨-٥٩.

(٢) سليمان عشراطي: الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، ص: ١٤١.

نقل إلى "كيركلار إلي"، ثم إلى مدينة إزمير عام ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م. حيث بدأ عمله الدعوي في جامع "كستانة بازاري" في مدرسة تحفيظ القرآن التابعة للجامع^(١).

كم كانت طويلة المسافة الزمنية بين جلوس أول طفل في حلقة الأستاذ، وبين اكتمال جهوزية الطوابير من رجال الخدمة، وخرجهم إلى الأرض، وانتشارهم في الأفق يضعون بكل حزم وتؤدة وصبر أسساً لحضارة الغد السعيد.

بدأت بجلسة عقدها مع تلميذ سار به إلى المسجد؛ ليكون أول المكتتبين، وانتهت جهود الاستقطاب بانتظام حلقة، ثم بأخرى، ثم بحلقات، ثم بذيوع الكلمة الطيبة في الآفاق، وبعد أطوار تكاثرت الجموع، وولدت الخدمة.

في البداية لا بد من البدء، وقد تكون البداية فكرة يتلقفها ذو حظ من أهل الفاعلية، فيستنبتها ويهيئها للإثمار، أو قد يكون فرداً تسكنه جذوة عشق، فهي لا تني تنقذ في روحه، وتشق به درب التمحيصات، وتتقلب به من طور إلى طور، أشبه بخطوات الأنبياء حين تسوقهم إرادة الله إلى حين يبعثون. ومن الفرد يكون الاثنان، ثم الثلاثة، ثم الجماعة، ويد الله أبداً مع الجماعة.

باشر في مطلع شبابه إدارة ملتقيات الفتوة، وتسيير المخيمات المدرسية، يكتب لها الميزانيات عن طريق التبرع والإحسان، ويوفر لها العدة ووسائل الإيواء والنقل، والتموين والتطبيب، والتنشيط وسائر ما تتطلبه حياة البناء المركز من ضمانات السلامة والبهجة والمردودية

(١) عبدالحليم عويس: فتح الله كولن إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، ص: ٩-١٠.

التكوينية وما يجعل منها أفقًا تكوينيًا مفتوحًا على الحياة، ومعززًا لأسس التنشئة السليمة، فاكسب بيداغوجية إدارة المال والأعمال، واستحكمت فيه قدرة استتلاف الطوائف من الفتيان والشباب، وبذلك اكتملت لديه خبرة القيادة والسيطرة الحكيمة، وانضفت إلى ما احترفه من رئاسة منبرية كان يمارسها بوصفه إمام مسجد، الأمر الذي جعل الأداء الوظيفي والترشيدي، بل والمقاصد تتباين باطراد مع ما كان نظراؤه يؤدونه في مساجدهم، ويتوخونه في وظائفهم^(١).

٢. الواعظ المتجول

منذ السبعينيات تألق كولن كنجم في عموم تركيا، لكنه يشرق ولا يحرق، ينير، ولا يُقير، يضيء ولا يسيء، يوحد ولا يبدد، يجمع ولا يقطع... فقد ظل طيلة ثلاثة عقود وهو في حركة لا تعرف الراحة، حيث ألقى آلاف المحاضرات في شتى صنوف المعرفة، وعقد آلاف اللقاءات وحلقات الدرس العامة والخاصة، داخل المساجد وفي المنتديات العامة، وألقى آلاف الخطب والمواعظ في مدن وقرى تركيا شرقًا وغربًا^(٢).

بدأت وظيفته الرسمية للمرة الأولى في عام ١٩٥٩م، عندما فاز بالامتحان الذي رتبته "مديرية الشؤون الدينية". ودامت هذه المرحلة ثلاثين عامًا قضاها إمامًا واعظًا ومدرسًا للقرآن الكريم وإداريًا. فقد عمل واعظًا في محافظات؛ "أدرنه"، و"كيركلار ألي" و"إزمير"، و"أدرميت"، و"مانيسا"، و"جنق قلعة" وغيرها. وفي هذه المرحلة من

(١) سليمان عشراي: الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، ص: ٢٢٠.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن.. بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ٨٨.

وظيفته الرسمية كواعظ، تشكلت تجربته الأولى وممارساته وحواره وعلاقاته مع الجماهير.

بدأت النشاطات الأولى لـ"فتح الله كولن"، كشخص واعظ متنقل يجوب المحافظات، إذ اعتبر جانبه الخطابي واتصاله مع الجماهير ولقاؤه بهم من أهم السمات التي انعكست على الخارج منه. كان طعامه وشرابه وملبسه منسجماً مع الموقف الاجتماعي والنفسي للجماهير التي يخاطبها. عاش وهو يهتم جداً بكل حركة تبدر منه، وبكل كلمة تخرج من فمه، ويتصرف بشعور شخص موضوع تحت المراقبة. لذا فهو يقظ على الدوام. ولا ينبع هذا من رغبته في الاحتفاظ بحسن ظن الجماهير المتدينة، إنما هو تصرف شخص يشعر برقابة الله تعالى على كل حركة من حركاته، وكل كلمة من كلماته. فهو شخص زاهد وعابد و"درويش" على النمط الحديث. فالشعور بالعبودية هو الدافع وراء جميع تفاصيل سلوكه وتصرفاته ومشاعره وأحاسيسه العميقة، ووراء وقاره وهدوئه. فكل حركة من حركاته وكل طور من أطواره وكل تصرف من تصرفاته.. مدروس تماماً ومنضبط ومعتدل^(١).

عمل واعظاً متجولاً، فطاف جميع أنحاء غرب الأناضول، وفي عام ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م هده الله إلى بدء إقامة المخيمات للشباب، وكان في هذه المخيمات يربي النفوس والعقول ويظهرها من أدراؤها، ويذكرها بخالقها وربها. وكانت النفوس عطشى والأرواح ظمأى إلى مثل هذا المرشد الذي ينير أمامها الطريق إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم ﷺ.

(١) محمد أنس أركنه: محمد فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية"، ص: ٣٨-٣٩.

كان يرتب المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية، ويعقد الندوات والمجالس واللقاءات الخاصة، يجب فيها على الأسئلة الحائرة التي تجول في أذهان الناس وخاصة الشباب؛ فكانت أجوبته بلسماً شافياً لعقول وقلوب هؤلاء الشباب والناس، مما جعلهم يلتفون حوله ويطلبون إرشاداته^(١).

ويهتم الشيخ فتح الله كولن كثيراً بالدور الدعوي للمعرفة، فلا جدوى من العلم إن لم يقترن بالتبليغ والإرشاد، كما أنه لا جدوى منه إن لم يقترن بعمل في نطاق صاحبه وفي نطاق الآخرين.

٣. الخطابة

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن براعة الأستاذ فتح الله كولن ومهارته في الخطابة ساهمت بشكل كبير في إعطاء سمت معين وسمة معينة لحركته؛ فاستطاع بقابليته الخطابية هذه جلب انتباه الجماهير وإثارة اهتمامهم. وفي أحاديثه وخطبه يلاحظ -بجانب كونه مفكراً غزير العلم والمعرفة- يحرك العواطف والأحاسيس أيضاً، أي إنه خطيب يخطب على المنابر بوجدانه وقلبه كما يخطب بفكره وعقله. لذا فكما يتم تحليل مقالات فتح الله كولن ونشاطاته الثقافية الاجتماعية، يجب تحليل شخصيته من خلال ألفاظه الشفوية وأحاديثه الثقافية.

عاش منذ صغره حياة يطبعها طابع الحيوية والحركية والحساسية والدقة، وقد انعكست هذه الحماسة على خطبه التي كان لها طابعها الخاص به. وعندما صعد المنبر اكتشف التأثير الإيجابي للوعظ على الجماهير منذ عصور عدة. وقد نذر نفسه وهمة لاستعمال فن

(١) عبدالحليم عويس: فتح الله كولن إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، ص: ١٠-١١.

الخطابة كواسطة للإرشاد والتبليغ، ولإثارة مشاعر الجماهير فيما يخدم المجتمع والدين والملة. وأظهر بقابليته الفذة في الخطابة، مدى فاعلية "الكلمة" وتأثيرها، حيث كانت هذه الفاعلية تاريخية عاشت عصوراً عدة.

ولعل الخطابة كانت أهم جوانبه انعكاساً إلى الخارج. فالعديد من الناس لا يعرفون عنه سوى أنه خطيب مفوه. ولسنوات طويلة قد ظلت جوانبه الأخرى كالعلم والعرفان وقريحته الواسعة مغمورة في ظل هذه القدرة الفذة على الخطابة. بينما كان يملك معرفة واسعة في العلوم الإسلامية وفي العلوم الغربية المعاصرة. ولكن هذه القابليات بقيت في السنوات الأولى من نشاطه كجوانب غير معروفة. ثم بدأت مقالاته وأشعاره تظهر في مجالات مختلفة. واهتم لسنوات طويلة -إلى جانب العلوم الدينية- بالعلوم الحديثة أيضاً كالتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والأدب والفن. وكان يستعمل هذه العلوم بنسبة حاجة الجماهير للتثقيف والإرشاد. أي استعمل هذه العلوم كواسطة للتبليغ.

هناك الشيء الكثير الذي يمكن أن يُذكر حول قابلية الخطابة لدى الأستاذ فتح الله كولن، ولكن نستطيع أن نقول باختصار بأن "قوة الكلمة" التي همدت منذ زمن ونامت، قد بعثت من جديد واستيقظت بفضل أسلوبه الحماسي الجديد وطابع إخلاصه.

وبفضل قابليته الفذة في فن الخطابة وإخلاصه وقدرته في تحريك المشاعر الدينية والملية لدى الجماهير، وبفضل هذه الخطب والمواعظ، تجددت آمال وحماسة الجماهير التي كانت قد همدت

منذ زمن طويل. لقد رجع الآلاف بل عشرات الآلاف من الناس إلى وعيهم في جو هذه الخطب الدينية، واكتسبوا الثقة بقيم حضارتهم^(١). بعد رياضة نفسية شاقة استغرقت أعوامًا عدة، تطهرت عنده جميع حالات الانفعالات البشرية غير المنضبطة وتصفّت، ومرت جميع مشاعره من مصفاة هذه التربية. فنراه وهو في ذروة الحماسة في خطبه، وقورًا مسيطرًا على نفسه، بينما نرى الكثير من الخطباء يفقدون السيطرة على أنفسهم في خضم شعورهم الحماسي وفي جو حماس الجماهير، وبعد أن تنحسر الحماسة تبقى هناك العبارات غير المناسبة التي تفوهوا بها، وتكون مصدرًا لإثارة المشاكل لهم؛ بينما كان الشيخ فتح الله كولن، حين يرتقي المنبر ينشر جواً من الوقار والجدية فيما حوله، فلا يسمح لنفسه ولا للجماهير أن تبدر منه أو منها كلمة أو تصرف غير لائق. كان يشعر قبل خروجه أمام الجماهير بالآم تشبه آلام المخاض. وبالتالي يعتني بعناية فائقة ألا يخرج من فمه أي فكر أو كلام لم يأت أو ان ولادته. فما لم نفهم مدى قدرته على الخطابة، وما لم نستوعب أسلوب حياته الحساسة التي تشكلت حولها فلن ندرك مدى تأثير هذا التراث الخطابي على مقومات الحراك الذي تشكل حوله^(٢).

٤. التدريس

التدريس عند الأستاذ يحتاج إلى دراسات معمقة، هو أولاً استوعب الفلسفة ودرسها واستوعب الدراسات الحديثة، حتى

(١) محمد أنس أركنه: محمد فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية"، ص: ٣٧.

(٢) محمد أنس أركنه: المرجع السابق، ص: ٣٩-٤٠.

المنهج التدريسي العثماني تبناه وطوره، تخلى عن بعض المصادر وتبنى بعض المصادر، وأخذ القضية في إطار المصادر التراثية المعروفة، مثل التفاسير وكتب الحديث وكتب الرجال والقراءات... والذين درسوا عند الأستاذ كانوا على مراحل؛ فمنهم من درس في التسعينيات وفي بداية الألفية، ومنهم من هو مستمر حتى هذه الساعة. وهنا يظهر كيف أن الأستاذ يكوّن الإنسان من خلال المصادر، أو يعرض الشباب الذين يُكوّنهم على المصادر. فهو يعرضهم على المصادر ولا يعرض المصادر على الشباب، ولذلك من خصائص هذا المنهج ليس فيه امتحان للمعلومات كما هو مألوف في المنهج الكلاسيكي ينتهي الطالب بامتحان. لأنه لا يعد بالضرورة فقيهاً من درس الفقه أو مفسراً من درس التفسير، وإنما هو يعد رجلاً حركياً في الميدان، ولكنه مستوعبٌ لمبادئ التراث ومستوعبٌ لمصادره، ولكن بغير امتحان.

وطالبُ العلم عند الأستاذ ليس ذلك الإنسان الذي يحمل أكبر قدر من المعلومات، وإنما هو الذي يستوعب المعنى أكثر لينزله على أرض الواقع، لذلك نلاحظ الذين تخرجوا على يديه يتميزون بهذه الديناميكية والحركية. وهي ليست منفصلة عن مصادرها ومبادئها، فهذه الديناميكية مربوطة بهذه المصادر. وإذا فهم هذا الأمر جيداً سنكتشف معنى الطالب عند الأستاذ.

ومجلس الأستاذ له هيئة في قلوب الحاضرين من تلامذة الشيخ وغيرهم، والأدبُ الجَمُّ باسط ذراعية على الجميع، والهدوءُ يخيم على المكان إلا من بيان أو شرح أو مذاكرة، بل من أراد أن

يسأل بأدب كامل وبلا جدال. ولكلّ أحد هنا أن يسأل ما يريد، غير أن أسلوب السؤال المحلّي باللياقة والأدب الكامل هو الذي يلفت الانتباه أكثر من مضمون السؤال، حتى من الجواب نفسه؛ إذ الأسلوب مرآة يتجلى فيها أدب الإنسان. ولا يستطيع أحد أن يتوقع مسبقاً ماذا سيكون الردّ على سؤاله. وكذلك لا يتوجّه أحد بسؤال شخصي ليحصل على جواب يؤيّد أفكاره الثابتة وآراءه المسبقة. وإن كان هناك من يتقدّم بهذه الغاية، فكأنه لا سبيل له للحصول على جواب يلبي حاجته؛ حيث لا مجال هنا للجدل والجدال والادعاء والتحدي، الأمر الذي سيعكّر صفوه ويقضي على جوّه الروحاني.

بل الحاضر في هذا المجلس لأول مرة، الضيف على هذا المكان -والأصل أن يكون جسوراً أكثر من غيره- لا يعرف ما الذي انتابه، وما الذي أمسك لسانه عن البوح عن مكونات قلبه، وعن السؤال عما يدور في ذهنه، فيقول: "كان هناك مئات من الأسئلة تدور في بالي، أسئلة كنتُ عزمت على التوجه بها إلى الأستاذ الفاضل، ولكنني لم أتمكن إلا من قليل منها. ما كان في كلامه صيغة أمرٍ قطّ، غير أن الذي يحفّ كلامه كان شيئاً آخر فوق الأدب واللياقة؛ حيث كان أدب المسئول (المجيب) ولياقته يفوقان أدب السائل ولياقته بكثير. أنا الذي حاولت أن أعيش وفق مبادئ الإسلام طوال حياتي على الصعيد الشخصي، وأتمتع بفكر حرّ وروح منطلقة من القيود، ولا أستحيي من طرح الأسئلة، وكذلك لم أجعل قضية التعلّم سبب تكبر، ولم تأخذني في سبيل العلم عزة، فما الذي منعني من طرح جميع أسئلتني يا تُرى؟

يبدو لي أن الجواب يكمن في قول عبد الله بن المبارك إذ يقول:
"قد يكون الاستماع للدرس اشتراكاً فيه"^(١).

٥. منهج التدريس في حلق الأستاذ

من لا يعرف ليل الأستاذ لم يعرف الأستاذ، ومن لا يعرف علاقة الأستاذ بالعلم والتعليم، لم يدرك حقيقة الأستاذ، ولا دلالة الخدمة... والحق أن الصفة التي لا تنفك عن الأستاذ هي صفة "المجدد"؛ وإذا ما رمنا تفصيلاً قلنا إنه مجدد في الدرس والتدريس، مجدد في الفكر والمعرفة، مجدد في المنهج والطريقة، مجدد لأمر الدين والتدين... ولكن أكثر المجالات التصاقاً بحياته هي مكابدة العلم، والصبر فيه وله.

أ- غاية العلم: الغاية من الدرس والتدريس عند الأستاذ تتمثل في "إيصال الإيمان إلى أفق المعرفة، وتعميق المعرفة بالمحبة"، فهي إذن نيل رضا الله تعالى، والاستجابة لأمره بالدعوة والإرشاد، وقيامًا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢).

ويوضح الأستاذ الغاية من العلم، فيقول: "بما أن الحياة الحقيقية بالنسبة للإنسان تكون قائمة بالعلم وبالعرفان. لذا الذين يهملون التعلم والتعليم يعدون أمواتاً وإن كانوا على قيد الحياة. ذلك أن الغاية من خلق الإنسان هي النظر والتأمل وتحصيل المعرفة ونقل ما تعلمه إلى الآخرين... إن الغاية من تعلم العلم هو اتخاذ المعرفة مرشداً وهادياً للإنسان ولتنوير الطرق التي ترقى بالإنسان نحو

(١) علي بولاج: ثمانية أيام، مقال منشور في جريدة الزمان التركية، ١٩ مايو ٢٠٠١.

(٢) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٢٥٠.

الكمالات الإنسانية. لذا فالعلوم التي لا تتناول الجانب الروحي للإنسان تكون عبئاً على صاحبها. وكل معرفة لا توجه الإنسان إلى الأهداف السامية ليست إلا عبئاً للقلب والفكر لا فائدة منها.

العلم هو أن تعرف

أن تعرف نفسك

فإن لم تعرفها

فالعفاء على ما قرأت (الشاعر يونس أمره)

يُعد العلم الذي وضحت غايته وهدفه وسيلة بركة دائمية لصاحبه، وكنزاً لا يفنى. والذين يملكون مثل هذا الكنز يكونون بمثابة نبع ماء سائغ شرابه يرده الناس طوال حياتهم وبعدها، ويكونون وسيلة خير. أما الفرضيات الجوفاء التي تلقي الشكوك والريب في القلوب، وتعم الأرواح والتي لا تملك أهدافاً واضحة فهي كومة من المزابل التي تطير حولها الأرواح الكدرة واليائسة، وتكون فخاً ومصيدة للأرواح. ورجل العلم الحق هو الذي يعمل ويُجري بحوثه في ظل أصدق البيانات والمعلومات، وينظمها في ظل التجارب العلمية وعلى هداها، لذا يكون باله مطمئناً على الدوام. أما بعض النفوس المسكينة المحرومة من معرفة الحقيقة فتظل تغير طريقها واتجاهها، وتقضي عمرها في إطلاق الحشرات والأنين، لأنها لا تستطيع التخلص من أوهامها المريضة.

إن قدر كل شخص وقيمه مرتبطة بمضمون وغنى العلم الذي حصله. والذي يستغل علمه في مجال الشائعات تكون قيمته بقيمة تلك الشائعات. أما الذي يستغل علمه ويستعمله كمنشور في تحليل

الحوادث والأشياء، ويوجه علمه لإضاءة المناطق المظلمة والطيران وإنارتها بعلمه ومعرفته للوصول إلى الحقائق الموجودة في ما وراء الطبيعة، فقدره وقيمه بقيمة علو طيرانه^(١).

ب- الإقليم الروحي: إنَّ ما يتميز به جو الدرس من روحانية وواردات وفيوضات يجعل مجرد الوصف الأدبي قاصراً عن إيفاء التجربة حقها ومستحقها، ولذا يصدق أن يقال عنها: "من ذاق عرف"؛ فحلقة الأستاذ ليست قسماً كلاسيكياً، يملي المعلومات، ويعرض النظريات، ويجري الامتحانات، وكفى. ولكنها إقليم روحي، ومعبّد حقيق، وميدان للشحن والشحن القلبي والعقلي على السواء.

ج- الامتداد العثماني: تضرب حلقة الأستاذ بجذورها في التراث الإسلامي بعامة، والتراث العثماني بخاصة؛ ومن ثم كان منهج الدرس كالاتي: "يقوم الأستاذ بعرض المادة على طلبته وهم يستمعون، ثم يتذكرون معاً على نمط السؤال والجواب. وحسب المنهج المتبع في هذه الدروس يُقدّم الدرس السابق ملخصاً قبل الانتقال إلى الدرس التالي. وفي هذا الإطار التربوي والتعليمي السائد في هذه المدارس يكلف مساعدو الأستاذ (طلبته المتقدمون) بمذاكرة ما ألقاه من الدروس مع الطلبة.

د- تطوير المنهج التقليدي: من أصول فكر الأستاذ فتح الله أنه يحترم الماضي، ويرنو للمستقبل، ويعمل في الحاضر؛ وهو يبغض الاجتثاث من الجذور، ويمقت التهوين من تراث الأمة في جميع مراحلها؛ وهو مع ذلك لا يتحجّر، ولا يقبل التنميط في الوسائل والمناهج والآليات؛ ففي منهج الدرس، إضافة إلى استفادته من المدارس العثمانية، طور

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠-١٢.

تقنيات عديدة، وأضاف مصادر جديدة، وأحدث أساليب مفيدة؛ ولقد استفاد من مناهج التربية والتعليم المعاصرة أيما استفادة، ولم يقف منها موقف المنبهر، ولا موقف الناقم.

هـ- التواضع والخلق الحسن: من فرط تواضع الأستاذ أنه لا يستعمل ألفاظاً تنم عن الفرق بين العالم والمتعلم، وإنما يقول: "إننا نذاكر مع الإخوة"، ثم إن نقده لأي رأي لا يأتي بأسلوب مباشر، لكن بصيغة متأدبة غير متكلفة.

و- رغبة الطالب وفراسة الأستاذ: العلم من أرفع أنواع الحب والعشق؛ فمن أحب تعلّق، ومن عشق تبخّر؛ ولذا يحرص الأستاذ دومًا على أن يُقدّم الطالب إلى الدرس بباعث من عنده، وتوجّه من قلبه، وهو في ذلك يراعي أحاسيس الطلبة، ويتحسّس نبضات قلوبهم، وخطرات أفئدتهم، بفراسته التي تحيّر معاصريه. وفي الأثر: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله" (رواه الترمذي).

ز- اختلاف الرأي: يعيّر الأستاذ عن رأيه للطلبة المشاركين في دروسه، منبهاً أنه يمكن أن توجد آراء ووجهات نظر مختلفة لا تتعارض مع القواعد الأساسية للدين، بل لا بد أن توجد؛ ويعلّل ذلك بأن كل شخص يُعتبر ابن الزمان من وجه؛ ثم إن لكل زمان واردات هامة حسب الفترة والظروف التي يحيط بها في تفسير جوانب الدين القابلة للتفسير (التأويل)، من جهة أخرى. والواجب على كل مسلم أن يدرس ظروف زمانه الذي يعيش فيه، حاملاً معه وارداته، وأن يطبق القيم التي يؤمن بها في الواقع.

ح- حرمة العلماء: يرفض الأستاذ كل تنقيص أو خدش في العلماء

الفظاحل، ولا يسمح بأيّ قول ينال منهم، أو يستخفُّ بهم، كأن يقال فيهم "إنهم لم يفهموا هذه المسألة" أو غيره. ومن ذلك أنه "كثيراً ما يؤكّد على وجوب التأدّب تجاه أقوال ووجهات نظر العلماء في دراسة أصل من الأصول الإسلامية؛ وإلى جانب ذلك يعبر عن رأيه في المسألة، بشرط أن يوافق محكمات الدين ولا يناقضها قائلاً -مثلاً-: "الإمام ابن كثير هكذا قال، إلا أن هناك -قاصداً نفسه- لابن قليل وجهة نظر"، أو "للفقيه والقطيمير أيضاً تعليق وملاحظة"، هكذا كان يعبر عن وجهة نظره في غاية التواضع.

ط- التحضير للدرس: ويصدق أن نقول عن مجالس الأستاذ "إنها ليست صالوناً للكسالى"؛ ولذا فإنّ الطالب الملتحق بحلق الأستاذ يصل الليل بالنهار، ولا يلتفت إلى تعب ولا مرض ولا داع للنفس والهوى؛ ومن ذلك أنه يذاكر الطالب جيداً قبل المجيء إلى الدرس، وقد يستغرق ذلك سواد الليل كله؛ حيث يحلل العبارات ويحاول فهمها، مستعيناً بالمنجد، والمعجم الوسيط، ولسان العرب، وتاج العروس بدايةً، ثم بسائر الكتب من الفقه، والتفاسير، والشروح، وسائر المصادر والمراجع التي يحتاج إليها الطالب، ويبدل قصارى جهده في تحضير الدروس. وأثناء الدرس يقدّم الطلبة مادتهم في حضرة الأستاذ، وهو يقوم من آن لآخر بتوضيح ما خفي، ويجب على الأسئلة، ويضيف وجهة نظره وتعليقاته على آراء العلماء الذين يقرأ لهم، بأدب واحترام بالغين.

ي- تمرُّس المعاجم والقواميس: يقول الأستاذ أحياناً: "لا أدري ماذا تفعلون أنتم، ولكنني أنظر إلى بضع كلمات في المعجم كلَّ يوم"،

وبهذا التلميح يعوّد الأستاذ طلبته على استخدام المعاجم لتعلم اللغة بطريقة صحيحة، وضبط الكلمات مع فوارقها الدقيقة. ويذكر أنّ بديع الزمان النورسي كان يحفظ من القاموس المحيط عن ظهر الغيب أكثر من ألفي صفحة، حفظًا متقنًا.

ك- العلاقة بالكتاب: ليس مثل الكتاب مدرّسًا ومعلّمًا؛ ومن ثمّ حرص الأستاذ على ربط طلبته بأمهات المصادر، إضافة إلى مدارستها في الحلق؛ فحين يجد الأستاذ أنّ ثمة كتابًا جديرًا، وهو ليس مما قرّر في الحلقات، يأذن لطلبته بتلخيصه، ثم عرضه على المجموع؛ وبهذا عالج معضلة كثرة الكتب وندرة الوقت.

ل- اختيار الكتاب: عندما ينوي الأستاذ تدريس كتاب في مجال ما، يقول لطلبته "هناك كتب حول هذا الموضوع بهذه المميزات، وبإمكانكم أن تختاروا واحدًا منها ثم ندرسه"، وأحيانًا يوجه الإخوة إلى كتاب معين رآه مهمًا، ذاكرًا لهم مميزات. وهو حريص على أن يُظهر الطلبة شوقهم لمطالعة هذا الكتاب، ومن ثم يتخذ مقررًا لهم يدرّس في الحلق. وقد يتوافق أحيانًا اختيار الطلبة والأستاذ لكتاب واحد.

م- منهج التلخيص: يصل حجم المادة الملخّصة إلى عُشر الكتاب عادة، لا يزيد على ذلك، وقد ينقص؛ ويتم العرض أمام الطلبة الآخرين، ويردّفه الأستاذ بملاحظات، أو إضافات، أو يثير حوارًا حول مسألة معينة؛ حتى يكون الجميع قد استوعب روح الكتاب الملخّص، دون أن يضطروا إلى مطالعته كلية.

ن- علم السؤال: الأستاذ فتح الله سؤال، محبّ لإعمال العقل في استشارة أسئلة جديرة؛ وهو يدفع طلبته إلى ذلك، ويشجعهم في

ذلك؛ ويؤكد على أن تكون الأسئلة المطروحة مفيدة، عميقة، مناسبة للسياق، وهو دومًا يستشهد بالأثر الذي جاء فيه: "حسن السؤال نصف العلم".

س- مواعيد الدرس: تعقد جلسات الدرس عمومًا بين صلاتي الفجر والظهر، وفي أحيان كثيرة تعقد بعد الظهر أيضًا. وفي فترات كان الدرس يبدأ بعد الفطور بقليل ويستمر حتى الظهر، وفي أخرى يبدأ بعد الفجر مباشرة حتى الفطور ويستمر بعده. وقد سبق أن عُقدت مجالس للدروس قبل صلاة الفجر بساعة، واستمرت حتى الأذان، فكتاب "تحفة الأحوذى" مثلاً، قد تمت قراءته في هذه الفترات التي قبل صلاة الفجر بساعة وحتى الأذان. ولقد تمت قراءة كتاب "كنز العمال" بجميع المجلدات الستة عشر في رمضان واحد، في المجالس التي بعد صلوات الفجر والمغرب والتراويح والسحور، ولقد تستغرق الجلسة الواحدة ٧ إلى ٨ ساعات تقريبًا.

ع- الخطأ في الدرس: كيما يتفادى الطالب الخطأ في قراءة النص المكلف به فإنه يذاكره بحيث لا يخطئ إعرابًا أو ينطق الكلمات خطأ، ولذا يستعين بالكتب التي ألفت في هذا المجال عند اللزوم، إذ إنَّ قراءة نصوص القرآن فالحديث النبوي وتلفُّظ أسماء الرواة صحيحًا خاليًا من الخطأ من الأمور التي يشدّد عليها الأستاذ كثيرًا، ويعبّر عن اهتمامه بها بقوله: "قد تخطئون في قراءة نصوص عربية، ولكن لا تخطئوا في قراءة الآيات". وإذا ما أخطأ الطالب صحَّح الأستاذ الخطأ في غاية الرفق والخبجل حيث يهمس بالصحيح همسًا.

ف- القراءة التحقيقية: لا تُقرأ المصادر أثناء الدرس قراءة رتيبة

جافة؛ فالأستاذ أثناء المطالعة يحلل، ويقارن، ويحقق، وينقد... فيعطي للنص المقروء نفساً جديداً؛ وهو يعلم طلبته فقه التنزيل جنباً إلى جنب مع فقه التأويل؛ ولقد يستدعي مرجعاً أو أكثر للتدقيق في مسألة عنت، أو إشكال حصل. وهو مع ذلك يستحثُّ فكر طلبته، ويدفعهم للحرية في التعبير عن الرأي بأدب جم. ويحرص على أن يتم تنقية واردات العصر من خلال هذه المصافي، والوصول بها إلى تأويلات جديدة.

ص - لكل فنٍ منهجه: درّس الأستاذ اللغة بفروعها، والفقه والأصول، والتفسير والحديث... وغيرها؛ وهو في كل فنٍ يبدع منهجاً لاثقاً به، معتبراً في ذلك نوعية المصادر، وملكات الطلبة، والحاجة العملية، والسياق الزماني والمكاني... وغير ذلك.

ق - فوائد مطالعة أمهات المصادر في حلق الدرس: لا شك أن قراءة النصوص التراثية، والمكابدة في فهمها، يكسب الطالب ملكات عديدة، منها، تغلب الطالب على مخاوفه إزاء النصوص، وتعوده على المصادر؛ وتطوير ملكات القراءة السلسة المناسبة؛ وتمكّن الطالب من التبحر في الكتب الأساسية أكثر فأكثر.

ر - الدعاء والدرس: للأستاذ مع الدعاء في حياته نفحات؛ ومن ذلك إنه لا يغادر الدرس ابتداءً وانتهاءً؛ فهو يستهلُّ درسه بالدعاء الملح، وبالتضرُّع إلى الله أن يفتح عليه وعلى طلبته بالفهم واليقين؛ ولقد حُفظت العديد من الأدعية التي ألفها هو بنفسه، واعتاد على قراءتها أول الدرس. من ذلك قوله: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم ربنا زدنا علماً وإيماناً و يقيناً وتوكلاً وتسليماً وتفويضاً وثقةً واطمئناناً واعتماداً

عليك، وإخلاصاً ووفاءً وصدقةً ومعرفةً ومحبةً وعشقاً واشتياقاً إلى لقاءك، وعفةً وعصمةً وفطانةً وحكمةً وحافضةً دائمةً، وصحةً دائمةً كاملةً، وعافيةً دائمةً كاملةً، وقلبًا سليمًا. اللهم حولاً وقوةً من حولك وقوتك يا أرحم الراحمين".

ش- وصية الأستاذ لطلبته: نُقل عن الأستاذ أنه قال لبعض طلبته: "أنا ليس لي عليكم من حقٍّ، وإن كان لي ذلك كنت طلبتُ منكم أن تقوموا بمهمةٍ تدرّس الطلبة حتى تقبض أرواحكم..". فمهما كبر الطلبة وأصبحوا أساتذة كان يوصيهم الأستاذ بأن يبقوا طلبةً دومًا، وذلك بذكره مثال نور الدين الهيثمي الذي تتلمذ على يد شيخه زين الدين العراقي طوال حياته. وأحياناً كان يقول مداعباً الطلبة إنَّ الملائكة تقبض أرواح طلبة العلم بمناولتهم العسل والقشدة، ومن غير أن تؤلمهم" حاثًا إياهم على أن يبقوا طلبةً دائماً، وعلى شوق التعلم ولهفه أبداً. ثم على أن يلازموا التعليم وتنظيم حلق الدرس طول حياتهم؛ حتى لا ينقطع حبل العلم والخير بحول الله تعالى^(١).

ت- المبادئ التي درس فيها الأستاذ

١. التفسير وعلوم القرآن.
٢. الحديث وأصوله.
٣. الفقه الإسلامي وأصوله.
٤. التصوف.
٥. اللغة العربية.
٦. البلاغة.
٧. علم الكلام.

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٢٥٠.

رابعًا: منهجه في التأليف

الأستاذ فتح الله كولن من أكثر علماء المسلمين المعاصرين تأثيرًا على الفكر الإسلامي الحاضر وعلى واقع المسلمين الراهن؛ لكونه مفكرًا وداعيةً ومربيًا، وأوجد تيارًا باسقًا، أصله ثابت وفرعه في السماء، أما فروعه وأوراقه وثماره وأفياؤه فقد امتدت إلى كل بقاع الأرض. إن هذا الجمع المحكم في شخصية كولن بين الثلاثية، المفكر والداعية والمربي، والتفرغ التام للقيام بهذه الأدوار، لدرجة أنه نسي نصيبه من الدنيا، ولم يذق من طعمها إلا المرارة والحمران، ولم يمتلك من زينتها لا مالا ولا بنون، هذا كله مكنه من أن يكون خطيبًا ومحاضرًا ومحاورًا ومربيًا ومعلمًا وكاتبًا، حيث صار غزير الكتابة، كثير الخطابة، وترك من وراء ذلك كنزًا لا يقدر بثمن، وثروة تطاول الزمن. ومن ذلك تأليف قرابة السبعين كتابًا، يمثل كل كتاب منها كتيبة كاملة من الأفكار والمشاعر التي ساهمت في فتح العقول والقلوب التي لا يحصي عددها إلا الله^(١).

والكلمة أهم واسطة لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر، ومن قلب إلى آخر. والذين يحسنون استعمال هذه الوسطة من أرباب الفكر يستطيعون جمع أنصار عديدين للأفكار التي يريدون إيداعها في القلوب وفي الأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود. أما الذين لا يحسنون هذا ولا يستطيعونه فإنهم يقضون أعمارهم في معاناة فكرية ثم يرحلون عن هذه الدنيا دون أن يتركوا أثرًا فيها^(٢).

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٤٨-٤٩

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١١٤.

ألف الأستاذ في فنون وموضوعات متنوعة، لكنها تدور مع الإسلام حيث دار والأستاذ "فتح الله" رجل دعوة وفكر، وهو -بعد ذلك- كاتب حصيد ألمعي، ذو ضمير يموج بالإيمان، وروح مليء باليقين^(١).

ولو جُلنا في هذه الكتب لرأينا فيها دائرة معارف كبرى، ولوجدنا فيها زاد الألباب والأفئدة، بشمولها وتنوعها وعمقها وظلالها الندية، وسنمر في هذه العجالة على عناوين كتب فتح الله المترجمة إلى العربية لنتلمس فيها من فزادة الفكر وزاد الروح، أصالة المعاني وجمال المباني، تشويق العناوين وإشباع المضامين. ومنذ البداية سيلحظ القارئ لكتابات "كولن" حضور الفخامة وعذوبة التعبير وسلاسة الصياغة، حيث يتزاحم جمال المبني وجلال المعنى، وتتظافران لصياغة أقوم الأفكار وأقوى المشاعر^(٢).

لأن الأستاذ يرى أنه يجب تقديم الأفكار السامية والمبادئ السامية بأسلوب بليغ له قدرة النفوذ إلى الأذهان وتحريك القلوب وإثارتها. وإلا فإن الكثير من هواة الزينة والزخرف في الكلام لن يلتفت إلى جواهر المعاني العميقة إن قدمت لهم في ثياب مهلهلة^(٣). إنه كاتب يتلوى بأصدق الآلام وأشدها مما آل إليه أمر المسلمين من فقر إيماني وبؤس حضاري، ولا زال يتصدى في كتبه ومقالاته وخطبه لأولئك الذين يريدون أن يندسوا قداسة الإسلام، ويمسحوا

(١) أديب إبراهيم الدباغ: الضاربون في الأرض، ص: ٥٩.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٤٩.

(٣) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١١٥.

عنه مسحة العظمة الإلهية... اختاره القدر ليحمل في هذه البلاد شعلة الإيمان المتوهجة بعدما كادت تخبو وتنطفئ... إن يحمل في كيانه عنادًا إيمانيًا، وإباءً استعلائيًا على كل أنواع المغريات الدنيوية^(١).

كُتِبَ الأستاذ تؤسس لصرح إسلامي عظيم، فهي تمثل ما ينبغي أن يكون عليه الصرح، وما هي العدة والوسائل -المادية والمعنوية- التي يكتمل فيها البناء، وما هي الآليات المطلوبة لإيصال الرسالة إلى الآفاق؛ لذلك كُتِبَ الأستاذ تدرج ضمن هذا التوجه التعميري الذي نرى اليوم فرق رجال الخدمة ينهضون بشيء منه.. فمن كتابه عن السيرة، إلى كتابه عن السلوك (التلال الزمردية) إلى كتاب الموازين، إلى ما سواها، لا سيما تلك التي باشرت موضوع التكليف الحضاري الصريح، هي جميعًا تنظير لما ينبغي أن تكون عليه روحية المسلم العامل.

في هذه المصادر جميعًا، يؤكد كولن أن الإسلام يحفز المسلمين على إقامة المدينة التي تستند على دعائم الروح، والتي تسري الأخلاق السماوية في شرايينها.. المدينة التي تسمو بالكرامة الإنسانية، وتضمن الوقاية للفرد حتى لا يغدو عبدًا لجسده^(٢).

ويمكن وصف هذه الكتابات بأنها "ترانيم روح وأشجان قلب" إذ سطرها بنور عقله ودم قلبه، وبسبب جاذبيتها وشدة تأثيرها وقوة إشعاعها وعمق ارتباطها الرباني؛ يمكن عدّها "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" لأنه استمدّها من صيدلية القرآن، فما من داء في هذا الواقع إلا ووجد له دواء ناجعًا وترياقًا نافعًا في هذه الصيدلة الربانية.

(١) أديب إبراهيم الدباغ: الضاربون في الأرض، ص: ٥٩.

(٢) سليمان عشيراتي: الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، ص: ١٩٧.

لقد ساهمت كتابات هذا المفكر الداعية في صناعة "الموازنين أو أضواء على الطريق" إذ صنع الكثير من القناديل بمادة العرفان وأنارها بطاقة الوجدان، مما أدى إلى إضاءة الكثير من القلوب والدروب. وساهمت هذه الكتابات أيضًا في تبديد الحيرات وتمزيق ظلمات الجهل، وتوفير الإجابة الشافية عن "أسئلة العصر المحيرة"، فقد أوجد لكل سؤال جوابًا، وصاغ لكل مشكلة حلاً، وصنع لكل متاهة مخرجًا... ولا سيما ما يتعلق منها ببيان "حقيقة الخلق ونظرية التطور" التي برزت على يد "تشارلز داروين"... اهتم هذا العملاق بإبراز "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" فأحسن وأجاد في بيان الصورة الوضيئة للجهاد، وإزالة ما علق به من تشوهات.

وبسبب مواءمته في الأفكار والأفعال بين العقل والقلب أو بين الفكر والوجدان، فقد راكم تجارب بالغة الثراء، وامتلك خبرات شديدة الأثر، ولهذا أهدى الدعاة إلى الله عصارة تجاربه ورحيق خبراته، من خلال قيامه بالكشف عن "طرق الإرشاد في الفكر والحياة"... إذ نجح باقتدار في قراءة "القدر في ضوء الكتاب والسنة"، وانتقد الأفهام الجبرية التي جعلت المسلم كالريشة في مهب الرياح تحت ذريعة الإيمان بالقدر، داعيًا إلى مدافعة الأقدار بالأقدار كإحدى السبل للخلاص من الغنائية المعاصرة.

وقد بدا تميزه منذ البداية بانتمائه إلى "القلوب الضارعة" التي تعلقت بالله العظيم. ولهذا جعل همه الأكبر وغايته العظمى الاتجاه نحو "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح" ليس من خلال الشعارات والشعائر فقط، حيث العبادة اللازمة، ولكن من خلال

المساهمة الفاعلة في تشكيل "ملامح الجيل المرتقب" حيث العبادة المتعدية، التي يتضاعف أجرها بقدر المستفيدين منها مادياً ومعنوياً. ازداد كولن علواً وسمواً، وازدادت وتيرة عمله نشاطاً واتساعاً ليصبح حدؤه وحدائه "ونحن نقيم صرح الروح" يقولها بلسان الحال ويهتف بها عن طريق السلوك. إنها الروح التي تعيد لأمة المسلمين كرامتها وحريتها، ولذلك ظل ديدنه ودينته "ونحن نبني حضارتنا". هذا القنديل الذي استضاءت بنوره قلوب مظلمة، واستنارت بفكره عقول معتمة، اقتبس نوره من مصادر كثيرة؛ قديمة وحديثة، إسلامية وإنسانية، لكن المصدر الأول والأكبر هو "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" الذي أحبه حتى الثمالة، واستمد منه الكثير من الأنوار والأزواد، وتأسى به في كل صغيرة وكبيرة^(١).

الأستاذ كولن عاش في مرحلته الماضية في ابتلاءات ومحن، ومر بتجارب كثيرة، ومنها أنه عاش في مرحلة التحصيل في خرابة مسجد، وكثير من المساجد على هذا الحال، فأثر ذلك الخراب والتحطيم والامتهان بسبب الإهمال الكبير، وأحياناً استغلالها وتحويلها إلى مرافق دنيوية منافية للدين على مشاعره وأحاسيسه، وجعلت الأستاذ يركز في كتاباته على البناء والانبعاث والإحياء. وذلك أن عقله الغض في تلك المرحلة كان يختزن من الأحاسيس النازفة، ما سيؤسس لروحية إحيائية سيكتب له أن يضعها موضع التنفيذ في مستقبل الأيام.. روحية تراهن على حتمية الانتفاض والانبعاث الملي الذي يعيد للحياة شرفها، وللمقدسات حرمتها.

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٤٩-٥٣.

ولأن تلك المشاهد المتهالكة كانت قاسية ومؤثرة، فستظهر آثارها النفسية لاحقاً في كتابات كولن، وفي خطابه الفكري على صورة فلسفة عملية تؤمن بإمكانية الانتصار على التحديات، وكسب رهانات الترميم والتشييد، وستغدو صورة الخراب والهدم والظلمة والوحشة، من مفاتيح الفكر الانتقادي التجاوزي لكولن^(١).



(١) سليمان عشراطي: هندسة الحضارة، ص: ٦٦-٦٧.



الفصل الثالث

حركة محمد فتح الله كولن التجديدية

- ◆ منهجه في البناء العلمي
- ◆ منهجه في البناء الروحي
- ◆ منهجه في تكوين الإنسان الحركي
- ◆ منهجه في التأليف



حركة محمد فتح الله كولن التجديدية

أولاً: التعريف بالحركة

الحركة ليست تنظيمًا بل فكرة؛ حركة فتح الله كولن ليست تنظيمًا بالمعنى المشهور المتداول في الفضاء الحركي الإسلامي، ولكنها في الواقع "فكرة" قوامها فلسفة واضحة بيّنة عمدتها تشجيع ثقافة "الخدمة الإيمانية"، وكل ما أسس (مدارس، جامعات، أسواق، مصانع، شركات، مستشفيات، مؤسسات إعلامية...) بناء عليها وفي مختلف الحقول (التعليم، التجارة، الصناعة، الإغاثة، الطب الإعلام...) لا يربطه بباعث الفكرة في المجتمع التركي رابط تنظيمي عضوي، بل لتلك المؤسسات في إطار فكرة "الخدمة" مطلق الحرية في التحرك في الفضاء الذي تتحرك فيه، وفق ما يسهل لها عملية التكيف التنظيمي والقانوني مع المعطيات القانونية التي تحكم المكان والزمان الذي تتحرك فيهما مؤسسات الخدمة^(١).

والمثير للدهشة في هذه الحركة هو عدم وجود كيان تنظيمي

(١) عمّار جيدل: محاربة الفقر: المنطلقات والغايات.. حركة فتح الله أنموذجًا، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط ٢، ٢٠١٠م، ص: ٤٤٨-٤٤٩.

رسمي لها، حيث يقول الأستاذ محمد أنس أركنه في لقاء خاص مع الباحث: "هذه الحركة تختلف عن الحركات الإسلامية إذ ليس لها جداول عمل مخططة، ولا يوجد أشياء رسمية مسجلة عن الجماعة أو بناء مسجل بشكل رسمي، هناك متطوعون، وإخوة يعملون أعمالاً مشتركة. وفي الأصل نحن فانون راحلون. والدعوة لا تبنى على الأشخاص مهما كان ومن كان ولكن على الفكر، ولا يوجد شخص ليس له مثيل، بل قد يأتي من هو أفضل منه، لا يوجد عندنا إساءة لأي شخص، ونقول إن كل ذلك يتوقف على الإنسان في النهاية، وقد يدفع الإنسان للدخول والانضمام إلى الحركة من خلال التطوع بإرادته الحرة دون أن يجبره أحد أو يدفعه أحد، فالتنقل والتغيير يجعل الحركة حية ويزيل حب التملك عند الناس"^(١).

الخدمة الإيمانية تتطلب جهداً في البدايات حتى تنطلق، فإذا انطلقت أخذت تجري بشكل طبيعي، ذلك لأن تحريك شيء راكد يحتاج إلى بذل طاقة كبيرة. ويضرب الأستاذ مثلاً على ذلك قائلاً "فعند تحريك طائرة، يصبح التحريك الهدف الوحيد، وعند تشغيل الطائرة تطفأ المصابيح والمذياع والمسجل لتجنب أي ضياع للطاقة. ولكن بعد أن تطير الطائرة، وبعد أن تشتغل وتحرك يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي ويتحرك كل شيء بانسيابية. وهكذا الأمر بالنسبة للخدمة الإيمانية -على اختلاف مدارسها ومفاهيمها- فمع أن المرحلة الأولى تتطلب جهوداً شاقّة، إلا أن الأمور ما أن تبدأ بالجريان في سياقها الطبيعي حتى تبدأ ما يمكن

(١) لقاء خاص مع الأستاذ محمد أنس أركنه.

أن نطلق عليه اسم "الدائرة الخيرة" - ضد "الدائرة المفرغة" - أي الدائرة الولودة هذا ما نشاهده الآن كل يوم في العديد من وجوه خدماتنا الإيمانية.

وهذا هو ما يعمله أصدقاؤنا الآن. فهم يعملون ليل نهار، وقد تركوا منازلهم وهاجروا إلى أواسط آسيا أو إلى مناطق أخرى في العالم غير أبهين بالضيق المادي، وحاضرين حتى للتضحية بالفيوضات المعنوية، لأن إيفاء حق الخدمات التي تصدوا لها وحملوها - على أحسن وجه ودون أي نقص - ليس شيئاً هيناً. ولكنني أظن أن أصدقاءنا هؤلاء قد عدوا ما يقومون به - والذي يبدو للغير أنه في غاية الصعوبة - جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، لذا تراهم مشغولين به ليل نهار، في قيامهم وقعودهم... في حركاتهم وفي سكناتهم^(١).

١. الحركة خدمة إيمانية

ففي وقفة الأستاذ مع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح: ٧)، والتي تقدم للمسلم فلسفة حركية ودستوراً للحياة، يقول: "يجب أن يكون المؤمن في حركة دائبة في كل حين. في حركة عندما يعمل، وفي حركة أيضاً عندما يرتاح. وبعبارة أخرى عليه أن ينظم نفسه وفق خطة لا يوجد فيها أي فراغ في حياته. صحيح أنه كإنسان يحتاج إلى الراحة، لذا من الطبيعي أن يرتاح. ولكن يجب أن تكون حتى هذه الراحة راحة نشطة وإيجابية. فمثلاً من يتعب من القراءة والكتابة يستطيع أن يرتاح بالنوم أو بتغيير وتبديل الجو كأن يقرأ القرآن أو يصلي أو يلعب الرياضة أو يتسامر أو يمزح مع الآخرين المزاح

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٢١-٢٢٢.

المقبول شرعاً... إلخ. وعندما يتعب من هذا يرجع مرة أخرى إلى القراءة؛ أي يكون في حركة مستمرة ودائبة يترك مشغلة من المشاغل لمشغلة أخرى. أي يستريح وهو يعمل، ويعمل وهو يستريح.

القلوب المخلصة تتساءل بقلق: "أيمكن أن تنتهي هذه الأنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألا توجد هناك ساحات أخرى وساحات أوسع؟" فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تفتتح أمامهم، وإذا بهم يتذوقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويتجرعون كؤوسها مترعة. ثم فَتَحَ اللهُ أمامهم ساحات خدمات بأبعاد ومناشط أخرى أيضاً. والخلاصة أنه ما من عهد ظهر فيه ظن قائل بأن الخدمات قد فرغت وأن أبوابها قد قفلت إلا وقبض الله تعالى أشكالاً مختلفة من الخدمة في سبيله وفي ساحات مختلفة^(١).

إن مفهوم "الخدمة" في هذه الحركة يتوجه إلى روح نذر النفس في الإنسان لخدمة المجتمع. ومع أن هذا يتفق مع مفهوم تحمل الألم والتقشف عند "ويبر"^(٢) إلا أنه أكثر شمولاً وسعة وديمومة منه. إن التدين الاعتيادي لا يستطيع حمل مثل هذه التضحية والصبر عليها، لأن حدود التدين الاعتيادية معلومة. فلكل من الصلاة والصوم والزكاة والحج.. إلخ، حدوده ومقداره وحجمه وإطاره. أما مفهوم "الخدمة" في هذه الحركة فهو يعرض شمولاً أوسع وديمومة أكبر.

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٥٠-٣٥١.

(٢) ماكسيميليان كارل إميل ويبر (١٨٦٤-١٩٢٠م) كان عالمًا ألمانيًا في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، وهو من أتى بتعريف البيروقراطية، وعمله الأكثر شهرة هو كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" حيث أن هذا أهم أعماله المؤسسة في علم الاجتماع الديني.

وهو يستعين ليس بالقيم الدينية فقط، بل بالقيم الوطنية والإنسانية والأخلاقية وبالعلاقات الاجتماعية كذلك. ويتبع طريقاً عقلاًياً ومعقولاً تجاه قيم الدولة والملة في علاقاتها الاجتماعية. وعند ذكر "رجل الخدمة" يتبادر إلى الذهن صورة إنسان نادر نفسه للإنسانية والتضحية والإيثار وذو قلب واسع يحتضن البشرية كافة. وهذا الأمر يستوجب حباً كبيراً للدين وللأمة وللإنسانية. لذا فإن الذين احتضنوا الحركة كانوا مستعدين دائماً لتضحية الغالي والنفيس في سبيل كسب رضا ربهم بحب عميق وإيمان راسخ^(١).

الخدمة رحلة تستغرق الحياة من المهد إلى اللحد، لذلك يجب أن نسرع من عمل إلى آخر، وأداء واجباتنا -ضمن منظومة الخدمة الجماعية- دون كلل أو ملل، والاستمتاع بتذوق اللذة المعنوية والروحية ونحن نؤدي هذه الخدمات. أجل ليس من حق المؤمن القول لقد أدت ما علي ولم يبق أمامي عمل شيء آخر... لا يجوز له أن يقول هذا وينسحب من الميدان للراحة والدعة. وظيفة المؤمن بعد قيامه بإتمام عمل خيري المبادرة بعمل خيري آخر. عليه أن يرتاح بالعمل، وأن تكون راحته مقدّمة لعمل آخر^(٢). شعارنا في هذا المضمار النفير والإقدام، ومصدر قوتنا الإيمان والحقيقة. لقد أخفق دوماً الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بالانفلات من الإيمان ومن الأخلاق^(٣).

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشراقه الحضارية"، ص ٥٠-٥١.

(٢) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٥٢.

(٣) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٨.

٢. الحركة خدمة دعوية

على المؤمن أن يوفي هذه الوظيفة الملقاة على عاتقه -أي التبليغ- حقها ضماناً لقبوله مؤمناً لدى الرب الجليل وبقائه على الإيمان به، وذلك للعلاقة القريبة بينهما. فلا يُثبِت الأفراد وكذا الجماعات وجودهم ولا يمكن أن يديموه إلا بإيفاء هذه الوظيفة حقها. إن سر وجود المؤمن وشرط بقائه مؤمناً حقاً هو تمثل الحق والحقيقة في حياته، وعدم السكوت كالشيطان الأخرس أمام الظلم، وعدّ الحياة غير ذات أهمية والاستهانة بالموت، والبقاء دوماً في دائرة مفاهيم الصحابة الكرام، واعتبار هذه الوظيفة السامية غاية الحياة. فما أضيع الأيام التي مرت دون معايشة هذه الأمور. فينبغي على كل مؤمن أن يلوذ إلى كنف الله سبحانه ويستعيد به من مجتمع لا ينهض بها^(١).

في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: "إن العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر" (رواه الترمذي)؛ فالحديث لا يعني أن العلماء يرثون المعلومات والمعرفة فقط، ولكنهم يرثون كذلك غاية وجودهم، وحقيقة مسألتهم، وتبعات رسالتهم؛ يرثون مهمة التبليغ "التبليغ والهداية"، و"الإرشاد والدعوة"، و"الإنذار والتبشير".

أن لا نقصُر هذه المهمة في الصور المعتادة للتبليغ والدعوة، مثل الخطابة، والكتابة، والوعظ، والتدريس؛ مع أهميتها؛ وإنما الواجب يقضي -إضافة إلى ذلك- أن ينبري العالم لمعالجة "الرؤى الكونية"،

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٢١-٢٢.

و"تصحيح المفاهيم"، وخوض غمار حرب "مراكز التفكير"، واكتشاف أبعاد "التخطيط والتخطيط الإستراتيجي العميق"، ومعالجة "ما ينتج المعادي للإسلام ولل بشرية من فلسفات، ومغالطات، ونظريات مثل نظريات "التطور" و"صدام الحضارات"، و"موت المؤلف"، و"البنوية" و"الفوضى"، و"الحروب الناعمة"... إلخ. فإن لم يكن العالم اليوم دليلاً رائداً لا يكذب أهله، لمثل هذه المخططات التي تعد بعناية فائقة، فمن ذا الذي يتكفل بهذا الثغر الخطير؟!^(١).

الشكل والأسلوب والتنظيم للخدمة غير نورسية، فعند النورسيين فتح البيوت لحفظ البقاء وليس للتوسع والانتشار. ويشترطون على الطالب أن لا يقرأ غير رسائل النور، فهم يتحركون للحفاظ على أنفسهم وبقائهم في سلك الخدمة الإيمانية، ومنغلقين ولا يفتحون على المجتمع، ولا يتدخلون في شؤون التعليم والحياة العامة. فكان بناءً مغلقاً، فقد يكون عددهم عشرة أشخاص، وبعد عشر سنين لا يكونون إلا أحد عشر، ومن يدخلون هذه البيوت هم مجردون من الحياة الاجتماعية. فهم يهتمون بالتربية وعدم الانتشار، ولم يكن لديهم فكرة لتحويل التراث إلى رؤية كونية ومؤسسية ولا مشاريع لمجتمع أخلاقي تربوي متفتح الذهن بل حركة منغلقة في ذاتها، فكانت حركة منغلقة على ذاتها.

ومبادؤهم كانت الإخلاص والفناء في الإخوان، يخاطبون أنفسهم فقط ولا يسعون إلى تحويل المجتمع إلى مجتمع أخلاقي، بل منغلقون حول هذه المبادئ. والأستاذ يرفض هذا بشدة، ويرى أنه لا بد من

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٦٩-٧٠.

فتح بيوت كثيرة ومساكن كثيرة جداً، ولا بد أن تدخل في المجتمع وتنخرط فيه وأن تغير المجتمع؛ وهذا يتعلق بالأفق، فالإنسان الذي ليس لديه هذا الأفق يحاول جاهداً أن يحافظ على ذاته فقط.

٣. الحركة خدمة اجتماعية

وكلما زاد ارتباط فتح الله كولن بالجماهير ازداد اندماجه وتراپطه بها، وتعرف على مشاكلها الدينية والاجتماعية والثقافية، حيث صب جل اهتمامه على إيجاد طرق تنقذ الجماهير من الضيق أو الفوضى التي تعاني منها. وأدت هذه العلاقة الحميمة القريبة من الجماهير ومن مشاكلها الأساسية، إلى بحوث عميقة وجدية لإيجاد حلول تخلص الجماهير من هذا الغموض الذي هي فيه. في هذه الأثناء اطلع على جميع التيارات الفكرية والسياسية في البلد والحلول المطروحة، حيث أمعن فيها النظر لمعرفة درجة صلاحيتها وواقعيتها. فتأملها وفكر فيها بعمق، ثم اتجه إلى مشاكل العالم الإسلامي ووجد الفرصة لتوجيه قريحته نحو عالم أوسع. ونتيجة لرحلته الفكرية هذه، وجد أن المشكلة في بلده وفي العالم الإسلامي أو في الحضارة الحالية كلها، هي الإنسان بحد ذاته وتعليمه وتربيته وتدريبه^(١).

الخصوصية والحساسية لهذه الحركة تختلف عن الحركات التي تدعو بالرجوع إلى الحياة الإسلامية السابقة وتُرفع في هذه الدعوة كشعارات وكقوالب تصرفات معينة، لأن مثل هذه الشعارات تتبنى برنامجاً سياسياً يريد البدء من القمة إلى القاعدة. وبتعبير آخر، تتطابق مع نماذج الحركات الإسلامية التقليدية التي ترى أنه إن لم يتم تحول

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٥.

سياسي من القمة إلى القاعدة، فلا يمكن الرجوع إلى أنموذج الحياة الإسلامية. بينما لا تنظر حركة فتح الله كولن إلى عصر السعادة بهذا المنظار، بل ترى البدء بالأفراد وبالقاعدة الشعبية. فمن ثم لا يوجد هناك شيء يسمى بـ"العودة إلى الإسلام"، أو بتعبير آخر إن الفرد -أينما كان وكيف ما وجد- إذا كان مؤمناً فهو مسلم، وعليه أن يتصرف كمسلم. وقبل كل شيء، هو الفرد الذي يحس بالإسلام في أعماقه ويعيش في حبه ووجده. وأفضل مثال على هذا هو عصر السعادة والتطبيق العملي للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. فالصحابة كانوا يعيشون الإسلام ويرتبطون به ارتباطاً وثيقاً وصافياً. ولم يكونوا مرتبطين بعيشهم هذا بأي أيديولوجية أو بأي برنامج سياسي. وقد حاولوا أن يبلغوا هذا الإسلام -الذي يعيشونه ويحبونه- بكل صفائه ونقائه إلى الآخرين. وعلى الرغم من الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت تحيط بهم فإنهم لم يؤجلوا القيام بدعوتهم، والعيش بخلقهم الإسلامي إلى أن يحلّ ظرف سياسي أو أيديولوجي مناسب. ولا يوجد مثل هذا الادعاء في الحياة الإسلامية النقية في الأصل.

إذاً فإن اتخاذ عصر السعادة قدوة في حركة فتح الله كولن لا يعني الرجوع إلى الوراء، بل عيش الإسلام بشكل واعدٍ وصافٍ. الصحابة الكرام هم الذين مثلوا هذه الحياة الإسلامية الواعية الصافية^(١). لا يستهدف الأستاذ كولن من هذه المشاريع سوى مصلحة الجماهير وخدمة الروح والهوية المليية، ولا يحمل أي هدف سياسي

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ١٠٣-

أو أيديولوجي. وقد كانت المؤسسة التي أنشأها لهذا الغرض مؤسسة مدنية أفرزها النشاط المدني. إذ لم يكن يوجد فيها أي تجمع أو أي معارضة سياسية. ولم تتوجه هذه المؤسسة إلى أي هدف يتعارض مع أهداف الدولة القائمة، ولا إلى أي غاية تتصادم مع القيم الرسمية للدولة. لأن الجهود كلها كانت موجهة نحو تعليم الشباب والجماهير وتربيتهم^(١).

إن إنجاز العمل والفكر في أساس فلسفة الخدمة لدى الأستاذ فتح الله؛ يعتمد على وجوده داخل الفرد. فمن ناحية يتحرك لدعم الفكر والعمل، ومن ناحية أخرى يشكل قاعدة لمشروعات الأفكار الجديدة. أما حتمية وجود العمل والفكر داخل الفرد؛ فيضع لها الأستاذ فتح الله الأسس كما يلي: "إن التصرف بدون فكر أو تخطيط يتسبب في (البلبله) واقتراف الأخطاء عدة مرات، إن الأفكار الجامدة تشكل نموذجاً ضعيفاً للغاية للأفكار والآراء، وتكسر روح الإرادة"^(٢). إن تفعيل الأفكار له قصب السبق عند اقتران الفكر بالحركية. وقد أكد الأستاذ فتح الله على أن الحياة الحقيقية ترتبط بالفكر والحركية. في قوله: "إن أهم حدث في حياتنا هو الحركية..."^(٣).

ويلفت الأستاذ كولن الانتباه إلى أن الوجود في حالة عمل مستمر يجعلنا في حالة من النشاط الدائم مما يساعدنا على مقاومة جزء من المشاكل، وتحمل جزء من المسؤوليات. إن بقاءنا في سكون

(١) محمد أنس أركنه: المرجع السابق، ص: ٢٥.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٨٠.

(٣) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٥٧.

وفي حالة من الخمول إزاء ما يجري دون تفعيل قيمنا في الحياة؛ يجعلنا ننصهر كقطعة ثلج سقطت في الماء. ويعرف الأستاذ فتح الله الحركية الإسلامية كما يلي: "التمسك بذاتيتنا، وتواؤم رغباتنا مع رغبات ومطالب العالم، ثم إيجاد تيار حركي لأنفسنا داخل الحياة العامة، وأن نسبح في تيارنا بشخصيتنا المستقلة داخل التيارات العامة في الكون، أي أننا من ناحية نتكامل وندمج مع كل الكائنات؛ ومن ناحية أخرى نحافظ على معالمنا الأساسية"^(١).

٤. الحركة خدمة إنسانية

إن الذين يتبنون فكرة الخدمة مع الأستاذ فتح الله، التي تحتضن كل الإنسانية بحب، وتستقي هدفها من عالمية الإسلام، يقدمون الخدمة -وقد نذروا أرواحهم لذلك- في كل مكان في العالم كمتطوعي تعليم مع العاملين ورجال الأعمال والطلبة والمعلمين والشباب والشيوخ والسيدات والرجال.

يقدمون الخدمات في معظم الأماكن بروح التضحية، وذلك في المدارس التي افتتحها رجال الأعمال الذين وهبوا قلوبهم للخدمة. وهناك من يقدمون الخدمات ويشاركون بكل أنواع التضحية في سخونة صحاري أفريقيا التي تزيد درجة حرارتها على الخمسين درجة، وفي برودة سيبيريا التي تقل درجة حرارتها عن خمسين درجة تحت الصفر، ومنهم من لقي حتفه وهو يحاول إنقاذ طالب سقط في البحيرة وكاد

^(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، ص:

أن يغرق، ومنهم من عاشوا على الخضروات التي زرعوها أمام بيوتهم حتى لا يفسحوا المجال لانقطاع الخدمة رغم أنهم لم يتحصلوا لشهور على رواتبهم التي يتقاضونها بسبب المحنة^(١).

وتظهر إنسانية الحركة من خلال اللفتة الإنسانية من الأستاذ "كولن" تجاه المنكوبين في اليابان حيث شارك في حملة التبرعات التي نظمتها جمعية "كِمْسَه يُوْكُ مُو" (هل من مُغيث؟!)^(٢) الخيرية بتركيا لمساعدة منكوبي الزلازل والتسونامي في اليابان، ودعمه للحملة بالتبرع بمبلغ ١٥ ألف دولار وهو "إجمالي إيرادات مؤلفاته" الدينية والفكرية. وهو منهج دأب عليه الأستاذ ولم يتوقف حتى هذه اللحظة في إنفاق ما يأتيه من إيرادات مؤلفاته على الخدمة الدينية والإنسانية بشكل عام.

توجت هذه الأعمال الإنسانية المعنية بكرامة الإنسان ورسالة الرحمة المتوجهة إلى العالم كله بالجمعية الإغاثية العالمية والمسماة "كِمْسَه يُوْكُ مُو" أو "هَلْ مِنْ أَحَد؟!" وقد بدأت هذه الجمعية أعمالها داخل تركيا كردة فعل لما حدث في زلزال ١٩٩٩م من تضرر الكثير من المباني وتشرّد الكثير من أهلها. وقد جاءت التسمية بعد بث

(١) أركون جابان، فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ص: ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) تأسست جمعية (هل من أحد؟) الخيرية عام ٢٠٠٤م في تركيا كجمعية غير هادفة للربح. وتستمد الجمعية اسمها من البرنامج التلفزيوني قناة درب التبانة والذي كان يغطي أحداث زلزال وقع في عام ١٩٩٩م في منطقة مرمره وقتل حوالي ٣٥ ألف تركي، كان البرنامج يحشد الجهود والتبرعات لضحايا الزلزال. ولها حوالي ٨١ فرعاً في تركيا وتواجد خارج تركيا في البلدان الأوروبية التي بها جاليات تركية مثل ألمانيا وهولندا وفرنسا. وقد قام الباحث بزيارة مقر الجمعية في إسطنبول.

محطات التلفزيون لقطات لرجل مسنّ يستغيث من تحت أنقاض منزله "هل من أحد؟!". وكانت هذه البداية كبرنامج إغاثي تابع لمحطة التلفزيون، ثم توسعت أعمالهم الإغاثية واستقلّوا عن المحطة وقاموا بأعمال الإغاثة وإعانة المحتاجين طوال العام من المرضى والفقراء وأصحاب الاحتياجات الخاصة. ولأن نظرتهم دائماً كانت تجاه الإنسانية بأسرها، فقد اعتبروا أن صرخة الاستغاثة التي سمعوها أول مرة هي صرخة إنسانية عامة. فقد تختلف اللغات والبلاد والأعراق، ولكن لغة الألم واحدة، وقد اعتبروا أن كل دمعة في أيّ عين هي نداء لهم لتقديم العون والمساعدة. فانطلقوا بأعمالهم في شتى أرجاء المعمورة وحيثما وُجد نداء، وكانوا يتوجهون إلى حكومة الدولة المنكوبة لسؤالهم عن الاحتياجات الحقيقية لهم، فتجدهم بينون المستشفيات المتنقلة لإسعاف المرضى في مكان ما، ويقدمون الغذاء والمؤن والخيام في مكان آخر، وبينون القرى هنا، ويحفرون الآبار هناك. وقد ذهبوا للإنقاذ بعد اجتياح تُسونامي في أندونيسيا، وذهبوا بعد زلزال باكستان، وأنشأوا قرية في دارفور، ثم كانوا في بُورما، ثم جوزجيا وأوسيتيا الجنوبية، وأخيراً - وليس آخرًا- في فلسطين بعد حرب غزة، مقدمين العون لإخوانهم المجاهدين وأسراهم، إذ قدموا لهم كل أنواع المؤن الطّبية والغذائية، ثم شرعوا بعد ذلك في حفر الآبار التي يحتاجونها بشدة لمدهم بالمياه الصالحة^(١).

(١) إيمان قنديل: "السلام الاجتماعي ومكافحة الفقر"، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٣، مقال

هكذا هم أبناء الخدمة: "معلّمون.. انتشروا في كل مكان، يعلمون أطفال العالم منطق الطير وتراويل العصافير، ويرسمون على السبّورات الخضراء أمامهم أحلامَ الغد الجميل ومعالم الطريق إلى الجنة. فللطفولة المتخرّجة من بين أحضانهم -عبر كل قارّات الأرض- نشيدٌ واحدٌ، يبشر الأمة بالخير والسلام. ملائكةُ الذكر تحبّهم، فلطالما استمعت إلى أهازيجهم الشجيّة.. وملائكةُ العلم تعرفهم، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعهم، وهي تضرب في الأرض نحو غابات أستراليا أو صحارى آسيا أو أدغال إفريقيا أو نحو ضباب الغرب البعيد.. ليطلقوا شعاع النور من فوق ناطحات السحاب.. معلّمون عُزّل، إلا من سلاح التربية والتعليم! يغامرون باقتحام المخاطر في كل مكان، فيرحلون بصدورٍ عارية، ووجوه تبسم أمام فوّهات الموت! ولربّما خرقت بعضها رصاصةٌ غدر، أو نائبةٌ دهر، فلا يرجعون القهقري أبداً"^(١).

٥. الحركة والصوفية

مع وجود بعض أوجه الشبه بين الآليات الرئيسية لحركة فتح الله كولن والطرق الصوفية التقليدية في استعمال بعض المفاهيم المتعلقة بالتربية الروحية والحياة القلبية، إلا أنها تختلف عنها في مجال تشكيل حركة مدنية مؤثرة، وفي طراز التثقيف، وفي منهجية سلوكيات الحركة. إن حركة فتح الله كولن حركة مجهزة بآليات الحركات المدنية، وفيها الكثير من المفاهيم التصوفية الفكرية منها والعملية،

(١) فريد الأنصاري: رجال ولا أي رجال، مقال منشور في مجلة حراء، العدد ١٣، (أكتوبر-

مثل التواضع والتضحية والإخلاص، ونذر النفس للخدمة، والتوجه نحو الحق تعالى، والعيش لإسعاد الآخرين، وتقديم الخدمات دون مقابل، والتوجه نحو الحياة الروحية والمعنوية والقلبية... ولكنها لا تجعل الإنسان يتفوق على نفسه، بل يتوجه إلى نفسه والآخرين وإلى المجتمع أيضاً.

تتوجه الطرق الصوفية نحو العالم الداخلي الخاص والخفي للإنسان، وتحاول إضعاف علاقة سالكيها مع الشؤون الدنيوية ومع الحياة الاجتماعية ودفعهم إلى الحياة الروحية وتجاربها المختلفة وتحمل المعاناة في هذه السبيل. ومع أن الطرق الصوفية لا تنقطع تماماً عن الحياة الاجتماعية، إلا أنها تستمر في طريقها بقيود صارمة وتعليمات غير مرنة وغير منفتحة على العالم. أما حركة الأستاذ فتح الله، فهي تحمل محتوى اجتماعي أوسع؛ فنرى هنا أن "الشعور الديني" و"النشاط الاجتماعي" يسيران معاً في تلاؤم وبخط متوازٍ. فالتربية الدينية والروحية من ناحية تزيد من العمق النفسي للإنسان ومن نضجه، ومن ناحية أخرى تدفعه لاشتراك أهداف اجتماعية مشتركة وتحقيقها. إن حركة فتح الله كولن ليست حركة صوفية. صحيح أنه تناول في دروسه وفي العديد من مقالاته ومواعظه وخطبه المفاهيم العائدة للتصوف وشرح معاني مصطلحاته والحياة الصوفية.

وبالمعنى الفردي فهو يعد بحق "زاهداً معاصراً" إلا أن تصوفه محدد ومحصور في النطاق الفردي. وهنالك نوع من التصوف لا يتبنى زهداً بعيداً عن الدنيا وعن المجتمع وتاركاً لهما؛ فهو يرى أن زهداً رهبانياً ليس فضيلة يشجعها الإسلام، لأن الإسلام في

جوهره دين اجتماعي، والرهبانية تتناقض مع الحياة الاجتماعية. ولكن فتح الله كولن في المقابل لا يرى من الصحيح الانغماس في الدنيا والتمتع بجميع الأهواء النفسية والمادية. فكما أن الزهد لا يعني ترك الدنيا تمامًا، هو -في الوقت نفسه- لا يلائم الانغماس في الدنيا. فالقرآن الكريم يرشدنا إلى الاعتدال والوسط في هذا الأمر. فلا يوجد في الخطاب القرآني أية دعوة للانصراف عن الدنيا والابتعاد عنها تمامًا^(١). الميل الصوفي ظهر عنده كزهد فردي ولم يجعل التصوف طريقة أو ظاهرة اجتماعية في حركته، بل أكد على الطابع الاجتماعي لحركته.

أما أهداف حركته فقد حددها بإعلاء كلمة الله، والخدمة، والتضحية في سبيل الآخرين، ونذر النفس للحق تعالى وللخلق. وهي أهداف دينية واجتماعية. وقام بتفسير مختلف لبعض المبادئ التصوفية التي تبعد سالكيها عن الحياة الاجتماعية مثل "العزلة والخلوة" ففسر هذه المبادئ تفسيرًا فرديًا.

والخلاصة أن فتح الله كولن يؤكد على العمق الصوفي من الناحية الفردية، أما من الناحية الاجتماعية يؤكد على الفعاليات والنشاطات الجماعية وعلى الشخصية المعنوية للحركة، وعلى نذر النفس للحق تعالى وللخلق. وهذا يتلائم مع السلوك النبوي وسلوك الصحابة من الناحية الدينية وفي مجال التبليغ والإرشاد، فقد عاشوا في ظروف صعبة وفي فقر، ملؤهم القناعة، وفي مراقبة ومحاسبة للنفس شديدة، وطبعًا لم تكن حالتهم الروحية والقلبية ومشاعرهم الربانية

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٢٣.

دون المتصوفة الذين جاؤوا من بعدهم، بل أعمق دون شك. ومع ذلك فلم يتبنوا حالة الخلوة والعزلة عن المجتمع وعن الناس، بل اختاروا سبيل الجهاد في سبيل الله وسبيل الدعوة والتبليغ والإرشاد وفضلوه على كل شيء سواه. وهذا هو المصدر الذي تستند عليه الفعاليات الاجتماعية لحركة فتح الله كولن^(١).

يعد فتح الله كولن متصوفاً معاصراً لكن على النمط الفردي. ولا يمكن وصف حركته بأنها صوفية لأنها لا تتشابه معها لا في ظاهرتها الاجتماعية ولا في آدابها وأصولها. لأن فتح الله كولن - كما قلنا من قبل - يتناول الصوفية - أو بالأحرى يتناول الحياة الروحية في الإسلام - من المنظور الفردي ويؤكد على أهميتها في توجيه الحياة الاجتماعية للمسلمين. ولكنه لا يتخذ "الطريق" كحركة اجتماعية أساساً. لذا تقويم حركته بأنها "طريقة صوفية" تقويم خاطئ من ناحية الحقائق التاريخية ومن ناحية الآليات الأساسية للحركة^(٢).

هذه الحركة حتماً هي ليست طريقة صوفية، ففي الطريقة الصوفية يكون هناك برنامج معين لها لا بد من مراعاته والالتزام به. وعندما ينتهي المرید أو السالك من هذا البرنامج ينتقل لآخر وهكذا. وهذا شيء لا يمكن أن ينطبق على حركة احتوت أفقاً عالمياً رحباً واسعاً. وهذا الانتشار الذي واكب حركة الخدمة يحتاج إلى قواعد ومبادئ ومحركات عامة واسعة، وقابلة للتطبيق في كل أنحاء العالم وفي جميع الأحوال والظروف.. فهي حركة تتكيف مع كل مناخ وظرف

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٣٢٢-٣٢٦.

(٢) محمد أنس أركنه: المرجع السابق، ص: ٥٠.

في هذا العالم من غير تجمد أو قسوة أو تشدد أو تصلب، بل المرونة التي تتناسب مع كل بيئة.

ثانياً: التجديد في الحركة

في العديد من المقالات يتعرض الأستاذ لمفاهيم التجديد والبعث (الإحياء) والنهضة من جديد والتنوير. وقد قرأنا هذا في المقتبسات التي أدرجناها سابقاً، بل إن عنوان مقالته "نحو عالم الغد" يومئ إلى التجديد والبعث من جديد، فهو يتعرض في هذه المقالة إلى موضوع التجديد صراحة.

وفي مكان آخر يقول: "لذلك، نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعاً إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام، وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب الإفادة من نفسه، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال"^(١).

وفي كل مرة عندما يتحدث فتح الله كولن عن التجديد وعن البعث (البعث بعد الموت، أي النهضة بعد طول سبات) يتحدث عن هذا لتجديد المؤسس أولاً على الأسس والآليات الإسلامية، لأنه يؤمن بأنه ما لم يتم التجديد في جميع المفاهيم الإسلامية بدءاً من مفهوم الإيمان وانتهاء بالنظرة إلى الكون، لا تستطيع المجتمعات الإسلامية تحقيق البعث وحركة الإحياء التي تحتاج إليها، فالمسلمون طوال التاريخ حققوا القفزات والتطورات الكبيرة بهذا الأسلوب. إن أساس حياتنا المعنوية قائم على الفكر الديني والتصورات

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٤.

الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء. إن الدين الذي يهدف إلى غايات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدُّنْيَا، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصراً على العبادات. إنه يحتضن الحياة الفردية والإجتماعية جميعاً ويتدخل في كل شيء لنا، عقلي وروحي وقلبي... ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويسر بل بلونه كل شيء^(١).

إن حركة كولن لا تملك بنية أيديولوجية، ولم تسع إلى تأسيس أيديولوجية دينية أو سياسية، أو تفسيره على هذا النحو. لذا كان من الخطأ النظر إلى حركته كحركة دينية تتحرك ضمن أيديولوجية إسلامية تقليدية.

حقق المسلمون في الماضي فترة تنويرٍ ونهضة شاملة في الساحة الدينية وفي الساحة العلمية والهندسية والفن المعماري. وأنشأوا كادراً من العباقرة في كل ساحة من الساحات؛ من العلوم الطبيعية إلى العلوم الدينية، ومن التصوف إلى المنطق، ومن هندسة تنظيم المدن إلى الفنون الأخرى. وتحدث الأستاذ عن أسس النهضة والإحياء، فيرى بأن أمتنا قادرة على إعادة بناء العالم من جديد، وقادرة على الريادة، فهي جاهزة تاريخياً، فيقول: "إنها جاهزة تماماً من جهة الرمز والتمثيل، لكن عليها أن تستعمل المحركات التاريخية التي تُعد دم

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٢٤.

هذا الماضي العظيم العريق ولحمه، استعملاً سليماً وصحيحاً^(١). ويقول الأستاذ في مقال له بعنوان "نحو عالمنا الذاتي": "نعم، تستطيع الدنيا أن تفتح هذه الصفحة الجديدة، بل الصحيح أنها قادرة عليه على الرغم من أنه يبدو عملاً غير يسير. إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع التصورات والأفكار المنحرفة السائبة في هذا الوطن منذ سنين وسنين، مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل أجوائنا الدينية. ووضع الأقفال على ألسنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تماماً، وانحباس المثقفين المفكرين والدارسين في قمم المادية الوضعية الكثيفة، وإحلال التشدد محل الصلابة والثبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!^(٢).

الحركة الإصلاحية والتجديدية تختلف طبعاً عن حركة الإصلاح (Reform)، بمعنى "إعادة التشكيل" التي تتوجه عادة إلى التغيير حتى في المصادر الأصلية والمنابع الرئيسية. وهذا أمر تزل فيه الأقدام، لأن الغاية هنا لا تكون تجديداً ولا إصلاحاً. ومهما كان إطار التجديد والإصلاح والإحياء واسعاً، فهو عبارة عن تجديد التقاليد من الداخل. ويجب أن يبقى التجديد ضمن المفهوم الذي رسمته النصوص الإسلامية الرئيسية كمنهج. ومع أن حركة "إعادة التشكيل" (Reform) تدعو أيضاً إلى التجديد، إلا أنها تقترح تجديداً يشمل تغيير

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٩.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٣٠.

النصوص الأساسية وتغيير التقاليد المحافظ عليها^(١).

ولتحقيق هذا الأمل ويكون الانبعاث فلا بد من الرجوع إلى ماضيها ومراجعتها باستمرار، والاستفادة من عصورنا السابقة، وتوحيد عمالقة الأفكار بحيث يتجاوز مولانا جلال الدين الرومي مع التفتازاني، ويسجد يونس أمره مع مخدوم قولي، ويضم "فضولي" إلى صدره "عاكف". ويقف الأمير أولوغ تحية لأبي حنيفة، ويجلس الخواجة الدهاني قبالة الإمام الغزالي، ويلقي ابن عربي ورده على ابن سينا ويفيض الإمام الرباني السرهندي ببشرى بديع الزمان النورسي... يتوحد عمالقة الأفكار لهذا الماضي المارد العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمسون في آذاننا طلاسم الخلاص والانبعاث^(٢).

وعلى الرغم من وجود الثوابت في الإسلام، فهناك في الإسلام إمكانية للتجديد والإصلاح والانبعاث من جديد سواء على الصعيد الثقافي أو الاجتماعي. فضرورة التجديد موجودة في كل عصر، وحركات التجديد الباقية ضمن حدود العقيدة والقانون ونظرية المعرفة الإسلامية جددت -على الدوام- الحياة على الصعيد الفردي والجماعي. ومع أنه ليست عملية سهلة إلا أنه يمكن حتى اليوم القيام بحركة تجديد بشرط مراعاة روح النصوص وحدودها. ولا شك أن هذا يستدعي علمًا واختصاصًا وكفاءة عالية ومعرفة عميقة بالعلوم الإسلامية. فإن القرآن الكريم الذي يمثل الوحي الإلهي كان يشكل المنبع الرئيسي للميراث الثقافي الإسلامي، وهو دون شك يحتوي على

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٦٨.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٣٢.

حقائق خالدة لا تتغير. لذا فإن أي حركة سواء أكانت تجديدية أم إصلاحية أم تنويرية يجب أن تكون متلائمة مع روح هذه الحقائق الخالدة^(١).

ويؤكد الأستاذ على ضمانات الثبات على المنهج في التجدد في أن نجعل رضا الله غاية الآمال، والروح أساساً للحركة في جهود الشعور بالواجب، وحب الإنسان وهذا الوطن حرصاً لا يستغنى عنه، والأخلاقية زاداً حيويًا في المسير لا يترك أبدًا، والكائنات والإنسان والحياة كتابًا محفوظًا بالأسرار لا يكف عن نبشه فصلًا بعد فصل تحت منشور القرآن البلوري، ومصدرًا للقوة مهمًا لشخصية الإنسان وقيمه البشرية الحقيقية، والقرآن والسنة محورًا للطريق الموصول إلى الهدف والغاية^(٢). ويستعرض فتح الله كولن أسباب تأخرنا وانهدامنا كأمة فيرى أنها تَفْشِي الكسل والحرص والطمع والرغبة في الشهرة والجاه والمنصب. ويضع مقابلها الأخلاق الإسلامية التي تعد علاجًا لأسباب التأخر، وهي الاستغناء والشجاعة والإخلاص والتضحية والروحانية والربانية. فتح الله كولن يرى أن أسس النهضة موجودة في ماضينا وفي جذور قيمنا المعنوية، وأنا إن لم نرجع إلى هذه الجذور فلا يمكن تحقيق أي نهضة. إلا أنه يشير في مقالات عديدة له إلى ضرورة وجود كادر واسع مجهز بهذه القيم لتحقيق هذه النهضة. وهذا الكادر هو الكادر التعليمي الذي نستطيع بواسطته الوصول إلى النهضة المنشودة. بينما كانت المناقشات والأفكار تدور منذ القرنين

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٦٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٣٣.

الأخيرين حول إمكانية تحقيق هذه النهضة بكادر مثقف قليل العدد، وهذه هي النقطة الأساسية التي يفترق فيها فتح الله كولن عن غيره، إذ يرى أن النهضة لا تتحقق إلا بكادر واسع متعلم ومثقف يتولى القيام بهذه النهضة بروح فدائية وبخلق التضحية. وهذا يوضح لنا سبب توجهه إلى ميدان التعليم والتربية وتأكيده عليه.

لذلك عند الحديث عن البعث من جديد كأمة لا يدخل في نقاشات تاريخية أو مفاهيمية، إلا أنه على وعي بالنقاشات الجارية في هذا الموضوع. وهو يرى أن العناصر الأساسية في هذا البعث الجديد تكمن في الماضي وفي ميراثنا الثقافي الغني. وهذا الميراث الثقافي يستطيع احتضان الضرورات العصرية، ويلبي احتياجاتها، ويحل مشاكلها في الأمد القريب أو البعيد إن تم تناولها وتفسيرها ضمن خطة طويلة الأمد بصبر ودقة. ولكنه يؤكد على الدوام على ضرورة وجود كادر مضح ينذر نفسه لخير الإنسانية ولصالحها، فلا يستطيع أي ميراث ثقافي تحقيق هذا الأمر لوحده. لذا فالأستاذ بدلاً من الدخول في نقاشات حول مفاهيم التجديد ومصطلحاتها، يفضل تركيز جهوده على تنشئة مثل هذا الجيل الذي يستطيع حمل أعباء التجديد^(١).

ولكي يتحقق التجديد والانبعاث المأمول لا بد من الإنسلاخ من القالب إلى اللب، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضاً التوجه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر^(٢).

(١) محمد أنس أركنه: محمد فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٦٥.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٦.

ثالثاً: أهداف حركة كولن

يبدأ الإصلاح والتجديد في فكر الأستاذ فتح الله كولن من الفرد؛ من تغيير الفرد وإنشائه بالاعتماد على المرجعية الإسلامية وإنشاء فرد نافع ومفيد لحضارته وللإنسانية جمعاء. وقد ظهرت مدارس فلسفية وأنظمة فكرية متعددة عبر التاريخ وعلى مستوى العالم، لكنها تناولت الإنسان جزئياً. كل واحد منها إما ركز على عقل الإنسان، أو الجانب الروحي للإنسان، أو الجانب الجسدي للإنسان. وهذه الرؤية التجزيئية لم تأت برؤية تكاملية؛ ومن ثم لم تقدم للإنسانية السعادة المرجوة. ربما الشيء الذي قام به الأستاذ فتح الله كولن هو أنه أقمع المجتمع التركي بهذه الرؤية الكلية؛ أي تناول الإنسان بكل جوانبه عقلاً وروحاً وقلباً وفكراً وجسداً^(١).

ومن أهم أهداف الحركة بناء الإنسان، لذلك تعتبر المدارس مشاريع تربية تصنع تغييراً كبيراً في المجتمع، وتهدف إلى التربية السليمة التي تُخَرِّج شباباً أسيواء بعيداً عن ألاعب السياسة. فالمدرسة تهتم بالأساس بغرس القيم الراقية في الأطفال والتي تنشئ فيهم الانسجام بين الروح والعقل والقلب، وتجعلهم أكثر قدرة على التعايش والتأثير، وأن الأخلاق كالصدق والأمانة هي أهم ما يجب غرسه في الأطفال، وهي التي تمكنهم من التعامل السليم مع العلم والتطور. ويتوجه من الأستاذ "محمد فتح الله كولن" فتحت هذه المدارس

(١) مصطفى أوزجان: الكلمة افتتاحية في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة محمد فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢٠ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م. ص: ١٨.

في عموم أصقاع المعمورة لإيصال رسالة إنسانية حضارية إلى كل مكان في العالم بأسلوب عصري متطور، وإعداد الطلبة إعداداً نفسياً ومعنوياً وأخلاقياً وسلوكياً على المبادئ الأخلاقية الفاضلة. وفي مدة قصيرة احتوت هذه المدارس أكثر من (١٦٠) دولة من دول العالم^(١). التركيز على الفكرة بدلاً من التركيز على الأشخاص، أي البعد عن الشخصية. كما ركز على كَوْنِ القرآن مرشداً لكل الأجيال، وعمل على إنشاء فكرة منظمة متكاملة لنهضة العالم الإسلامي ونهضة الإنسانية كلها. ودائماً ما ركز على الفكرة والروح والمعنى بدلاً من التركيز ولفت الأنظار إلى الأشخاص والشخصنة^(٢).

مشروع لا يختلف على خيريته أو نفعه للمجتمع بل وحتى للإنسانية اثنان، ومن ثم فهو ليس مشروعاً ينافس أحداً أو ينازعه مكانة أو زعامة أو مصلحة أو منفعة دنيوية مما يخاف عليه الملوك والرؤساء والزعماء أو تترصد به الأجهزة، وهو مشروع مؤسسات إنتاج، وإعادة إنتاج الإنسان الصالح لأي مجتمع كان مسلماً أم غير مسلم، من خلال مؤسسات التعليم والإعلام والحوار التي انتشرت في أنحاء تركيا والعالم تصنع سلاماً اجتماعياً، وعولمة إنسانية جديدة مؤسسة على القيم والأخلاق^(٣).

(١) حازم ناظم فاضل: المدارس التركية في العالم، مقال منشور في Dunya Times، بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢١ م.

(٢) مصطفى أوزجان: الكلمة افتتاحية في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة محمد فتح الله كولن"، ص: ١٩.

(٣) مجدي سعيد: فتح الله كولن.. عندما تصنع القيم تنمية، مقال منشور على "إسلام أون لاين"، ١٦ يوليو ٢٠٠٩ م.

إن الإصلاح الحق هو الذي يحمله رجال مخلصون، متعلقون بأشواق الروح، منكرون لذواتهم ومصالحهم الشخصية، ينظرون إلى مظاهر الانحراف في الآخرين بعيون الشفقة والرحمة، يعالجون جراحات الآخرين، باعتبارها قروحًا تنزف في أجسامهم هم.

إن الإصلاح تربية وتعليم، وما كان ينبغي للمعلم إلا أن يكون رحيماً حكيماً. ومن ثم فإن التعليم بكل أبعاده الشمولية، هو الذي يمثل جوهر المنهاج الإصلاحي. إن سر مركزية التعليم في العمل الإصلاحي، هو دورانه على الإنسان، معلماً ومتعلمًا. ذلك أن المعلم المنخرط في مهنته بروح التبعيد الخالص، يستطيع أن يصنع من تلميذه إنساناً جديداً، ينظر إلى مستقبل الأمة بعيون يملؤها الأمل، وقلب ينبض بالمحبة والسلام. ومن ثم فإن إصلاح الأجيال، مرتهن بإصلاح التعليم، وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت، إلى سعة العمل الإنساني النبيل، ألا وهو بناء الإنسان بكل أبعاده النفسية والفكرية. وإن التعليم بهذا المنطق النبوي الكريم، يستطيع أن يجدد البنى الاقتصادية، والعلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية في البلاد، ويحدوها برفق وهدوء، نحو التآلف والتكامل والنهوض. إن أول خطوة في مشروع الإصلاح، هي إنتاج الإنسان، الإنسان الذي فني عن نفسه في قضية أمته، وتعلق قلبه بأشواق الآخرة، ثم اتخذ مهمته التعليمية مسلكاً لمعرفة الله وعمارة الأرض^(١).

(١) محمد فتح الله كولن: كلمة مكتوبة ألقاها الأستاذ نوزاد صواش -المشرف العام على مجلة حراء-، في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة محمد فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، ط١، ٢٠١١م. ص: ٢٥.

هذه المدارس كان لها الدور الأكبر في تغيير الثقافة المجتمعية السائدة فتجعل المدارس بديلاً عن المتارس، يقول في ذلك فريد الأنصاري: "حاصروا ظُلمَ البنادق والمتارس بالمعاهد والمدارس، وأطفأوا نيران الفتن والحروب بالكلمات والحروف.. فكل مدرسة يبنونها هنا أو هناك تعدوا شجرة خضراء، ما تزال تفرخ حولها فسائل منها تنمو ثم تنمو، حتى تصير البلاد أشجاراً وأشجاراً، فإذا بغابة الخير تخنق صوت الرصاص البغيض، وتقضي على رائحة البارود النتنة"^(١).

الحركة تسعى إلى بناء القدوات الذين تتحد ظواهرهم وبواطنهم، وبهذا يستطيعون التأثير فيمن حولهم والتغيير، لذلك يقول الأستاذ: "على الذين يحاولون أن يصلحوا العالم إصلاح أنفسهم أولاً. أجل! عليهم أن يطهروا أولاً قلوبهم من الغل والحقد والحسد إلى جانب استقامتهم في السلوك وفي التصرف وبعدهم عما لا يليق بهم. وبهذا فقط يستطيعون أن يكونوا قدوة لمن حولهم.

أما من لم يسيطر بعد على عالم قلبه، ولم يعلن الحرب على نفسه الأمارة، ولم يفتح عالم أحاسيسه الجوانية... مثل هؤلاء وإن تكلموا بمعسول الكلام، وإن كانوا في قمة البلاغة، فإنهم لن يستطيعوا إثارة القلوب والأرواح، ولو استطاعوا ذلك فلن يستطيعوا هذا طويلاً"^(٢).

من أهم أهداف الحركة بناء الإنسان الحركي الذي نحن بأمس الحاجة إليه، فيقدم لنا صورة الإنسان الذي تحتاجه البشرية. ويوصي

(١) فريد الأنصاري: رجال ولا أي رجال، مقال منشور في مجلة حراء، العدد ١٣، (أكتوبر-

ديسمبر) القاهرة ٢٠٠٨م.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٦.

"الأستاذ فتح الله" بتنشئة الإنسان بهذه الصفات التي يرسمها بكلماته "إن أطباء المعنى والروح قلوبهم منفتحة على مجال الفيوضات والواردات والإدراك والفكر وكل العلوم، من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانيات، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك". إن الذين ينشأون بهذا الشكل ويحصلون على تعليم محدد؛ يفتحون قلوبهم للجميع حتى المتجولين في الشارع، ويكبرون في المستقبل وهم يملكون عبقرية وبراعة وعلمًا، ويحققون الفائدة للمجتمع. إن المدارس و"مساكن الطلبة" والجامعات ودور العبادة والمؤسسات التعليمية تخلص الإنسان من قصوره البشري، وتعدّه بكمال إنساني حقيقي. كما يوصي بتنشئة نموذج إنساني راقٍ في تمثله للقيم الإنسانية العالمية والإيمانية، ومتكامل مع العالم، ومطلع على القواعد التشريعية والأوامر التكوينية، ومجيد لقراءة عصره الذي يعيش فيه^(١).

رابعًا: المحركات الأساسية للحركة

تظهر أهمية حركة فتح الله كولن أنها استطاعت إدخال هذه القوى الأساسية المحركة ضمن الحياة الاجتماعية والثقافية بنجاح. وإلا فإن هذه القوى الديناميكية الدينية والثقافية موجودة في الكتب وفي المصادر الدينية الرئيسية منذ ما يقارب من ألف وأربعمائة سنة. كما أن بعضها موجودة ضمن القوى الديناميكية التي أنتجها المسلمون.

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، مستقبل الإصلاح في العالم

فقيم قبول الآخرين وقيم روح المسامحة والإنسانية وغيرها من القيم الأساسية، تعد من القيم التي قدمها المسلمون إلى الإنسانية طوال عصور عديدة عندما كانوا سادة العالم.

ومن جهة أخرى فإن التركيز على القوى الداخلية المحركة لهذه الحركة، يعني جلب الانتباه إلى أنها هي القوى الموجودة خلف جميع المقولات وجميع أنواع السلوك الاجتماعي للحركة. ففي كل نشاط للحركة، وكل علاقة تؤسسها مع الأوساط الثقافية المختلفة الأخرى، وكل فعالية من فعاليتها في حوار الحضارات تبقى هذه الحركة مرتبطة بهذه القوى المحركة. ويستطيع كل مراقب يقظ لمس هذا الأمر بسهولة. وكل تفسير لا يتلاءم مع هذه القوى الأساسية فهو تفسير زائف.

ومعرفة القوى الديناميكية الداخلية للحركة ترشدنا إلى الإطار الصحيح الذي نستطيع ضمنه تفسير هذه الحركة وتقويمها. فهذه المعرفة وحدها نستطيع تجنب الخروج أو الانحراف عن الإطار الصحيح في التحاليل الاجتماعية للحركة. والعديد من أنماط شجار الطرشان في السياسة وأنماط الضرب تحت الحزام تعود إلى هذا الانحراف والخروج عن هذا الإطار.

من أهم خصائص هذه الحركة أن آلياتها وديناميكياتها تظل لها مثل عليا، أي أنها متوجهة نحو الأبدية، لأن الإسلام وحي إلهي. فهي تتناول الإسلام كدين وليس كأيدولوجية. لأن الإسلام يعد الإنسان بحياة أبدية وبالوصول إلى الحقيقة المطلقة وراء هذا العالم المحدود والفاني. وهذه المثل، أي مثل الأبدية والخلود موجودة ومندمجة في كل نشاط

من النشاطات الاجتماعية لهذه الحركة. وقد يبدو هذا للكثيرين شيئاً معلوماً وبدهيًا، ولكن هذه المثل لا تبقى في حركة فتح الله كولن كأقوال وشعارات كلامية مجردة، بل تتحول إلى خطط فعالة في جميع أوجه نشاطاتها. لذا على الأنموذج الإنساني في هذه الحركة تهيئة نفسه لتضحية وإخلاص غير متناهيين. وهذه المثل الممتدة إلى اللانهاية تُكسب ديناميكيات هذه الحركة معنى أوسع وأعمق، وتُفرز جزءاً من الشد الروحي. لذا نرى أن فتح الله كولن كثيراً ما يتحدث عن الشد الروحي. وهذا الشد الروحي هو الذي أمد شباب هذه الحركة بالقوة لمجابهة جميع الظروف الصعبة والقاسية في مختلف أرجاء العالم، ومواصلة تقديم خدماتهم. وعادةً ما يستند الشد الروحي إلى قاعدة "إعلاء كلمة الله". ومن أهم ديناميكيات أو المحركات الأساسية للحركة:

١. سعة الضمير

لا يوجد مفهوم في العرف الإسلامي أوسع ولا أغنى من هذا المفهوم. ويُفهم من المقالات التي كتبها فتح الله كولن ومن المواعظ التي ألقاها في السبعينات من القرن الماضي مدى اهتمامه بهذا المفهوم؛ فهو ينظر من زاوية هذا المفهوم إلى جميع المظاهر الأخلاقية في الفرد والمجتمع.

ولكي نفهم طبيعة الإنسان والمجتمع ونظم التعليم التي يطمح إليها فتح الله كولن يجب علينا البدء بالمحتوى الواسع والعميق الذي يحمله لهذا المفهوم. فهو يشير بهذا المفهوم إلى تدين ناضج ومخلص في الفرد، وإلى مجتمع يملك عمقاً في العلم والعرفان^(١).

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٣٣١.

ولهذا يؤكد الأستاذ ويقول: "عندما تقوم بواجبك في أداء الخدمات لأمتك إياك أن تذكر أي معروف أسديته لأي شخص يعمل تحت إمرتك... لا تفعل ذلك وإلا أزعجت جميع من حوالبك، ولا تنس أن ما فعلته وأديته ليس سوى وظيفة على عاتقك ولست سوى موظف في هذا الأمر.

إن لم تزد إخلاصًا كلما قرأت كتابًا، أو حللت وقدمت أفكارًا جديدة، أو جاهدت في سبيل الله تعالى، وإن لم تَفَنَ في بوتقة الإخلاص بحيث يستوي لديك ما تتعرض له من نقمة أو نعمة... إن لم تكن كذلك فاعلم أنك تضطرب بين برائن ومخالب نفسك الأمانة... اعلم هذا وارتعف خوفًا وخشية.

إياك إياك أن تحدثني عن عظم الخدمات التي قدمتها والتضحيات التي أبديتها. ولكن قل لي أتستطيع إحالة جميع خدماتك إلى جهود أصدقائك وتعرف أنها فضل من أفضال الله تعالى ولطف منه؟ وهل تستطيع أن تكون عند بذل الجهود في الصف الأول وعند قطف النتائج في الصف الأخير؟ حدثني عن هذا... حدثني عن هذا لكي تتفتح الأزهار في قلبي.

لا تحرك نوازع نفسك وغرورها بحجة علمك أو عزة نفسك أو كرامتها، وإلا أفرحت أعداءك وأحزنت أصدقاءك. فإن كانت لك مزايا فدعها تُخرج سنابلها في العالم الآخر، ولتكن بطولات حياتك أناشيد أبدية تشدها الملائكة"^(١).

ولهذا نرى فتح الله كولن منذ السبعينات وحتى الآن يؤكد بكل

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٣١-٣٢.

وسيلة على أهمية "سعة الضمير" في الفرد وفي المجتمع، ويرى أنه ما لم يصل الفرد والمجتمع إلى تحقيق هذا المفهوم فليس في الإمكان تحقيق أي نهضة في أي مجتمع^(١).

٢. إعلاء كلمة الله

إعلاء كلمة الله تعالى أسمى الغايات، ويوضح ذلك الأستاذ في حديثه عن دستور رجل الدعوة، فيقول: "إن قيامنا -بينة متوجهة إلى الله تعالى- بخدمة الإنسانية، والاحتفاظ بدعوتنا فوق كل رغبة وهوى، وفوق كل الشهوات والرغبات الدنيوية ومنافعها، وبعد معرفة الحقيقة والوصول إليها والاستعداد والتضحية بكل ما نحب وبكل ما تعلقت قلوبنا به، والعزم على هذا بكل ثبات وقرار، وتحمل جميع المشقات والمصاعب التي تتجاوز تحمل الإنسان في هذا السبيل، وفتح الطرق المؤدية إلى سعادة الأجيال القادمة، والتهيؤ للانسلاخ من كل المنافع المادية والمعنوية، والعيش لسعادة الآخرين، والرضا بإشغال الصفوف الأولى عند أداء الخدمة والصفوف الأخيرة عند المغانم، أي الابتعاد عن كل منافسة من أجل المنصب أو الجاه.. هذه هي غايتنا التي لا يمكننا التفريط بها"^(٢).

يعني "إيصال كلمة الله إلى الإنسانية جمعاء". ويمكن أن نتحدث عن أبعاد ثلاثة له: بُعد الدعوة، وبُعد التبليغ، وبُعد الإرشاد، وعندما يستعمل فتح الله كولن مصطلح "إعلاء كلمة الله" يقصد منه هذه الأبعاد الثلاثة. هو يربطه بسببٍ وحكمة وجود الإنسان في هذه الدنيا. فحكمة

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله "جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية"، ص: ٣٣٥.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٤-١٠٥.

وجود الإنسان مرتبطة بإعلاء اسم الله وكلمته في الأرض، ويجب أن يعيش الإنسان لتحقيق هذا الهدف. أما ربطه بالجهاد المادي فقط فهو ربط موضعي؛ فالحرب لم تكن في الإسلام أساساً بل شيئاً عرضياً. فالإسلام وتطوير العلاقات الطيبة المتقابلة هو الأصل. وإعلان الحرب لن يكون إلا عند وجود غارة وهجوم خارجي.

٣. هدف الإحياء

لا أدري ما الفرق بين حياة من لا يهدف إلى خدمة الإنسان وبين حياة المتوحشين البدائيين المملوءة بكل الرغبات الجامحة؟ تأييد وتشجيع كل خدمة في سبيل الحق والصدق والاستقامة إشارة إلى احترام وتوقير الحق. وأنا أقول للذين يرون الحق منحصراً في مسلكهم ومشربهم فقط صدقوني! ستبقون وحدكم عاجلاً أم آجلاً. وستغيرون على الدوام نظراتكم إلى الحق ولن تستقروا على شيء أبداً^(١).

لا يعد الهدف في حضارتنا مجرد تضحية معينة، بل هو بطولة في عالم المثل والنبل أي الارتفاع عن كل مكسب دنيوي، وتجاوزه. ولا يستطيعه سوى الذين يهدفون إلى نيل رضا الله تعالى، متسامين على كل منفعة ومصالحة ذاتية.

٤. نذر النفس للحق وللخلق

من يعيش للآخرين فعليه أولاً أن ينذر نفسه للحق وللخلق. فكما هو معلوم فإن منبع كل حب هو الله تعالى. وكل حب وكل خير وكل

(١) فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠١.

جمال إنما هو من تجليات أسمائه الحسنی. وكما هو معروف: "فإننا نحب الخلق، لأنه من خلق الله تعالى" (١).

هؤلاء المعلمون يعشقون الخدمة اغتراباً، من قَرَّ "سبيريا" إلى حَرِّ إفريقيا.. ما تركوا أرضاً ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلاً أو جبلاً من كل قارات العالم إلا دخلوه، ووزعوا فيه شعاعات الصبح القريب. وعلّموا أنه بالتعليم فقط سيتمكنون من القضاء على كل ظواهر التخلف وسيتمكنون من بناء مرحلة حضارية راقية وحقيقية، وسوف يحققون الاستقرار والأمن والسكينة وسيتمكنون من امتلاك أسباب وعوامل التقدم. فهم أبطال المحبة!

فمن هم هؤلاء الأبطال؟!

إنهم يبنّون كل الخلافات ويلتقون مع كل إنسان في كل مكان فاتحين قلوبهم ناشرين التربية والتعليم في الفيافي والقفار، في الجبال والسهول، وفي أقاصي الدنيا ليل نهار بجد وعزيمة لا تفتر، لا يسأمون ولا يعرفون لليأس سبيلاً ناكرين ذواتهم عند الحديث عن الإنجازات التي يحققونها في شتى المجالات. لا يسأمون ولا يعرفون لليأس سبيلاً، إنهم أبناء هذا العصر يرضعون من ثدي هذا الزمان. فهم في عباداتهم كأويس القرني، وفي سياحتهم كأولياء جلبي، وفي علومهم كابن سينا والرازي والخوارزمي وابن الهيثم، ينظرون إلى كل شيء بنظر العبرة، ويرفعون عن الوجوه برقع الحقد والفرقة والحسد، بيدهم سلاح العلم والمعرفة، لقد اتخذوا سلاحاً

(١) محمد أنس أركنة: فتح الله "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٣٥.

كذي الفقار (ذو طرفين) العلم والمعرفة، التربية والتعليم^(١).
 إن أمانة الأنانية المنعمة على الإنسان هدية مقدسة معطاة له لكي
 يبحث عن الحقيقة الكبرى ويجدها... هدية يجب ضربها بالأرض
 وكسرها حالما تنتهي وظيفتها، وإلا كبرت وتضخمت وانقلبت إلى
 عفريت ييلع صاحبه. يدرك الفرد بها خالقه جل وعلا، ويدرك
 قدرته وعلمه وإرادته اللامحدودة، وكونه بريئاً من كل نقص، ثم
 يقوم بإذابتها في لهب معرفة الله وحب الله الملتهب في صدره، فلا
 ينظر ويرى إلا بالله... به يفكر وبه يعرف ويصل به إلى المعرفة...
 وبه يتنفس أنفاس الحق. البقاء أنانياً ليس إلا تعبيراً عن رؤية الحق
 دون إدراكه وفهمه، وعدم قطع أي مسافة في طريق اللانهاية، بل
 البقاء في المكان نفسه معصوب العينين. والذين يفكرون دائماً وأبداً
 في نطاق الأنانية، ويقومون ويجلسون، ويبحثون ما يبحثون عنه
 في إطارها لن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام وإن مشوا سنوات
 وسنوات وقطعوا الفيافي والقفار.

الأعمال المنفذة حتى وإن كانت أشق الأعمال وأكثرها إرهاقاً إن
 عملت من أجل الأنانية لم تعد فضيلة على الإطلاق، ولم تحز على
 القبول الإلهي. والذين يعجزون عن تجاوز أنفسهم، ولم يمزقوا أنانيتهم
 والمحرومون من البصيرة... حبطت أعمال هؤلاء... وحرموا من كل
 شيء، حتى إن كل أعمالهم وتضحياتهم تذهب هباءً منثوراً. لما كانت
 الأنانية صفة شيطانية، فإن مصير المنخدعين بها هو مصير الشيطان

(١) فريد الأنصاري: رجال ولا أي رجال، مقال منشور في مجلة حراء، العدد ١٣، (أكتوبر-

نفسه دون شك. بل إن دفاع الشيطان ومعدرته لم تكن إلا نغمة أنانية^(١). لذا كان على كل إنسان في الإسلام أن ينذر لله أولاً كل أنواع الحب والعشق والمحبة. يقول فتح الله كولن: "إن أهم مصدر للقوة عند الذين نذروا أنفسهم للحصول على رضا الله تعالى، وجعلوا غايتهم الفوز بمحبة الله هو عدم وجود أي أمل أو هدف مادي أو معنوي آخر. فهم -على خلاف عادة أهل الدنيا- لا يهتمون بالربح والكسب والرفاه، ولا يشكّل هذا عندهم قيمة ولا مقياساً".

٥. التضحية والإخلاص والوفاء

عندما تكون هناك خدمة لا يتقدم أحد نحوها يرى نفسه مسؤولاً عنها قبل الجميع. هو منصف ويحترم كل من يعين الحق وينصره ويعمل في سبيله. عندما تنهدم مؤسساته وخططه، وتتمزق وحدة جماعته وتفتت قوتها، لا يفقد إيمانه ولا أمله وتفأؤله، بل يحاول التحليق من جديد. وعندما ينجح في التحليق ويصل إلى الذرى لا ينسى التواضع والمسامحة.

هو شخص واقعي وصاحب بصيرة، يعرف منذ البداية أن هذا الطريق وعر وشاق، ولكنه صاحب عزيمة وإيمان يرى معه أن طريقه لو ملئت بحُفر من حفر جهنم فإنه يستطيع قطعها. هو عاشق متوله يحب دعوته التي وضع روحه في كفه من أجلها... وَفِي لَهَا وَفَاء يضحى بسببه في سبيلها بروحه وبكل ما يملك دون أن يخطر على باله أبداً أنه قام بأي تضحية^(٢).

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٤١.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٩.

فتح الله كولن مثلما وسَّع المفاهيم الأخرى، كذلك وسع هذه الخصال، فهو لا يرضى بالحد الوسط من هذه الخصال في حركته، بل يريد الأفق الأخير لما تستطيع هذه الخصال الوصول إليه. لذا يرد في العديد من كتاباته عند ذكر هذه الخصال تشبيهات مثل: "رجلُ الخدمة" كالجواد الأصيل الذي يعدو حتى يكاد أن ينشق صدره، أو كالنسر الذي أفرد جناحيه للطيران" .. إلخ^(١).

٦. التمثيل والتبليغ

هناك الآن على سطح الأرض العديد من المدارس والحركات الفكرية والسياسية والفلسفية والأيدولوجية الممتدة من الماضي إلى الحاضر. ومع أن في بعضها ما هو مفيد وفي صالح الإنسانية، إلا أن بعضها تبدو وكأنها عبارة عن شعارات فقط، ولم تنزل إلى الواقع العلمي في المجتمع، ولا يبين أصحاب هذه الشعارات عن مدى إمكانية تطبيقها علمياً. ولا شك أن لكل فكر ناحيةً نظرية وأخرى عملية. ومع أن النظرية مهمة إلا أن قابلية وإمكانية تطبيقها مهم أيضاً. وهنا تظهر أهمية الأشخاص الذين يستطيعون تطبيق الفكر في الواقع العلمي وتمثيله؛ فقابليتهم وإخلاصهم وكفاءتهم تلعب دوراً كبيراً في تمثيلهم لرسالتهم.

ويؤكد فتح الله كولن -منذ السنوات الأولى- على أمر التمثيل السلوكي للمبادئ السامية الإسلامية، ويعده من الديناميكيات الداخلية للحركة. فهو عندما يقدم مقاطع من حياة الأنبياء والصحابة والحواريين المملوءة بالحركة والدعوة والتبليغ، يلتفت الأنظار

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٣٨.

على الدوام إلى هذه الناحية.. إلى مواقفهم الشجاعة وإلى صبرهم وتحملهم وإخلاصهم، ويعدُّ هذه الصفات مهمة مثل أهمية الحركة نفسها. أي إن قابلية أصحاب أي فكر أو دعوة أو جماعة أو حركة في تمثيل رسالتها مهمة جداً^(١). بل يرى أنه إن لم تكن قابلية الداعية في تمثيل الدعوة في الواقع العملي كافية، فهذا يعني أنه لا يملك فكراً ولا يملك شيئاً يقدمه للمجتمع. ويصف قابلية التمثيل بأنها التوحيد بين الداخل والخارج.

ويقول فتح الله كولن: "على الذين يحاولون أن يصلحوا العالم إصلاح أنفسهم أولاً. أجل! عليهم أن يطهروا أولاً قلوبهم من الغل والحقد والحسد إلى جانب استقامتهم في السلوك وفي التصرف وبعدهم عما لا يليق بهم. وبهذا فقط يستطيعون أن يكونوا قدوة لمن حولهم. أما من لم يسيطر بعد على عالم قلبه ولم يعلن الحرب على نفسه الأمانة. ولم يفتح عالم أحاسيسه الجوانية... مثل هؤلاء وإن تكلموا بمعسول الكلام، وإن كانوا في قمة البلاغة فإنهم لن يستطيعوا إثارة القلوب والأرواح ولو استطاعوا ذلك فلن يستطيعوا هذا طويلاً"^(٢).

خامساً: المضامين النظرية للحركة

١. اتباع نهج الصحابة

من أهم المثل التي تمثل الجانب الإسلامي الاجتماعي والتاريخي لحركة فتح الله كولن، هي اتخاذ عصر النبوة والراشدين مرجعاً. فهذه المثل والقيم ترجع - كما في الحركات المشابهة الأخرى -

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله "جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية"، ص: ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٦.

إلى العصر الإسلامي الأول وتمسك به. فمنظومة هذه القيم تستند بمقياس كبير إلى طراز حياة الصحابة. كما أن هذه الفترة التاريخية القصيرة نسبيًا هي التي شكلت الخطوط العريضة للتفكير السنّي بكل جوانبه، وهي التي أعطت مثلاً عملياً وواقعياً له.

إن هذا العصر يشكل لحركة فتح الله كولن - وغيرها من الحركات المشابهة - العصر الذي عاش فيه الأسلاف التاريخيون العظماء؛ فيه المثل الطاهر والصافي للإيمان الإسلامي. ولا يوجد فيه أي شائبة أيديولوجية أو سياسية أو تطرف.

إن هذا العصر يشكل الجذور المثالية لحركة فتح الله كولن وأهم أسسها وقواعدها. لذا فهي لا تحتوي على ميول وأهداف أيديولوجية وسياسة متطرفة. وقد انحدر جيل ذلك العصر من بين أناس قساة القلب غلاظ ظالمين جهلاء.. ورغم ذلك فقد نجحوا في تكوين أمة جديدة. هؤلاء الأفراد الذين انحدروا من تقاليد بيئة جاهلية تبرر النهب والسلب بين القبائل.. انحدروا وهم يلتمعون التماع الدرر واللؤلؤ. عاشوا في ذلك الجو أظهاراً دون أن تتأثر مشاعرهم وأخلاقهم وإنسانيتهم بظلمات تلك الجاهلية، وقد اكتشفهم الإسلام واصطفاهم ليشكل منهم نسلًا ذهيبًا. ذلك الجيل الذهبي الطاهر المخلص والمضحى هو الجيل الذي ارتبطت به هذه الحركة من ناحية القدرة الفردية والاجتماعية. كان ذلك العصر عصرًا لم يتلوث إنسانه بعد بأي أهداف دنيوية أو أساسية.

إن المثل العليا لحركة فتح الله كولن تتطابق بشكل مباشر أو غير مباشر مع التطبيق العملي لهذا العصر. فعلى من يرغب في تحليل

هذه الحركة أن يضع في اعتباره تمسك هذه الحركة بقيم عصر النبوة. فجميع القوى الداخلية المحركة لها متلائمة ومتناغمة مع قيم ذلك العصر. وأعتقد أنه لا يمكن تحليل هذه الحركة بشكل حقيقي وصحيح بغض النظر عن هذه النقطة.

إن عصر النبوة والراشدين يمثل في حركة فتح الله كولن مثلاً أعلى من جهة، وأنموذجاً للحياة الواقعية الحالية من جهة أخرى. والدليل على هذا أن العديد من الذين وهبوا قلوبهم لهذه الحركة، قاموا بتوضيحات لم يشاهد مثلها في التاريخ الإسلامي إلا في عصر السعادة (عصر النبوة والراشدين). أما الجماهير التي حملت قيم هذه الحركة، فقد أبدوا إخلاصاً وتوضيحات قريبة من إخلاص ذلك العصر وتوضيحاته. لذا فإن عصر السعادة لا يبقى مثلاً جامداً، بل مثلاً حركياً، لأن هناك خطورة انقلاب مثل هذه المثل إلى مجرد حنين مشلول مرتبط بالماضي. وأي حركة تحولت إلى جماعة تتحدث باسم مجتمع لم يعد موجوداً ستدخل في مرحلة التفتت والاضمحلال.. بينما أثارت هذه الحركة في قلوب الشباب حماسة التمسك بهذه المثل وحالت بذلك دون انقلابها إلى حنين جاف إلى الماضي^(١).

يجذب الأستاذ فتح الله الإنتباه إلى أن أهم سبب لتخلف المسلمين عن العصر الذي يعيشون فيه هو اعتلال إيمانهم، ولذا فلا بد من بحثهم عن القصور فيه. وذكر أنه من المتعذر التعايش بالإسلام دون أن تكون حياتهم الروحية والقلبية عميقة كحياة الصحابة، أو أن يكون لديهم حرص على الحياة، أو أن يتعرضوا لضغوط الحياة.

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ١٠١.

ويمثل الأستاذ فتح الله بالصحابة دائماً في حديثه، ويعتبر أن الصحابة هم المقياس في معايشة الإسلام وتبليغه وإرساء مبادئه؛ لذا نراه يقول "إنني أصدر أحكامي وفقاً لنسبة التشبه بهم".

وذلك لأنه معجب بحياة هؤلاء الصحابة وبإيمانهم وحركيتهم، ومعيشتهم من أجل الآخرين. ثم يلفت الإنتباه إلى احتياج الناس في وقتنا الحاضر إلى وجود أفراد يعيشون مثل هؤلاء الصحابة في وقتنا الراهن أكثر من أي عهد مضى، مع ملاحظة أنه يجب أن نحدث أنفسنا بقولنا لماذا لا نكون مثل هؤلاء.

ولطالما تحدث الأستاذ عن سمات نهج الصحابة في دروسه ومحاضراته وخطبه وهي أن يستهدف المسلم رضا الله على اعتبار أن هذا الأمر هو الغاية الوحيدة في حياته، وأن يرجع في كل أموره إلى القرآن والسنة وقواعد الدين، واتباع سنة رسولنا الكريم ﷺ، والتحرك في ضوء كلامه وفعله وسلوكه ومواقفه، وتأدية العبادات والخدمات دون انتظار مقابل دنيوي أو أخروي، ولا يتطلع إلى الأمور الخارقة للعادة كالتجلي والكشف والكرامات، ولكن تفضيل العبودية الحقة على كل شيء أمامه، والسير على الاستقامة التي تفضي إلى رضا الله، وإعطاء الأولوية للغة القلب وشرح القيم التي يؤمن بها، والتبليغ الذي يبرز فيه العمل ويؤكد الحال والسلوك، والاجتهاد والعمل في سبيل خدمة الإيمان والقرآن بدون توقف، والهجرة في سبيل الدعوة. إن أهم سمة في نهج الصحابة هي عدم انتظار أي مقابل مادي أو معنوي من الناس نظير الخدمات المقدمة. فالهدف هو مرضاة الله فقط^(١).

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ص: ٢٦٢.

٢. الابتعاد عن السياسة

يعرّف الأستاذ كولن السياسة فيقول: "السياسة هي فن الإدارة التي تجلب رضا الله تعالى ورضا الناس. وبنسبة قيام الحكومات -بما تملك من قوة وقدرة- بالمحافظة على شعبها من الشرور والمفاسد، وصيانتها من الظلم تكون نسبة نجاحها وتوفيقها، وتبشر بمستقبل زاهر. وإلا فإن المظاهر الطنّانة سرعان ما تزول مخلفة وراءها الفوضى والهرج والمرج، فلا تذكر مثل هذه الحكومات إلا باللعنات"^(١).

ويوضح الأستاذ محمد فتح الله كولن وجهة نظره في السياسة فيرى "أن السياسة في الأصل هي فن إداري متعدد الرؤى والاتجاهات مثل التفكير بالتساوي في اليوم مع الغد، والغد مع اليوم الذي يليه، ومراعاة مرضاة الله مع إرضاء الناس. ولكن في وقتنا الحالي تُفهم السياسة على أنها فقط عبارة عن أحزاب وانتخابات وصراع السلطة والدعايات. إن الحكم الذي يتم الحصول عليه بالقوة والشهرة والثروة؛ هو حكم زائل، وحكم الحق والعدل هو الباقي. لذلك فإن أكبر سياسة يجب أن تتحيز للحق والعدالة. ولكن هيهات، عندما ننظر للعديد من دول العالم لا نستطيع أن نبعد أنفسنا عن التفكير هكذا، أين السياسة التي تتكامل مع فكرة الحق والعدل؟ أين دجل الشوارع الذي يكون معظمه عبارة عن تزوير وكذب؟ مع الأسف فإن قسمًا كبيرًا من الناس في الوقت الحالي يفهمون السياسة على أنها إظهار غير المشروع على أنه مشروع في صراع المنفعة والسلطة والإضلال والخداع في ألعابهم السياسية اليومية. وبسبب هذا الفهم

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٢٦.

والتفسير الخاطيء؛ وقفت بعيداً عن كل الحركات السياسية من أجل علاقتي مع الله، واستقامة أفكاري وحياتي القلبية، وبعد هذا أرى أنه من الضروري أن أظل بعيداً".

٣. الأخوة الإيمانية

إن بناء جسور الأخوة بين المسلمين من جديد بالتمثل بأخوة الصحابة الذين يمثلون قمة عصر السعادة هو النقطة الحياتية التي أوصى بها الأستاذ فتح الله جميع المسلمين بكل صدق، وارتجائها من الله تعالى في كل دعاء قلبي أو عملي له. وذكر أنه ليس جديراً بمن يتحلى بصفة الإيمان أن يتخلى عن الدعاء للمسلمين المضطهدين والمظلومين في كل بقاع العالم.

كما يرى الأستاذ فتح الله أنه لا تكفي الأخوة الحسية فقط عند بناء أخوة هكذا بين المسلمين. فضلاً عن أن الأخوة في النسب -وهي أقوى أخوة حسية- من الممكن أن تصل إلى حد التقاتل والشجار (بين الأخوة بعضهم البعض بسبب مسألة إرث بسيطة للغاية). وهذا يعني ضرورة التقاء الأخوة الحسية مع الأخوة المنطقية. وفيما يلي أسس ومبادئ الأخوة المنطقية كما عبر عنها بديع الزمان النورسي وهي: خالقنا جميعاً واحد، مالكننا واحد، معبودنا واحد، رازقنا واحد... وكذلك نبينا واحد، ديننا واحد، قبلتنا واحدة... ومن ناحية أخرى فإن توفيق الحق ﷻ لنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوفائنا لأن الوفاق وسيلة مهمة جداً للتوفيق الإلهي^(١).

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ص: ٢٦٠.

٤. الهدف رضا الله

إن الهدف الوحيد في مفهوم الخدمة والحياة لدى الأستاذ فتح الله هو كسب رضا الله. في الواقع إن قول ربنا تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢) هو الهدف الأسمى الذي ينبغي لجميع المؤمنين السعي للوصول إليه. ويؤكد الأستاذ على ترقية الفرد عند قيامه بالعمل في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته، فيقول: "إن أداء الخدمة في سبيل الله من أسمى الخدمات، والهدف هو نيل رضا الله، والنتيجة هي السعادة الأخروية. ولكن إن تلوث هذا الهدف بأية منافع شخصية أو جماعية، تقطعت الروابط التي لها صفة الأبدية والأزلية التي تغذي الفرد والجماعة وتحببها، فيبتعد الفرد عن خطه وتهتز الجماعة وتبدأ أمارات الخسارة بدل الربح في الظهور.

أجل، ينبغي على كل جماعة تربط أعمالها بالله تعالى أن تحذر من كل أشكال المنفعة الشخصية وأن تبتعد عن أي هدف أو فكر أو خيال دنيوي قاصر. هي الجماعة الحقيقية المقدسة التي استسلم أفرادها للأبدية. -وحسب تعبير بديع الزمان النورسي-: "تبدأ الأعمال عند هؤلاء بالله؛ فهم يتكلمون من أجل الله، ويجمعون من أجل الله، ويعملون لأجل الله، ولوجه الله، ولأجل الله، يحولون ثواني أعمارهم إلى سنوات، ويطبعون وجه الفناء بطابع البقاء؛ لأن جميع جهودهم مخلصة تمام الإخلاص، ونقية تمام النقاء، وهي متوجهة نحو العالم الآخر، عالم الأبد والأزل"^(١).

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ص: ٢٥٩.

يقول الأستاذ فتح الله: "إن الرضا هو أعلى مرتبة عند الله، بل أرفع درجة عنده، وهي صفة مشتركة لأعظم الناس، فقد بذلت هذه القامات العظمى - من سيد الأنام عليه السلام والأنبياء الآخرين إلى كل الأصفياء والأولياء- جهودًا مضنية لبلوغ هذا الهدف المبارك بما حازوه من أقصى درجات التسليم والتفويض والتوكل والقرب والإخلاص^(١). وبذلك أوضح الأستاذ كولن من زوايا متعددة أن نبيل رضا الله هو الهدف الوحيد في العبودية وفي كل ما يقدم من خدمات.

٥. شرعية الوسائل

يؤكد الأستاذ فتح الله على ضرورة شرعية السبل والوسائل التي تُتخذ لبلوغ هدف مشروع وعادل، وذلك في الخدمات المقدمة في سبيل نبيل وكسب رضا الله. يجب أن تكون السبل مشروعة وعادلة للوصول لهدف شرعي. نعم أجل، إن مشروعية الغاية والأهداف بالنسبة للمتممين للإسلام حق، وعليه يجب أن تكون الوسائل الموصلة إلى تلك الأهداف والغايات حق كذلك. كما لا يتأتى رضا الله والوصول معه دون صدق وإخلاص، فكذلك لا تتحقق خدمة الإسلام، وتوجيه المسلمين إلى أهدافهم الحقيقية بالسبل الشيطانية البتة^(٢).

٦. ملاءمة الفكر لروح العصر

حركة فتح الله كولن، مع أنها تتخذ عصر السعادة مثالاً لها من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، فإنها استطاعت أن تصوغ منظومة قيمية متناسبة مع بيئتها. وهذا أمر مهم للغاية. أي إنها لم تقم

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية"، ص: ٣١٦-٣١٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، ص: ١٦٨-١٦٩.

كغيرها من الحركات بتبني ميراث ثقافي أو حركي سابق أو حالي جاهز. فجميع قيمها الثقافية ونشاطاتها الحركية وجميع مؤسساتها ذاتية الصلة وغير مأخوذة من الآخرين.

إن اتخاذ عصر السعادة قدوة ومثلاً أعلى مسألة مشتركة بين جميع التيارات الدينية والإسلامية، كاشتراكها في تبني القيم الإسلامية عامة. ولكن من الخطأ وضع جميع الحركات الإسلامية في سلة واحدة لكونها مشتركة في بعض القواعد^(١). إن من أهم أسباب تخلف أفكار ومعتقدات المسلمين منذ عصور هو عدم تمكنهم من إدراك روح العصر الذي يعيشون فيه جيداً.

ويؤكد الأستاذ فتح الله في عديد من المواقف بأن المضي قدماً للمستقبل بهدف كهذا أمر صعب وشاق، ولكن يجب القيام به لأن ذلك مهم للحياة. أما من تبنوا أفكار الأستاذ فتح الله وعقلوها فقد قاموا بفتح كثير من المؤسسات التعليمية في كل أنحاء العالم وعلى الأخص في تركيا، وربطوا النشء في هذه المدارس بالقيم الجوهرية والأخلاقية والإيمانية، وانفتحوا على العالم، وفهموا العصر الذي يعيشون فيه جيداً، وأخذوا بتفسيرات العصر، واستخدموا التكنولوجيا والوسائل الحديثة والوسائل التعليمية المتطورة. وما لبث أن انتشر النظام التعليمي المُقدّم في تلك المدارس التي أنشأها المتطوعون بمرور الوقت، واعترفت به عديد من المؤسسات التعليمية في العالم واعتمده نظاماً تعليمياً نموذجياً^(٢).

(١) أركون جابان، فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ص: ٢٦٢.

(٢) محمد أنس أركنة: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ١٠٤.

٧. التفاني ونكران الذات

يحرص تلامذة الأستاذ كولن ومحبوه وأنصاره على إنكار ذواتهم عند الحديث عن الإنجازات التي يحققونها في تلك المجالات داخل تركيا وخارجها، ويرون أن الفضل بعد الله ﷻ، إنما يرجع إلى توجيهات وإرشادات "خوجه أفندي". بينما يرى هو عكس ذلك، ويؤكد على أن الفضل لله أولاً وأخيراً. وأن من كرم الله عليه وعليهم، قيامهم (هو وهم) بالخدمة^(١).

إن فلسفة الأستاذ تقوم على أن حب الذات والأنانية من أكثر الأمور حساسية في الحياة، وقد تكون أنانية فردية أو جماعية، لذلك رسّخ الأستاذ فتح الله مبدأ إعلاء الشعور بـ"نحن" على إذكاء الشعور بـ"أنا" وجعله في المقدمة مهما يكن، وكذلك يؤكد على عملية الوصول إلى "هو"، وإلا فسيستحيل التعلق بـ"نحن" إلى أنانية جماعية تنذر بالخطر. نعم، يجب تجاوز الإحساس بحب الذات وجعل الشعور بـ"نحن" في المقدمة.

ويرى أنه لا يليق بالأفراد الذين يشكلون مجتمعاً ما أن يقولوا "نحن فعلنا، نحن أسسنا، نحن نظمنا، نحن انتصرنا"، وإنما عليهم بدلاً من ذلك أن يتوجهوا بالشكر إلى الله، ويتحدثوا بنعمته عليهم قائلين "إن توفيق ربنا ﷻ يرتبط بوفاقنا واتفاقنا فيما بيننا، فله الحمد والثناء الجميل، فهو من ربط قلوبنا ببعضها، وحببنا في بعضنا، وجمع شملنا، وجعلنا خداماً في هذه الدعوة المباركة. يجب

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، مستقبل الإصلاح في العالم

على المرء كمؤمن أن يشير دائماً إليه ﷺ ويظهر المكان الصحيح الذي يتأتى منه الفضل والكرم الإلهي، وذلك بأن يقول: "الله الحمد والشكر" آلاف المرات حيث إنه كَرَّمنا وهياً لنا مناخ الخدمة بتوفيق من عنده، كَلَّل سعيينا وجهودنا بالنجاح^(١).

التفاني ونكران الذات أساس من أساسات الحركة بل شريان الروح؛ ويظهر ذلك عند مَنْ ينكرون ذواتهم ويتفانون في خدمة الآخرين، وهذا من الممكن أن يحدث انبعاث حيوية تحت راية الربانيين الذين لا يفكرون في أنفسهم أبداً؛ وإن فكروا فإنهم يرون خلاصهم في خلاص الآخرين.

ويؤكد الأستاذ فتح الله على أن الإنسانية اليوم بحاجة ماسة إلى من يمزجون حياتهم بروح التفاني، فيقول: "نعم إننا في حاجة إلى أناس روحانيين يكون لذنوب الأمة، ويتظنون غفران ذنوبهم مع غفران ذنوب جميع الإنسانية، يقفون عند الأعراف، ويعيشون متمتعين بجناتهم، ولا يستطيعون -حتى إذا دخلوا الجنة- أن يجدوا الوقت للتمتع بملذاتهم الشخصية؛ يحتاجون الصدق والإخلاص أكثر من أي شيء".

إن سعادة وهناء أجيال الغد؛ هي نتاج أرواح وأنفاس فدائيي اليوم، إنه لمن الخيال أن ينتظر من باعوا أنفسهم للراحة والدعة اليوم مستقبلاً منتظماً ومشرفاً ينبعث من تحت ركام الفتور. إن المستقبل ينمو وبترعرع في رحم الحاضر، وسيصل إلى قوامه واتساقه بالرضاعة من أئداء الحاضر. ومثلما نقل وجودنا اليوم آثار الأمس

(١) إبراهيم البيومي غانم: معالم في سيرة "خوجه أفندي" محمد فتح الله الأناضولي، ص: ٢١٧.

بجوانبه السيئة والجيدة؛ فإن الغد سيكون نسخة اليوم الاجتماعية التي تتعد عن الفردية، ومتوسعة ومتطورة^(١).

على كل مرشد ومبلغ أن ينخلع من الأنانية، لأن الأنانية عامل يعيق الهداية، ويزيل بركتها، سواءً للمبلغ أو المخاطب. لذا فالمرشد والمبلغ ينخلع من هذا الحس المضر، بل يقول ما يريد قوله ضمن تواضع وإنكار ذات. وبهذا ينقذ مخاطبه أيضًا من فكر مسبق ومن العناد. وفي الحقيقة لا يحق لأحد كائنًا من كان أن يتشبث بالأنانية. ومن الواضح أن كثيرًا جدًّا من الكلام الذي يستعمل فيه المبلغ أنواعًا من العقل والمنطق والبلاغة والفصاحة مع ما ينساب من لسانه من البيان إلا أنه لا يؤثر على أحد قط. بينما من لا يكاد يبين ولكن فؤاده محترق، إذا بكلامه يكون مؤثرًا، ويجعله الله سبحانه وسيلة لهداية قسم من الناس^(٢). وعند كولن لا بد من الانمحاء في حساب الله، ففي كتبه يقول، كن فاتح القسطنطينية (نقطة محورية)؛ يبحثون عن الفاتح فلا يجدون، فانس أنك فتحتها ثم انس أنك قد نسيت. لا تحشر نفسك فيما ليس هو لك، هو الله سخرك واستخدمك... إذا أردت أن تقول فقل يد الله مع الجماعة... بركة المجموع مفتاح الخير وبوابة كل نجاح^(٣).

سادسًا: المضامين العملية للحركة

أرست حركة الأستاذ محمد فتح الله كولن تجربة رائدة وأحدثت

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٢٦٠-٢٦١.

(٢) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى محمد فتح الله كولن، ص: ٢٦٧.

(٣) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ١٠٨.

تأثيرًا في مسار التاريخ القريب اجتماعيًا ودينياً ودولياً. والأستاذ كولن هو عالم مستنير وصاحب تجربة عظيمة عقلية وعملية أثرت في تكوين آليات الحركة.

كل الحركات والجماعات الإسلامية تشترك قليلاً أو كثيراً في هذه الخصوصيات والآليات. إذا نُظر للأمر بسطحية يمكن القول، إن الأسس العقديّة والفكرية وأيضاً الاجتماعية والثقافية لكثير من الحركات هي في الأصل واحدة. لأنهم في الأصل يتقاسمون إيماناً وأخلاقاً ومبادئ إسلامية مشتركة. لكن الأولويات والحساسيات المختلفة والخطاب المختلف بينهم قليلاً أو كثيراً والأسلوب والممارسة أظهرت فروقاً لا تصدق.

١. الفداء والتضحية

إن الجماعات الدينية والحركات تتميز بأقصى درجات الحيوية. إنها ترسخ في المؤمن أن يعمل بكل نشاط وخدمة وفيما يمكن أن نسميه أكثر سخرة، وكذلك الإخلاص والصدق والتضحية، فإنها توظف شعور الدين في نفس الإنسان، وتنصح بأن يكون الخير والفاء والحسن والمساعدة والتأزر والتنظيم مؤسسة اجتماعية وحقيقه. وأعتقد أن هذا الفهم يُكوّن الأساس الإنساني المشترك لكل الجماعات تقريباً؛ أي إذا قيست من زاوية "روح الفداء"، فإن الحركات لا فرق كبير بينها وبين الجوانب الإنسانية.

لكن "روح التضحية" في حركة كولن... تنشئ أساساً دينياً واجتماعياً يمتد للآخر وللعرق أكثر من مصطلح "الفاء". التضحية تمنح الحياة لسلسلة من المفاهيم مثل الاستمرار والقدوة والإحياء باسم

الآخرين. الأستاذ كولن يؤكد دائماً في كتاباته ومقالاته وأحاديثه على هذه المفاهيم. في رأيه أن المؤمن النموذجي لا يعيش من أجل نفسه. إن الأستاذ وهو يصف إنسان الخدمة النموذجي يرسم جانباً مؤمناً متفانياً في الخدمة إلى حد نسيان طريق بيته وأسماء أطفاله. دائماً يقول هل من مزيد، مهما يعمل من أجل الله ومن أجل الدين والإنسان والإيمان والإسلام والإنسانية فهو قليل، إنه فراشة تدور بالعشق، إنه يتحدث عن إنسان يخدم أربعاً وعشرين ساعة (كل يوم)، يقدم كل يوم تعريفاً جديداً للفداء. ومع عودته إلى البيت مساء ينسى كل ما فعله. إنه يجسد نموذجاً لمؤمن في نفسه وفي تواضعه وفي تميزه، لا يقول "لقد فعلت اليوم كذا وكذا" فليكن لله، ينسى كل ما فعله طوال اليوم وحتى طوال العمر، سيبقى للإنسان فقط الحساب على ذنوبه وتقصيراته ونواقصه، يشكو دائماً من مرور حياته هباء. فالواقع أنني لم أشهد خلال المدة التي عرفتة شخصياً يوماً خصصه لنفسه. والنتيجة أن الفداء لا يصل إلى الكمال إذا لم يتجاوز الحدود المعروفة عنده، والتضحية لا تصل إلى الكمال إذا لم تصل إلى حدودها القصوى.

٢. الزكاة والإنفاق

يضع الأستاذ كولن تعريفاً واضحاً متسعاً للفداء. فقد حوله إلى مبدأ يرتكز على أساس فهم إسلامي وإنساني تام. الزكاة كما نعرف جميعاً مصطلح حُدد تعريفه وحدوده في النصوص. وإذا كان قد أتى في القرآن مجملاً، فقد وُضح من قبل السنة النبوية الشريفة. "إنه يتناول الزكاة والصدقة وكل نوع من العطاء بمصطلح

الإنفاق. هؤلاء يعيشون أو يتواجدون من أجل إيتاء الزكاة؛ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٤)؛ هذه الآية من وجهة نظري تجلت فيها هذه المعاني. في المعتاد تبدو هذه الآية تقوي أهمية الزكاة، لكن الأستاذ يشرح ويفسر هذا مثل (الناس الذين يعيشون فقط من أجل إيتاء الزكاة). إن هدف وجود الإنسان على ظهر الأرض هو الوصول إلى القوامة التي تمكن من العطاء. هذا هو معناها أينما كان، كل شخص يجب أن يعطي، ليس شرطاً أن يكون واحداً من أربعين. وكما هو في المثل التركي إن هذا هو الحد الأدنى الذي وضع لمن استطاع إليه سبيلاً، لكن الكرم لا حد له. في حركة كولن تعيش قطاعات المهنيين بهذا الشعور. من ناحية أخرى يقوي الأستاذ كولن هذا الأمر بمصطلح الإنفاق، الإنفاق يعني العطاء كما في ظروف فترة مكة، وحدوده مفتوحة. هذا النوع من الحدود لا وجود له في تشريع مكة. معظم الحدود التشريعية ترجع إلى المدينة. مكة هي مرحلة ومدينة الفداء والتضحية بكل جوانبها وتقديم الروح والمال. ولأنها فترة تكوين فقد أعطى المؤمنون فيها كل شيء. في ذلك الوقت كان هذا ضرورياً. المصطلح الذي برز حينئذ هو الفداء والتضحية بكل جوانبها، الإنفاق هو عطاء مفتوح الحد يشمل واحداً من أربعين وواحداً من عشرة أيضاً إلخ. وعند الحاجة عطاء كل شيء. والواقع أن نماذج هذا كانت كثيرة عند مهبط الرسالة. المسلمون الأوائل جابوا كل الحدود في ترابط وإيمان وإخلاص في خدمة الفداء والدين. لهذا السبب هذا المفهوم مهم لأقصى درجة لدى الأستاذ. هذا التفسير ربي أناساً مضحين، آلاف من البشر يعيشون فقط من

أجل تقديم هذه الخدمة. يصيهم التعب حين لا يعطون وحين لا يستطيعون العطاء وحين يتأخرون في العطاء^(١).

فوجود هذه الزمر داخل هذه الحركة يجعلها تختلف عن غيرها من الحركات الإسلامية والتي فيها قد يتبرع بعض التجار ببعض المال والأشياء ثم يتراجعون ويتركون الأمر، هنا الأمر يختلف، هنا المعية الدائمة، التجار مع المدرسين والتربويين والمفكرين، ونفس الحركة التي تكون عندهم تكون عند التجار، فالتجار لا يضعون المال ويذهبون، بل يعملون كما يعمل المدرسون. المعلمون يهاجرون، والتجار كذلك يهاجرون تغمرهم روح واحدة من الأخوة والمحبة والفداء.

عند الأستاذ فلسفة عامة في إدارة رأس المال، فأى حركة إن لم يكن لديها قدرات تستطيع أن تسيّر الموارد البشرية والأخلاقية والفلسفية والفكرية في ذاتها لا يمكن أن تستمر على المدى الطويل، لذلك فأصناف التجار ينتجون رأس المال ويديرونه.

النفس الأمانة بالسوء يقابلها عند الاقتصاديين النقود و"المال". فالنفس الأمانة بالسوء إذا زكيتها فإنها تتقدم مراحل. الأستاذ كولن كَوَّنَ هذا الوعي الرأسمالي عند التجار، وهكذا وسَّع من فهمنا لمصطلح الزكاة.

٣. الوقف والمتولي

هذه المفاهيم واحد من المجالات التي أضافها الأستاذ. هذه

(١) محمد أنس أركنه: نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٣٠٧-٣٠٨.

المفاهيم تشكلت وتطورت بالتأكيد داخل التجربة التاريخية والاجتماعية الإسلامية الطويلة. هي مفاهيم تجددت ماهيتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية باستمرار وحُفظت وانغمست في الحياة. الأستاذ أضاف لهذه المفاهيم انفتاحاً عالمياً عجبياً. لقد جعلها وظيفة وديناميكية، حتى يمكن القول بأن هذه المؤسسة مع هيئة المتولي الحيوية والديناميكية أصبحت ممثلة ورائدة لمؤسسة حديثة تدعو إلى انفتاح إنساني وأخلاقي واجتماعي عالمي مماثل للتجربة والنهضة الإسلامية الحديثة في تركيا كما هو الحال في تجربة كولن. الوقف التقليدي، في تجربته التاريخية الطويلة أحياناً أدى وظيفة اجتماعية واقتصادية محددة بشروط مبينة في الوقفية (كتاب الوقف) في نموذج مجتمع ضيق ومغلق. عندما نقيس بطريقة التنفيذ في التاريخ فإن تفسير وتطبيق الأستاذ أوجد رؤية يمكن أن تعتبر تجديداً^(١).

٤. التعليم والمعلم

قد تنشأ الأنانية من العلم، أو من الثروة والسلطة، أو تنبع من الذكاء، أو تتضخم بالجمال... وهناك أنواع أخرى. ولما كان الإنسان لا دخل له في إيجاد هذه الصفات، لذا فأبي ادعاء أو دعوى تكون وسيلة لغصب حق صاحب الملك الحقيقي وجلب لسخطه، وتؤدي في النهاية إلى هلاك أرواح هؤلاء المغرورين. عندما تنضم الأنانية الفردية والشخصية إلى أنانية جماعة نراها تتضخم وتأخذ شكلاً عدوانياً. وتبدأ هذه الأنانية المتوحشة بتحويل كل شيء - حتى الأمور

(١) محمد أنس أركن: نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، ص: ٣٠٨-٣٠٩.

الخيرة- إلى غيوم سوداء تقوم بامطار كل ما عرفه البشر من شرور. أجل! فالعلم يكون في يد هؤلاء ضياء كاذباً ووسيلة للثروة والغرور والمظاهر، والقلب جحرًا للأفاعي والحيات، والجمال فتنة للآخرين وضرراً، والذكاء وسيلة للضحك على الذقون^(١).

فتح الأستاذ طريقاً جديداً للتعليم في تركيا وفي العالم. وحتى الثمانينات والتسعينات لم يكن نموذج التعليم المطبق في تركيا في وضع جيد. فقد وصل إلى نقطة التجمد والتوقف. أوجد نموذج الأستاذ آية جديدة سواء في برامج الإعداد للجامعات التي افتتحت وسواء في مؤسسات التعليم الفني، وأيقظ شعور التنافس في مجال التعليم لدى كل شخص في تركيا. كانت القطاعات الإسلامية بصفة خاصة أبعد القطاعات عن التعليم. كانوا يرونه مجالاً دنيوياً تشغل به الدولة. حتى كانوا يتهمون الأستاذ باللعب بالذمي مع الأطفال. ويقولون "بم ينشغل الأستاذ العالم الكبير والواعظ والمفكر"، رغم كل شيء فإن الأستاذ منذ السبعينات فصاعداً أوصى الناس من فوق مقاعد الوعظ بفتح المدارس. كما كان يجتهد لتنبه قطاعات المسلمين لأهمية التعليم. اليوم تحاول كل مجموعة مسلمة لديها إمكانية بسيطة أن تفتح معهداً، جذب الأستاذ إلى التعليم ليس فقط القطاع الإسلامي بل أيضاً القطاعات الأخرى، اليوم كل أسرة تركية هي في داخل التعليم. في ظل هذه المنافسة تزداد جودة التعليم بإطراد. حتى مدارس الدولة اضطرت إلى السير في نفس الطريق. منذ ما قبل الثمانينات كتب الأستاذ مقالات كثيرة جداً حول قدسية

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٤١-٤٢.

وأهمية سلك التعليم وصاغ نموذج التعليم والمعلم المثالي الذي في ذهنه. لقد صاغ المدرسة والمعلم والتلميذ والعائلة كأسرة واحدة. وصاغ هذا النموذج في المعاهد التي أسسها، مُتَّبِعًا فلسفة تعليم تتداخل فيها المدرسة والأسرة. هذا النموذج ربي عددًا كبيرًا من كوادر المدرسين الذين يخدمون ويمارسون التعليم بإخلاص في كل مكان في العالم. كوادر المدرسين الذين يخدمون في هذه المناطق المختلفة يتواجدون هناك بشعور من إيمان كبير وهجرة ومسؤولية. تنشئة كادر كبير بهذه الكيفية ليس أمرًا سهلاً. وهم أبطال الخدمة النموذجية للأستاذ^(١).

٥. تنظيم قطاعات المهنيين

أحد أهم الخصائص التي تميز الأستاذ عن الحركات الإسلامية الأخرى في تركيا هي تنظيم قطاعات المهنيين. هذا المجال هو أكثر المجالات توفيقاً لدى الأستاذ. دخول قطاعات المهنيين في تشكيلات اجتماعية واقتصادية ظهر في تاريخنا بعد القرن الثاني عشر. تشكيلات الأخيان (أخيلك) التي أحيت تراث الفتوة القديم برؤيته للأخلاق والدنيا وبنائه الديني والاجتماعي والاقتصادي مارست نشاطها كمنظمات مهنية.

هذه التشكيلات أحيت مبادئ دينية مثل الفداء والتكافل والصدق والعطاء دون انتظار المقابل والتواضع والإيثار وأصبحت مصدر تربية معنوية وتنظيم لهذه التشكيلات. والخلاصة أنه يمكن القول إن نموذجًا لأخلاق عمل صارمة وتكافل اجتماعي قد تأسس فيما يعتبر نجاحًا

(١) محمد أنس أركن: نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، ص: ٣٠٩-٣١٠.

بدرجة ما في إعطاء روح تكافل أخلاقي واجتماعي محدد لمجموعات المهنيين في ظروف تلك الأيام السياسية والدينية والاجتماعية. لكن أيا من النماذج التنظيمية التاريخية أو التنظيمات المهنية المعاصرة لم تحقق نجاحًا ونموًا بقدر ما حقق النموذج الذي نمّاه ونظمه الأستاذ. وإذا أخذت سواء من ناحية طريقة التنظيم والمبادئ الدينية -الأخلاقية- الاجتماعية التي اعتمد عليها، وسواء من ناحية الشعور الإسلامي، الذي يمتلكه فإن قطاعات المهنيين في حركة كولن تقدم أسلوب فداء وتنظيم لم يُر مثله كثيرًا في التاريخ القريب والبعيد.

٦. الحوار والتفاوض

مفهوم الحوار بمضمونه الديني والفلسفي ليس مفهومًا جديدًا. لكن المعنى الذي يفيد فيه ما يتعلق بتركيا مهم جدًا وعميق. لأن بنية تركيا الاجتماعية كانت على عتبة تمزق من الناحية الفكرية والسياسية والإثنية والأيدولوجية في الماضي والقريب. الإنقلاب العسكري في ١٩٨٠م حقق هدوءًا نسبيًا وبدا أنه أنهى الصراع الأيدولوجي الذي في الشارع. لكن استمر التحزب الذي في العقول.

جمع الأستاذ ولأول مرة وطوال سنوات التسعينات من القرن الماضي أناسًا من كل قطاع ومن كل أيدولوجية ومن قطاعات مختلفة إثنيًا ودينيًا وثقافيًا من أجل بناء نموذج حياة مشتركة وسليمة. هذا أول نموذج تحقق في التاريخ القريب. واشترك في هذا المشروع أكاديميون ومثقفون وكتاب وصحفيون وسياسيون ورجال دين وأناس من قطاعات مختلفة مثل عالم الموسيقى والفن. ويعد ذلك أسست متدييات تقدم خدماتها في كل مكان توجد فيه في العالم بين

أناس ينتمون إلى جذور فلسفية ودينية وثقافية وجغرافية مختلفة. هذه المسيرة ما زالت مستمرة. هذا النوع من النشاط والمنظمات تؤدي وظيفة ممتص الصواعق في ظل الفقر والتلوث البيئي ونظريات الحرب والصدام التي تهدد العالم.

إن الأمة تحتاج إلى تبادل جدي ومواجهة جدية لتجاربها المختلفة من ناحية فكرية وفلسفية واجتماعية. فليواجه المسلمون على الأقل بعضهم البعض وقيمون حوارًا. كل حركة لها علاقة بدرجة ما قليلاً أو كثيراً مع الغرب أو العالم الخارجي. لكن إذا كان لا بد من قول الحقيقة؛ لا بد للعالم الإسلامي أن يكون صاحب رؤية فكرية واجتماعية أكثر اتساعاً. ولا يتحقق هذا إذا لم يُفتح على الآخرين قوته الخفية التي يمتلكها، ويعرفها لهم. مدرسة كولن تقدم في كل مكان موقفاً نموذجياً من هذه الزاوية. لن أقدم هنا سجلاً دينياً وفلسفياً حول إيجابيات الحوار وسلبياته. لكن أستطيع أن أقول باختصار؛ في كل مكان ذهب إليه وزرته كان ما لاحظته هو حاجة الإنسانية إلى الحوار. أما حوار المسلمين مع بعضهم البعض؛ فهو أكثر إلحاحاً من الجميع. أقول إنني أعتقد أن هذا مهم وضروري لأقصى درجة سواء من زاوية التصور العالمي للإسلام أو من ناحية مواجهة التجارب المختلفة في العالم الإسلامي^(١).

وهنا لا بد لي من وقفة أتحدث فيها حول هذه المحركات والمضامين التي شاهدها عياناً وعشتها واقعاً في تركيا إسطنبول، أدرنه، أزميز، دينزلي، وأرزروم.. وكذلك في ألبانيا مفتاح أوروبا

(١) محمد أنس أركنه: نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، ص: ٣١١-٣١٣.

وفي أربيل وأفريقيا شمالها ووسطها.. وقد خلق الله تعالى البشر والبلدان شعوبًا وقبائل وتضاريس يختلف بعضها عن بعض.. ففي مكان الأبيض وفي آخر الأسود، وهنا حرٌّ تعجز أجهزة التبريد عن تخفيفه، وهناك قَرٌّ تعجز أدوات التدفئة عن تحسينه، بلدان مختلفة ولهجات شتى وأجواءً متباينة وتضاريس متباعدة.. كل شيء يختلف عن الآخر في هذه القارات المترامية الأطراف، الكل فيها مختلف، اللسان والشكل والجو والطبيعة والطعام واللباس، كل شيء يختلف إلا الخدمة، نعم، إلا الخدمة وفرسانها هي هي في كل مكان.

هي ذاتها حيثما حلت وكيفما ارتحلت، فالخدمة نموذج متميز متفرد يَصْلُحُ لكل زمان ومكان. كأنها صُنعت في قالبٍ واحد، وما عليك أيها الداعية المهاجر المؤتمن إلا أن تحملها وتضعها في المكان الذي يحتاج إليها.. يتغير المكان والزمان والخدمة لا تتغير.. وفرسانها الذين تفانوا في تقديم العمر والوقت والجهد والفكر والمال في أوروبا يقدمون ذات الخدمة والجهد في آسيا وأفريقيا.

ذاتُ المدارس والجامعات والمشافي والمؤسسات الإغاثية ورجال الأعمال الذين رأيتهم في تركيا.. رأيتهم أيضًا في الجزائر وأربيل وألبانيا وأفريقيا، لذلك كتبت حول هذه المضامين وهذه المحركات وقد لمستها وعشتها وعايبتها حقيقة لا خيالاً، وواقعاً لا وهمًا، وهي شهادةٌ سأسألُ عنها يومًا بين يدي الله عز وجل.

هي الخدمة الجليلة التي شاءت قدرة الله تعالى لها أن تصلح لكل زمان ولكل ظرف وحال. ولكن لماذا؟ هذا سؤال شريف!! لماذا هكذا هي الخدمة وُجدت لتنجح وتبقى؟ لماذا عمٌ ضيأؤها بقاعًا من

الأرض لظالما غرقت في الظلام؟ لماذا استمر هذا النور وتزايد هذا الضياء يوماً إثر يوم؟ لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟ سؤال عظيم وشريف، أضنيت قلبي وفكري وروحي في البحث عن إجابة تليق به.. فقلت لعله الإخلاص الذي تشرف به الإمام المعلم كولن وإخوانه، أو لعلها الهمة والتضحية والتفاني والانمحاء وإنكار الذات، والأشواق المنبعثة من تلك القلوب النقية الطاهرة حتى انتشرت في أدنى بقاع الأرض حرارة حتى التجمد، وفي أعلاها حرارة حتى الغليان. فوجدت الإجابة في كل هذا، ولكن الشيء الذي اطمئن إليه قلبي وسكنت له روحي هو أن السر في هذا النجاح وفي هذا التألق أن الخدمة ما كانت يوماً تمثل إلا الإسلام، والإسلام ما وُجد إلا لينجح ويبقى.

نعم، الخدمة هي الإسلام، الإسلام وُجد ليكون الملائم والمناسب لكل زمان ومكان. ففي نَشْرِكْ للإسلام أنت لست بحاجة إلى أن تغير طبيعة إسلامك ليتناسب مع المحيط، ولكن عليك فقط أن تغير المحيط والمكان وتحمل الإسلام معك ناصعاً شعاعاً عذباً سلسبيلًا، فأينما حلَّ حلَّ معه الشفاء والأمان والخير والبركة وكذلك هي الخدمة.

لذلك عندما كنت أتساءل بداية ما الذي جعل هذه الخدمة تصل إلى مشارق الأرض ومغاربها وتنجح فيها؟ نعم تصل وتنجح، فليس المهم أن تصل ولكن المهم أن تنجح وتستمر بالنجاح. وجدت الإجابة تكمن في البحث والتمحيص في هذه المحركات والمضامين التي دفعت هؤلاء الفرسان رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً.. أن يخوضوا هذا العذاب الحلو الممتع من بلد إلى بلد ومن طبيعة إلى طبيعة إلى أخرى ومن جو إلى آخر.

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما سألت إحدى الأخوات الكريزمات المعلمات فارسة من فرسان الخدمة.. سألتها منذ كم سنة أنت هنا؟ قالت منذ خمسة عشر عامًا قضيتها في وسط أفريقيا بين ثلاث دول، وقد أنجبت فيها ثلاثة أولاد في كل دولة ولد، وما زلت أعيش هنا وأخدم مع زوجي وأطفالي في بوركينافاسو.

فسألتها مستغربًا خمسة عشر عامًا؟ ومتى ستعودين إلى تركيا؟ قالت: ماذا؟ فكررت السؤال عليها؟ فقالت -بحزم المؤمنات الناسكات العابدات القانتات الطاهرات المجاهدات-: أنا لم أخرج من تركيا حتى أعود إليها.. ونحن كذلك جميع أبناء وبنات الخدمة، خرجنا من تركيا لنبقى هنا، فهذا وطني ووطن أولادي من بعدي. ثم قالت: كلمة سيسجلها التاريخ يومًا بحروف من نور لهذه الطاهرة ولإخوتها وأخواتها ولأستاذهم ووالدهم العظيم كولن: يا أستاذ وطني حيث رسالتني.

سابعًا: مفاهيم ومصطلحات خاصة بالحركة

امتاز الأستاذ باستخدامه بعض المصطلحات القرآنية مثل الجيل الذهبي، عامل الفكر، وارثو الأرض. ويقول الباحث محمد باباعمي: "لقد بحثت في المصطلحات والمفاهيم عند الأستاذ كولن فأخذت كتابين من كتبه فاستخرجت منها حوالي (٢٠٠٠) مصطلح ومفهوم. هذا من كتابين فقط.

وبعد الدراسة لمصادر الأستاذ تبين لي أنه يعيد صياغة المصطلح ليلائم حركية الخدمة لكي لا تتصادم مع النظرة الكلاسيكية للمصطلح. ومن الأمثلة على ذلك، تقول أنت مثلاً الجبرية؛ وهذا

مصطلح معروف، تجد أن الأستاذ يحاول أن لا يستعمل نفس المصطلح، لذلك حتى لا يدخلك في خلفية هذا المصطلح من خلال ما قرأته في التراث المؤلف، أطلق عليه اسم المعينية وهي تلازم السبب والنتيجة، وللاستاذ مقال تحت عنوان المعينية إلى حد ما، حيث خرج من مصطلح الجبرية إلى مصطلح المعينية، لماذا؟ حتى لا تبقى في الذهن - ونحن نقرأ هذا المقال - العوالم والمخلفات والجدل بين الجبر والاختيار في التراث الكلامي، وهذه خاصية عميقة جداً عند الأستاذ بين الجبر والاختيار في التراث الكلامي.

لذلك عندما بدأت أجمع حوالي (٢٠٠٠) مصطلح عند الأستاذ من خلال كتابين "ونحن نقيم صرح الروح" وكتاب "ترانيم روح" بدأت من العنوان، فصيغة "ونحن نقيم صرح الروح" و"ونحن نبني حضارتنا" خاصة بالأستاذ فتح الله، لم يقل "نحن نبني حضارتنا" بل قال "ونحن نبني حضارتنا"، فالاستئناف عجيب في اللغة والعنوان^(١).
ومن أهم هذه المفاهيم والمصطلحات:

١. أطباء الروح

يرى الأستاذ أن مجتمعنا الإسلامي يحتاج إلى (بعث بعد الموت)، وذلك بالانسلاخ من القالب إلى اللب، ومن الشكلية إلى الجوهر والروح وإلى الإخلاص في العمل، والتخلص من الكثير من السلبات، فلا يكون ذلك إلا عن طريق أطباء الروح، فيقول: "إن سبيل الخلاص من كل من هذا الاضمحلال هدراً في شباك السلبات، هو ملء فراغتنا، وإعلان النفير العام الذي يزيل ضعفنا وينقذنا من عبودية

(١) لقاء خاص مع الأستاذ محمد باباعمي.

الجسم والبدن. وإذ ينقذنا، يجهز أطباء الروح والمعنى الذين يقودون القلب والروح إلى مستوى الحياة... أطباء منفتحة قلوبهم على الروح والمعنى، منطلقون في ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات كلها، من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك. إن هذا الشعب ليس بحاجة إلى هذا وذاك، بل إلى مثل هذا العقل. وكما يلتقي العقل ويحاور كل جهة بعيدة وقريبة في البدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن فريق العقل هذا سيكون في تعاط مع جميع حجرات بدن الشعب وجزئياته ويصل إلى جميع الوحدات في المجتمع، ويضع يد تصرفه في جميع أجزائه الحيوية... ويهمس في أذن كل صنف شيئاً من الروح والمعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسباً عمقاً أشد غوراً في الحاضر، وممتداً إلى الآتي.

هذا الفريق يسع الجميع. يحتضن الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، كما يحتضن أبناء الوطن السائين وغير المنضبطين في الأزقة. ويُفرغ في كل صدر إلهامات روحه، ويُعدهم لفائدة المجتمع دهاة مؤهلين بعلوم الغد ومهاراته، ويرفع كل إنسان وكل شريحة إلى الكمالات الإنسانية بالتطهر من لوثات العصر في صفاء مآوي النور ومجمّعات إقامة الطلاب وبيوت الطلبة والمدارس والجامعات والمعابد والتكايا. هذا الفريق يؤنس وحشية الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون ووسائل الإعلام القوية، ليجعلها صوتاً ونفساً للدين والملة من

وجهة، ويرشد بها من وجهة أخرى الأحاسيس السوداء والأفكار القاتمة والأصوات المدلهمة، إلى سبيل الصيرورة الإنسانية. هذا الفريق ينقذ التربية والتعليم المتغيرة صورة وتوجهاً كل يوم تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية، من وصاية الأفكار الدخيلة، فينظمها بصورة طيعة لمتطلبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة ببرنامجهما وخطتها وأسلوبها. بفضل ذلك ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ البيغائي والشكلية، إلى الفكر العلمي الحق، ومن تركية أنواع الرذائل باسم الفن، إلى الفن والجمال الحق، ومن العادة والإدمان المهول نشأة ونسباً، إلى الشعور الأخلاقي النابع من الدين والتاريخ، ومن أفعال الأفكار المتنوعة القابعة في صدورنا والتي أضتتنا وأنهكتنا، إلى واحدة الخدمة، التسليم، الشعور، التوكل^(١).

٢. أجيال الأمل

"أجيال الأمل" مصطلح عظيم خاصُّ بالأستاذ كولن، بدَّلَ لأجله فكره وروحه وقلبه وعمره.. لأن هذا الجيل إذا توفرت له أسباب وعوامل التمكّن وتحققت بين يديه آليات ومحركات العمل، وتنورت عنده مدارك الفكر والعقل والقلب، وأشرقت أمامه أنوار الروح والوجدان.. عندها سينبجس الأمل من بين يديه. ولهذا نلمس عند الأستاذ الأمل الكبير الذي يعقده على أجيال الأمل، فيقول: إن أجيال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم ممثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندسو الروح لمن يأتون بعدنا. وسيشكل هؤلاء

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٢٦-٢٨.

تكوينات جديدة في كل شريحة اجتماعية بتفريغ حرارة الإلهام لقلوبهم المتغذية بالأخرويات إلى الصدور المحتاجة إليها. وإن ضياع حظ كثير من الأجيال في تاريخنا القريب، وهدرهم، بل سقوطهم في الجنون والهذيان، كان بدرجة كبيرة لعدم التقائهم بمثل هذا الجيل الأمل. سيتحقق على يد أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات الفاهمين للعصر والعاشقين للحقيقة بشُبوب اشتياقهم للعلم، والمُحدّودة ظهورهم تحت ثقل المعضلات الحقيقية الحاضرة والقلق المتصور في المستقبل، والمنعكسة دواخلهم على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائمًا إلى ما خلف الآفاق... أبطال اللدنيات الذين يتنون بآلام الأجيال إذ يسعون للنهوض بها إلى درجة معينة، ويحولون مستقبلها الكدر إلى دموع في أرواحهم فينوحون نواح أيوب عليه السلام ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم. إن إحياءنا "بالانبعاث بعد الموت" مرة أخرى، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأطعم عديدة من الأبطال، البالغين أنوار الحقيقة بعد اجتيازهم آفاق العلم، والمتحكمين في ضبط الرغبات والمتطلبات البدنية ضمن إطار الضرورات، والسامعين بوجدانهم دومًا أناشيد الماورائية تناديهم إلى الله، المعبرين عنه تعالى ببيان بلا حرف ولا لفظ ولا صوت في هيجانهم ونشيجهم، المتنفسين أنفاس أنسه شهيقًا وزفيرًا. ولأن هؤلاء الأبطال أعدوا أنفسهم منذ البداية عبيدًا للحقيقة في رقب يابى الانعتاق، فهم لا يكونون أسارى وخدمًا للمطالب المشتتة في المجتمع بتأتًا، بل يحسون دائمًا بنير العبودية للحق تعالى في أعناقهم. وينبغي على كل واحد أن يقول لنفسه بمسؤولية فردية جادة

"اليوم يوم الفعال. فإن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري أيضاً" ثم يركز فرسه ليندفع إلى مقدمة الصفوف لرفع الراية^(١).

٣. الإنسان الجديد

من بين هؤلاء الذين هجروا العقل والتفكير مندفعين خلف "الموضات" الفكرية دون أي تمحيص أو تدقيق، ومن ضمن الجماهير الفاقدة لوعيها، الهائمة على وجهها، سيولد إنسان جديد كل الجدة، إنسان يفكر ويحاسب، ويوازن ويدقق، ويعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة؛ إنسان يحاول دومًا بروحه وبدنه الوصولَ إلى الأفضل، ويرغب في الوصول إلى الكمال والتكامل في كل شيء. إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخرة، ويوفق إلى الجمع بين عقله وقلبه فيصبح نموذجًا جديدًا لا مثيل له. ولا شك أن ولادة هذا الإنسان الجديد ليس بالأمر السهل، فلا بد من آلام مخاض وتوجع وأنين. ولكن حين يئين الأوان فسوف تتحقق هذه الولادة المباركة حتمًا.

الإنسان الجديد بطل يتمتع بشخصية قوية استطاعت أن تسمو على المؤثرات الخارجية بشتى أنواعها، وعزمت على الصمود والإكتفاء الذاتي. فكما أن الشرق والغرب لن يستطيعا أسره ووضع السلاسل في قدميه، فكذلك لن تستطيع الأفكار والفلسفات التي تتناقض مع هويته المعنوية وجذوره أن تغير وجهته وتضله في ظلامها عن طريقه، بل ولن تستطيع أن تزرحه عن مكانه قيد أنملة أو أقل من ذلك. أجل، الإنسان الجديد رجل حر في تفكيره، حر

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٢٨-١٣١.

في تصوره، حر في إرادته، وحرية هذه مرتبطة بقدر عبوديته لله ﷻ. ثم إن الإنسان الجديد لا يتشبه بالآخرين ولا يتمثل بهم، بل يحاول جاهداً أن يتزَيَّ بهويته الذاتية ويتزَيَّن بمقوماته التاريخية.

الإنسان الجديد يستخدم جميع وسائل الإتصالات الحديثة؛ كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعة وتلفازاً ومنشورات للولوج إلى القلوب والنفوذ إلى العقول والدخول إلى الأرواح، ويثبت جدارته من خلالها مرة أخرى، بل ويسترد مكانته المسلوقة في التوازن العالمي من جديد. الإنسان الجديد، هو إنسان عميق من حيث جذوره الروحية، متعدد من حيث ما يملكه من كفاءات صالحة للحياة التي يعيش في أحضانها^(١).

٤. الأجيال المثالية

ولسنا بحاجة اليوم إلى هذا وذاك، بل إلى أمثال هؤلاء من رجال الأفق الرحيب المثاليين بالشخصية السامقة. وسيتحقق في السنوات القابلة قيام شعبنا من جديد وكرة أخرى، على يد هؤلاء من أهل الروح والمعنى، ورجال الفكر السامق. هؤلاء الشجعان الذين خميرة وجودهم هو الإيمان والعشق والحكمة والبصيرة، لم ينحنوا أبداً أمام زخم الهجمات الداخلية والخارجية على مر القرون التسعة أو العشرة الأخيرة، ولم يتزعزعوا. ربما انكمشوا شيئاً قليلاً أو ضاقوا، لكنهم اكتسبوا صلابة البنية، فتماسك قوامهم إلى درجة كافية لتصفية الحساب مع المستقبل. وهم اليوم جاهزون لاستلام "النوبة" بقوة الروح الخارقة للعادة، يتطلعون إلى العصر بأبصارهم في ترقب نشط.

(١) محمد فتح الله كولن: الإنسان الجديد، مقال منشور في مجلة "سيزنتي" التركية، مارس

فنحن نؤمن يقيناً بأن أجيال الفكر المثالية المتوجهين نحو المستقبل بحسبهم وفكرهم وعملهم الحركي، المحبين لرسالتهم ووطنهم وإنسانهم بدرجة العشق، المتوترين كوتر القوس في انشدادهم إلى الخدمة والشعور بالمسؤولية، ستجتاز العقبات كلها وتشقى تكوينات جديدة. فلا بد أن يسري العشق الذي في جناباتهم، وحبهم للخدمة إلى شرائح مجتمعهم كلها، فتشعب براعم أينما سرى^(١).

٥. الأرواح المجرمة

كثيراً ما يحسب الإنسان الآخرين مثله وينظر إليهم من خلال نافذة قلبه. ومن خلال الضباب الكثيف والدخان الموجود هناك يرى الجميع رؤية عكرة. لذا فجميع القرارات التي يصدرها في هذه الحالة تكون قرارات ظالمة ومظلمة. لذا فالشخص الأناني الذي يعيش هذه الحالة يرى أن كل شيء حوله قد انتهى أمره وفسد. ولكنه لا يدري أنه هو الذي انتهى أمره في الحقيقة^(٢).

٦. الأصناف

هم رجال الأعمال، وكان لتوجيهات وتعاليم الأستاذ محمد فتح الله كولن، أن أصبح مصدر القوة المعنوية لكثير من رجال الأعمال الأتراك في فعل الخير ونشر الثقافة الدينية المستنيرة. وقد عمل العديد من رجال الأعمال الأتراك على تحويل تلك التعاليم من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي، حيث يرون ضرورة توصيل مفهوم "الإسلام المعتدل" للعالم.

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١١٤.

(٢) فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٨.

٧. التوتر المفقود

إن لم تكن تمتلك قلبًا يحترق.. وروحًا متحفزة وهمة متوترة ستطول عليك المسافات للوصول إلى بداية النجاح، ولذلك يقول الأستاذ: "كل نجاح هو نتيجة لمعاناة وتوتر وتعبئة سابقة. وهو بداية وسبب لنجاح تالٍ، ولكن بشرط ألا يرتخي الواصلون إلى الفوز وألا يسكرهم النجاح فيرتخوا ويكسلوا"^(١).

٨. الخدمة

وفي هذا المشروع وظفوا قيمة "الخدمة" ويعنون بها الخدمة في إطار المشروع والتوظيف في المشروعات التي يديرونها هنا وهناك، وهو التوظيف الذي لا يصير معه الإنسان مجرد "موظف" يؤدي وظيفة دون روح، بل إنه يخدم الناس من خلالها بروحه وأخلاقه السمحة قبل أي شيء آخر"^(٢).

٩. الروح المثالي

الذين يتبعون إرشاد الناس وتنويرهم، والذين يبذلون جهودهم في سبيل سعادتهم، ويمدون أيديهم إليهم لإنقاذهم من الورطات الكثيرة للحياة، هم أصحاب القلوب الكبيرة الذين فهموا أنفسهم. وهم مثل ملائكة الرحمة وملائكة الحفظ والصيانة في المجتمع الذي يعيشون فيه، يتصارعون مع مصاعب المجتمع ومصائبه، ويتصدون للرياح

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١١٣.

(٢) مجدي سعيد: فتح الله كولن.. عندما تصنع القيم تنمية، موقع "إسلام أون لاين"، ١٦ يوليو

وللعواصف ولإطفاء الحرائق، وهم على أهبة الاستعداد لكل طارئ^(١).

١٠. المهمة

لتأمين المورد المالي يستخدمون في تحريكه الطاقة الروحية والأخلاقية محولة إلى تكاليفات عملية تتمثل فيما يسمونه بـ"المهمة" ويعنون بها الطاقة الروحية حينما تتحول إلى فعل التزامي محدد بمقدار يلزم به الإنسان نفسه أمام الناس، ومن ثم يتحول من خلال الضغط الاجتماعي إلى شبه إلزام، ويشارك في أداء تلك المهمة الصغير والكبير فيما يملك^(٢).

١١. جنود الإرشاد

قام رسولنا ﷺ بأداء الحج مرة واحدة. ولكنه قضى كل عمره في التبليغ والإرشاد... ليس الكبير من ينجز الأعمال الكبيرة ويضع الخطط الكبيرة. بل هو الذي يهدف إلى نيل الرضا الإلهي ويكون مظهرًا لأن يقول له الله تعالى إنني راضٍ عنك.

إياك أن تؤجل موسم بذر البذور إلى موسم الحصاد، وإلا ذهبت جهودك هباءً في كلا الموسمين. تصرّفنا في أرض الله، يشبه التصرف بالأراضي الأميرية، إن كانت لديك بيضات وفراخ كثيرة فلا تضع جميعها في سلة واحدة... عندما تتوقف الخدمات الإيمانية تبدأ البلايا بالقدوم. عندما تبدأ الأخطاء بإزعاج الإنسان، فهذا يعني أنه بدأ يميز بين الثواب والإثم^(٣).

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٦.

(٢) مجدي سعيد: فتح الله كولن.. عندما تصنع القيم تنمية، موقع "إسلام أون لاين"، ١٦ يوليو ٢٠٠٩م.

(٣) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٩٨-١٩٩.

١٢. الحركية والفكر

وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر... حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة. وإن أهم شيء وأشدّه ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات، الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل. فإن لم نتحرك نحن، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم^(١).

١٣. جيل البكاء والضحك

ما أسوأ حظ من تقدم به العمر ولم يصل بعد إلى فهم وشعور العبودية لله تعالى! وما أكثر خسارانه مع تيسر الربح له. ولو أدرك هذا لكان الأجدر به أن يبكي بحرقة وينتحب ندمًا وأسى بدل الضحك والقهقهة^(٢).

١٤. الهجرة

وفي مشروع الخدمة ووظفوا معنى وقيمة أخرى وهي "الهجرة" بمعناها المعاصر؛ فهم يقدمون مشاريعهم تلك خدمة للإنسانية في أنحاء مختلفة من العالم، وهذا يتطلب من الإنسان أن يذهب إلى

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٥٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٨.

بلدان ربما لم يسمع عنها من قبل، مضحياً براحته واستقراره في بلده ليعيش في بيئة وثقافة تختلف عن ثقافته وبيئته رغبة في خدمة الخلق إرضاءً للحق^(١).

١٥. فدائيو المحبة

إن فدائيو المحبة ينظمون أنفسهم بشعور المحبة تجاه بيئتهم. وحتى حدتهم وغضبهم له طابع المهابة والجدية، لأنه يسعى للتنظيم وللتقويم، أي يكون على الدوام مفيداً وبناءً.

١٦. أبطال المحبة

أبطال المحبة فقط هم الذين يستطيعون إنشاء عالم المحبة والنور والسعادة في المستقبل... أبطال المحبة على شفاهم بسمة المحبة، قلوبهم عامرة بالمحبة، نظراتهم تشع بالمشاعر الإنسانية، يغمزون لكل غمزة محبة.. ويرون في شروق الشمس وغروبها وفي بريق النجوم وخفوتها رسائل محبة^(٢).

فقط أولئك المفعمون بالحب سيبنون الغد السعيد والعالم المنير. شفاهم تبتسم حباً، قلوبهم تنبض حباً، عيونهم تشع حباً، ويملكون لطف المشاعر الإنسانية، هؤلاء هم الأبطال، إنهم يتلقون رسائل الحب من شروق الشمس وغروبها كما يتلقونها من بريق النجوم ولمعانها^(٣).

^(١) مجدي سعيد: فتح الله كولن، عندما تصنع القيم تنمية، موقع "إسلام أون لاين"، ١٦ يوليو ٢٠٠٩م.

^(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٠٥.

^(٣) Ali Unal and Alphonse Williams, Advocate of Dialogue, p: 112.

١٧. مهندسو الروح الربانيون

نحن نعرف كلمة مهندس ونعرف كلمة الروح ولكن مهندسو الروح لا نعرفها فمهندس الروح في التراث الكلامي لا نعرفها، وإنما عرفناها فقط في مصطلحات الإمام كولن.

إن كل إنسان روحاني مرشح -بقدر سعة مكابذاته- لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي يتسبب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية. وأتبه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيُونَ والذين يُحْيُونَ (غيرهم). وقد كررنا مرارًا وتكرارًا، أن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم. أولئك الذين لا يطلبون أن تتبعهم الجماهير... لا يطلبونه، ولكن وجودهم نداء جهوري، وأي نداء! فأينما كانوا، يهرع الجميع إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب... وقد يستقبلون الموت بسعادة وراء ريادتهم.

فنحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونظم فكرية تستجدي من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء الروح والفكر الذين يحفزون في شعبنا كله حس المسؤولية وشعور الهم والمعاناة... حكماء الروح والفكر الذين يُمَكِّنون التعمق في أرواحنا بدلاً عن وعود السعادة المتقلبة إلى الزوال، ويرفعوننا بحملة واحدة إلى مراتب نرى بها المبدأ والمنتهى معًا وسوية.

إن إنساننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أهل العمق الباكين

من أجل آثام شعبهم، المقدمين مغفرة و عفو البشرية على مغفرة أنفسهم... والواقفين على "الأعراف" متلذذين بحظوظ أهل الجنة، فإن دخلوها فلا يجدون وسعة في التلذذ بحظوظهم الذاتية^(١).

١٨. وارثو الأرض

الدنيا تدور، وتدور. وكلما دارت، تنسحب إلى فلکها الأصل. فهل وارثو الأرض الحقيقيون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، فخطفه غيرهم قبل مدة؟ إن الحق الأول شيء، والحق المستلم بالتمثيل شيء آخر. فالحق إن لم يُمثل حسب مقياس قيمه الذاتية، يمكن أن يُسترد في كل وقت، وإن مُنح ابتداءً لأمة معينة وَجَمَعَ معين... فَيُسترد منهم، وَيُسَلَّم إلى من يكونون الأسبق والأفضل نسبيًا في الخير، إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون. يقول الله تعالى في الفرقان البديع البيان: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ولا ينبغي أن يتردد امرؤ في توقع مجيء هذا اليوم، وهو وعد الله المؤكد. ولن تنحصر هذه الوراثة بالأرض وحدها... ذلك، بأن من يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضًا. إذن هي حاکمة في الكون كذلك. ولما كانت هذه الحاکمية بالنيابة والخلافة، فحيازة خصال التمثيل التي يريد صاحب السموات والأرض الحق، لازمة وضرورية. بل يصح القول بأن تلك الرؤيا، وذلك الرجاء، يتحقق بقدر إدراك هذه الخصال ومعايشتها. ولئن حرّم مالك الملك الحقُّ الإرثَ عمن ادعى وراثة الأرض الحقيقية في مرحلة تاريخية كثيفة بالضباب والدخان، لأنهم لم يبذلوا الجهد اللائق

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٨٨.

بالوراثة السماوية كما ينبغي، فإن الخلاص من هذا الحرمان يبدأ من اللجوء إليه تعالى مجدداً.

لقد وعد الله بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروحية المحمدية والأخلاق القرآنية، المنشغلون بالاتحاد والاجتماع، المدركون لأحوال عصرهم، المسلحون بالعلم والفن، المقيمون لميزان الدنيا والعقبى.

فلنسع مرة أخرى في إثبات أننا وارثو الأرض الحقيقيون بفهم الإسلام، مصدرنا الكافي لانبعاثنا المادي والمعنوي، كما هو في أصله، ثم بالانخراط في جموع عباد الله الصالحين السالمين المتينين عاطفة وفكراً وحساً وشعوراً وإرادةً، الثابتين القائمين على إعلاء كلمة الله، المنظمين في حياتهم العلمية... الموثوقين في سلوكيات العمل، المستقرين في شخصياتهم، القادرين على دحر نوازعهم النفسانية، الموفقين إلى ارتفاع القلب والعقل^(١).

١٩. رجل الدعوة

ليس من الضرورة لرجال الدعوة أن يكونوا على الدوام من القادة. سلوك رجل الدعوة ثابت لا يتغير سواءً أكان منتصباً أم مغلوباً. إن لم تتم التربية المتأنيئة الصابرة المنضجة في دور الأرقم فكل شيء لا يعدو أن يكون خيلاً خادعاً^(٢).

رجل الدعوة رجل ارتبط قلبه بدعوته ارتباطاً لا يتردد معه في السباحة في بحور من الدم والصيد من أجلها. وهو ناضج إلى

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٠٣.

درجة أنه عندما يصل إلى هدفه يزهد بكل شيء ويعطي كل صاحب حق حقه.

وهو مؤدب غاية الأدب تجاه خالقه... كل نفس يتنفسه في سبيل الدعوة ذكر وتسييح، وكل فرد من أفراد الدعوة مبجل وعزيز عنده، يشكرهم على كل خدمة ناجحة يقدمونها للدعوة ولكن دون إفراط، لأنه يؤمن بإرادة ربه... أي هو رجل متوازن^(١).

٢٠. "المجتمع المثالي" و"الإنسان المثالي"

إن المجتمع المثالي هو الذي يتكون من أفراد مثاليين. أما تلك الأكوام الهائلة المتخبطة التي تتشكل أجزاءها وجزئياتها من المساوي والآثام، فهي حشود فارغة عقيمة موصدة أبوابها أمام كافة ألوان الخير والفضيلة والجمال.

الإنسان المثالي أو الإنسان الكامل - كما عبر عنه القدماء - هو المتحلي بصفات ملائكية.. هو بطل البصيرة وفارس الإدراك.. هو المنتبه إلى الحقيقة الكبرى التي عبرت عنها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)، وآيات في المعنى نفسه.. هو المدرك يقيناً أن الباري ﷻ قد خلقه في أجمل الأشكال المادية، وسواه في أروع الصور المعنوية، فكان بديع الصنع، متفرد الهيئة، تصدق عليه حقيقة؛ ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ بكل ما يعنيه التعبير.. وهو كذلك العارف بكنه الآية الشريفة التي تقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، الخبير بمضامينها العميقة الواسعة.. إنه يعلم

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٢٩.

أنه المرشح الوحيد بين جميع الكائنات -المرئية منها والمعروفة-
للعروج إلى آفاق لا نهائية.

الإنسان المثالي يموج عقله موج الدوامه بألف سؤال وسؤال،
ويواصل التنقيب عن الحقيقة بنهم عجيب، ويغذ السير قدماً لكي
يفك شفرة ألف لغز ولغز؛ فتراه متوقد الذهن متوثب البحث عن
أجوبة للأسئلة الكونية الكبرى: "ما الحياة، والموت وما حقيقة
الكون، وما علاقته بالإنسان، وما معنى العبودية لله، وماذا تعني الطاعة
له، وما الإثم، وما الثواب، وما حقيقة المحن التي تلم بالإنسان،
ولماذا لم تلم به. الإنسان المثالي، يمتلك ثقة لا حد لها، وطمأنينة لا
غاية بعدها، لأنه يؤمن إيماناً لا يخالجه شكّ بعناية القدرة المطلقة،
ويوقن بأن الله قادر على كل شيء، وأن حكمه نافذ في كل شيء^(١).

٢١. الأجيال المثالية

أولئك ينشغلون بحساب الغد مع اليوم قياماً وقعوداً، ويستعملون
الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى
الغد، ويجدون في حناجرهم غصص نُقل الأيام الحاضرة إلى الأيام
القابلة... يتلعون حسابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة
المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتححرر من قيود الزمان...
إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل، والقدرة على تحليله
وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان
الغد منذ الآن، وفهم محتوى المستقبل روحاً ومعنى، سمّه إن شئت

(١) محمد فتح الله كولن: المجتمع المثالي، مقال منشور في مجلة حراء، العدد: ٣١، السنة
السابعة، (يوليو-أغسطس) ٢٠١٢ م.

"مثالية". لكن لا يُتصور أن يتغلب من لا تتسع آفاقه هذا الاتساع على معضلات ومشاكل كهذه، ولا أن يعدنا بشيء ذي بال باسم المستقبل. إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونبليون وقيصر وأمثالهم، لم تقدم شيئاً باسم المستقبل - مهما كبرت أعمالهم في عيون قوم يحسنون الظن بلا تمحيص - بل محال ذلك، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القوة، وشدوا الروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبيداً للنفسانية عبودية لا ترضي عتقاً^(١).

٢٢. "إنسان الجسد" و"إنسان الروح"

وبينما يقضي "إنسان الجسد" كل حياته خلف ملذاته الجسمانية، أسيراً لرغباته النفسانية دون أن يبلغ ما ينشده من طمأنينة، فإن "إنسان الغاية" سعيد النفس مطمئن الفؤاد على الدوام.. فهو بطل الروح والمعنى.. الذي نذر نفسه للإنسانية يخدمها بمعرفته وعرفانه.. والذي نهض بشجاعة خارقة وعزيمة صادقة لإزالة الظلم من كل أنحاء الأرض.. فهو - إذا اقتضى الحال - لا يد له على من ضربه، ولا لسان له على من شتمه، بل يبسط جناح عفوه حتى على من لم يعرف له قدره أو يقدر إليه صنيعه... وقد فرغ كل وقته ووظف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة، مولياً عناية خاصة بالمواقع التي يراها أشد حيوية وأكثر جدوى للأجيال القادمة، موقفاً نفسه عليه قائلاً: "لتحي الأجيال القادمة" .. ثم يمضي - وقد أدى واجبه - لا يلتفت إلى الوراء ولا يلوي على شيء^(٢).

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٠٩-١١٠.

(٢) محمد فتح الله كولن: المجتمع المثالي، مقال منشور في مجلة حراء، العدد: ٣١، السنة

٢٣. الغرباء

ليس الغريب من ابتعد عن وطنه وبيته وعن أصدقائه وأحبائه، بل هو الإنسان الذي لا يفهم المجتمع حاله ولا طريقه وسلوكه، ولا يفهم مبادئه العالية ولا أحلامه المستقبلية ولا تضحياته بسعاده الشخصية في سبيل الآخرين. وهو الإنسان الذي كثيراً ما يقع في تناقض مع قوانين مجتمعه بسبب همته العالية فيتعرض للأذى وللوم وللاستنكار^(١).



السابعة، (يوليو-أغسطس) ٢٠١٢م.

^(١) محمد فتح الله كولن: الموازين، ص: ١٠٣.

الفصل الرابع منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في التجديد والإصلاح

- ◆ منهجه في العمل الدعوي
- ◆ منهجه في التربية والتعليم
- ◆ منهجه في تحويل المعرفة إلى سلوك
- ◆ منهجيته في الحوار والانفتاح على الآخر
- ◆ منهجيته في الفهم الخاص للقرآن الكريم
- ◆ منهجيته في الفهم الخاص للسيرة النبوية
- ◆ كيف تعامل الأستاذ مع الصحافة والإعلام؟
- ◆ منهجية الأستاذ في تناول التصوف
- ◆ موقف الأستاذ من بعض القضايا المعاصرة



منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في التجديد والإصلاح

منهج الأستاذ في التجديد والإصلاح منهج شمولي، وهذه الرؤية الشمولية نراها في كل شيء. فالإسلام لكل العالم، لكل الإنسانية، لذلك نراه في دعوته لا يستهدف العقل فقط أو القلب فقط أو الجسد فقط، بل يستهدف العقل والقلب والجسد، وهو كذلك في دعوته لا يستهدف فئة معينة من دعاة وعلماء ومشايخ، بل يستهدف المسجد والمدرسة والجامعة وبيوت الطلبة، والمؤسسات الاقتصادية، والمؤسسات الإعلامية... فهو إصلاحي في جميع مناحي الحياة، وليس فقط في تركيا بل إلى الإنسان بشكل عام... فالأفق عنده أوسع من أن ينحصر في جانب معين من جوانب الحياة.

في وصفه "لوارثي الأرض" يقول الأستاذ: "يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ولا ينبغي أن يتردد امرؤ في توقع مجيء هذا اليوم، وهو وعد الله المؤكد. ولن تنحصر هذه الوراثة بالأرض وحدها... ذلك، بأن من يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضاً. إذن هي حاكمية في الكون كذلك... ويلزم لوراثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر

وفنونه"^(١). فوراثة الأرض ووراثة كونية لأن الكون مسخر للإنسان.

أولاً: منهجه في العمل الدعوي

يقول الأستاذ كولن: في الستينيات والسبعينيات، بحثت كثيراً، لم أجد شاباً واحداً يصلي.. ثم بدأنا العمل. لذلك نراه قد اتخذ من الأنبياء قدوة له في طريق الدعوة والتبليغ، ونهج منهجهم في الصبر والتضحية والتحمل والشفقة والرأفة بالناس.

وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل، فمارس كل أنواع الدعوة وكل أصناف الجهاد الأبيض حتى أتاه اليقين، وببركة دعوته وجهاده أفاض الله على آله بالنبوة والملك وهما خيرى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٥٤)، واقتداءً بالخليل إبراهيم عليه السلام تولى فتح الله تعليم تلاميذه التضحية في طريق نشر النور، ولا سيما في العقود الأولى من دعوته، إذ كانت ظروف تركيا الكمالية لا تسمح إلا بالقبض على الجمر، فحملوها ليضيئوا العتمة للأتراك، فكانت النار لهم، والنور للشعب، ونالهم "الغرم" خلال سنوات العلقم ووزعوا على الناس "الغنم"، وقد أعانهم على القبض على الجمر يقينهم أنها ستنجيهم من جمر الجحيم وسواها وستدفع بهم نحو الولوج إلى جنات الله الوارفة الظلال.

وقد مرت تركيا بظروف عصيبة ومحن سوداء، حيث شاعت العلمانية المتطرفة التي أوصلت كثيرين إلى لجأت من الإلحاد، وأمام موجات الإلحاد أجاد كولن صناعة قوارب النجاة لاستنقاذ

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٣-١٤.

المؤمنين من الغرق فيها، حاملين إياهم إلى جزر الإسلام وشواطئ السلامة واليقين^(١).

ويبحث الأستاذ تلاميذه على الوصول إلى قلوب العباد من خلال الإحسان، ومقابلة الإساءة بالإحسان، فيقول: على الإنسان أن يجعل من نفسه ميزاناً يزن به كل شيء في سلوكه تجاه الآخرين. فما يريده لنفسه عليه أن يريده للآخرين. وعليه ألا ينسى أنه عندما يكره تصرفاً معيناً تجاهه فإن الآخرين أيضاً يكرهونه، فيتخلص بذلك من جميع التصرفات الخاطئة من جهة، ويسلم من إيذاء الآخرين وجرح قلوبهم. أنت ترى أن الإحسان المسدئ إليك يلين قلبك ويزيد من محبتك وتقديرك لصاحب الإحسان، إذن تكون قد اهتديت إلى الطريق الذي يوصل الآخرين إلى محبتك وتقديرك. أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم، فطالما استعبد الإنسان إحساناً، إذن فالإحسان أفضل طريق للوصول إلى قلوب من ترجو منهم خيراً أو تخشى من جانبهم شراً. ولا يظهر كمال الإنسان ونضوجه إلا عندما لا ينحرف عن طريق الحق حتى بالنسبة للأشخاص الذين أساءوا إليه، بل لا يتردد في إسداء الخير إليهم.

أجل! على الإنسان ألا ينحرف عن الإنصاف وعن المروءة حتى تجاه من رأى منه الإساءة والشر. ذلك لأن القيام بالإساءة تصرف حيواني، ومقابلة الإساءة بالإساءة نقص خطير في الإنسان. أما مقابلة الإساءة بالإحسان، ومقابلة الشر بالخير فعلاية من علامات السمو والشهامة.

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ١٣٢-١٣٣.

من أراد السير في طريق الدعوة إلى الله وفق منهجية الأستاذ فعليها أن يقدم المعروف بلا حدود، وأن يتعامى عن رؤية التصرفات غير اللائقة من الآخرين، فهذا هو بحث تلاميذه على ممارسة الإصلاح والدعوة والبناء، فيقول: "ليست هناك حدود في إسداء المعروف إلى الآخرين، فالإنسان الشهم قد يضحي حتى بروحه من أجل الآخرين. ولكن هناك شرط واحد لكي تكون مثل هذه التضحية علامة فضيلة، وهو أن تكون هذه التضحية بصدق وإخلاص وصفاء نية، وبعيدة عن التعصب العرقي والقبلي.

إن إنسانية أي شخص ومروءته وشهامته تكون واردة بدرجة قربه من أصدقائه وأحبائه وبدرجة استمرارية هذا القرب. لذا فالحديث عن الشهامه دون إظهار هذا القرب منهم يبقى مجرد ادعاء فقط. أما إسداء المعروف إليهم مقابل معروفهم وجعل ذلك شرطاً، أو القيام أحياناً بعقابهم بقطع هذا المعروف عنهم، فتصرف يدل على عدم نضج الروح والعجز عن إدراك الحقيقة أو الوصول إليها.

من أفضل أنواع المعروف التي يمكن للإنسان عملها تجاه الآخرين هو التعامى عن رؤية التصرفات غير اللائقة الصادرة منهم وتجاهلها وتناسي تقصيراتهم. أما البحث عن أخطاء الآخرين وتقصيراتهم وعيوبهم فشيء خارج عن نطاق الأدب. أما إشاعة هذه العيوب والتحدث عنها هنا وهناك فنقيصة لا يمكن الصفح عنها. أما ذكر هذه العيوب وتعدادها لأصحابها فضربة قاصمة للإخاء وللمودة التي تربط بين الأفراد، لأن الأنانية التي تثار عنده ستمنع تأسيس المودة مرة أخرى.

والإنسان الناضج والكامل هو الشخص الذي يعد أكبر معروف يسديه للآخرين شيئاً ضئيلاً، وأصغر معروف يسدى إليه شيئاً كبيراً. مثل هذا الشخص يكون قد سما إلى الخلق الإلهي ووصل إلى الإطمئنان القلبي. مثل هذا الشخص لا يمن بإحسانه ومعروفه أبداً، ولا يشكو من الإهمال وعدم الإهتمام الذي قد يتعرض له^(١).

وشعوراً من الأستاذ كولن بعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقه، أعد تلامذته ليكونوا أصحاب هممة عالية في الدعوة وليساهموا في بلسمه الجروح وجبر الكسور، فخرجت كتائب الخدمة إلى أكثر أصقاع الدنيا لتبديد الظلام بنور الإيمان ورغم تغرب أبناء الخدمة عن بلدهم الجميل في مجاهل آسيا وأدغال إفريقيا، وفي صقاع أوروبا ومفاتيح أمريكا، إلا أنهم لا يشعرون بالغرابة. فقد علمهم أستاذهم أن الغريب ليس الذي ابتعد عن وطنه وبيته وأصدقائه وأحبائه، بل هو الذي لا يفهم الناس مبادئه العالية وتضحياته الغالية، والذي يقع كثيراً في تناقض مع قوانين مجتمعه؛ بسبب همته العالية، فيتعرض للأذى واللوم والاستنكار^(٢).

وقد قرر كولن بهذا الصدد أن "من كانت همته أمته فهو أمة". ولذلك لم يجد عشرات الآلاف من أزهار تركيا غضاضةً في الانتقال إلى بلدان مليئة بالأعاصير وبالأسواق من مختلف الأصناف، وأقل هذه الأسواق مكابدة الأشواق^(٣).

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٤٥.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٠٣.

(٣) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٤٦.

ولعل من أهم ما ورد في منهجية الأستاذ في العمل الدعوي أن يطابق الفعل القول حيث يؤكد الأستاذ كثيرًا على عدم وجود التناقض بين ما يقال وما يفعل، الحال والقال أو القول والفعل لغة بجبهتين لنصرة الحق وتمثيله. فإن تكلمت هذه اللغة ذات الصورتين والمظهرين باسم الحق وصرخت به كان تأثيرها عظيمًا. لأنه يجب على الإنسان أن يطبق على نفسه أولاً ما يدعو الآخرين إليه، وألا يكون هناك تناقض بين أقواله وأفعاله، وبين مظهره ومخبره. وجاء في الأثر أن الله تعالى قال لعيسى عليه السلام: "عظ نفسك أولاً فإن قبلت نفسك تلك الموعظة فعظ الآخرين، وإلا فاستح مني". إذن يجب أن يعيش الإنسان حسبما يؤمن به، وأن يعكس أعماق عالمه الداخلي من أفكار وأحاسيس، بعد عملية تجريد نفسي. فمن لا يقوم الليل، عليه ألا يتحدث عن صلاة التهجد، وأن يستحي من هذا. ومن لا يستطيع الصلاة بكل خشوع وخضوع، ولا يتصرف بأدب تجاه الله تعالى ولا يحس بالمهابة والمخافة منه، يجب ألا يتحدث عن صفات الصلاة الكاملة. وإذا لم يكن مضحياً يجب ألا يتكلم كلمة واحدة عن موضوع العيش من أجل الآخرين لأن الله تعالى ربط -لحكمة ما- قوة تأثير ما يقال بطراز تصرف القائل^(١).

ويوجه الأستاذ تلامذته ومن ساروا في طريق الدعوة إلى الله تعالى بأن الطريق شاق وعسير ويحتاج إلى صبر كبير فيقول: "إن كنتم عازمين على المضي نحو غاية تفوح من جوانبها كافة رائحة الأبدية، فإن الوصول إلى مثل هذه الغاية يحتاج إلى سلوك طريق طويل وشاق.

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٥٠.

وحسب قاعدة "بقدر الكد تكتسب المعالي" فإن الطريق نحو الذرى يمر من الجبال والأودية والقمم، ويتعرض سالك هذا الطريق إلى العديد من المصاعب والمشاق. لأن هناك في داخل الإنسان نفساً أمارة بالسوء معرضة ومفتوحة لوساوس الشيطان وإيحاءاته وغواياته، وفي خارج الإنسان هناك الملحدون والمنكرون والظالمون الذين يقومون بشتى أنواع الظلم والبغي والهجوم والغدر. وهكذا فستعيشون على الدوام في أزمت مادية ومعنوية، تحاولون التحمل وأنتم تصرون على أسنانكم، وفي الوقت نفسه قد تضطرون إلى تهيئة الأجوبة لكثير من الأمور التي تأتي من اليمين ومن الشمال في كل آن. فإن لم تكونوا مستعدين لهذا ومسلمين من الناحية الروحية والجسدية، ولم تكونوا قد تدرّبتم تدريباً جدياً وروضتم أنفسكم الرياضة المعنوية المطلوبة وبالمقياس المطلوب ضعتم في هذا الطريق وتهتم^(١).

ويضع الأستاذ أساسات العمل الدعوي فيقول: "المهم في الدعوة أن يكون الموضوع المتناول مقترناً بالإخلاص وحسن القبول. ولا يحاول أحد أن يقوم بالدعوة لأشخاص هم أعلى منه مستوى، لأن ذلك قد يولد رد فعل سلبي. فعلى الابن ألا يقول شيئاً لوالده ولا التلميذ لأستاذه ولا العامل لمعلمه وعدم قبول أبي طالب لدعوة النبي ﷺ موضوع يجب الوقوف عنده والتمعن فيه"^(٢).

ويشبهه الأستاذ وظيفة الدعوة والتبليغ بتبادل الهدايا بين الناس فيقول: "إنكم تتهادون فيما بينكم في المناسبات والأعراس، ولا

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٧٣-٧٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٠٠.

شك أنكم قبل تقديم الهدية تفكرون ملياً في اختياركم لها ومدى ملاءمتها للشخص المهدي إليه. وهذا أمر معتاد ومفيد في الوقت نفسه؛ لأنكم بها تقضون حاجة وتضمنون محبة. وكذلك الأمر لدى زيارتكم لمن يشاركونكم في الحياة الاجتماعية ورفقائكم في الدرب نفسه، فعليكم أن تكونوا دقيقين في اختيار ما ستقدمونه إليهم بمثل اهتمامكم ودقتكم في تقديم الهدايا.

وعلينا ألا ننسى أن أحوج ما يحتاجه إنسان اليوم، قليل من الكلام الطيب والنصح له. وكذا فإن أثنى هدية في الوقت الحاضر هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإن أول ما علينا لأجل تحقيق هذه الوظيفة على الوجه الأكمل معرفة الشخص المخاطب أو الأشخاص المخاطبين وتشخيص ما يحتاجونه تشخيصاً جيداً؛ إذ بخلافه سيكون الأمر كأنك تريد إلباس ثوب لشخص يضجر منه ولا يُعجبه ولا يليق به وإن كان من أفخر الأقمشة وأجودها^(١).

فالدعوة إلى الله مقدمة على كل شيء ويضحي لأجلها الداعية بكل شيء، ومن ذلك أنه لا يمكن التضحية بالأب والأم لأي سبب من الأسباب. ولكن إن قاما بمنع الخدمة الإسلامية، عند ذاك لا يمكن إطاعتها. وعدها هذا الأمر فإن إطاعة الوالدين تجلب البركة لحياة الأولاد. ومن هنا يوجه الأستاذ كولن العلماء بأن الدعوة إلى الله تعالى مهمة ورسالة، لا وظيفة ومنصب. ومادة كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" هي من صلب توجيهات الأستاذ للخدمة الدعوية إلى التغيير الحقيقي لا الصوري، لأن الكثير من حملات التجديد لم تتجاوز

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٣٥-٣٦.

التغيير الشكلي، وظن الذين قبضوا على الزمام في القمم أن الإمساك بالفرشاة وتلطix جروح البدن الاجتماعي و"الملي" الأصباغ هو المعرفة والحنكة، بل ظنوه ثورة وانقلابًا... وغاب عنهم كليًا النزف الباطن، ومضاعفات النزف الباطن، في الأعضاء الحيوية للمجتمع، وفي سرايين روحه^(١).

ويؤكد الأستاذ على ما نحتاجه اليوم من رجال العلم والأخلاق فيقول: "نحن اليوم في أمس الحاجة إلى مرشدين ذوي أدمغة متأهلة وأفكار رحيية وآفاق واسعة، يقيمون هذه الموازنات لإنساننا، ويرتقون بشعبنا إلى ذرى الفكر، ويقودوننا إلى جذور معنوياتنا الذاتية، ويطلقون أرواحنا المشتاقة إلى المعالي نحو اللانهاية. إن هذا الوطن بحاجة إلى أبطال شجعان من حواربي العلم والأخلاق والفضيلة المحصنين بالإيمان والأمل، الطافحين بالعشق والحماس، المنسلخين من الأغراض المادية والمعنوية والدينيوية والأخروية، أكثر من حاجته إلى الأحزاب والتعصب الحزبي"^(٢).

ثانيًا: منهجه في التربية والتعليم

لا يمكن أن تكون هناك حضارة ولا غد مشرق دون الاعتناء بالتربية والتعليم والصبر فيها والمصابرة عليها. أما المستعجلون فلن يحصدوا شيئًا وسيبقون تبعًا لغيرهم ويدورون ويدورون ويتحركون لكن دون جدوى، ذلك لأنهم لم يعلموا أن طريق الحضارة الوحيد هو طريق الرسل أجمعين، وطريق الأقطاب الربانيين من بعدهم،

(١) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٩٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٠٨.

إنه طريق التربية والتعليم، فإن نحن صبرنا - لا صبر موسى مع الخضر، بل صبر الخضر لموسى، عليهما السلام- كانت الثمرة فجراً مشرقاً نيراً مباركاً، وإن نحن اتبعنا سبيل "المستعجل" أو كنا نحن "المستعجلين"، فإن السنين ستأكل السنين، والزمان سيلتهم الزمان، ثم لا نسمع جعجعة ولا نرى طحيناً، أو لعلنا أحياناً نسمع ولا نرى؛ وأما الطحين فيسكون بيد غيرنا، من صنع عدونا، وبطعم شائثنا، يطبخونه كيفما يريدون لأجيالنا، ويقدمونه بالصورة التي يريدون... ثم يفعلون فينا وفي أبنائنا، وفي أوطاننا... الأفاعيل^(١).

المستقرئ لقصص النهوض وتجارب الوثوب الحضاري عامة، يلاحظ أن ما من تجربة ناجحة إلا وكان الفكر حادياً وكانت التربية حاضتها. حدث هذا في حضارات المسلمين، وفي حضارات أوروبا قديماً، وفي العصر الحديث كانت عربة الحضارة الغربية قد قادها حصان التربية، وهذا ما حدث لتجارب النهوض في اليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا.

وتشهد تركيا الآن بداية إقلاع حضاري، يرى الناس سنابله السياسية والاقتصادية ولا يركز كثير منهم على جذوره الفكرية والتربوية، التي تولى بذرها ورعايتها عدد من كبار المفكرين والدعاة، يتقدمهم خلال العقود الأخيرة المفكر والداعية الكبير محمد فتح الله كولن، الذي اجتمعت له من الخصال والفعال ما لم تجتمع إلا للنزر اليسير من المصلحين^(٢). وإذا أمكننا، انطلاقاً من الرؤية المعرفية للمشروع الإصلاحية

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ٢٠١-٢٠٢.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٠٨-١٠٩.

للأستاذ فتح الله كولن، أن نرصد ملامح النموذج المنشود في مستويات الاجتماع الإنساني، فإنه وانطلاقاً من الخبرة العملية الطويلة للمؤسسة التعليمية التي تمثل ذلك المشروع، وما راكمته من تجارب، يمكننا تعرف الخصائص العامة لهذه المؤسسة وكيف استطاعت في مساحات نجاحها أن تترجم الفكرة إلى واقع حي، فالفكرة التي تنطلق منها المدرسة وفق هذا النموذج يمكن اختصارها في سمات ثلاث:

• مدرسة فكرية أصيلة ذات منهج فكري وعلمي ونظرة إلى مختلف العلوم من منظور القرآن والسنة، بنظرة تواكب العصر وتنطلق منه؛ وهو أمر يتجلى كأوضح ما يكون في النشاط التربوي والتعليمي داخل تلك المدارس، المنضبط لنظرة تزوج بين تكوين العقل وتربية القلب، أي بعدي العلم والخلق في مسارين متوازيين، لا أحد من هذين الجانبين يعمل على حساب الآخر، وتقديم نظام تربوي يقدمهما معاً في تعليم يغذي الفكر، ممزوجاً بتربية تقوم السلوك تكون الكلمة العليا فيها للنموذج الصالح، أي التربية بالقدوة أو "لسان الحال".

• نظام تربوي يراعي ما يسميه الأستاذ كولن بالأوامر الشرعية والأوامر الكونية (القوانين معاً)، ويتجنب الصدام بين العلم والدين أو التناقض المفتعل بينهما، المتأثر بالتجربة المريرة من الصراع بين البعدين باعتبارهما مجالين مختلفين.

• الاستفادة من المنجز الإنساني العلمي والتقني في أقصى مستوياته، انطلاقاً من رؤية ترى أن شرطي وراثته الأرض هما

الصلاحية والصلاح أي التخصص والمهارة والنموذج المسلكي، ومن هنا غياب الذوات الفردية إلى أبعد الحدود، حيث الأولوية في نجاح المشروع التعليمي ليست للإنجاز الفردي بل للإنجاز المؤسسي والتوفيق الجماعي.

وانطلاقاً من هذه السمات الأساسية، يتم استهداف تحقيق تعليم جيد بأهداف دقيقة، وتلقي القيم الأساسية للإنسان المسلم والحرص على الأنشطة الموازية، وذلك في مؤسسات تمارس جودة التربية والتعليم، من خلال منظومة هدفها الرقي به؛ وحيث يتم استخدام التقنيات الحديثة والتجربة المخبرية في عمليات التدريس وأقسام اللغات المتخصصة، مع الإهتمام بالتلاميذ ذوي المستوى الخاص (الأقسام الخاصة) وهو أمر تُرى نتائجه في نسب الترشح للمسابقات الدولية الخاصة بالرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والمعلومات من طلاب هذه المدارس، وعدد مسابقات المشاريع التطبيقية في العلوم التي يدخلونها^(١).

أدرك فتح الله كولن أهمية التعليم والمعرفة العلمية في صناعة الجيل القائد المميز. بعد تعيينه مديراً لمدرسة الكستناء بإزمير، وما إن مرت مدة قصيرة بعد ذلك حتى قال له المشرف على المدارس بعدما دخل عليه ووجد الأمور قد تحسنت بالنسبة لانتظام الطلبة وأخلاقهم "فضيلة الأستاذ فتح الله هذا السكن أمانة في عنقكم كلياً

(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة محمد فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، ط ١، ٢٠١١م، ص:

فلم يعد ثمة داع لمجيئي إلى هنا بعد الآن" ثم عقد اجتماعاً على مستوى الإدارة فخطبهم قائلاً: "إن السيد فتح الله رجل عظيم، لقد لاحظت أنه يعمل بجدية كبيرة، وأنه قائم بمهمته على أحسن ما يرام كما لاحظت أنه لا يأكل من طعام الطلبة ولا لقمة واحدة. إنه رجل جدير بالاحترام والتبجيل".

ثم انتقل تفكير فتح الله إلى إقامة مبنى جديد لثانوية الأئمة والخطباء الرسمية وإقامة مبنى خاص لمعهد العلوم الإسلامية التابع للجامعة، لأن الدولة وقتها كانت تهمل مؤسسات التعليم الديني التابعة لها. فكان يطوف على التجار والمقاولين لجمع التبرعات إلى أن اشترى قطعة أرض وبنوا عليها ثانوية الأئمة والخطباء في إزمير. لم تكن هذه المدرسة التي أسسها مدرسة عادية، كانت مدرسة بطورها الإعدادي والثانوي تسير في ظاهرها على نظام الدولة، وبرامج وزارة التربية والتعليم، لكنها تختلف عن المدارس الأخرى في أمر جوهرى كبير ألا وهو رجل التعليم، أعني الأستاذ المدرس في مدارس فتح الله كولن.

من أهم أهداف حركة كولن صناعة الإنسان، وصناعة هذا الإنسان لا تكون إلا بالتربية لا بالشعارات، وبالصبر والأناة وعدم الاستعجال. فمشوار التربية والتعليم مشوار شاق ومسلك وعمر. ومن أهم مشاريع كولن التربوية مدارس "فام" لصناعة الإنسان. إنها مدارس تدعيمية للطلاب الذين هم على باب الجامعة، شرع فيها منذ سنوات، وهي اليوم أفضل مأوى للطلبة الأتراك من كل الفئات والجهات؛ وقد بلغ عددها في إسطنبول وحدها - حسب تصريح

مديرها-تسعون مدرسة، كل مدرسة -وقد شاهدنا بعضاً منها- بمثابة جامعة صغيرة، بعضها يؤوي الآلاف من الطلبة، يحضنهم، ويربيهم، ويعلمهم كيف يتعلمون، وكيف ينبغي أن يتعلموا، ولماذا يتعلمون، وممن يتعلمون، ومتى يتعلمون، وإلى متى يتعلمون.

إن مدارس "فام" تبدأ بما ينبغي أن يُبدأ به، يبدأون بـ"اقرأ باسم ربك...!"؛ ولكن، ليس بأسلوب الجدل العقيم والادعاء المُنيَم، وإنما بمنهج "وليتطف"، وبقاعدة "بالحكمة والموعظة الحسنة"؛ ولذا قد تجد في المدرسة الكثير ممن لا يستسيغ الذوق سيرتهم، ولا يقبل الدين هيئتهم، ثم لا يلبثون بعد أمد، وقد تلقوا العلم والخلق والأسوة الحسنة، أن يحولوا إلى حواريين عالمين عاملين، وإلى قيادات كونية صافية طاهرة نقية... يدعون بلسان حالهم، معرضين عن الدعوة -في هذه المرحلة- بلسان مقالهم!^(١)

وفي هذه المدارس يهتمون بالدرس عوضاً عن الكلام، ويركزون كثيراً على العلاقة الحميمة بين الأستاذ والطالب وبين الأستاذ وأُسرة الطالب؛ لأن الطالب جزء من أسرته ومن يريد الإصلاح فعليه بإصلاح الأسرة والبيوت قبل كل شيء آخر، فما الطالب سوى زهرة في بستان العائلة الكبير، فلا بد للمربي من الاطلاع على وضع هذه الزهرة ومكانتها والظروف المحيطة بها، وما تحتاج إليه من رعاية وعطف ومتابعة لتنمو وتزهر ومن ثم تثمر، فاليست كما يرى الأستاذ كولن هو مصنع الحضارات إذ يقول: "البيت أمة صغيرة، والأمة بيت كبير. والشخص الذي ينجح في إدارة بيت -كبيراً كان

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ٢٠٠-٢٠١.

أم صغيراً- إدارة صحيحة ويرتفع بأفراد ذلك البيت إلى المستوى الإنساني اللائق يستطيع ببذل جهد صغير القيام بإدارة مؤسسات أكبر إدارة ناجحة^(١).

المدرسون في هذه المدرسة "فام" سلاحهم الحب، وهدفهم قلب الطالب، لأن الحب قرين العلم، لذلك أول ما يكسب الأستاذ من الطالب قلبه لا عقله، عاطفته لا منطقته، ولذا تراه يحب إلى الخير، ويعلمه أبسط أسرار الحياة، ويرفع من شأنه، ويكرم محيائه... ذلك أن من اختار إهانة الطالب ليدفعه إلى العلم، ومن آثر الخشونة في جنب التلميذ، كيما يكسبه المعارف، مخطئ، مسرف، ظالم، جاهل، بل ومبذّر أحياناً... ولقد سُئل العلم يوماً: "من هو قرينك؟"، فأجاب بلا تردّد: "الحبُّ والعشق"... فمن أحبَّ تعلّم وعلم، ومن كره جهل وحمل الناس على الجهل... وهكذا القاعدة الصادقة المطلقة، التي لا تختلف أبداً^(٢).

لذلك تتميز هذه المدارس أن نقطة تفوقها الجوهرية هي امتلاكها للكادر الرسالي، الذي لا يؤدي عمله كمهني متخصص فحسب، بل كصاحب دعوة ورسالة أيضاً، حيث يعتبرون هذه المدارس محطات لبث أنوار الهداية، ومصانع لإعادة بناء الإنسان، ويتولى إيجاد الجيل الذهبي، الجيل الذي ينتشل أمته من "الهامش"، معيداً إياها إلى "متن" الحضارة وصناعة الحياة^(٣).

العلم والتكنولوجيا في خدمة الإنسان وليس هناك من مبرر جدي

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٧.

(٢) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ٢٠١.

(٣) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٠٨-١٠٩.

للخوف منهما، لأن الخطر لا يكمن في العلم ولا في تنظيم الدنيا حسب مقتضى العلم، بل يكمن الخطر في الجهل وعدم الإحساس والتهرب من تحمل المسؤولية^(١).

ولهذا صارت التربية والتعليم الشغل الشاغل لأبناء الخدمة داخل وخارج تركيا، سواء عبر الأطر النظامية ممثلة بالمدارس والجامعات أو عبر الاجتماعات التربوية التي يسمونها "صُحبة" وهي تشمل كافة أبناء الخدمة... وقد تفوق أبناء الخدمة في التربية والتعليم، مما أدى إلى انتشار مدارسهم وجامعاتهم في شتى مناطق تركيا بل وكثير من أصقاع العالم. وقد وصل عدد المدارس إلى ألفي مدرسة متوزعة على مائة وستين دولة في العالم، يتسابق عليها الطلاب، ولا يدخلها إلا الفائزون في مسابقات صعبة، نظراً لكثرة الراغبين في ارتيادها^(٢).

الأستاذ يهتم بالتربية اهتماماً كبيراً، بل إن دعوته قائمة على التربية الإيمانية، فالإنسان يتأثر في التربية التي تلقاها في طفولته وشبابه المبكر، وبالتربية تظهر حقيقة الإنسان، وهناك الكثير من الناس يعتنون بأبنائهم ويربونهم تربية جسدية متناسين تربية الفكر والعاطفة، فيقول الأستاذ: "مستقبل كل إنسان متعلق بما تأثر به وانطبع عليه في طفولته وشبابه من دروس التربية والسلوك. فإن كان قد قضى طفولته وشبابه في جو إيجابي يربي المشاعر العلوية توقعنا كونه إنساناً يحتذى به من الناحية الفكرية والخلقية.

الإنسان إنسان بقدر بعده عن الأشياء القذرة. أما من كان قلبه تحت

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٩٩.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٣١.

سيطرة المشاعر الخسيسة، وروحه تحت قبضة شهواته فهو وإن بدا إنساناً في مظهره فهناك شكوك حول حقيقته الإنسانية. ويعرف الجميع تقريباً ما يتعلق بالتربية البدنية. ولكن من يعرف قيمة التربية الفكرية والعاطفية التي هي الأصل قليل جداً، بينما ينشأ في التربية الأولى إنسان الجسد والعضلات، وينشأ في الثانية إنسان الروح والمعنى.

إن من ينادي بإصلاح الأمة عليه أن يتوجه بأنظاره إلى شبابها، إلى هذه الأجيال الفتية بالتربية والتثقيف مع العناية بالكتب التي يقرؤونها والتي تغذي أفكارهم وأرواحهم وخصوصاً البنات، فهن بحاجة إلى رعاية خاصة، لأنهن أمهات المستقبل ومربيات الجيل القادم، وإصلاح أي أمة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحق.

الكتب التي تدرسها للصغار -سواءً أكانت نثرًا أم شعرًا- يجب أن تكون كتبًا تقوي الفكر والروح، وتعطي الأمل والعزم. وهكذا تستطيع توقع نشوء أجيال قوية الإرادة، متينة الأفكار. ومع ضرورة تنشئة البنات تنشئة خاصة (وظائفهن المستقبلية في تربية الأطفال) بحيث يكنّ مثال الرقة والحنان، يجب الاهتمام بهن من ناحية الفكر وتغذيتهن بالفكر الحق بحيث ينشأن قويات في هذا المجال قوة الفولاذ، وإلا جعلناهن بحجة تنشئتهن على الأتيكيت والرقة -نساءً مسكينات وعاجزات. ويجب ألا ننسى أن اللبؤة أسد أيضاً^(١).

الأستاذ يؤكد على الدور الكبير للبيت المسلم في تربية الأطفال وتنشئتهم التنشئة الإيمانية لأن من حاز التربية والفضل وإن كان جاهلاً

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٧٧-٧٨.

فقد حاز خيرًا عظيمًا، لذلك فإن ما نراه من سوء أدب وكلام سيء عند الأطفال ما هو إلا الخلل في البيت الذي تلقى فيه تربيته، فالتربية جميلة بحد ذاتها، ومن يملكها يحز على التقدير. أجل حتى الجاهل يكون محبوبًا إن كان مؤدبًا. والأمم المحرومة من التربية الدينية ومن الثقافة الدينية والملية تشبه الأشخاص المتسيبين الجاهلين الذين لا تتوقع منهم لا وفاء عند صداقتهم ولا جدية عند عداوتهم. والذين يثقون بأمثال هؤلاء يرجعون دائمًا بالخسران وخيبة الأمل. والذين يعتمدون على هؤلاء يبقون دون سند ودون معونة^(١).

ويرى الأستاذ أن مستقبل البلاد مرتبط بجيش النور الذي نذر نفسه للعلم والتعليم فيقول: "وإذ ندخل إلى عتبات القرن الحادي والعشرين، فإن مستقبل بلادنا والبلاد المرتبطة بشؤوننا منوط بعقبان جيش النور ذات أجنحة الضياء الذين يُعدّون ممثلين سامقين للعلم والفضيلة والأخلاق في أيامنا، والذين نذر أكثرهم نفسه للتربية والتعليم. وستكون هذه الأجيال المباركة الرائدة -إن شاء الله تعالى- أصواتًا من النور وأفكارًا من الضياء تصفي حساب شعبنا مع العصر، زيادة على ريادتها في اكتساب قيمنا التاريخية مجددًا"^(٢).

يجب أن تولى أهمية لدروس التربية والثقافة الدينية في المدارس بقدر الأهمية المعطاة للدروس الأخرى في الأقل، حتى تتربى أجيال قوية في خلقها وسلوكها وروحها فيحولوا ربوع هذا الوطن إلى جنة والتعليم شيء والتربية شيء آخر، فمن الممكن أن يكون أكثر الناس

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٧٨.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٠٧.

معلمين، ولكن القلة فقط منهم يستطيع أن يكون مربياً. ومع كون دروس التربية الدينية والثقافة الدينية مهمة وضرورية جداً، إلا أن الأهمية المعطاة لها في المدارس قليلة. فإذا استطعنا يوماً أن نتلافى هذا الأمر ونسد هذا النقص نكون قد خطونا خطوة هامة جداً في مضمار تقدم هذه الأمة واتخذنا أصوب قرار.

المدرسة الأولى للطفل هي أمه، فبإعداد الأم الصالحة نعد الجيل الصالح. لذلك إن أرواح الأطفال أصفى مرآة، وأسرع آلة تصوير. والمدرسة الأولى لهم هي بيوتهم، وأول المرين لهم هم أمهاتهم. لذا فإن إعداد الأمهات كمربيات صالحات أساس مهم من أسس بقاء الأمة. ولما كانت مرحلة عمر الطفل منذ الولادة وحتى السنة الخامسة أكثر المراحل التي يكون فيها اللاشعور عنده منفتحاً، كان كل ما يقدم له في هذه المرحلة من أمثلة حسنة وقدوة جيدة ضرورية له وفي محلها. الإنسان هو الهدف، وهو الركن الأهم والدعامة الأولى في بناء أي حضارة، ولكن ليس أي إنسان، بل لا بد أن يكون هذا الإنسان مؤهلاً، وهذا لا يكون إلا بالتربية والتعليم، وهذا ما امتازت به حركة الخدمة عن غيرها، فأقامت الآلاف من المدارس في أرجاء المعمورة للعناية بالقلب الذي هو حقيقة الإنسان، إنسانية الإنسان لا ترتبط بجسده المادي الفاني، بل هي في روحه المشتاق إلى الخلود. وهذا هو السبب الكامن وراء عدم وصوله إلى الإشباع والرضا أبداً عندما يعامل وكأنه جسد فقط.

أسعد الناس وأكثرهم حظاً هو الإنسان المتعلق أبداً بعشق ما وراء هذا العالم... بعشق العالم الآخر. أما الذين يقضون أعمارهم

في السجن الضيق لأجسادهم فهم بؤساء وتعيسو الحظ وسجناء وإن عاشوا في القصور^(١).

الإمام النورسي رحمه الله كان يدعو إلى النفير العام في التعليم فكان يصر على القراءة والتفكير والعمل لإنقاذ الأمة مما تعانيه فكان يلح على "المعارف" و"التربية والتعليم". فيحث بالضرورة على نشر المعارف والتربية والتعليم في كل مكان وبكل وسيلة... فينبغي عنده انخراط المساجد والمدارس والمعسكرات والدروب والمنتزهات، بل حتى السجون، في نفير التعليم العام. فبالمعارف وحدها تتحقق الوحدة العقلية والمنطقية. فالذين لا يتوحدون عقلاً بعقل، ولا ينصهرون على ذلك، يعجزون لا محالة عن السير معاً في طريق معين زمنًا طويلاً، ولا يحفظون تساندهم وتعاضدهم. فينبغي أن يتوحد الوجدان أولاً. حتى تتوحد القلوب والأيدي. ووسيلة وحدة كهذه هو ضبط الحياة بضوابط الدين وتفسير الأمور المتعلقة بالزمان حسب مدارك العصر مع التقيد بالكتاب والسنة والاجتهادات الصافية للسلف الصالح^(٢).

القلب من أهم مصادر المعرفة، إلا أنه أقصي وأبعد عنها، أقصي في المدارس والجامعات ومراكز الأبحاث على أنه من اختصاص الدين، فإن نظرية المعرفة تناقش ما يعرف بمصادر المعرفة؛ وهي تحشرها في "العقل" أو "الحواس"، ولقد تتقدم خطوة فتجمع بينهما؛ وقد أبعاد القلب عن ساحة المعرفة قروناً طويلة، حتى غدا العلم مرادفاً للعقل

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٧٥-٧٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٧٧.

وحده، وباتت المعرفة تعبيرًا عن الفكر بمفرده؛ فضاء أهم مصدر للمعرفة بين ثنايا المجادلات والمحاورات والصدامات البشرية، فهي اليوم تصطلي جحيم هذا الجفاء المقيت، ولا تزال، ولن تزال؛ ما لم تتصالح مع ذاتها، وتستعيد علاقتها الحميمة مع قلبها، وتقيم التناغم الفطري بين الروحيّ والماديّ، وبين الجوانيّ والبرانيّ.

ولو سألنا عن أي جامعة، أو مدرسة، أو مركز للبحث من أي بلد كان ما هي الوحدات التي تدرّس؟ وما هي التخصصات؟ وما هي المدخلات والمخرجات؟ وما هي المناهج والآليات والتطبيقات؟... بل، ما هي الفلسفات والسياسات والغايات من وجودها؟ لما تردّدنا لحظة في الحصول على جواب، وهو أن كل ذلك رهين بالعقل والفكر، وبالحواسّ والأجسام؛ أما مخاطبة القلوب، فهي من تخصص الدين، والتصوف، والرياضات الروحية عمومًا. أو هي تجربة فردية غير قابلة للتعميم^(١).

ولهذا سعى الأستاذ في خطبه ومواعظه إلى إقناع الأوساط المحافظة بأهمية مشاريع التربية والتعليم، فمنذ بداية السبعينات حاول تطبيق خطته في التعليم والتربية على الطلاب الشباب، ثم في المدارس التي شجع على إنشائها في معظم بلدان العالم. فانتقل بذلك من النظرية إلى التطبيق العملي.

وبينما استمر في عمله ومهنته واعظًا، بدأ من جهة أخرى بالقيام بترتيب دورات تعليمية ومخيمات صيفية للطلاب. وبدأ يؤكد في خطبه ومواعظه على أن الحاجة إلى بناء المدارس في هذا العصر، أمسّ من

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٣٩-٤٠.

بناء الجوامع، وذلك ليستنهض همم الناس إلى بناء المدارس والتعليم. ولكن سرعان ما جاءت انتقادات من بعض الأوساط المحافظة، لأن هذه الأوساط كانت تهتم بالمشاريع ذات الأمد القصير، بينما كانت مشاريع التربية والتعليم ذات أمد بعيد. كما لم تكن هذه المشاريع من المشاريع التي تهتم بها هذه الأوساط بشكل مباشر. لذا فلم تكن على وعي بالآثار الاجتماعية العميقة لها على المدى البعيد. ونظرت أوساط محافظة أخرى إلى هذه المشاريع باستخفاف ولم تأخذها مأخذ الجد^(١). وهكذا جعل الأستاذ التربية والتعليم ركيزته الأساسية في العمل الدعوي.. وانطلق من خلالها مع طلابه وأحبابه يقتحمون الصعاب.. وينشرون الخير والنور.

ثالثاً: منهجه في تحويل المعرفة إلى سلوك

من أهم أسباب تخلف أمتنا أن هناك هوة سحيقة بين العلم والعمل وبين الفكر والسلوك، وأن العلوم والمعارف تبقى في الرؤوس دون أن تنزل إلى أرض الواقع لتكون عملاً ملموساً مما سبب انفصاماً وانفصالاً محيراً، فأصبح أهل العلم لا صلة لهم بالحياة ولا علاقة لهم بالواقع، وأهل العمل لا صلة لهم بالعلم وأهله، وإذا نظرنا إلى الفكر والحضارة الإسلامية نجد أن مجمل تراثنا الحضاري موزع على جانبين:

١. إما الجانب العلمي النظري؛ وهو غالباً ما يكون من اختصاص العلماء والطلبة، ومن يدور في فلکهم.
٢. وإما الجانب العملي التطبيقي؛ وهو ميدان السياسيين، والتجار، والعسكريين، ومن يحوم في حقلهم.

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٤١.

والتعارض بين الجانبين حتى وإن لم يكن مطلقاً في تراثنا الإسلامي المعاصر منه بالخصوص؛ إلا أنه في كثير من الأحيان كان مهيمناً، فهو معيار التخلف والضعف في أغلب الأحيان؛ وهذا حال أمتنا الإسلامية اليوم، إلا ما شذَّ. ذلك أن ثمة هوة وشقة بين العلم والعمل، بين الفكر والحركة. وهذا غير ما كانت عليه في العهد النبويِّ الزاهر، وفي العهود المشابهة له، المستقاة منه^(١).

ولكن هنا ومع هذه التجربة التي يقودها الأستاذ كولن نجد أنه تمكن وببراعة أن يجمع بين العلم والعمل، والفكر والسلوك. وأنه أجاد وبتوفيق إلهي عظيم آليات تحويل المعرفة إلى سلوك، وقرأ بإمعان ووعي سمات التوازن بين الروح والجسد.

فالحياة الحقيقية للإنسان هي حياة القلب "والأرواح المحظوظة التي تعيش في هذا المستوى الرفيع للحياة وتدرك علوها ترى الماضي خيمة وسدة حكم للأجداد وترى المستقبل طرقاً ممتدة نحو حدائق الجنة، وتعبّ من مياه الكوثر التي تفجرها في وجدانها وهي تعيش في دار هذه الحياة حتى وداعها لها. أما البائسون الذين لم يدركوا الحياة هذا الإدراك ولم يفهموها هذا الفهم فحياتهم أسوأ من الموت، وموتهم كظلمات جهنم بعضها فوق بعض.

هناك علاقة تساند وتنظيم وإنضاج بين عمل الفرد وسلوكه وبين حياته الجوانية. ونستطيع أن نسمي هذه العلاقة أنها علاقة دائرة خير على عكس "الدائرة المفرغة". فكما ينعكس سلوك الإنسان المتسم بالعزم والإصرار والثبات على عالمه الداخلي وينوره،

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٣٤-٣٥.

كذلك يقوم الوجدان المتنور للإنسان بشحن إرادته وعزيمته ويفتح أمامه آفاقاً جديدة^(١).

والأستاذ كولن جعل هذه المشكلة في صلب اهتماماته وأقام جسراً بين المعرفة والسلوك، وبذلك يتخطى عقبة "إما وإما"، أي "إما الفكر وإما الفعل"، "إما العلم وإما الواقع"؛ ويؤسس لعلاقة تقوم على أساس "كذا وكذا"، أي "العلم لأجل العمل"، "والعمل أساسه العلم"، "وكل علم لا يفسر إلى فعلٍ حضاريٍّ يسهم في رقي الأمة وازدهارها هو مجرد ضياع للطاقة"، "وكل واقع ديني، أو اجتماعي، أو سياسي، أو تربوي، أو اقتصادي... أو غير ذلك، ليس له جذور ذاتية أساسية في علم ذاتي أصيل، هو مجرد تشويه لروح الأمة ومسح لكيونتها"^(٢).

إن إشكالية المسلمين اليوم الانفصام بين الدنيا والآخرة، بين الفكر والعمل، بين العلم والعمل، وقد شخّص الأستاذ هذه الإشكالية، ودعا إلى التخلص منها، في حديثه عن "المعرفة"، فيقول: "إن أولى مراتب المعرفة هي رؤية تجليات الأسماء الحسنى المحيطة بنا إحاطة تامة وحدها، ومشاهدة إقليم الصفات الجليلة المثير للإعجاب، فيما وراء انفراج أبواب الأسرار بهذه التجليات.

ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه، ويشرع قلبه بالهيمنة على سلوكه، ويغدو سلوكه وأطواره لساناً ناطقاً بتصديق الحق سبحانه والإعلان عنه، حتى يتحول هذا اللسان كقرص مرن للكلمة الطيبة .. وإذا بأنواع من أنوار مشعة

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٦-٢٧.

(٢) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٣٥-٣٦.

تنعكس كل آن عن شاشة الوجدان من الحقيقة المنورة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠٠) (١).

ومن خلال تلمس أفكار الأستاذ ومنهجيته الدعوية والفكرية نرى
أنه اتبع سبع مراحل لتحويل المعرفة إلى سلوك حضاري وهي:

١. معرفة الحق سبحانه حق المعرفة.
٢. انتقال المعرفة من المداخل إلى المخارج عبر العقل.
٣. حركية من اللسان مباشرة إلى الجنان والقلب.
٤. تحريك آلة السلوك والجوارح.
٥. تحوُّل السلوك والأحوال إلى لسان ناطق بتصديق الحق.
٦. بُدُوُّ ذلك في الأسلوب الإيماني الإيجابي للفرد والمجتمع.
٧. ميلاد حضارة إسلامية هي حضارتنا الذاتية (٢).

لقد علّم الأستاذ تلاميذه الانطلاق من الأفكار إلى الأفعال، ومن
"الأيدولوجيا" إلى "التكنولوجيا"، ومن "المتافيزيقيا" إلى "الفيزياء"،
ومن القلوب إلى القوالب، ومن الآني إلى الآتي، والسير في كل
ذلك بالتوسط بين التعجل والإبطاء، ووضع الرؤية بين التهوين
والتهويل، مع النظر بالإبصار والبصائر، والإقلاع عن دنيا الواقعية
إلى ذرى المثالية دون تجاهل للفروق الفردية، ومع البحث للضعفاء
والمتمساقطين عن أعذار.

وقد نقل عن الأستاذ درر وجواهر في سياق تحويل المعرفة إلى
سلوك ومن ذلك قوله "الأذان شبتت والعيون جوعى"، أي أن الناس

(١) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية، ص: ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ٩٥-٩٨.

بحاجة إلى رؤية سلوكيات تتجسد في الواقع، وليسوا بحاجة إلى مزيد من الأقوال والتنظيرات والنصائح. وقال: "الجوع الشديدة عند الآخر ينبغي أن تلتقي مع التمثيل الراقى للإسلام، وهذا لم يحدث بعد"، وقال أيضاً: "أروني شخصاً أسلم عشرة بسبب سلوكه، وسأقبل قدميه".

ولهذا ظل يدعو بحرقة إلى تجسير المسافة بين الأقوال والأفعال في كل شيء، فالدولة -مثلاً- لا يمكن أن تكتسب التوقير والاحترام والمهابة إلا إذا كان موظفوها قدوة حسنة. والمصلحون الذين يحاولون إصلاح العالم لا يمكن أن يجدوا آذاناً صاغية ما لم يصلحوا أنفسهم أولاً. واجتهد في تأصيل هذه القضية وربطها بقضية العبودية لله، فقد رأى أن القرآن رسم صورة مثالية للمؤمن بحيث إن الإيمان وحدة القول والعمل وتكاملهما. والمحافظة على هذا التوازن سبب مهم للتأثير^(١).

ولتطبيق الأقوال وتجسيد الشعارات أهمية بالغة في صناعة الإنسان القدوة، لذلك فالأستاذ يطلق على العلماء الذين لا يتمثلون ما يقولون مصطلح "الثقوب السوداء"، قائلاً: "المرء عليه أن يعمل بما علم. وإلا فالقرآن الكريم يهدده ويزجره بالآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦)، نعم، إنهم يعلمون ولكن لا يعملون، فهم كالثقوب السوداء لا تعكس نوراً إلى شيء. فلا يستفاد بشيء من طاقاتهم الضوئية"^(٢).

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٥٢-١٥٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٩٢.

إذا كانت الصحف والمجلات تنشر الأخبار دون رؤية شاملة للكون وبأغراض الإثارة والفتن والإساءة والتدمير، فماذا علينا أن نفعل؟ نبقي في دور المتفرجين ونتكلم ونصف هذا الواقع الرديء، ينبغي أن نقف بل نبدأ بالفعل لأن الفعل الإيجابي المترتب عن هذا الاستدراك هو أن نتحرك نحو إنشاء جريدة تخالف هذا المسار، وتصنع إعلامًا مختلفًا، بغاية مختلفة، ومنهج مختلف، هو في الأخير منهج الرشد والرشاد؛ وهو سبيل الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي لم يستسلم للواقع، ولم ييك مثل الثكالي حال الناس، بل راح يصدق بالقول، ويضع المخططات، ويدعو الناس إلى السير وفقها، ولذا مدحه رب الجلال بقول: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٣٨).

ولقد ضرب الأستاذ كولن أروع مثال، بتأسيسه للعديد من المجلات، ثم الجرائد، ثم القنوات التلفزيونية، فوكالات الأنباء... بناء على رؤية واضحة، ومشروع ناضج متكامل^(١).

إن أهم قاعدة من قواعد التبليغ أن المبلغ يحيا بما يبلغ، ويبلغ بما يحيا، ذلك لأنه على الصراط السوي للمؤمن الحقيقي. والمؤمن الحقيقي يعني مَنْ بَلَغَ إِلَى تَكَامُلِ الظاهر والباطن. فلا تخالف بين الظاهر والباطن في هذا المؤمن. أما الحياة الازدواجية فهي صفة النفاق، ويتزده المبلغ الصادق من مثل هذه الأخلاق المذمومة، وما ينبغي له، ولأن صفة الإيمان قد أراه أفق الأخلاق الرفيعة، بأن ليس له إلا تبليغ ما يحيا به في كل زمان ومكان.

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٣٧.

إن النصائح والإرشادات التي لا تتحول إلى حياة معيشة، لا تورث نتيجة إيجابية في وجدان الآخرين، إذ الأقوال والأحوال الخالية من الإخلاص لا يلفظ الله سبحانه بها باليمن والبركة. أما ما نشاهده من نجاحات في بعض أعمال غير المخلصين أو شبه المخلصين، فهذا نابع من عدم وجود البديل، زيادة على أنها عابرة، أو أن تحقق مثل هذه الأحوال أحياناً نابع من عدم وجود من هو أفضل إخلاصاً في حينه، أو من عدم تمكن المخلصين الصادقين من تكوين مركز جاذبية بعد^(١).

الأستاذ يرى أن القيمة الحقيقية للعلم في العمل بهذا العلم. فهناك فرق بين أن تكون عالماً وبين أن تكون إنساناً. فبنسبة استعمال العالم لعلمه في خدمة الإنسانية وبنسبة تمثيله لعلمه بخلقه وفضيلته يتخلص من كونه مجرد حامل علم ويرقى إلى مستوى الإنسان الفاضل، وإلا فهو شخص مسكين أضاع عمره فيما لا ينفع. فالأخلاق والفضيلة هي التي تحول المعدن الصديء للجهل إلى معدن ثمين ومفيد كالذهب. إياك أن تخدع أحداً حتى وإن تعرضت أنت للخداع. ومع أن الوفاء والاستقامة تجلبان في بعض الأحيان مصاعب وخسائر لصاحبهما، إلا أنهما خصلتان ساميتان إياك أن تتبعد عنهما^(٢).

لا بد للداعية إلى الله أن يعيش أقواله في واقع حياته، وتتطابق أقواله مع أفعاله ليكون لها القبول والتأثير، المؤمن مخلص صادق، أي يفعل ما يقول، أو لا يقول إلا ما فعله، وخلافه هو الكاذب

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ١٢١.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٨٥-٨٦.

والمناقق كما يصفه القرآن الكريم؛ إن حياة من يتكلم عن الدين والإيمان والقرآن ويشرح الإسلام كلما سنحت الفرصة، لا بد أن تكون وفق ما يبلغه، إذ لا مكان لإثم في حياته، أو يعدّ الإثم منبع قلق واضطراب له. ولو ارتكب ذنباً يشعر بعذابه ووخزاته الأليمة في أعماقه طوال حياته، فلا يستقر ذنب طويلاً في روحه. إن المؤمن لا ينظر نظرة حرام، ولا يمدّ يده إلى حرام، ولا يمشي في موضع فيه حرام. ليله كنهاره مضيء مشرق، سجادته عاشقة لسجدياته في جوف الليل. لم يُسمع منه أنه قال يوماً فاتتني صلاة الفجر، وإن حدث ذلك خارج طوقه يقضى يومه بالحسرات والزفريات حتى تنعكس على سلوكه طوال ذلك اليوم، وينكفى على نفسه من الندم^(١). وهذا ما يجعل سلوك رجل الدعوة ثابتاً لا يتغير سواء أكان منتصراً أم مغلوباً. إن لم تتم التربية المتأنيّة الصابرة المنضجة في دور الأرقم فكل شيء لا يعدو أن يكون خيالاً خادعاً^(٢).

تحويل المعرفة إلى سلوك هو سلوك واضح بين يلمسه كل من عرف الخدمة ورجالها.. ورأى همتها وثمارها. حتى أصبحنا نسمعهم وهم يقولون وبكل فخر: "إن الأستاذ إذا قال كلمة تصبح مشروغاً قبل أن تصل الأرض".

رابعاً: منهجيته في الحوار والانفتاح على الآخر

الإنسان العاقل ليس هو الإنسان الذي يدعي عدم وقوعه في الخطأ أو يدعي عدم حاجته إلى أفكار الآخرين. بل العاقل من يعرف

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ١٢٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٠٣.

أن الخطأ خصلة بشرية، لذا يتوجه إلى تعديل أخطائه وتقييم الأفكار المختلفة ويستفيد منها^(١).

وقد سلك الأستاذ كولن مع تلاميذه منهج القرآن الكريم في العمل الدعوي، الذي أرسى قاعدة الدعوة إلى الله بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

واعتمد لذلك منهج الحوار في سبيل الحق والخلق، وهذا ما سار عليه فتح الله كولن، فقد ظلت الكلمة عدته الثمينة، فهي سهمه الأخطر الذي نفذ به إلى القلوب، وسلاحه الأقوى الذي دمر به الموانع التي حالت دون اهتداء كثير من الجوعى إلى بستان هذا الدين. ولأن الكلام سلاح ذو حدين فإنه يحذر من الثرثرة والكلام غير النافع، ويحث على الصمت إن لم يكن الكلام مفيداً.

وقد عُرف عن كولن إتقانه للغة، وتفوقه في سائر آدابها وفنونها، فهو خطيب مُصَفَّع، ومتحدث بارع، ومحاور مقنع، وكاتب أخذ، ودَرَبَ تلاميذه على التفوق في هذا المضمار، مع التحلي بآداب الحوار، والتسلح بالتواضع، وعدم الاقتراب تحت أي ظرف من الشجرة الخبيثة التي تسمى "احتكار الحقيقة".

أصبح فتح الله كولن بفعاليته هذه ونشاطاته حديث الساعة في تركيا، وبؤرة اهتمام كبار موظفي الدولة ورجال السياسة المحايدين، والأكاديميين والأوساط المثقفة ووسائل الإعلام. وأصبحت أعوام التسعينات أعوام الانفتاح على العالم الخارجي من جهة، وأعوام

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١١٠.

إجراء الحوارات مع مختلف الفئات وبشكل واسع من جهة أخرى. فبدأ عهد حوار لم يحدث مثيل له في التاريخ الحديث لتركيا. بينما كانت تركيا قبل الثمانينات مسرحاً لنزاع وصدام العديد من الحركات ومن التيارات الأيدولوجية. وقد قتل الآلاف من الشباب في أثناء الصدامات التي جرت بين الحركات الشبابية.

لقد خسر البلد في الستينات والسبعينات ثلاثة أجيال، واستولى التعب واليأس على الناس. أما أعوام الثمانينات، فكانت أعوام قيام الحركات الفكرية والأيدولوجية بمراجعة نفسها ومحاسبتها. ولكن النزاعات انتهت في الشوارع والساحات فقط، أما الرؤوس والأذهان فكانت لا تزال مملوءة ومقسمة بالحواز الأيدولوجية. في مثل هذا الوضع الاجتماعي بدأ فتح الله كولن بإرساء ثقافة الحوار وقبول الآخر، وبثقافة إبداء المرونة والابتعاد عن التعصب^(١).

وفي هذا الدرب قام بزيارة الفنانين والرياضيين ومشاهير المجتمع وصناع الوعي فيه ابتداءً من عام ١٩٩٠م، ومحاورتهم في كل ما يهم المجتمع التركي، ثم قام بدعوة هؤلاء المتنافرين إلى موائد الطعام في بيوت تلاميذه، وهناك بدأ الحوار يتم بين مختلف الفرقاء، وفي عام ١٩٩٤م قام بتأسيس "وقف الصحفيين والكتاب" بالتعاون مع مجموعة من الكتاب والصحفيين والأكاديميين لكي يكون محضناً ثابتاً لمثل هذه الحوارات. ومن رحم هذا الوقف الولود وُلدت حتى عام ٢٠١٠م تسعة منتديات حوارية متخصصة في القضايا التي تهم المجتمع التركي ثم الإقليمي ثم الدولي. وقامت هذه المنتديات بأنشطة حوارية

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٤٢-٤٣.

ضحمة، جسدت ثقافة الحوار، وكرست قيم التعايش والتسامح. وأوجد أبناء الخدمة محضناً آخر للحوار، وتبادل الرؤى، وتلاقح الأفكار، وهو وسائل الإعلام، إذ امتلكوا عدداً كبيراً من وسائل الإعلام ذات التأثير الجماهيري العريض كالقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، والصحف العامة، ومما يجدر ذكره أن كولن أوصى تلاميذه بالانفتاح على الجميع، حيث نقلوا عنه وصيته لهم بأن لا يستثنوا أحداً في الحوار^(١). بدأ الأستاذ الحوار بين الأطراف المتنازعة داخل تركيا، وقام بعد ذلك بمحاولات وتجارب أولية لمشروعه الكبير لإرساء قواعد الحوار بين الحضارات. فقام بعقد اجتماعات بين ممثلي مختلف الأفكار، وبين ممثلي مختلف أنماط المجتمع وأديانه، ومع الذين دخلوا في صراعات عملية فيما بينهم في الستينات وفي السبعينات، والذين استمرت خلافاتهم في الساحات الفكرية والاجتماعية، وانقسموا إلى معسكرات مختلفة.. وجد هؤلاء أنفسهم يجلسون لأول مرة حول مائدة مع مخالفيهم في الرأي والأيدولوجية. وللمرة الأولى كانوا يرون مخالفيهم عن قرب ويتحدثون معهم. كان هؤلاء من الذين ربما شهر أحدهم السلاح في وجه الآخر في السابق، أو على الأقل قادوا تيارات مختلفة ومتعارضة من الحركات الشبابية. جلسوا حول مائدة واحدة وجهاً لوجه يتناولون الطعام ويسأل أحدهم عن أحوال الآخر^(٢). وانطلاقاً من مقولة الأستاذ: "إذا أردت أن تثبت في مكان، عليك أن تكون في كل مكان". انفتح تيار الخدمة على العالم حيث تتبع تيار

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ص: ١٣٨-١٣٩.

(٢) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٤٣.

الخدمة إحدى أكبر المؤسسات الإغاثية في تركيا، وهي مؤسسة "هل من مغيث؟"، التي خرجت من إطار المحلية إلى العالمية، وصارت بصماتها الإيجابية واضحة في كثير من الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية. وبدأت الخدمة العابرة للحدود والقارات بعد سقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م، حيث بدأت الجمهوريات الإسلامية بالتححر من القبضة الحديدية للشيوعيين، واتضح أن أبناءها يعانون من مشاكل جمة، مما دفع بـ"كولن" إلى إصدار صرخة وقيادة حملة لإغاثة "أخوة الدم والدين"، وأفتى الميسورين بأن إنفاق المال لإغاثة المحتاجين هناك أولى من تكرار الحج والعمرة؛ فاتجهت قوافل من الحجاج والمعتمرين إلى هناك لإغاثة الملهوفين ومساعدة المحتاجين، وحضرت هذه الجمعية العالمية لإغاثة المسلمين في بلدان كثيرة، كالسودان، وإندونيسيا، وأفغانستان، وقيرغيزستان، وأوزبكستان، وغيرها، إضافة إلى إغاثتها لغير المسلمين، كما في زلزال اليابان وعواصف الفلبين^(١). ويقدم الأستاذ رسائل في الحب والتسامح.. في الإنسانية والمروءة لتكون أساساً للتعامل مع الآخرين.. فيقول:

- المعاملة التي تنتظرها من الناس، هي المعاملة التي ينتظرها الناس منك.
- الإسراع في معونة الآخرين، أفضل دعوة موجهة للعناية الإلهية.
- لا تنس أن تفرح أخاك ولو بابتسامة.
- محبة الناس وإحساسهم بمحبتك نصف العقل.
- منزلتك لدى الناس هي بقدر منزلتهم لديك.

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٥٠.

• الذي يصيح دائماً على من حواليه ويغضب، سيحصل على عكس مراده، إذ سينفض عنه أصدقاؤه ويفرح أعداؤه.
• لا تنس بأن ما يفرحك هو ما يفرح الآخرين كذلك.
• العاقل هو من يعرف كيف يستعمل قدرة وقوة المحيطين به لحسابه... أما الأبله فبدلاً من استعمال هذه القوة يجد السلوى في لوم الآخرين.

• جرب تليين جانب من تخاف شره بمعروفك.
• اصفح عندما تكون قادراً على العقاب، وبذلك يكون لصفحك قيمة.

• لا تنس وجود إخوان لك وإن لم يجلسوا في حضن أمك.
• عملك الخير هو السبيل لكي ترى الخير من الآخرين.
• ما نعمله للآخرين من خير أو شر سيكون بذور ما سنجا بهه في المستقبل.

• الشخص المثالي شمعة تحترق على الرغم منه لإنارة سبيل الآخرين.

• اللسان الطويل واليد القصيرة وإن كانتا ملائمتين للثعبان، إلا أنهما إن وجدتا في الإنسان انقلب ذلك الإنسان إلى ثعبان.
• قيمة الصفح والعفو تناسب طردياً مع القدرة على إنزال العقاب^(١).

ثم انطلق الأستاذ للحوار بين الأديان والحضارات من خلال "وقف الكتاب والصحفيين" الذي تأسس عام ١٩٩٤م، وكان

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٨٦-١٨٧.

لافتتاحه صدى كبير في وسائل الإعلام، حيث تأسس في البداية لتفعيل وتنشيط جو من الحوار وحسن النية. وكان هذا هو رأسمال الوقف في البداية. ولكن سرعان ما أعقبت اللقاءات على موائد الطعام فعاليات اجتماعية وثقافية مختلفة. فقد امتلك الوقف مجلتي ودار نشر لإرساء القواعد الفكرية لاجتماعات "أبنت"^(١).

أجل، لقد ترجم دعوته إلى الحب والتسامح والحوار إلى مؤسسة كبيرة في تركيا للحوار بين سائر التيارات والمكونات الفاعلة، ثم أنشأت هذه المؤسسة فروعاً أو مؤسسات شبيهة لها في بعض البلدان الغربية، وهي تقوم اليوم بدور مشهود في الحوار بين المسلمين والغرب، حيث يقوم فتح الله بدور مقدر في إعلاء الدعوة إلى حوار الحضارات وتبادل المنافع والأفكار والتي هي أحسن، إذ قدم "العالمية" في مقابل تيار "العولمة" الداعي إلى صدام الحضارات، والذي يمثله ساسة ومفكرون، مثل: صموئيل هنتجتون وفرانسيس فوكوياما في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوج فتح الله هذا الدور بزيارته للفاتيكان ومحاورته للبابا سنة ١٩٩٨م^(٢).

خامساً: منهجيته في الفهم الخاص للقرآن الكريم

يقول الأستاذ عن فضائل القرآن ومكارمه في عبارات مشرقة: "القرآن هو مجموعة القوانين الإلهية النازلة من لدن الخبير المتعالى والمشرقة على عالم بني الإنسان، والتي تناول الإنسان مع جميع جوانبه، من قلبه وروحه وعقله وجسمه.

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٤٤-٤٥.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٠٨.

واليوم يتبع ما يقارب المليار من الناس هذا القرآن الذي يعد الكتاب الوحيد الذي لا مثيل له ولا شبيهه، والذي يستطيع بمبادئه الإلهية الأبدية الثابتة أن يوصل البشرية جمعاء إلى السعادة عن أقصر طريق وأقومه وأنوره.

القرآن منبع نور لأكثر الجماعات نورانية والتي سيطرت على مصير العالم وعاش فيها مئات الآلاف من العلماء والفلاسفة والمفكرين، لذا فلا يوجد لسلطانه شبيه ولا مثيل". ويضيف: "وكم من اعتراض ونقد تعرض له القرآن منذ نزوله وحتى الآن. ولكن ما من محكمة دخلها إلا خرج منها بريئاً وفائزاً.

القرآن نور متبلور في القلوب ومنبع نور للقلوب ومعرض حقائق. ولكن لا يعرفه على حقيقته سوى القلوب التي تستطيع حدس كل جمال الكون عند رؤيتها لزهرة واحدة ومشاهدة طوفان من رؤية قطرة واحدة. للقرآن أسلوب لم يملك حياله العرب والعجم سوى السجود عند الاستماع إليه. أما الأدباء المنصفون فلم يملكوا أمام جمال محتواه إلا الوقوف أمامه بخشوع واحترام.

السبيل الوحيد لوحدة المسلمين هو اجتماعهم على التصديق بالقرآن والإيمان به. وقد نجحوا في السابق في هذه الوحدة وسينجحون في المستقبل أيضاً عند الإيمان والتصديق به. أما الذين لا يؤمنون بالقرآن فهم أولاً غير مسلمين ويستحيل عليهم ثانياً أن يؤسسوا وحدة باقية فيما بينهم"^(١). لذلك فمن وظيفة كل مؤمن أن يفهم القرآن فهماً خاصاً

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤١-١٤٢.

به بشرط أن يكون عالمًا بشروط علم التفسير وأسس وقواعده^(١). ويقول الأستاذ: "عندما كانت الإنسانية غارقة في ظلام الجهل والكفر والوحشية ظهر مثل طوفان من النور بين دياجير ذلك الظلام، ولأول مرة في التاريخ حقق مثل هذا الانقلاب الكبير الشامل الذي لم ير التاريخ مثيلاً له. ولم يتم هذا الانقلاب إلا بالقرآن. ويكفي التاريخ شاهداً على هذا.

القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يعلم الإنسان معنى الإنسان وماهيته والحق والحكمة وذات الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنی، وذلك بأدق ميزان. وليس هناك كتاب آخر يماثله في هذا الميدان أبداً. ولو طالعت حكم الأصفياء والأولياء وفلسفة الفلاسفة الباحثين عن الحق لعرفت ذلك بنفسك.

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي أمر بالعدالة الحقيقية وبالحرية الحقيقية وبالمساواة المتوازنة وبالخير والشرف والفضيلة والشفقة حتى على الحيوان، وحرم الظلم والشرك والجهل والرشوة والربا والكذب وشهادة الزور تحريماً واضحاً.

وهو الكتاب الوحيد الذي صان اليتيم والفقير والمظلوم وأجلس السلطان والعبد، والقائد والجندي، والمدعي والمدعى عليه على طاولة واحدة أمام المحكمة^(٢).

الأستاذ إذا كان عنده أي مشكلة يقرأ القرآن الكريم، ويبقى يقرأ

(١) سعاد يلدرم: فهم خاص للقرآن الكريم، مقال منشور على موقع الأستاذ كولن:

www.fgulen.com

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٢-١٤٣.

ويقرأ حتى يجد حلاً لمشكلته بين آيات القرآن الكريم. وكان يقول: القرآن فيه حل لكل مشكلة. هناك الكثير ممن يعادون القرآن على مر الأزمان، يرثون ما يقولون عن سبقهم دون إدراك منهم لحقيقة ما يقولون، يهاجمون القرآن في حين أن البشرية تئن وتشتكي وتتجرع الآلام دون أن يستطيع هؤلاء أن يقدموا بديلاً يحقق ما تصبو إليه البشرية، علمًا بأن الكثير من المحاسن التي تنادي بها المدنية دعا إليها القرآن العظيم من قبل. فيقول الأستاذ موضحًا هذا الأمر: "والذين يرون القرآن منبعًا للأساطير والخرافات، هم الذين ورثوا هذا الهديان الأحمق من عصر الجاهلية العربية قبل أربعة عشر قرنًا. والحكمة والفلسفة الحقيقية تسخران من هذه النظرة.

ويا ليت الذين يهجمون على القرآن وعلى تعاليمه يستطيعون تقديم أي شيء بديلاً عنه لصالح النظام البشري وأمنه وسعادته. والحقيقة أن من الصعب جدًّا فهم سبب هذا التمرد وهذا العناد ضد القرآن في الوقت الذي تتخط جميع الحضارات والمدنات المخالفة لتعاليم القرآن وتعاني الويل والثبور وتتجرع الآلام، كما تعاني جميع القلوب الخالية من نور القرآن أزمات نفسية حادة ومؤلمة.

نمط الحياة الذي يوصي به القرآن هو أفضل حياة للإنسانية وأكثرها نظامًا. بل يمكن أن يقال بأن كثيرًا من محاسن المدنية التي تنال التقدير والإعجاب في جميع أرجاء العالم ليست إلا المحاسن التي سبق وأن شجعها القرآن وحض عليها قبل مئات الأعوام. إذن فمن الملام ومن المقصر؟"^(١).

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٣.

نحن المقصرون مع كتاب الله عز وجل فقد وضع القرآن الكريم أفضل نظام اجتماعي لأفضل مجتمع قبل أربعة عشر قرناً، ولكننا لم نفهم نحن هذا بعد، لذا لم نستطع شرح هذه الواجهة الاجتماعية للقرآن كما يجب أمام المبادئ الأخرى من رأسمالية وشيوعية وفاشية وليبرالية. نحن لم نقصّر فقط في فهم القرآن من ناحية المسائل الاجتماعية، بل لم نفهم كذلك المسائل الأخرى له فيما يتعلق بالحياة الإنسانية. ووظيفتنا الآن ومهمتنا هي القيام بشرح كل هذه المسائل وتقديمها كوصفة علاج للأمراض الإنسانية وأدائها^(١). وهناك من أبناء الإسلام ممن يتعرضون للقرآن الكريم بالهجوم وهم جاهلون بحقيقة ما يتعرضون، فلم يقرؤوا شيئاً ولم يقوموا بأي بحث أو دراسة بهذا الخصوص. فهؤلاء الذين تعودوا عندنا على التهجم على القرآن واتخذوا هذا عادة ومسلماً لهم هم في الأكثر فئة تجهل أنها تجهل ما تتعرض له. وهذه الفئة البائسة لم تقرأ شيئاً عما تتعرض له ولا تملك أي بحث أو تدقيق علمي حوله. وليس هناك من فرق بين هؤلاء وبين الجاهل الذي يعادي العلوم الوضعية. ولكن الظاهر أن هناك حاجة لبعض الوقت لكي تصل الحقائق إلى الجماهير العريضة.

القرآن كان وسيبقى السبب في رقي الإنسان إلى أعلى المراتب، بأن يسمع خطاب الله من خلال قراءته للقرآن، بهذا القرآن سعد الإنسان في الدنيا والآخرة، فهو يدرك حقيقة الحياة الدنيا، ويشعر بعالم البرزخ، وبحياته الأخرى. فالقرآن هو روح الإسلام، من خلاله استطاع الإنسان

(١) محمد فتح الله كولن: أسئلة العصر المحيرة، دار النيل، القاهرة، ط ٤، ص: ٧٢.

أن يصل إلى مرتبة سامية وهي مرتبة مخاطبة الله تعالى. والإنسان الذي يعي وصوله إلى هذه المرتبة إن حلف أنه استمع بلسان القرآن الكريم إلى الله وأنه تحدث معه لا يكون حائثاً في حلفه.

الإنسان الذي يعيش في الجو النوراني للقرآن، يحس ويشعر وهو في حياة الدنيا بعالم القبر والبرزخ، ويشاهد المحشر والصراط. فيرتجف من هول جهنم... ويتجول في ربوع الجنة فرحاً. الذين يحولون دون فهم المسلمين لقرآنهم والتعمق في معانيه، يكونون قد حالوا بينهم وبين روح الدين وبينهم وبين لب الإسلام وجوهره^(١).

جاء القرآن من الأزلى وسيبقى إلى الأبد، فهو محيط بتفاصيل كل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو دائم الشباب والتجدد، لهذا فكلما شاخ الزمان وتقدم في العمر ونضج وتكامل وقرب من أشراط الساعة ومن "آخر الزمان" كلما لمعت حقائق القرآن كالنجوم اللامعة في كبد السماء بالنسبة للمحققين والباحثين، وتبينت سلامته ومثابته وعمق تعاليمه، وأصبح أكثر إقناعاً لقلوب الناس. فعبارة أخرى كلما تقدم الزمن تجدد شباب القرآن، وانفتحت أبواب جديدة أمام العقل من دون تعطيل للإرادة الإنسانية، وسيهتف عند ذلك الكثيرون: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"^(٢).

والأستاذ متفائل غاية التفاؤل بحكم إيمانه القوي الذي لا يتزعزع بأن المستقبل للقرآن الكريم، وأن الإنسانية ستؤوب إليه طال الزمان أم قصر، يقول الأستاذ بكل يقين وثقة بالله، قائلاً: "وأنا أرى بأنه

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: أسئلة العصر المحيرة، ص: ٧٥.

في المستقبل القريب ستشاهد الإنسانية بنظرات ملؤها الإعجاب والتقدير كيف أن شلالات مختلف العلوم والفنون تتجه نحو القرآن وتصب فيه. عند ذلك سيجد بأنه سيكون عهد القرآن، ذلك لأنه الكلام الذي يرى الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد^(١).

ويضيف: "وسيقى هذا الكون الكبير -الذي هو معرض للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة- موطن الخوف والرعب تجول فيه العفاريت والأرواح الشريرة، مع أنه -أي الكون- يعد كتابًا يفشي كل سطر فيه سرًا من أسرار الملائ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومشتتة حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه القرآن إلى نور ينهمر على وجه هذا الوجود. ويُجمع الناس -عدا أصحاب الفكر التقليدي- أنه عندما أشرق القرآن كشمس ساطعة زالت الغيوم السوداء التي كانت تجثم على الدنيا، وظهر الوجه الضاحك للوجود، وانقلبت جميع الأشياء إلى فقرات وجمل وكلمات لكتاب مؤنس ومبهج لقارئه. عند سماع صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت في الأرواح، والألسنة التي أصبحت ترجمانًا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت، وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه، واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع صوت القرآن من حنجرة قارئ

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤١-١٤٥.

حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء وكأننا مدعون إلى وليمة إلهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلئ تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سمت واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحافة بالحرير اللاهوتي. عندما يسمع صوته في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعاً من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعياداً دائمة^(١).

ربط الله تعالى رب العالمين ذو القوة المتين سعادة الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه، ومن يستغن عن إرشاده ووصاياه ولا يلتجئ إليه يَضَعُ في الطرق ويَبْتُهُ. هو آخر وأكمل كلام يهدي من اتبعه وسار في إثره، ويوصله إلى الغاية والهدف. ومع أنه يُتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُسْتَطَاعُ الإتيان بمثله. ومن يستمع إليه بأعماقه يشعر أنه قد سمع كل ما يجب سماعه، وأصوات هؤلاء تتداخل على الدوام مع أنفاس الملائكة. حتى نزوله وتشريفه للأرض كان كل نبي يشعل مشعل الهداية التي يحملها من مصدر نوره وضياؤه، وحول الصحارى القاحلة حوله بقطرات قليلة منه إلى جنان وارفة الظلال.

بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظله أصبحت عصوراً ذهبية. أما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٢-٢٤.

ما يشبه الجنة. من وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفاً عنده.

من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء، ومن تنور بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرد شمعة. أنفاسه التي نشعرها في أعماق قلوبنا تحيينا، وضياؤه الذي يغمر الأشياء يجعل كل موجود برهاناً للحق تعالى. من يصله صوته - وإن كان في أبعد أرض وأخفاها- تدب فيه الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلوب التي تستمع لصوته وبلغته الخاصة به تتوثب حركة: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٠). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القرآن في أي يوم من الأيام -مثل غيره من الكتب- كتاباً بقي ضمن إطار زمن أو مكان معين من طفولة الإنسانية. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءاً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية. وهو يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع المتحديات^(١).

ومن هنا فقد قام الأستاذ بتأليف كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" حول تفسير القرآن. وهو يتناول بعض الآيات -حسب تسلسلها في القرآن- ويشير إلى النكات والدقائق الموجودة فيها. ويتبين من النظرة الأولى أن المؤلف ملم إماماً جيداً بالتفسير القديمة والتقليدية. ولكننا نرى أنه يفتح مجالات أخرى، ويقدم

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٣-٢٥.

شرارات ويومض ومضات تفسيرية دون المساس بأي مقياس من مقاييس علم التفسير أو الإخلال به. وهذا هو ما قصده المؤلف عندما جعل اسم كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"^(١).

والقرآن بالنسبة للأستاذ عالم من النور والضياء. ففي كل حرف منه يستشعر ترانيم روحه وأشجان قلبه، فيقول: "القرآن مائدة الله أنزله ليزيل الظلام الذي خيم على أرجاء الأرض، والشمس بالنسبة لعالمه النوراني مجرد حشرة مضيئة، والقمر مجرد أرض قفراء وسوداء وقع بعض الضوء على وجهه. هو بلمعانه الظاهري، وعمقه الداخلي، وغنى محتوياته مائدة آتية من وراء السماوات... مأدبة لا يستغني عنها أحد حتى الملائكة الكرام التي حملتها وتسلمتها من يد ليد كباقة من الورود العطرة حتى وصولها إلينا.

استقبلت الأرض وساكنوها هذه المائدة الإلهية بشاعرية عالية، وأشواق لهيفة، وبحاجة ملحة. وانقلبت أرجاء هذه الأرض العجوز بورود هذه المائدة الإلهية ورياحينها إلى ما يشبه سفوح الجنة. عندما لم يكن موجودًا كانت أرضنا هذه أرضًا يلفها الظلام. وعندما هلّ على الأرض غرقت سهولها وجبالها ووديانها بالنور الذي يشع منه إلى كل جهة، وأصبحت أرضنا كتابًا يُقرأ ويتأمل"^(٢).

ويضيف: "القرآن فوق مدح المادحين، فهو من لدن الحكيم الخبير فهو المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات التي لا تنفذ ولا تنتهي،

(١) سعاد يلدرم: فهم خاص للقرآن الكريم، مقال منشور موقع الأستاذ كولن:

.www.fgulen.com

(٢) محمد فتح الله كولن: ترانيم الروح وأشجان قلب، ص: ٥٣-٥٤.

والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتاح السحري. ولا أعتقد أن من يملك مثل هذا المفتاح وهذه الشفرات سيحتاج إلى أي شيء آخر بخصوص مسائل القواعد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلماتي العاجزة آتٍ بمديح للقرآن، فمن أنا لكي أمدح القرآن!!
وكما قال الشاعر:

من يستطيع وصفه سوى الله الوصاف
الملائكة الكرام المصطفون صفًا صفا
يصفونه ويعظمونه حتى تحسبهم في طواف^(١).

ويخاطب الأستاذ القرآن عن دوره ومكانته في الحياة فيقول: "يا أيها الروح الذي أحيانا موات دنيانا بأنفاسه الطاهرة... لو لم تكن لما كانت دنيانا إلا جحيمًا لا يطاق... أنت من يمثل رحمة الحق تعالى على هذه الأرض... أنت من يمسح ظلمات الإنكار والإلحاد من القلوب... لم تتعلم الإنسانية الهداية إلى الصراط المستقيم وسلوكه إلا بك... تعلمت الإنسانية هذا فتخلصت من الفوضى، ومن الضياع في الدروب. بك خف ظلام البشرية..."

بك تنور الوجود...

أيقاس بنورك البدر؟

يا نور الهداية!

أنت شمس ليلة القدر^(٢)

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٦-٢٧.

(٢) الشاعر إسماعيل صفاء.

تكلم الآن وأهدر بصوتك! لكي تحيا القلوب الضائعة والمتهلفة
لكلامك. تكلم لكي يصل الشهد والعسل إلى الشفاه وإلى الأفواه.
ولكي يفتح الأترج النضر في القلوب كأولى ثمرات نضجه"^(١).
ويقول: "أحدث القرآن تأثيرًا كبيرًا في العقول والقلوب ووصل
بذلك الجيل إلى درجة الكمال، فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلًا
من الصحابة آنذاك، لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة.
وحتى اليوم فهو ما يزال ينير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه،
ويهمس في أرواحهم أسرار الوجود... إن القرآن يتناول الطالب
الذي جذبه نحوه فيعجنه ويشكله من جديد ويجعل منه شخصًا آخر
تمامًا... شخصًا رقيقًا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد
بأن أي تغيير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثيرة تحقيق العديد
من الأمور والتي كان يخيل من قبل أنها مستحيلة التحقيق، حيث
تتحول هذه الأمور في ظله إلى حالة اعتيادية مما يُذهل الجميع"^(٢).
ويرى الأستاذ في القرآن أسس الاستقرار والنظام.. وركيزة العقول
الظامئة للمعرفة.. وأمان القلوب العاشقة للضيء فعالم بلا قرآن فوضى،
وعقول بلا قرآن خراب، وقلوب بلا قرآن مستنقع؛ ففي كتاب "أضواء
قرآنية في سماء الوجدان" الذي وضعه الأستاذ في تفسير آيات من
القرآن الكريم؛ حيث يقدم فيه فهمًا خاصًا للقرآن الكريم لا يتعارض
مع التفاسير القديمة وبكل تواضع العلماء يرى أن ما قدمه هو مجرد
مقتطفات من الأجوبة الإرتجالية على الأسئلة التي طرحت عليه، ولا

(١) محمد فتح الله كولن: ترانيم روح وأشجان قلب، ص: ٥٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٧-٢٨.

نكتم هنا أن هذه الأجوبة صدرت من شخص تبهت في شروحه جميع الأفكار والأحاسيس مهما كانت رائعة وسامية.

يذهب الأستاذ محمد فتح الله كولن مذهباً جديداً في تفسير الآية العاشرة من سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠). فيقول: "وهذه الآية الكريمة تشير لمخاطبيها آنذاك بالوضع الذي سيتبوأونه في المستقبل، وتقول إنكم ستشغلون في المستقبل موقعاً مشرفاً لن تستطيع أمة أخرى بلوغه، وإن هذا القرآن سيحفظ لسانكم ولغتك من الضياع والسقوط، ويبقى مرجعاً لكل من يريد فهم دينه. نجد هذا المعنى في كلمة ﴿ذِكْرُكُمْ﴾، وهي كلمة لا تفيد معنى الموعظة فحسب، بل تشمل أيضاً معنى بقاء ذكركم، وعدم نسيانه، وعدم زواله"^(١).

ويبلغ المؤلف مستوى راقياً من الإبداع البياني في شرحه للآية السابعة والثمانين من سورة الأنبياء: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧). فيقول: "إذا تناولنا هذه الآية نراها تعلن عظمة الله ووحدانيته بكل قوة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾. وهنا أمرٌ أشار إليه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو كون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ جملة مشيرة إلى مستقبلنا. أجل! فلو تناولنا الموضوع ضمن قاعدة "الإنطباق مع مقتضى الحال"، فإن الله تعالى وحده هو الذي يستطيع أن ينقذنا -سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع- من الظلام إلى النور، وأن يوصلنا إلى شاطئ السلامة. ويكون هذا بشعار: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ الذي يحتوي على جميع أنواع

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٣٢.

التوحيد". ويختتم المؤلف شرحه هذا بقوله البليغ: "ولكن يجب هنا الإشارة إلى أمر آخر. وهو أن النبي ﷺ نادى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بسبب الظرف الخاص المحيط به. أما نحن فنقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بدلاً من ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بسبب الظروف المحيطة بنا..^(١). ويضيف: "أعتقد أن العديد من الحقائق السماوية ربما لبست هنا لباساً أرضياً. لذا كان على كل من قرر صرف بضع ساعات مع القرآن بقراءة هذا الكتاب أن يضع هذا نصب عينيه لكي لا تهتز مهابة القرآن في ذهنه. ومع أن هذا العمل والجهد حاول أمراً مستحيلًا، لأنه يشبه محاولة شرح البحر بقطرة واحدة، أو إراءة الشمس بذرة واحدة، إلا أننا نقول بأن لحن ناي من قبل راعي غنم قد يجد له مكاناً في عالم الموسيقى مهما كان متواضعاً. لذا نتمنى أن تحوز هذه السطور -التي يمكن أن تصدع الرؤوس- بعض القبول"^(٢).

وما يلفت الأنظار في منهج الأستاذ في دراسته لآيات من كتاب الله العزيز الاهتمام بالجوانب اللغوية البلاغية، من قوله في بيان قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧)؛ "يأتي معنى فعل "بَدَعَ" في اللغة العربية بمعنى الإيجاد والخلق على غير مثال أو أنموذج سابق. وتعرض الأرض والسماوات التي لا حد لوسعتها أنموذجاً للجمال الذي لا يمكن أن يشبع الإنسان منه. أي هي من الكائنات والمخلوقات العجيبة التي لم يسبق وجود أنموذج لها من قبل. فهي

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٢٣٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٢٩-٣٠.

مذهلة ومدهشة ولا يمكن أن يكون هناك أكثر منها جمالاً وجاذبية لعدم وجود مثال سابق لها من جهة، ولطبيعة مادتها الأصلية وهيئتها الحالية من جهة أخرى. وهي تشير وتومئ بمليارات من الإشارات النورانية إلى خالقها ومبدعها^(١).

الأستاذ يتقدم بنظراته الجديدة وإضافاته المفيدة إلا أنه يستفيد من التفسير التقليدية، ومن ذلك في وقوفه على قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)، يقول الأستاذ: "كما بينت تفاسير هذه الآية فإنه لو كان بالإمكان تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكسيرها، وتكليم الموتى بكتاب ما، فلن يكون هذا الكتاب التوراة أو الإنجيل أو الزبور بل يكون بالقرآن. وهكذا يوجه الله تعالى الأنظار إلى القرآن الكريم. والحقيقة إن تأثير جميع هذه المعجزات -إن حصلت- لا يمكن قياسه بالتأثير الذي يحدثه القرآن في القلوب التي شاء الله هدايتها. لذا فإن هذه الأمور العجيبة والمعجزات التي ترونها كبيرة تبقى شيئاً ضئيلاً بالنسبة إلى الثورة العالمية الشاملة التي يحدثها القرآن. وإن أردتم البحث والتنقيب عن سبب لهذه الحوادث والمعجزات التي تبدو أمام أنظاركم وخيالكم خارقة وعجيبة، فإن القرآن هو هذا السبب إن نظرنا إلى الموضوع من زاوية الأسباب العامة والجذرية. فلو شاء الله تعالى لسيّر الجبال وقطع الأرض ونفخ الحياة في الأموات وجعلها تتكلم. ولكن سبب نزول القرآن ليس لهذه الأمور.

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٦٤.

فحكمة تنزيل القرآن هي إنشاء نمط جديد من هذا الإنسان الحالي الموجود، والنفوذ إلى القلوب التي لا يمكن لغيره النفوذ فيها، وإنشاء حاكمية الإيمان فيها، وإظهار وتعيين طرق الخلود والبقاء أمام الإنسان الفاني. ووعده بتحقيق جميع أمنيه وآماله. إن التأثير المؤقت لتسيير الجبال وقذفها يميناً وشمالاً، وتقطيع الأرض وتفتيتها وقيام عظام الموتى بالتكلم، لا يعد شيئاً بجانب التأثير الدائم والباقي للقرآن على الإنسان. بل يبقى تأثيراً ضئيلاً وخافتاً^(١).

يتميز الأستاذ في كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" بمنهجه في التأمل في كتاب الله وفي التحليل وفي الرؤية الثابتة إلى الماضي والحاضر والمستقبل. وإذا كان الأستاذ محمد فتح الله كولن لم يكتب تفسيراً بالمعنى العام، فإنه نظر في آيات من القرآن الكريم نظرات عميقة، فاستخرج منها معاني جديدة لم يسبق إليها، وانتهى إلى خلاصة مبتكرة فيها عمق الفكر وشفافية النظر ورقة الوجدان ونفاذ البصيرة، بحيث يمكن القول، إنه قرأ القرآن الكريم قراءة إيمانية جديدة هي غير القراءة الجديدة التي يقول بها رهط من المفكرين الذين هم أبعد ما يكونون عن روح القرآن^(٢).

ومن خلال هذه التحليلات الجميلة بتوجيه سلوكيات المؤمن في حياته اليومية، ففي قول الله سبحانه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٨٢-١٨٣.

(٢) عبدالقادر الإدريسي: قراءة إيمانية جديدة للقرآن الكريم، مقال منشور في جريدة "العالم" المغربية، ٤ سبتمبر ٢٠٠٩م.

مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ (الحجر: ٢٤)، يقول الأستاذ: "نحن نعلم المستقدمين من الآتين إلى هذه الدنيا مثلاً الآتين في زمن آدم عليه السلام، ونعلم الآتين من بعده. ونعلم المستقدمين منكم من زاوية الدخول في الإسلام والمستأخرين منكم، ونعلم المتقدمين منكم في صفوف الصلاة والمتأخرين. ونعلم أوائل حياتكم وأواخرها، أي ذرات أجسادكم وجزيئاتها وأحوالكم الحالية، ثم كيف تتحولون في القبر إلى عظام نخرة.

وإذا عبرنا عن هذا بتعبير أشمل وأوسع نقول: إننا نعلم أصحاب الصفوف المتقدمة في الإيمان والإسلام والإحسان وأصحاب الصفوف المتأخرة والمتعثرين في هذه الأمور. وهناك من دخل في تفصيل وفروع هذا الأمر حتى وصل إلى القول بالمبكرين في القдом إلى الجامع - أي أصحاب الصفوف الأولى في الصلاة - والمتأخرين في القдом إليه من أصحاب الصفوف المتأخرة"^(١).

ويسعى الأستاذ إلى توظيف هذه الأضواء لينير طريق السائرين في طريق الدعوة إلى الله، فما إن يتوقف عند آية من الآيات إلا ويأتي بإضافة وتفسير وتوجيه للدعاة إلى الله، حتى أنه حين تكلم عن كلب أهل الكهف، وكيف كان حاله ووضعوه وهو في موقع الحراسة لدرجة أنه لو أطلع على حالهم أحد لولى منهم فراراً، ليقول بعد ذلك:

"وهذه لمسات من التصوير المعبر جداً:

١- والآن لنحاول إلقاء نظرة سريعة على النكت التي تلهمها هذه الآية الكريمة: سيكون هناك في كل عهد صناديد من أمثال أصحاب

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٨٦.

الكهف، وسيكون هناك من يلتحق بهم، وسيستمرون في السير معاً ضمن إطار عام من الفكر والشعور وإن لم يكونوا على الخط نفسه في جميع التفاصيل.

٢- يوجد على الدوام في كل عهد من يعيش حياة الكهف هذه، أو يجبرون على مثل هذا العيش. لذا عليهم ألا يهملوا حراسة أنفسهم، لأن من المحتمل -بعد مرحلة معينة- بدء الهجوم عليهم وعلى بيوتهم وعلى مؤسساتهم. لذا عليهم أن يتخذوا التدابير اللازمة، بل وضع الكلاب المدربة أمام بيوتهم.

٣- يجب ألا تكون مثل هذه الكلاب كلاباً عادية بل من النوع الذي يستطيع مجابهة جميع الأخطار الآتية من الخارج ومواجهتها، وأن يكون وضعهم ومنظرهم كافياً لإلقاء الرعب في النفوس الشريرة"^(١).

وبذلك نرى أن الأستاذ قد وقف على أهم أساس من أسس التفسير وهو مفهوم "التفسير الديناميكي" الذي اهتم به المفسرون من أمثال الأستاذ سيّد قطب والأستاذ أبو الأعلى المودودي. لأن القرآن الكريم ليس بكتاب دين بعيد عن الحياة وعن الحركة والنشاط الذي تزرخ بهما الحياة. بل كتاب يهدف إلى تطبيق تعاليمه في هذه الحياة، وهو كتاب يتجاوب مع الحياة ومع الأحداث تجاوباً متقابلاً، ونزل منجماً وعلى مراحل لكي يقود هذه الحياة"^(٢).

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٢٠٠.

(٢) سعاد بلدرم: فهم خاص للقرآن الكريم، مقال منشور موقع الأستاذ كولن:

ويدعو الأستاذ كل من أراد الاستفادة من قصص القرآن أن يقصد الاستفادة الحقيقية؛ فعليه أن ينظر إليها نظرة حقيقية وواقعية، فقد حدث ونقلها لنا القرآن الكريم، وكذلك النظر إليها بشمولية القرآن الكريم لا أنها أحداث حدثت في الماضي وانقضت، والقرآن يسردها علينا، بل أنها تتكرر في كل مكان وزمان بصور مختلفة، فيقول: "يجب الوقوف حول عما إذا كنا نحمل هذه القصص محمل الحقيقة أم لا. لأننا نعتقد أن هذه القصص ليست قصصاً رمزية، بل هي حوادث وقعت حقيقة، ونقلها القرآن لنا.

إن الله تعالى بقصه علينا هذه القصص يشير إلى بعض الحقائق الكونية الجارية حتى قيام الساعة. أي هي جارية منذ وجود آدم عليه السلام حتى آخر رجل في هذه الدنيا. لأننا عندما ننظر إلى العناصر التي يستعملها القرآن نراها غير مختصة بزمن معلوم أو مكان معلوم. وهذا هو المنتظر أصلاً من كتاب كوني. ولكن لكي نستطيع النظر إلى القرآن هذه النظرة يجب متابعة آياته ضمن إطار خاص. بل يمكننا القول إن هذا هو الشرط الوحيد للاستفادة الحقيقية من القرآن. والشيء الآخر إن الآيات سواء كانت في حق الكافر أو المنافق أو اليهود أو النصارى، وكانت أسباب النزول تشير إلى هذا الأمر أو ذاك، فإن كل فرد -وهو يقيم علاقات عقلية ومنطقية وشعورية ووجدانية مع نفسه ومحيطه في زمان أو في مكان معين- يستطيع تلقي رسائل غضة وجديدة من القرآن ويحسها في أعماق نفسه. وبتعبير آخر فعلى الفرد أن يقول لنفسه: "صحيح إنني لست بنبي، ولكنني أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف وكأنها قد نزلت

عليّ". وفي نهاية المطاف أليس هذا هو روح القضية وأساسها؟ وهل يمكن حصر الله تعالى -حاشا لله- في زمن أو مكان معين؟ إذن فالقرآن الكريم الذي هو تجلي صفة الكلام عنده تعالى كما خاطب الرسول ﷺ فكأنه يخاطبك ويخاطبني كذلك، ويخاطب كل من يأتي بعدنا. أي هو يخاطب الإنسانية جمعاء. وهذا الأمر مهم من ناحية شمولية القرآن وكونه فوق الزمان والمكان. وإلا فإن الإنسان ينظر إلى هذه الحوادث الواردة في القرآن وكأنها قصص ماضية. ومثل هذه النظرة في قراءة القرآن تقلل نسبة الاستفادة منه كثيراً^(١).

هذا التوجيه الروحي الشفاف هو الطابع المميز لكتابات الأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو البذرة الطيبة التي زرعها فيه أستاذه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو المنهج الذي يسير عليه المؤلف في خدمة الإيمان والقرآن، بالأسلوب الحكيم الذي لا أبالغ إذا قلت إنه أسلوب فريد من نوعه في العالم الإسلامي^(٢).

أحياناً يقوم الأستاذ بتوضيح مسألة قد يساء فهمها، وتفسيرها على غير المراد منها، ومن ذلك فهم الكثيرين الخاطئ لقوله ﷺ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، بأنها تشير إلى طلب الدنيا على الدوام، فيقول الأستاذ موضعاً ذلك: "ولكن من يعرف شيئاً قليلاً من اللغة العربية يعرف خطأ هذا الرأي. فمن يدقق في سياق الآية وبدايتها يرى المعنى الآتي:

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٩١.

(٢) عبدالقادر الإدريسي: قراءة إيمانية جديدة للقرآن الكريم، مقال منشور في جريدة "العالم" المغربية، ٤ سبتمبر ٢٠٠٩م.

تقول الآية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، أي اجعل كل ما أعطاك الله وسيلة للدار الآخرة. وفعل "وابتغ" هنا يعني شيئاً أكثر من "واطلب"، لأنه يعني: اطلب واستعمل ما آتاك الله من قلب وحس وشعور وإدراك وصحة ومال وولد... إلخ - بل وحتى كل استعداداتك الفعلية والكامنة- واستخدمها في طلب الدار الآخرة. ثم تأتي الآية: ﴿وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ لموازنة المسألة. أجل علينا أن نضع الغد وما بعد الغد أمام أنظارنا على الدوام، وفي الوقت نفسه لا ننسى ما يعود للعالم من أمور وأشياء. إذن فتناول الشق الثاني من الآية فقط وتوجيه الأنظار إلى الدنيا فقط وجعلها هي وحدها محور النشاط خطأ فاحش^(١).

لم يقرأ الأستاذ القرآن الكريم قراءة روحية فحسب بل هو إلى جانب ذلك الإشراق الروحي العظيم الذي استمدته من القرآن الكريم.. تعامل معه كمنهج حركي فكري دعوي.. له أبعاده الروحية النورانية.. وله عمقه الفكري الدعوي الحركي.. الذي يصلح أن يكون هادياً وجامعاً للفعل والقلب والفكر والروح.

سادساً: منهجيته في الفهم الخاص للسيرة النبوية

الأستاذ "محمد فتح الله كولن" على رأس الدعاة الذين عاشوا أسرى محبة النبي ﷺ؛ فنذر وقته في البحث عن منزلته ﷺ ومعرفة قدره ومكانته، وجعل أصول دعوته وقواعد منهجه فكر وسلوك وأخلاق سيد البشر محمد ﷺ. فقد قدم كتاباً من أعظم ما كتب وأبدع حول شخصية الحبيب المحبوب ﷺ سماه "النور الخالد محمد ﷺ"

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٧٠.

مفخرة الإنسانية". وعنوان الكتاب على هذا النحو يعبر عن صدق حب الرجل لشخص رسول الله ﷺ وشخصيته. فالنور الذي لا يخبو ولا ينطفئ هو نوره ﷺ، ومصدر فخر الإنسانية واعتزاز البشرية الراشدة الرشيدة^(١).

وفي مقدمة هذا الكتاب عبّر "كولن" عن سبب كتابته لهذا الكتاب فيقول: "إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامية وسيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لديّ -كما هي عند كثيرين- وهاجسًا من هواجس فكري ومشاعري، وموضوعًا مهمًا من المواضيع التي لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرنًا يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه"^(٢).

إننا أمام حب أقوى من أن تؤثر فيه الأقاويل أو تزعزع الشكوك أو تضعف من جذوته المؤامرات. حاول أعداء الإسلام ومازالوا

(١) سعيد مراد: منزلة الرسول ﷺ في فكر المفكر الإسلامي محمد فتح الله كولن، مقال منشور في مجلة التصوف الإسلامي، يوليو ٢٠٠٥م.

(٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص: ١٣.

يحاولون، النيل من حبنا له وتوقيرنا لشخصه، إلا أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(١).

وفي مقدمته لكتابه النور الخالد يقول: "ومنزلة الحبيب ﷺ ومكانته وعظمته تظهر جليلة واضحة، فنحن لا نزال إلى الآن نسمع أصداء "أشهد أن محمداً رسول الله" ونستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله في الداخل والخارج في الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى في هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب في عمر الزهور -رغم إحاطته التامة بالحقيقة الأحمدية التي ليس من اليسير معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة- يتراخضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشات حول النور. وهذا أمر فريد لا نجد له مثيلاً في العالم؛ فالزمن لم يستطع أن يمحو من قلوبنا ومن صدورنا أي حقيقة من الحقائق العائدة له أي حقيقة من الحقائق العائدة ﷺ، ولا يبلبها... أجل، فهي حقائق غضة ندية ونضرة على الدوام. وكما قلت لإخواني مراراً إنني عندما أذهب إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بي إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابه بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشجي الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحباً". أجل، إنه حي ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطلاوة وحيوية في قلوبنا"^(٢).

النور الخالد كتبه الأستاذ بدموع عيونه وبنبضات قلبه. فالقارئ

(١) سعيد مراد: منزلة الرسول ﷺ في فكر المفكر الإسلامي محمد فتح الله كولن، مقال منشور

في مجلة التصوف الإسلامي، يوليو ٢٠٠٥م.

(٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ١٣-١٤.

لهذا الكتاب يجده من المقدمة إلى الخاتمة صوتًا واحدًا، يرشح بالمعاناة والشوق والاحترق؛ ومن ثم فإن فتح الله لم يؤلف "النور الخالد" بعقله ومحفوظاته فقط، وإن كان متحكمًا في تفاصيل السيرة النبوية تحكمًا لا نظير له؛ وإنما سبكه قبل ذلك بقلبه ووجدانه، وأودعه عيونًا في أسرار روحه^(١).

ويرى الأستاذ أن منزلة الحبيب ﷺ عظيمة وجليلة، ولكن علينا أن نقدم شخصيته للعالم - كما يقدم العالم شخصياته - عند ذلك سيحبه الجميع إن عرفوه حق المعرفة، فيقول: "إن الزمن يتقدم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فستبقى متفتحة في الصدور كأكام الورد العبة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتمنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون في تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات الأخرى المتعلقة بشؤون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشرحه وتوضيحه وبيان جوانب شخصيته، لما ترَبَّع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل في الضلوع والصدور سواه.

ولكن مع هذا، وعلى الرغم من كل شيء يهرع الكل من شرق الدنيا وغربها حاملين معهم دلاءهم، مسرعين نحو نبعه الصافي الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوهم الوجد والهيام ليلبغوا قبه.. قبة الإنسان الذي يضع التيجان على هامات الشمس^(٢).

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ١٤.

الأستاذ جعل عنوان كتابه "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية". فإذا توقفنا عند هذا العنوان نجد عنواناً ذا دلالات ومرجعيات يفترض أن نستحضرها ونحن نقرؤه ونطل منه على مضمون الكتاب وغاية المؤلف منه.

النور الخالد يذكرنا بوصف القرآن الكريم للرسول ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦)، فالرسول ﷺ سراج منير كالشمس التي وصفها القرآن الكريم بكونها سراجاً بقوله عن السماء: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ (النبأ: ١٣) وكما أن نور الشمس وضياءها وأثرها باق ما بقيت الحياة على الأرض ينتفع به الناس جميعاً في الأرض كلها، فكذلك نور رسول الله ﷺ باق بكونه النبي الخاتم الذي لا نبي بعده، بل إن نوره لأشد سطوعاً وظهوراً في الآخرة بعد الدنيا، ويكفيه تجلي ذلك النور في المقام المحمود يوم القيامة. والشق الثاني من العنوان هو: محمد مفخرة الإنسانية، هذا الشق يشير إلى بشرية الرسول ﷺ كما أشار الشق السابق إلى رسالته، وهذا المعنى يجعلنا نستحضر قوله تعالى موجهاً رسوله الكريم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠) فالشق البشري يتجلى في: محمد مفخرة الإنسانية، فهو من البشر بل هو مفخرة البشر بكونه الإنسان الكامل، بل إنه ﷺ أشار إلى منزلته في البشر بقوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة" (رواه أبو داود)^(١).

الأستاذ برغم حبه الشديد للحبيب ﷺ إلا أنه يلوم نفسه ويتهمها

(١) مأمون فريز جزار: النور الخالد منهج في قراءة السيرة النبوية، مقال منشور في جريدة الدستور الأردنية، بتاريخ ٢٠١١/٥/٦ م.

بالتقصير بأنه لم يستطع توضيح جوانب عظمة هذا النبي ﷺ؛ يتساءل قائلاً: "ولكن هل استطعنا أن نفهم الرسول ﷺ سلطان القلوب المتربع على عرش الأئمة حق الفهم، ونذكره حق الإدراك؟ ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعينكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أما أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي ادّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قطميراً" له. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسأل نفسي وأسأل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب سيد السادات حباً تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟

كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حباً ووجداً.. ولو تغشت الأرواح ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشعرّ جلدها وهي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه بعدما صارت رماداً، فتذروها للريح نحوه ﷺ^(١).

هذا مع أنك لو شرّحت قلب الأستاذ لطفح منه رشح "النور الخالد"؛ ثم لو أنك لامست روح الأستاذ لأصابك لفتح من شهاب "النور الخالد"؛ ثم لو أنك حللت "النور الخالد" تحليلاً دقيقاً للاح لك شبح الأستاذ، من هناك، من بعيد، وهو يذرف الدموع^(٢)، وهو يقول:

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ١٥.

(٢) محمد باباعمي: أبواب المستوى، ص: ٤٤.

"حاولت مستنداً إلى عون الله تعالى وكرمه وإحسانه أن أشير باختصار، وعلى نمط الفهارس إلى جوانب عظمة فخر الكائنات، وسيد الدنيا والآخرة. كل كلام في مدحه جميل، فإن وجدتم شيئاً نائياً، فمني ومن أسلوبِي، أما ما يتعلق بفخر الكائنات فكله مشرق وجميل"^(١).

لقد ملأ عليه حب فخر الكائنات كل كيانه وكل أوقاته، وذات مرة رأى النبي ﷺ في رؤيا فقال: ناولني رسول الله ﷺ سهماً، وفي قبالي الهدف، فأخذت السهم ورميته، ولكني لم أصب الهدف، وصرت أبكي وأقول: هل يمكن لسهم رسول الله ﷺ أن لا يصيب. وبعد ذلك أعطاني سهماً آخر فأصاب الهدف. وكان يقول لنا: ينبغي أن تؤمنوا أن سهم رسول الله ﷺ لا يخيب. وأن كل مشكلة لها حل في القرآن الكريم والسنة والسيره"^(٢).

كيف لا يكون ذلك وهو الذي امتلأ قلبه بحب رسول الله ﷺ وأدباً في حديثه عن سيد الكائنات فيقول: "مع أنني أعد نفسي أكثر المؤمنين قصوراً وذنوباً، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله كل هذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عليا في حبها لهذا الرسول الحبيب، وكيف تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده؟ لذا، أودّ أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني من طرح مشاعري في حضوركم. وعندما منّ عليّ الله ﷻ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٢١.

(٢) لقاء خاص مع الأستاذ نوزاد صواش.

وجهي بترابها بدت لي بلدة رسول الله ﷺ مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحاً لا يوصف، بحيث أنني شعرت بأنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضل البقاء هناك^(١).

ثم يوضح سر اختبار البقاء في الروضة المباركة بكل تواضع بأنها مشاعر الكثيرين غيري قائلاً: "ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لاثقاً لتلك المرتبة العليا، بل إنني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف الخدمة لأصغر صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

وجاشت المشاعر نفسها عندي في بيت الله، وقد تكون هذه المشاعر مشاعر مشتركة لدينا جميعاً. ثم إن من يحمل هذه المشاعر غير محصور فيّ وفي أفراد قلائل، فكم وكم من ذائب في عشق رسول الله ﷺ تُعدّ هذه المشاعر بالنسبة له مشاعر بدائية وخشنة"^(٢).

كيف لا يكتب الأستاذ بلغة الحب بعيداً عن العرف العلمي الجاف، وقد نقل بعض طلبة الأستاذ أنه أوان إلقاءه "النور الخالد"

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ١٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٧-١٨.

دروسًا في جامع "والدة السلطان" بحي "أوسكودار"، كان كلما تقدّم إلى درس اعتقد وآمن، وحضّر نفسه وقلبه، على أن يكون هو آخر مواعظه، وأنه سيلقى حتفه بعد ذلك، وقد يودع السجن، أو يصاب بمكروه؛ ومن ثمّ جاءت هذه الخطبة النارية في منتهى الصدق، وهي بحقّ نصائح مودّع للخلق، ولآلئ مقبل على الحق^(١).

الأستاذ في النور الخالد كثيرًا ما يخاطب ذاته ويوجه الحديث إلى نفسه، وبطبع ذلك في حديثه عن نعم الله علينا بأن جعلنا من أمة الحبيب المصطفى ﷺ ونحن لسنا أهلاً لذلك، فنحن نريد أن نتحدث وأن نعبر عن النعمة الكبرى المتميزة المهداة إلينا عندما أصبحنا من أمته، وأن نهتف من أعماق قلوبنا بالحمد لله رب العالمين والشكر له، لأنه رآنا أهلاً لإسباغ نعمته الكبرى علينا بأن جعلنا من أمة المصطفى ﷺ. فهذا فضل إلهي، وهو يسبغ فضله ونعمته على من يشاء وبالمقدار الذي يشاء، إلا أن هذا الفضل لا يمكن أن يزنه ميزان أو يحده قياس.. فهو بحر واسع لا يحده ساحل، ولا ينتهي بشاطئ. إلا أن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلبًا لائقًا بسلطان القلوب؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في قيامنا وعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمدًا ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟ فإن كان جوابنا بالإيجاب فما أسعدنا! لأن هذا يعني أن خيالنا وأحلامنا مزينة بجمال صورته.. وإننا بذلك نكون جماعة

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٤.

محمدية، نتخلق بأخلاقه ونتأدب بآدابه.. وإن أيّ جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه، تكون عنصر توازن في هذا العالم. وأنا أعتقد أن هناك سبباً واحداً فقط في عدم وصولنا إلى مثل هذا التوازن، وهو أننا لم نرتق بعد إلى المستوى اللائق للروح المحمدية^(١).

بهذا تظهر لنا ميزة هذا الكتاب الذي ليس كالكتب التي في هذا الموضوع، سواء منها كتب التراث الإسلامي، أو الكتب التي أصدرها المؤلفون المحدثون من نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم. وجدته نمطاً فريداً في فهم السيرة النبوية، والتعمق في وقائعها وأحداثها، وفي تحليل موضوعاتها ودروسها، وتقديمها إلى القارئ في أسلوب مقنع مبهج ينفذ إلى القلب والعقل بتلقائية^(٢).

فصلة الأستاذ بالنبوي ﷺ لا حدود لها، يتناول آمانياته وآماله والأمة في طريق محبة النبي ﷺ. يقول الأستاذ: "كنت قد وضعت نفسي منه منذ مدة طويلة موضع "قطمير"، وأسري عن نفسي بهذا، غير أنني بدأت أفقد هذا الأمل بمرور الزمن. ثم تمنيت لو أنني خلقت شعرة بيدنه، فأكون بهذا القرب من مثل هذا الشخص الذي كان مظهراً لمثل هذه الدرجة من اللطف الإلهي الخاص. ومرّ زمن عليّ وأنا في مثل هذه الأمنية، إلا أنني كلما ازددت معرفة به، تأكّدت أكثر بأنني لست أهلاً لتحقيق هذه الأمنية، لذا فقد انحصرت كل رغبتني وأملي في أن أكون فرداً من أمته من شفاعته، فيقول وهو يدخلني بينهم:

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٤٩-٥٠.

(٢) عبدالقادر الإدريسي: نفحات قرآنية من نسيمات تركية، مقال منشور في جريدة "العالم" المغربية، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٩م.

"هم القوم لا يُشقى بهم جليسهم" (رواه البخاري).

أجل قذح شرارة واحدة من حبه في قلب هذا الجيل! ولكن ما حيلتي، فمثلي في هذا مثل نملة نَوَت الحج، فهي تعلم أن أرجلها الضعيفة لا تقوى على قطع تلك المسافة الطويلة، ولكنها مسرورة لكونها ستموت وهي في الطريق إلى الحج.. فكل أملي أن أموت في هذا الدرب"^(١).

كتاب النور الخالد ليس كتاب "رواية"؛ بل هو دفع لهذا العصر وجهة خير الأعصار؛ فالمؤلف يسعى جاهداً أن يوظف جميع ملكاته وقدراته، ليحمل الناس على "تجاوز الزمان والمكان"، حتى يمكنهم أن ينتصروا على "ضغط الآن" وعلى "تفاصيل الحياة"^(٢).

ويصف الأستاذ ذلك الزمان المظلم الذي كان في أشد الحاجة إلى أن ينفخ فيه الروح وإلى من يقول للفساد كفى: "لقد كان المجتمع منحدرًا إلى هاوية مظلمة، إذ تغيرت فيه جميع القيم الإنسانية، وانقلبت رأسًا على عقب، فأصبحت الفضيلة عيبًا، والعيب والنجاسة فضيلةً وفخرًا.. الوحشية تُمجّد، والرحمة والإنسانية تُمتهن.. قد وضعت الذئاب نفسها موضع الرعاة، أما الأغنام التي لم يعد لها حول ولا قوة، فتتن في أيدي هؤلاء الرعاة القساة وتتوجع، وما لها من سامع.. وشاع الفحش والزنا والإنحلال الأخلاقي، ولم يكن شرب الخمر ولعب القمار عيبًا، ولم يكن الاحتكار شيئًا غريبًا، بل أمرًا مألوفًا.. أما طرق النهب والسلب، وامتصاص دماء الناس، فكان يُعدّ ذكاءً ومهارةً وحذقًا.

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٥٠.

(٢) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٧.

ومن ثم، فقد كانت هناك حاجة لشخص ساحر البيان، مؤثر الكلام ليقول لكل هذا الفساد: "قف!" كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى درجة اهتزت معها الرحمة الإلهية، واستجابت، فأرسلت فخر الكائنات رسولاً.. وبمجيئه تغير كل شيء وتبدل، وتحقق الانقلاب الأعظم. أجل، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

وبعد أن كان الزمان والمكان غارقين في الظلام، إذا بثغريهما يفتّران عن بسمه وفرحة بالنور الذي جاء به الرسول محمد ﷺ.. وبعد سنوات كان أهل المدينة ينشدون لمجيئه، ويهللون لقدمه، مرددين في استقباله:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع^(١)

ومن يدقق كتاب الأستاذ يجد أن هناك مجموعة من الظواهر الفكرية والأسلوبية في هذا الفصل وغيره تتفق مع الغاية من تأليف الكتاب وأولها هذه العقلية المنهجية المنظمة التي لا تمضي في الحديث بتدفق غير منضبط أو استطراد غير منظم، بل نجده يجزئ القسم الأول إلى ثلاثة أبواب، ويجزئ الباب الثالث الذي هو أطول الأبواب في هذا القسم إلى خمسة فصول، ونجده يؤصل لفكرة القسم وهي الحديث عن "الأنبياء والرسل" بذكر الغاية من إرسالهم ثم بيان خصائصهم ثم يقف على خصائصهم وتجلياتها في سيرة المصطفى ﷺ، هذه المنهجية المنظمة ترتبط بالغاية من التأليف

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٣٠-٣١.

لتكون شخصية الرسول ﷺ في أبهى صورها وأوضح ملامحها بعيداً عن السرد التاريخي الذي يبرز فيه الحدث أولاً ثم الشخصية ثانياً^(١). لقد كان الأستاذ يخاطب الناس بلغة عصرهم وأسلوبهم ومن ذلك قوله: "من يقول إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الغيب مطلقاً يميل إلى التفريط. فهو لم يكن يعرف الغيب، إلا أن الله تعالى كان يطلع على الغيب. فكان رسول الله ﷺ يشرح الأمور الأساسية للحوادث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تليفزيونية. وهذا هو ما نريد الوقوف عنده بكل عناية. فما قاله لم يكن من عنده بل مما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي"^(٢).

وكذلك يستخدم الوظائف والمهمات والمسلمات المعاصرة قائلاً عن رسول الله ﷺ: "ووضع شبكة استخبارات لم يسمع بها أحد من قبل، بحيث أن الأخبار تصل إلى المركز في وقتها، حيث كانت تقيّم وتحلّل حالاً. ولم يسجل التاريخ أن أخبار رسول الله ﷺ كانت تصل إلى أعدائه"^(٣).

والمألوف عند من يكتب في السيرة النبوية الشريفة أنه يعتمد على المصادر التاريخية، ويعرض الأحداث وفق تسلسلها التاريخي، وقد يتوقف الباحث عند قصة أو فكرة أو مسألة، ويوجه من خلالها رسالة ودرساً مستفاداً للقارئ، ولكن الأستاذ تمعن في فهم السيرة النبوية، بعيداً عن السرد التاريخي المعروف، حيث استطاع أن يقدمها

(١) مأمون فريز جراز: النور الخالد منهج في قراءة السيرة النبوية، مقال منشور في جريدة الدستور الأردنية، بتاريخ ٢٠١١/٥/٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٨٧.

(٣) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ٤٠٧.

لنا بروح إيمانية حركية متميزة، لذلك أرى أنه قد جدد في فهم السيرة وقراءتها، فلم أجد عالمًا استطاع أن يعتمر السيرة النبوية كما اعتصرها الأستاذ، وكتابه "النور الخالد" شاهد حي على هذا.

لذا فهو في حديثه يستثمر الكثير من القضايا ليدحض فيها الشبهة التي يصفون بها الإسلام، ومن ذلك مسألة استعمال القوة، فيقول: "بينما قام الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا بتمزيق حجب الظلام وبإزالة الاستبداد والظلم وتقديم الحرية وإهدائها إلى الإنسانية. عليكم أن تعاونوا المظلوم والمغدور، لا يمكن أن تستريحوا أو يهدأ بالكم وأنتم تسمعون أنين المظلومين. فإن كان لا بد من استعمال القوة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والباطل فعليكم باستعمالها. ولكننا لا نستطيع ذلك في هذه الأيام. ولكن الرسول ﷺ عندما جاء أو أن استعمال القوة استعمالها بعد حساب دقيق ومنطقي. ولكي تتصوروا هذا نقول إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيّفًا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليونًا من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان، كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقبة هناك وبناء بنايات من جماجمهم. كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه "الشيوعية"^(١).

ألف الأستاذ في الروح والقلب ولم يؤلف في العقل والمنطق فقط، لأن المؤلف في السيرة أن تعرض عقلاً ولكنه هو عرضها قلبًا وروحًا. لذلك فالأستاذ لم يتوقف به المسير في محطة التنظير وإنما

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٣٩٨.

واصل رحلته نحو شباب الحداثة الإيمانية والقرآنية، فيخاطبهم ويوجههم فيبكي ويُبكيهم، فيقول: "ستقومون أتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء. كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أتم - بإذن الله - باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به. أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبداً أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم. فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة وتلعب دوراً بارزاً في تأسيس التوازن الدولي - حيث إننا مضطرون أن نكون كذلك - فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللإستقامة وللأمن"^(١).

هذا هو المقصد والمطلوب من دراسة السيرة، فليست سيرة النبي

^(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٣٧.

ﷺ وفقه أحداثها والبصر بمراحل تطورها مجرد عمل من أعمال التاريخ وحسب، شأنها شأن سواها من سير العظماء والنابعين في الميادين المختلفة للعظمة والنبوغ، ولكنها فوق ذلك التطبيق الأمثل لحقائق الإسلام الكبرى والتمثيل الصحيح لمبادئه وقواعده المجردة، بحيث لا يستقيم لأحد من طلاب الحق والمعرفة أن يفهم الإسلام فهمًا راشدًا ويقف على مواطن عظمته دون الوقوف على سيرة نبي الإسلام وتأمل شخصيته، واستكناه نواحي العظمة فيها، للتأكد من أن محمدًا ﷺ لم يكن مجرد عبقرى فذ سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول مؤيد بوحي من عند الله، ونبي كريم شاءت الحكمة الإلهية أن يكون خاتم النبيين، وأن تكون رسالته كلمة الله الأخيرة إلى خلقه^(١).

ويتوقف الأستاذ في كتابه مع شهادات غير المسلمين في شأن وعظمة ومكانة رسولنا الكريم ﷺ وثمرات دعوته بعد أن كانوا يشربون الخمر ويلعبون القمار علنًا، وما بينهم من المشاكل والمنازعات لأسباب تافهة وسادت الفرقة في أرجاء البلاد، فيقول: "أجل، فما من سوء إلا وجدته هناك. ولم يكن من الممكن أبدًا لمثل هذا القوم الاستماع إلى النبي ﷺ، ولكنه استطاع أن يسيل هذه العادات السيئة منهم واحدة بعد واحدة، ثم زينهم بمزايا وأخلاق عالية بحيث سبقوا الأمم كلها وأصبحوا لها أساتذة ومعلمين.

من هذه الأمة البدوية المتوحشة أنشأ مدنية لا تستطيع الأمم

(١) عبدالحليم عويس: فتح الله كولن، إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، ص: ٩٩-

المدنية حتى في عصرنا الحالي بلوغ كعبها، لذا يقول "موليير Moliere" بحقٍ يستحيل أن توجد جماعة أخرى مستعصية على العلاج مثل جماعة نبي الإسلام. والاستحالة الثانية هي القيام بإصلاح مثل هذه الجماعة في وقت قصير جدًا لا يتجاوز ٢٣ عامًا ورفعها إلى مصاف الإنسانية، ولم يتيسر هذا إلا لمحمد ﷺ.

ويقول الباحث "وهل Wihl" وهو من المنصفين: "لقد ترك كل رجل عظيم أثرًا وراءه.. أثر للنبي، وأثر للمصلح وأثر للمجدد وأثر لرجل الدولة العظيم. وقد ترك محمد ﷺ أيضًا أثرًا بعده. وهذا الأثر العظيم إلى درجة أننا إن ذكرنا "الأثر" تبادر للذهن أثره هو وحده، وهو أثر عظيم إلى درجة لا يمكن مقارنته مع الآخرين". وهذا الباحث رجل علم أيضًا وقد حصل على جوائز علمية، إذن، فالصديق يعترف، والعدو يعترف أيضًا، ولا أدري ماذا يقول بعض الجهلاء عندنا^(١).

الأستاذ محمد فتح الله كولن يعلم علم اليقين أن العصر الوحيد الذي ليس فيه أي شائبة هو عصر السعادة "عصر النبوة". كل العصور الأخرى مهما بلغت لا بد أن يكون فيها بعض الشوائب فيؤخذ منها ويرد عليها إلا عصر السعادة، فماذا فعل الأستاذ؟ حمل الخدمة مباشرة إلى عصر السعادة وعرضها عليه، فهو يحاول أن تعيش الخدمة عصر الصحبة والصحابة، لذلك أنا أعتقد أن كثيرًا من المؤلفين عندما يقومون بكتابة السيرة ينتقلون عبر التاريخ إلى الماضي وبيقوننا في الماضي؛ لكن الأستاذ فتح الله يحاول أن يذهب إلى الماضي فيأتي بأنواره إلى الحاضر. فهو يعتقد أن عصر السعادة

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٣١١-٣١٢.

هو عصر حي لم يمت وبأن كل ما وقع هنالك ليس أعياناً وذواتاً وإنما أوصاف وأعماق. فأبي صحابي من الصحابة الكرام ﷺ ليس المراد شخصه بشكله وهيئته، وإنما المقصود بروحه وفكره، فإذا أعدنا نفس المعاني فسيعود إلى زماننا من هو كالصحابي.

وبهذا جعل الأستاذ عصر النبي ﷺ و صحابته الكرام هو المحور، فقارن بين أحداث عصرنا والسيرة النبوية الشريفة: "لقد كان ﷺ يمامة الأنبياء - إن صح التعبير - لا يفتر في البحث عن القلوب النقية المنفتحة على الحقيقة، وعن الوجوه المقبلة على الهداية، وعندما يجدها يتسرب إلى هذه القلوب ويهمس فيها إلهام روجه. وهكذا كلما زادت الحلقات والهالات حوله وتوسعت، جُنّ جنون أصحاب الكفر والضلالة.

وكما جُنّ الكفر في الوقت الحالي أمام الصحوة الإسلامية في شرق العالم وغربه وأصبح يهذي، كان الكفر أيضاً قد جن وهو يرى حلقات الأتباع وهي تزداد حول الرسول ﷺ. وأدى هذا الجنون الذي أصاب الكفر إلى توهم أنهم يستطيعون إطفاء نور الله... ولكن هيهات... فمحاولاتهم تلك كانت أشبه بمن يحاول إطفاء نور الشمس بأفواههم... والشمس هنا تأتي من باب التمثيل وإلا فإن النور الذي أتى به كان يفوق نور الشمس، لأنه كان من نور الله ﷻ. والقرآن الكريم يصور حالتهم المضحكة هذه فيقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

وفي القرن العشرين... في أيامنا الحالية هذه انقدحت الشرارات

في نفوسنا من المشعل الذي أشعله نبينا ﷺ، فسارت مئات الآلاف في طريقه وهم يحملون أرواحهم في أكفهم من أجله ومن أجل إعلاء دعوته. إذن، فالله ﷻ شاء أن تتجدد الآن تلك الهالة المحمدية، وأن تتكرر تلك السلسلة الذهبية، أما حقد الكفر وغيظه وشدته وحدته ومكره وخديعته فلن تستطيع الوقوف أمامها أو إيقاف سيرها... أجل، فإن هذه البذور التي زرعها الإخلاص ستنبت عاجلاً أم آجلاً إن لم يكن اليوم فغداً؛ فالنور الذي نشره رسول الله ﷺ لن ينطفئ أبداً^(١).

الأستاذ فتح الله حينما بدأ الخدمة أراد أن يستفيد من هذا النور الذي نشره رسول الله ﷺ أعظم استفادة، لذلك استوعب السيرة لأجل أن يعرض ذاته على الرسول ﷺ والصحابة ﷺ، لذلك نلاحظه لا يتحدث في النور الخالد عن السيرة وإنما يتحدث عن ذاته في وجهة السيرة مثلاً: "يا رسول الله كيف السبيل إلى مقامك السامق؟ فأنت كنت في لحظة واحدة تغير كل هؤلاء البشر، أما أنا فلم استطع أن أغير إنساناً واحداً طول حياتي"، فيعرض نفسه على السيرة ويعرض أصحابه -شباب الخدمة- على السيرة وعلى الصحابة ﷺ.

لا يشك الأستاذ بأن المستقبل للإسلام. فهو ينشر الأمل بكثرة بين ثنايا كتابه "النور الخالد"، مثلاً نقرأ فيه: "وحسبنا نقرأ في الصحف، فإن آفاقاً من الأوروبيين يسلمون، والدنيا بأجمعها مقبلة على الإسلام. أجل، إن أوروبا حامل بالإسلام وستلد يوماً ما، وأما العالم الإسلامي فهو في آلام المخاض وسيلد قريباً. ثم انظر إلى شرق العالم حيث كان الفكر المنافق والملحد متحكماً وسائداً؛ فعلى الرغم من مرور

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٥٩-٦٠.

أكثر من نصف قرن على سياسة التذويب ومسح الشخصية فإن البلدان الإسلامية مثل تركستان وكازاخستان وأذربيجان وأوزبكستان وداغستان وقرغيزستان لم تفقد شيئاً يذكر من روحها ومن فكرها، وهي مقبلة بتلهف على عالمها الروحي والفكري الخاص بها. وفي القريب سيرتفع الأذان المحمدي في كافة أطراف الأرض وسيقبل الناس أفواجاً على الإسلام، فلن يدع ممثلو دعوة النبي ﷺ أي بقعة من بقاع الدنيا دون إيصال صوت الدعوة إليها، وهم إذ يفعلون هذا يتخذون المحبة لهم أسلوباً والحنان صفة^(١).

يرى الأستاذ أن مدرسة النبوة آثارها باقية بعد النبوة من خلال أتباع مدرسة النبوة وأثرهم في نشر الإيمان بأفعالهم وحركتهم فنقرأ في كتابه: "ومن ثم فإن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين نتنسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبداً إلا بدعوته وبأنفاسه ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه"^(٢).

من أراد أن يسير على دربه لا بد أن يعرفه حق المعرفة لئلا يخطئ بحقه، أو يضل الطريق الصحيح في التبليغ والدعوة، فيقول أحمد العبادي عن "النور الخالد": "إن الأستاذ كتبه لنفسه قبل أن يكتبه لغيره؛ ولذا كانت محتوياته أبحاثاً فيها كدح ومكابدة من قبل الأستاذ؛ لكي يتعرف أكثر على محبوبه، فلا يخطئ في حقه، ويستطيع أن يوفيه بعد ذلك مستحقه...؛" أما الأستاذ جمال ترك، فيردد دائماً مقولته الموحية: "من أراد أن يعرف الأستاذ، فليقرأ النور

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٦٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٦٩.

الخالد؛ ذلك أنه مرآة لحقيقة الأستاذ وكشف لمكوناته^(١).
ويقارن الأستاذ بين أثر الدعوة المحمدية - التي انتشرت انتشاراً كبيراً وبفترة وجيزة - وبين عجز الحكومات والدول في مكافحة ظاهرة من ظواهر العصر، فيقول: "فقد استطاع الرسول ﷺ أن يربي أمثال هؤلاء الرجال من بين أولئك البدو المتخلفين الملتزمين بعباداتهم وعنجهياتهم بتعصب لا مثيل له. والآن لنشرح هذا الموضوع بمثال صغير شرحاً مختصراً: تحاول الدولة بكل وسائلها ووسائطها وإمكانياتها مكافحة عادة التدخين - التي تعد عادة بسيطة - فلا تستطيع ذلك، بل لا تستطيع مجرد خفض نسبة التدخين - المستمر في التصاعد - إلى نسبة غير معقولة. ولا تعجز دولتنا فقط في هذا الموضوع، بل تعجز كل دول العالم، هذا بالرغم من كل المحاضرات والمقالات وكل الندوات التي تعقدها لمكافحة هذه العادة. ومع أن العلم وعالم الطب يصرحان بأن التدخين يؤدي إلى الإصابة بسرطان الحنجرة والرئة وسقف الفم، ومع أن الإحصاءات تقول إن نسبة الإصابة بهذه الأمراض نسبة كبيرة قد تبلغ ٩٥٪ إلا أن أهل ذلك العهد كانت لهم عشرات العادات الضارة التي تشربتها نفوسهم واختلطت مع دمائهم فأصبحت أقوى بكثير من عادة التدخين، ولكن رسول الله ﷺ استطاع بنفخة واحدة أن يزيل هذه العادات الضارة. وأن يزينهم بدلاً منها بعبادات جميلة وبخلق حسن وبخصال حميدة إلى درجة كانت ملائكة السماء تغطهم عليها وتتعجب فتقول: "عجباً! هؤلاء ليسوا ملائكة.. ولكنهم أفضل منها". وفي يوم الحشر عندما تكاد أنوار هؤلاء تطفئ نار جهنم ستهل

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٤٢.

الملائكة وتقول: من هؤلاء؟ أهم من الأنبياء أم من الملائكة..؟ إنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة ولكنهم أفراد من أمة محمد ﷺ نشأوا على تربيته وتربوا على مبادئه^(١).

وهذا شيء يسير من منهج الأستاذ في دراسة السيرة النبوية في كتابه "النور الخالد". واستحضرت في هذا المقام عنوان الكتاب ويلوح لي مثل حال النبي ﷺ مع البشرية، فهو النور الخالد، ومن نوره اقتبس الصحابة أقصى ما يمكن أن يُقتبس من النور في الجهد البشري، وقام من بعدهم من التابعين باقتباس النور منهم، وهكذا مضى الناس جيلاً بعد جيل يقتبس اللاحق من الجيل السابق أنواراً تتفاوت قوتها على قدر طاقة المقتبسين، وما من الله تعالى عليهم من نور. وفي كل عصر لا بد من ذوي أنوار ساطعة يكونون هم القادة في ذلك العصر. ويكون نورهم الأسطع فيه، ويقتبس الناس من أنوارهم ليتمد النور إلى يوم القيامة^(٢).

سابعاً: كيف تعامل الأستاذ مع الصحافة والإعلام؟

استطاع الإعلام أن يشوه الحالة الإيجابية للمسلم.. فصوروا صاحب اللحية شريفاً، وصوروا الخادمة في الأفلام السينمائية التي سجلوها بأسماء "فاطمة، عائشة، خديجة" التي لها رمزيتها المحترمة في الثقافة الإسلامية. كيف كان السبيل إلى تحسين تلك الصورة؟! التلفزيون كان له في ذلك جهد كبير جداً. قال الإمام النورسي: "لا

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٣١٣.

(٢) مأمون فريز جزار: النور الخالد منهج في قراءة السيرة النبوية، مقال منشور في جريدة

تعطي العشب للأسد، ولا تعطي اللحم للخيول".
ارتبط اسم الإعلام عبر العالم، مشرقاً ومغرباً، بالقدارة، والفساد، والعداء للقيم، ونشر الرذائل، والاستثمار في الفضائح والأعراض، والجري وراء سبق الصحفي المربح، حتى ولو كان كاذباً؛ وقلما تتم مراقبة ما يأتي في الإعلام من معلومات وأحكام. فهي مثل نهر جارف، يهلك الحرث والنسل، ولا يحاسبه أحد... من أجل ذلك تتخذ الجهات النافذة، والأطراف المتحكمة، والأنامل المحركة "لماريونات الشعوب". تتخذ وسيلة لتحقيق مآربها، مستثمرة بذلك في سفاهة الناس، على شاكلة فرعون الذي؛ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَآءُغُوهُ﴾ (الزخرف: ٥٤)، غافلين -حتى وإن كانوا من المسلمين أحياناً- عن تحذيره تعالى من الشياطين وغواياتهم، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لِآيُوفُونَ﴾ (الروم: ٦٠)، والاستخفاف كما في أدبيات التفسير وأصول اللغة العربية هو: "الاستفزاز، وحمل العقول على الخفة"، لكن لا يكون الاستخفاف إلا إذا كانت لدى المستخف بهم "قابلية للاستخفاف"^(١).

يمتلك أبناء الخدمة مؤسسات وأقسامًا للترجمة والتأليف والنشر والتوزيع للكتب باثنين وأربعين لغة حية، وما زال يحثهم كولن على المزيد، حيث قال لهم: "لا تكبحوا الفرامل، فهناك لغات عالمية كثيرة بحاجة إليكم"؛ ولهذا هم يطمحون إلى الوصول إلى مائة لغة. وقد ترجمت وصدرت بالفعل مئات الكتب بعشرات اللغات الحية، ومنها أكثر من خمسين كتابًا بالإسبانية. أما كتب "فتح الله كولن" و"بديع

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١٩٤-١٩٥.

الزمان النورسي" وبعض الكتب التراثية فقد ترجمت إلى عشرات اللغات. وقد حرص أبناء الخدمة على توسيع مساحات الوعي في أوساط المسلمين في الغرب، وعلى سبيل المثال عندما جاؤوا إلى بريطانيا وجدوا الجاليات المسلمة تتسابق فقط على بناء المساجد حتى زاد عددها عن ألف وخمسمائة مسجد، مما يعني أنه صار لكل ألف وخمسمائة مسلم مسجد، غير أن أبناء الخدمة لفتوا أنظار المسلمين إلى أهمية المدارس، وبدؤوا بنائها وتشغيلها، وأسهموا بفاعلية في توفير المفاهيم الإسلامية الصحيحة التي تخلصهم من الغنائية، وتجعلهم فاعلين كما أراد لهم الإسلام، لا التقاليد المغلوطة والتدين المغشوش^(١). ويمتلك تيار الخدمة أكثر من ثلاثين دار نشر، تُصدر سنوياً ما متوسطه مائة كتاب جديد، غير الكتب التراثية، وغير الكتب التي تعاد طباعتها. وتوجد أقسام للترجمة من وإلى اثنين وأربعين لغة، تشمل أهم لغات العلم الكبرى وفي مقدمتها أهم لغات العالم الإسلامي، ومنها بالطبع اللغة العربية، حيث ترجمت الكثير من كتب أعلام الفكر الإسلامي العرب إلى التركية، وترجمت بعض الكتب التركية إلى اللغة العربية، ومنها بعض كتب فتح الله كولن نفسه... ويمتلك التيار أكثر من عشر مجلات ثقافية وعدداً من الصحف حيث صارت إحداها الأكثر انتشاراً ومبيعاً في تركيا (وهي جريدة الزمان)، ويمتلك مطابع ضخمة لطباعة أرقى الكتب بعدد من اللغات.

وفي المجال الإعلامي امتلك تيار الخدمة حتى الآن تسع قنوات فضائية متنوعة في المرأة والطفل والقضايا الثقافية والفكرية

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٤٩.

والاجتماعية، وامتلك عشرات البرامج الإذاعية ووكالة أنباء تعتبر من أكبر الوكالات في تركيا، والآن ضاعف عدد المحطات الفضائية حتى وصلت إلى عشرين محطة تقريبًا. وامتلك أيضًا عشرات المجلات والمواقع الإلكترونية بعدد كبير من أهم لغات العالم، وقبل ذلك وبعده أقام التيار عشرات المؤتمرات الدولية ومئات الندوات والورش الثقافية والفكرية في تركيا وخارجها^(١).

ومن هنا نرى حرص الأستاذ على أن لا يكون نجمًا تلفزيونيًا أو إعلاميًا بشخصه وأن لا يكون حديث الإعلام والصحافة لاسمه، وإنما ليكون فكره هو مدار حديث الإعلام.

جريدة زمان ووكالة جيهان

"زمان" و"جيهان"، مؤسستان إعلاميتان خارج المؤلف، ذلك أنهما تضربان بجذورهما في أرض القيم والأخلاق والمسؤولية الشرعية، قبل المسؤولية القانونية، والذي كان له الفضل في التأسيس هو المفكر الكبير، صاحب المشروع الحضاري المتميز "الأستاذ محمد فتح الله كولن".

ما إن سألنا مدير الوكالة عن الفرق بين هذه وغيرها من المؤسسات الإعلامية العالمية، حتى أجاب، وبوضوح: "عادة ما لا تجتمع القيم مع الاحترافية، فإذا ما كانت المؤسسة محترفة جدًا فقدت القيم، وإذا ما كانت ذات بعد قيمي، كانت ضعيفة وهزيلة في مستواها الاحترافي، أما ما نحن عليه فهو الجمع بين الاثنين،

(١) فؤاد البنا: المرجع السابق، ص: ١٠٣-١٠٤.

والإسلام أساساً جاء ليحقق الجمع بينهما^(١).
 جريدة "زمان"، جريدة يومية، تصدر بدايةً باللغة التركية، وهي الآن
 تصدر ورقياً بالإنجليزية، ورقمياً بالعديد من اللغات، منها الألمانية
 والفرنسية...؛ هي الأولى في تركيا، وتطبع يومياً حوالي مليون نسخة،
 تباع في العديد من النقاط عبر العالم، ولقد شاركت في مسابقات
 عالمية للتصميم والعمل الصحفي وفازت بأعلى الجوائز... لها
 مطابعتها الخاصة بها، وتُصدر مجلةً أسبوعية تابعة لها، هي مجلة
 "أكسيون"... البنية غاية في الإبداع والجمالية، زجاجية مفتوحة،
 ذات سبعة طوابق، لها بهو كبير يشرف على كل الطوابق، وكل شيء
 يسير باللمسات الإلكترونية، ويعمل فيها مئات الموظفين، من كلا
 الجنسين، من مختلف بلاد العالم، وبمختلف اللغات، والتخصصات،
 والاهتمامات... وقد زار الكاتب هذه المؤسسة الكبيرة عدة مرات.
 ولقد علمنا من بعض المقربين، أن الأستاذ يطالع كل الأعداد،
 بعناية فائقة، ويعلق، ويصوب، وينصح... بلا ملل ولا كلل، فهو بمثابة
 الميزان القسط، والمرشد العدل... الذي يتخذ من الآية القرآنية، ومن
 سيرة المصطفى، ومن القيم السامية، مرجعاً، وموثلاً، وحكمًا.
 علمًا أن الجريدة بدأت صغيرة بعشرة آلاف نسخة، ونمت طبيعيًا،
 لكن بفضل الإيمان والصدق والتفاني، وبفضل الرؤية الواضحة
 للأستاذ، والخط المتسامح والمتفائل الذي دعا إليه الأستاذ تجد أن
 القراء ليسوا جميعًا من توجه واحد، بل كل الأطياف في تركيا تتخذ
 الجريدة مصدرها الموثوق، بل والكثير من الجهات الرسمية تعتمد

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١٩٥.

عليها، وتستند إليها، واثقة من صدقها.
والجريدة تتأى عن كل ظنّة في أحد، أو خدش للعرض، أو حتى قبول أو رفض بناءً على الانتماء... فإن أصابت جهة ما، مهما كانت، ساندت الجريدة هذا الصواب، ودافعت عنه، وباركته؛ وإن أخطأت جهة ما، مهما كان مصدرها، نقدت الجريدة هذا الخطأ، ولا تبالي... فليس للجريدة مصلحة، إلا القيم والصدق والسلام، بل وروح الإسلام.

قد يبدو فيما أقوله -لدى البعض- نوع من المبالغة، لكن ليس ما ذكرته رأيي أنا لوحدي، وإنما هو رأي الآلاف من الزوار للجريدة، ومن القراء، بل إن النصوص متوفرة في "النت"، والجريدة تطبع يوميًا، ولمن أراد أن يستقل برأيه وحكمه فليفعل ذلك دون حائل؛ إذ ليس الإعلام مما يخفى على أحد.

أما وكالة "جيهان"، فهي وكالة أبناء، ذات صيت عالمي، تزود "زمان" وغيرها بالجديد، وتصنع الأخبار بما تملك من قدرات فائقة في كامل أرجاء تركيا، وفي كثير من النقاط عبر العالم، والجميل فيها أن فيها قسمًا عربيًا، ولها اهتمام بقضايا المسلمين، وبخاصة فلسطين وغزة، فكل مظلمة يتعرض لها إنسان تدفع الوكالة للوقوف بجوار المظلوم... ولقد قادت المؤسسة حملة إغاثة لغزة، أو ان حصارها، وساهمتا في جمع إعانات، وفي تنوير الرأي العام؛ حتى لا يضلل، ولا يستخف... فنجحتا في ذلك أيما نجاح.

كل القنوات، والجرائد، والإذاعات، والجهات الرسمية، تستقي معلوماتها من "جيهان"، ولذا يزداد عليها الثقل، ويلزمها بالاحترافية،

والصرامة، والوضوح. هكذا نجحت "زمان" و"جيهان" في صنع إعلام نظيف... أساسه قيم الإسلام، وشكله روح العصر، وهما بحق مفخرة للعالم كله، وللإسلام والمسلمين بالخصوص... والفرق شاسع بين من ينظر للإعلام الإسلامي، بلا دليل ولا ثمرة ولا نموذج، ومن انطلق من الأسس، وصنع المعجزات، بعيداً عن كثرة التنظير، والتعقيد، والتعليق^(١).

مجلة حراء

مجلة حراء هي في عُرف الورّاقين والناشرين والقراء العاديين، لا تعدو أن تكون ورقاً وحبراً، وصورة ولوناً، ومقالات وشعراً.. مثلها كمثل الملايين من المجلات التي تصدر في العالم، بجميع لغات البشر. غير أن "حراء" عند العارفين المنصفين الموقنين، هي لحظة فارقة في نهضة الأمة الإسلامية، ذلك أنها تزدان باللسان العربي المتين، وتزدهي بالفكر الإسلامي المتين.

إن حراء المجلة لهي قبس من نور "حراء الغار" بل هي فيض من فيوضات الوحي الحكيم المنزل على النبي الكريم ﷺ. فحراء شجرة طوبى من أشجار جنة العلم والعمل، والفكر والفعل... وحرّاء أنشودة رمزية، سبك أنغامها الأستاذ فتح الله، الرجل الخريّت الرائد^(٢).

تيار الخدمة هو أول تيار تركي في هذا العصر قام بإصدار مجلة تركية ناطقة باللغة العربية الفصحى وهي مجلة "حراء". هذه المجلة التي استكتبت كبار المفكرين العرب ولعبت دوراً سيذكره التاريخ

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١٩٦-١٩٨.

(٢) محمد باباعمي: ذي قربتي، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م، ص: ١٢٦.

في صحافته الذهبية، وذلك في التقريب بين العرب وتركيا. فقد أقامت عددًا من المؤتمرات والندوات الدولية باللغة العربية في تركيا ومصر والمغرب والأردن واليمن والسودان والجزائر وأماكن أخرى. ونظمت زيارات لمئات المفكرين والأكاديميين ورجال الأعمال العرب إلى تركيا، والعكس صحيح. (وشارك الباحث في بعض هذه المؤتمرات مثل الأردن، إسطنبول، الجزائر).

والحقيقة أنني عندما أدركت حقيقة الدور الذي تقوم به مجلة "حراء" الصادرة في إسطنبول قلت في إحدى الندوات: إن إسطنبول لا تمتلك فقط جسرًا المعلق الذي يربط الشطر الآسيوي بالشطر الأوروبي، بل تمتلك أعجوبة أكبر وهي مجلة "حراء" التي ربطت بين إسطنبول -ومن خلفها تركيا- وبين الوطن العربي.

ولم تنجح في تحولها إلى جسر ممتد بين العرب والأتراك إلا بتميزها وفعاليتها، حيث استمالت كبار المفكرين العرب لأنها صارت جسرًا بين العقل والقلب، بين الفكر والأدب، وجمعت بين الإقناع والامتناع، وهي بالجملة إحدى أرقى المجالات الإسلامية مبنى ومعنى، إن لم تثبت الأيام أنها أرقاها على الإطلاق^(١).

ثامناً: منهجه في تناول التصوّف

يعرف الأستاذ التصوف بأنه الانسلاخ من الصفات البشرية -في معيار- والتدثر بالأوصاف الملكية والأخلاق الإلهية، والعيش في مدار الله ومحبهه تعالى والتذوق الروحاني. إن أساس التصوف هو الرعاية لأداب الشريعة ظاهراً، والوقوف على تلك الآداب باطناً،

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٠٥-١٠٦.

فالسالك الذي يُحسن استعمال هذين الجناحين يرى من الباطن ما في الظاهر من الأحكام، ويشعر ويعيش في الظاهر بالأحكام التي في الباطن. وبفضل هذه المشاهدة والشعور يسير دوماً بأدب نحو الهدف، ويجول قريباً منه ويحوم حوله^(١).

التصوف هو طريق الوجدان الإنساني في فهم حقائق الإسلام والإحساس بها. لذا فمن كانت حياته بعيدة عن الحياة العاطفية الإسلامية، فإنه لن يستطيع إدراك حقيقة التصوف. ولا نعني هنا القيام بتسرية النفس بمناقب الآخرين. فالتصوف في نهاية المطاف هو عنوان إدراك الإنسان لعجزه وفقره وضآلته والذوبان أمام نور "الحق" وأمام تجليات صفاته التي تشكل أساس الوجود كله والفناء تجاهها.

التصوف هو عملية تصفية روح الإنسان وتطهيره وتوحده مع ذاته وتجاوز الزمان والمكان والوصول إلى أبعاد مجهولة. وهو الطريق الوحيد أمام كل فرد لكي يمر من الباب الذي فتحه المعراج النبوي ويصل إلى ربه... أي هو نوع من المعراج يتناسب مع قابلية الفرد واستعداده.

الفلسفة والحكمة توسعان ذهن الإنسان وأفقه، وتساعدان على فهم الأشياء والحوادث. أما التصوف فإنه يؤمن تقارب الإنسان مع ربه وخالقه في بُعد وأفق يستحيل إدراكه، ويجعله من محبيه والقريبين منه والمستأنسين به.

التصوف روح الإسلام ولا يمكن تصور الإسلام دونه. والطرق الصوفية هي التي تنظم هذا الأمر. التصوف - كما يظهر ذلك في

(١) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية، ص: ١٤.

أهل الطرق- عبارة عن تنور قلب الإنسان بفيض الكمال الإلهي اللامتناهي عن طريق الذكر والفكر.

والتصوف هو درب البحث عن طريق القلب وعن طريق عين القلب عن الحقيقة الإلهية التي تعجز الفلسفة عن مداها نحوها. وبينما يرجع العقل عن هذا الدرب بِخُفْي حُنينٍ، نرى القلب يطير فوقه بجناحيه في محاولة لفهم وإدراك ذلك "الموجود المعلوم" ثم يعبر عن مدى المعرفة التي حصل عليها بترديده "ما عرفناك حق معرفتك يا معروف"^(١).

إن التصوف هو الحفاظ الدائم على طهارة القلب حيال دوافع الشيطان والنفس... وردع النفس عن ميولها الخاصة وتضييق مجالها بقدر المستطاع... ومواصلة السير في طرق الارتقاء نحو "الإنسانية" الحقيقية بالكد الدائم للبقاء في مستوى "الحياة القلبية والروحية"... وتكريس الحياة على تحقيق السعادة المادية والمعنوية للآخرين، ومع منتهى الجدية في المناسبات مع الحق تعالى... واتباع نهج النبوة في عدم انتظار الأجر حتى في أصدق الجهود وأخلصها وفي أعظم الأعمال وأشدها... والعزم على المسير أبداً في ظلال المشكاة المحمدية ﷺ في مساعي العبودية للحق تعالى^(٢).

فالقلب مصدر للخزائن، بحيث أن الله تعالى الذي لم تسعه السموات والأرض يتجلى في هذا القلب. لا الكتب ولا العقول ولا الأفكار ولا الفلسفات ولا البلاغة والفصاحة ولا السموات والأرض

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٢٢-١٢٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نبني حضارتنا، دار النيل، القاهرة، ط ١، ٢٠١١م، ص: ٩٢.

ولا الكائنات بأجمعها تستطيع الإحاطة بالله ﷻ، بل تعجز عن التعبير عنه، القلب فقط يستطيع أن يكون - ولو بمقياس صغير - ترجماناً له. أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بياناً مثل بيانه، وبلاغة مثل بلاغته. إذن، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، وأن يبحث فيه عما يبحث، فيصل إلى ربه هناك، ويفنى في حبه، علماً بأن الله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ إلينا من أجل هذا.

أجل، فقد أرسل إلى الإنسانية لكي يتلو عليها آيات ربها، ويعرض أمام عينها معجزاته، ولكي يعلم الإنسانية ماهيتها الحقيقية. وبفضله تستطيع البشرية أن تتطهر من أرجاس الطبيعة، فتصبح نقية صافية، وتسمو من المرتبة الدنيا للجسم إلى المرتبة العليا لحياة القلب والروح^(١). الإنسان قيمته بصفاء قلبه وطهارته لأن القلب الطاهر هو بيت الحق سبحانه وتعالى؛ وفي حياة القلب يكون الإنسان "إنساناً" وفق المعنى الذي يجعله إنساناً حقاً، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه واستماعه إلى روجه، رغماً عن بدنه وجسمانيته وعقل معاشه الديني. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، ويقيمهم بموازين القلب المتأهلة للاعتبار والتقدير، لكي يتعرف جيداً على نفسه وما حوله. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحفظ طراوة قلبه وصفوة روجه في كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنقاء وطهر الأطفال برفقة ثرائه الذهني والفكري الحسي في كل وقت، لن يوحى بالثقة إلى من حوله ولن يحوز على التصديق والإقناع قطعاً،

(١) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٢٦-٢٧.

مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخبرة^(١).
ويتحدث الأستاذ عن أثر التصوف في حياة الإنسان، فهو إشهارُ عبودية صافية خالصة لا غرض فيها ولا عوض، بالتقيد الشديد في المناسبات مع الله تعالى بإدراك نوعية المناسبة بين الخالق والمخلوق، والعايد والمعبود، والطالب والمطلوب، والقاصد والمقصود... والقيام بمنتهى التحمل والصبر الدؤوب حيال المعاصي... وأداء العبادات والطاعات في لذة ونشوة كأنها الغاية والهدف من الحياة... واستقبالُ البلايا والمصائب بالإبتسام مع انشراح الصدر لقهره ولطفه تعالى في نفس المستوى... وربط كل أنواع السعي والهمة باستحسان الحق تعالى وليس بتقويمات البشر... والصبر على تباطؤ الزمن صبر الدجاجة الحزون^(٢).

العناية والاهتمام بالحياة القلبية تصنع رجل القلب الذي يكون ملجأً للحيارى التائهين، يقدم مصالح الآخرين على مصالحه وذاته، يطرح الأنانية ويأخذ بأيدي المتعبين لإحيائهم، فهو أهل الحقيقة وإنسان القلب الذي يرى ويفكر ويتصرف بكليات قلبه كافة، وقيامه وقعوده رحمة، وقوله وكلامه وئام، وأحواله كلها رقة ولطافة^(٣).
لقد نظر الأستاذ إلى التصوف من منظار العقل إلى جانب القلب ومنظار الفكر إلى جانب الروح ووقف على أصل التصوف وأساسه وموضوعه وفائدته وأركانها، وأصله على الشكل الآتي:

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٨٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نبي حضارتنا، ص: ٩٢.

(٣) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٨٧.

أصل التصوف: هو الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامره ونواهيه بدقة. ومجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع بملازمة الجوع واليقظة. **موضوع التصوف:** رفع الإنسان إلى مستوى الحياة القلبية والروحية، وتصفية القلب، وتوجيه اللطائف إلى مرجعها الأصلي.

وفائدة التصوف: تحفيز الإنسان لتنمية جوانبه المملكية.. واستشعار الإيمان الإجمالي والبدائي كزرة أخرى كشفًا وذوقًا والعيش به.

أساس التصوف: تعميق شعور العبودية السطحي وترسيخه بالمواظبة على العبادة والطاعة وجعله جانبًا مهمًا لطبيعة الإنسان، وبلوغ الروحانية -التي تُعد فطرة ثانية للإنسان- والانتباه إلى وجهي الدنيا المتوجهين إلى العقبي وإلى الأسماء الإلهية الحسنی، مع الانغلاق التام تجاه وجه الدنيا الفاني المتوجه ذاتها، وإلى أهوائنا. أما أركان التصوف فيمكن درجها بالآتي:

١. بلوغ التوحيد الحقيقي بطرق نظرية وعملية.
٢. قراءة أوامر حضرة القدرة والإرادة الإلهيتين ومعاينتهما بجانب الاستماع إلى حضرة الكلام الإلهي وفهمه.
٣. الامتلاء بمحبة الحق سبحانه، والنظر لأجله إلى الموجودات أنها "مهد الأخوة" والقيام بحسن المعاشرة مع الناس قاطبة، بل مع كل شيء.
٤. العمل بروح الإيثار في كل وقت وحين، بتفضيل الآخرين قدر المستطاع على نفسه.
٥. تقديم المراد الإلهي على مراده هو، والسعي لإمضاء العمر صُعدًا إلى ذرى "الفناء في الله" و"البقاء بالله".
٦. الانفتاح على العشق والوجد والجذب والإنجذاب.

٧. استشفاف ما في الصدور من سيماء الوجوه. وقراءة الأسرار الإلهية على وجه الأحداث.

٨. تنظيم رحلات إلى مواضع تذكّر بالأخرويات، بنية السفر للكسب المعنوي وقصد الهجرة.

٩. الاكتفاء بالأذواق واللذائذ ضمن الدائرة المشروعة، والعزم على عدم الإقدام خطوة إلى الدائرة غير المشروعة.

١٠. المجاهدة المتواصلة والمناضلة الدائمة مع طول الأمل الذي ينشئه توهم الأبدية.

١١. عدم النسيان -ولو للحظة واحدة- أن لا نجاة إلا بطريق اليقين والإخلاص والرضا الإلهي، ولو كان العمل باسم خدمة الدين وفي سبيل إبلاغ الإنسانية قاطبة إلى الحق سبحانه^(١).

تاسعًا: موقف الأستاذ من بعض القضايا المعاصرة

١. القضية الفلسطينية

الأستاذ كولن -وفق منهجه الدعوي- يركز على الروح وتربية النفس ويتعد عن القضايا السياسية، ففي إحدى جلسات مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي وجه سؤال إلى رئيس الجلسة "ليونيد سكيانان"^(٢) عن موقف حركة الأستاذ فتح الله كولن من القضية الفلسطينية وغيرها من البلدان المحتلة؟ فذكر أنه قد التقى مع الأستاذ كولن وسأله السؤال التالي: ما مكانة أفكاركم يا شيخ بين أفكار قادة الإصلاح الإسلامي في بداية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مثل "الشيخ محمد عبده"

(١) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، ص: ١٥-١٦.

(٢) أستاذ في التعليم (روسيا).

و"جمال الدين الأفغاني"، وغيرهما؛ فكان جواب الأستاذ: "الفارق الأساسي لا يعود إلى شخصي بالمقارنة مع شخص الشيخ "محمد عبده"، ولكن يعود إلى مواصفات العصر، إذا كان قادة الإصلاح الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر عند بداية الحركة التحريرية في نيل الاستقلال الوطني وكانوا يركزون على العمل السياسي... فالعنصر السياسي كان مفتاحًا لكافة الإصلاحات. أما أنا فأركز على الروح والتربية، فقبل القيام بإصلاحات سياسية يجب أن نربي أنفسنا". ربما يكون هذا ليس إجابة على السؤال الخاص بالقضية الفلسطينية ولكنه إجابة على الكثير من الأسئلة. ويقول الأستاذ: "أنا أهرب من النشاط السياسي عمدًا هذا هو خيارى، أنا أركز على الروح والتعليم والثقافة والحوار ولا أدعي أن أكون رجلاً للسياسة". هذا هو تقريبًا المنطلق الأساسي لتوضيح موقف حركة "فتح الله كولن" من القضايا الحيوية الصعبة جدًا مثل القضية الفلسطينية أو غيرها من القضايا التي لا تحل بالأساليب البسيطة... لا تحل بالمفتاح الواحد في يد أي واحد^(١). ويتألم الأستاذ لما آل إليه المسجد الأقصى، فيصفه كضحية مظلومة قُطعت أوصالها إربًا إربًا. يبدو كإنسان حزين قد حصر بين جحود الأصدقاء وبين غدر الأعداء وظلمهم. كأنه عندما مُزق أشلاء، ورُميت أشلاؤه يمينًا ويسارًا صرخ بأعلى صوته، ولكن لم يسمعه ولم يهَبَّ لنجدته أحد... إن خروج المسجد الأقصى من

(١) سكيانان ليونيد: مناقشات نهاية الجلسة الأولى "التعليم" ضمن المحور الثالث "مجالات العمل وخبرات الممارسة من المحلية إلى العالمية"، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٣٨٤-٣٨٥.

أيدينا يؤلمني. ورؤيته أسيراً بيد آخرين يذيب القلب من الكمد. وفي الحقيقة فإنني عندما أراه كلؤلؤة تحطمت محفظتها وعلبتها أحس بمشاعر المرارة والألم تتصاعد من روحي وتهزه من أساسه وتقلبه رأساً على عقب^(١).

ولعل الأستاذ يرى أن شمولية الرسالة التي تبنى حملها والدعوة إليها أوسع من أن يحصرها بقضية جزئية كالقضية الفلسطينية، فهذه القضية على أهميتها وحساسيتها هي جزء من القضية الإسلامية الكبرى وليس العكس، وإذا تم الأمر للقضية الشمولية حسب ما يتمنى لها المصلحون المسلمون وفي مقدمتهم الأستاذ، سيتم الأمر على الفور للقضية الجزئية بطبيعة الحال.

٢. قضية الإرهاب

الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في الأرض لا يمكن أن يكونوا حكماً في الأرض؛ بل ذوو الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو من لهم نصيب وافر منها هم الذين يكونون حكماً في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد إلى المسجد أو ما شابه ذلك فحسب، بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة. وبهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات. وفيها أيضاً المحافظة على التوازن التام بين أغوار الأنفس والتفكر في أغوار الآفاق... وبمعنى أوسع، فالمصلحون في الأرض هم المرشّحون دائماً لإدراك الخلود.

ولا يمكن أن يحقق هذا المعنى الواسع للحاكمية، الذين يثيرون

(١) محمد فتح الله كولن: ترانيم روح وأشجان قلب، ص: ٤٢.

الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم ويرتكبون الجرائم تلو الجرائم ويستغلون الناس - ولاسيما الشباب - بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويعتدون بعقولهم تاركين الشورى فيما بينهم... هؤلاء لا يمكنهم قطعاً أن يؤسسوا هذه الحاكمة - بمعناها الحقيقي - وسيبقون من غفلتهم يوماً من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يندمون، حيث يدركون تخطئهم في ظلمات دامسة، فيعرفون بخطئهم^(١).

ويقول الأستاذ: "إن الأحداث الإرهابية التي تقع في مناطق مختلفة من العالم تعتبر من أسوأ الضربات على كرامة الإنسان. لقد أولى الإسلام أهمية بالغة لحق الحياة الإنسانية، واعتبر قتل نفس بريئة كقتل البشرية كافة وساوى ذلك مع الكفر. أود أن أكرر مرة أخرى أنه لا يمكن التوصل إلى أي حل عن طريق الإرهاب. فالمسلم الحقيقي لا يمكن أن يكون إرهابياً، كما أن الإرهابي لا يمكن أن يكون مسلماً"^(٢).

وعن الإفتاء بقتل الإنسان يقول: "قتل إنسان بريء في الإسلام يساوي الكفر.. لا أحد يجزؤ على الإفتاء بقتل إنسان ومس الأبرياء.. وحتى في الحرب أمر الرسول ﷺ بعدم قتل الأبرياء والأطفال والشيوخ والنساء، وسار على نهجه أبو بكر وعمر وصالح الدين وآلب أرسلان ومحمد الفاتح"^(٣). ولذلك لا يملك الإرهاب

(١) محمد فتح الله كولن: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، ص: ٨٣-٨٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: "جريمة ضد الكرامة الإنسانية"، بيان بتاريخ ٢٤ يوليو ٢٠٠٥، نشر

على موقع الأستاذ: www.ar.fgulen.com.

(٣) جريدة الزمان التركية ٢٢ مارس ٢٠٠٤ نقلاً عن حازم ناظم فاضل: قضية الإرهاب في فكر

والفوضى أي جانب شرعي، ولا بد أن تُجتث جذورهما^(١).
لقد آمن الأستاذ بأن العالم أصبح بمثابة قرية بعد تقدم وسائل الاتصالات. لذا فإن أي حركة قائمة على الخصومة والعداء لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، فينبغي الانفتاح على العالم بأسره، وإبلاغ الإسلام بأنه ليس قائمًا على الإرهاب - كما يصوره أعداؤه - بل هناك مجالات واسعة للتعاون بين الإسلام وبين الآخرين^(٢).

لا يمكن أن يندفع الإرهاب إلا بجهاد المؤمنين الصادقين، نعم إن الشوارع والأزقة تنتور بجهد المؤمن، ولا يندفع الفوضى والإرهاب الذي أغرق الدنيا في بحر من الدماء إلا بجهد المؤمن. والسلام الدائم للإنسانية قاطبة وسعادتها إنما تستقر على الأرض بجهد المؤمن^(٣).

وفي مقابلة مع الجريدة اليومية (زمان) صرح الأستاذ كولن (نورية أكمان) بتاريخ ٢٠٠٥/٧/٣م، فقال: "يعتبر قتل الإنسان في الإسلام مساويًا للكفر.. لا يسمح لأي شخص بقتل شخص بريء.. حتى في وقت الحرب، لا أحد يمكنه إعطاء تصريح إسلامي بهذا.. لا يمكن لأي شخص أن يكون مفجرًا انتحاريًا... لا يمكن لأي شخص أن يندفع خلال الحشود بحزام ناسف على جسده أو جسدها بغض

الأستاذ محمد فتح الله كولن، مقال منشور على موقع الأستاذ فتح الله كولن باللغة العربية:

www.ar.fgulen.com

^(١) محمد فتح الله كولن: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، ص: ٩٦.

^(٢) حازم ناظم فاضل: قضية الإرهاب في فكر الأستاذ محمد فتح الله كولن، مقال منشور على

موقع الأستاذ فتح الله كولن: www.ar.fgulen.com.

^(٣) محمد فتح الله كولن: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، ص: ٧٣.

النظر عن ديانة هذه الحشود.. إن هذا العمل غير جائز شرعاً".
وفي تصريح آخر للأستاذ في مقابلة مع (محمد جندم) جريدة ميليت، بتاريخ ١٦/١/٢٠٠٥م، يقول: "في الإسلام لا يوجد شيء اسمه مفجرين انتحاريين، طوال التاريخ لم يصدر الإسلام أبداً أي إذن بقتل الناس الأبرياء، فهذا غير وارد على الإطلاق. ولكن نتيجة لأعمال قام بها بعض الناس الذين غرر بهم وتم خداعهم بطرق مختلفة، فإن الكثير من الأبرياء قد تم التغرير بهم، وبذلك تلطخت صورة الإسلام النقية. وصور المسلمون الممثلون لشرع الله تعالى كإرهابيين"^(١).

٣. الفن

الفن من أهم الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر. والذين ضيعوا فرصة استعمال هذا الطريق من أصحاب القابليات والحظ السيئ يعيشون طوال حياتهم كأشخاص أصابهم الشلل النصفي^(٢). لذلك نرى ملامح هذا الفن المنشود ظاهرة للعيان في معظم مؤسسات الخدمة وخاصة منها المؤسسات التربوية (المدارس).

ففي مدرسة "برج" أو ما تعرف بـ"بورج كوليجي"^(٣) نرى شيئاً لم نألفه هو وجود "قانونية فنية" داخل المؤسسة، وهي الأولى في تركيا، مما حرك فينا جملة من العواطف والأحاسيس والأفكار، ونحن نستحضر تلکم الصورة السافلة للفن في أرجاء العالم، من

(١) Maimul Ahsan Khan: The Vision and Impact of Fethullah Gulen, Blue Dome, New York, E5.2011. p: 138.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٥٢.

(٣) عنوانها في الأترنت: www.burcistanbul.com/index.aspx

جهة؛ وذلك المستوى المتدني للجمال في بيتنا ومحيطنا التربوي والمدني، من جهة ثانية... والعادة في النموذج الإسلامي التقليدي في عصرنا أن العالم والشيخ والمفكر لا شأن لهم بالفن والجمال، وأن الفنان إنسان أقرب إلى القاذورات والانفساخ منه إلى الفعل الحضاري البنائي التربوي^(١).

الفن هو اللوحة الأولى التي تستطيع تصوير قدرة ابن آدم وأعماقه. أجل! فبفضل الفن سجلت أعمق المشاعر والأفكار الإنسانية وأعمق خلجات الروح وحفظت وخلدت وكأنها مسجلة على شريط.

ألم يجعل الفن -وهو يرافق الإيمان- هذه الدنيا معرضاً للجمال بالمعابد الفخمة وبالمناثر التي تشبه أصابع الشهادة المتوجهة إلى السماء وبفن الحفر على أحجار المرمر وبالألوان والتصاميم الجميلة وفنون الخط والتذهيب والنقوش الجميلة جمال أجنحة الفراش؟^(٢). ويتناول الأستاذ كولن الفن والجمال في كل مقال يكتبه، بل إنه جعل الفن من صفات ورثة الأرض.

الفن لا يستورد من البضائع والأفكار، وإنما هو ذاتي ملي، وأي محاولة لمسح مجتمع ما بفن منظومة أخرى، أو برؤية كونية مختلفة، هي لإلقاء ذلك المجتمع في هاوية سحيقة من التخلف والفوضى والتبعية والذل.

ولا يفوت كولن -ضمن نموذجه- أن يغرس قيم الجمال والذوق الرفيع في أفراد الخدمة، عبر رسائله المشفرة، في مجلة "رشحة" أو

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١٥٣-١٥٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٥٣.

في غيرها، مثل "حراء"، و"زمان"... والبديع أن المحتوى والشكل قد تألفا لإعطاء صورة نيرة للفن عبر صفحات هذه المجالات والجرائد. والأستاذ يعيش الفن والجمال في حياته. ولقد شهد شباب الخدمة، وتلاميذ الأستاذ الملازمون له في خلواته وجلواته، أنه لم يدعُ إلى الجمال والفن بقلمه وحبره فقط، بل عاشه في كل نبذة، ومع كل زفرة، وعند كل نظرة، حتى إنه غالبًا ما أرهقهم برهافة حسه، وأورثهم شعورًا متوترًا تجاه كل كلمة ينطق بها، أو سكتة يسكتها، أو إيماءة يومئها... ولعل هذا القدر الرفيع من الإحساس الفني والجمالي، ومن رهافة الحس والذوق، هو من أبرز الأسباب التي ساهمت في تحويل أفكار الأستاذ إلى واقع، وصاغت مخططاته ومشاريعه بشكل يعجز القلم عن وصفه، مشاريع هي في روحها ربانية، إيمانية، وفي ظاهرها فنية، ذات أجود المقاييس العالمية، فلا تعارض بين المخبر والمظهر، إنما هو التكامل والتعاضد والتوازن. الشباب يذكرون يوم اقترحوا على الأستاذ، وهو في أمريكا، تغيير أثاث صالون الاستقبال، وقد بلي وتقادم، والزوار في هذه المرحلة قد تكاثروا نوعًا وعددًا، فمنهم علماء كبار، وبعضهم وزراء وآخرون سفراء، وشخصيات عالمية معتبرة... إلخ. قبل الأستاذ المقترح على مضمض، لكن أمارات الحزن بدت في تقاسيم وجهه، فلما سئل عن السبب، قال: "لقد ألقت هذا الأثاث والفني، وإني معترف له بخدمة كبيرة، ويحزنني أن يغادرني أو أستبدل به غيره... بيني وبينه إلف وحب، وحظ من الذوق والجمال لا ينكر"^(١).

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١٥٦-١٥٨.

رجال الخدمة لم يتعاملوا مع فكر الأستاذ بالأسلوب التقليدي، لم ينقلوا النصوص التي وردت عن الأستاذ عن الفن ورهافة الحس وزينوا بها الجدران، بل تعاملوا مع هذا الفكر بأسلوب آخر؛ إذ نقشوها على قلوبهم وظهرت على سلوكهم واقعاً ملموساً، ويظهر تحول هذا الفكر إلى واقع جلي من خلال "الأكاديمية" (مقر مجلة حراء) فحُسن "الأكاديمية" يُسيك من موقعه الجغرافي ابتداءً، وهي قابضة كالعروس على تلة من تلال "شاملجاً" الفيحاء، المطلة على مناظر كأنها لوحات فنية، أو لقطات ذرية من جمال جنة الفردوس يبدو البوسفور من بعيد، دونه تلال وسهول، خضراء ربيعاً، بيضاء شتاءً، وهي بين ذلك خريفاً وصيفاً.

وبناية "الأكاديمية" متلاحمة مع "مسجد عثمانى الملامح"، وإلى جواره "إقامة للطلبة"... فالصروح الثلاثة منسقة في مخطط هندسي بديع... التجاور والمجاورة بين هذه المؤسسات الثلاثة ليس اعتباطاً، ولا هو محض صدفة؛ وإنما تذكرك أن الواحدة منها امتداد للأخرى، فلا فصل ولا انفصال، بل تعانق ووصال... لكأن "التربية، والصلاة، والبحث العلمي" أركان لزهرة واحدة... أما داخل الأكاديمية، فتتوزع قاعات للباحثين، ومكتبة، وقاعات للبحث الجماعي والمطالعة الموجهة، وأخرى للمحاضرات والمناسبات واستقبال الضيوف... وقاعة كبرى للصلاة، تعلو العمارة تاجاً على رأسها... كذا، مطعم، ومؤسسة محترفة لخدمات الشاي والقهوة، وتوابعهما... للضيوف الزائرين، وللباحثين المقيمين.

كل شيء داخل "الأكاديمية" في مكانه، منسق ومرتب بأدب

ورهافة، لوحة فنية عجيبة، وصورة ذوقية خلابة؛ لا تلاحظ اضطراباً، ولا وسخاً، ولا تجاوزاً للحد، ولا تصرفات انتهازية..^(١). إنها بحق لوحة فنية عظيمة جديدة بأن تدرس.

٤. المرأة

يرى الأستاذ أن المرأة هي المعلمة الأولى لمدرسة الإنسانية. فهي التي تقوم بتعليم الأطفال وتربيتهم وبتأمين النظام والسعادة والتفاهم في البيت. لذا ففي هذه الأيام الحالية التي يتم فيها البحث عن مواقع جديدة لها، نرى أن قيامنا بالتذكير بهذه النعم التي قامت يد القدرة بإنعامها عليها قد يمنع مثل هذه البحوث التي هي في غنى عنها.

إن البيت الذي توجد فيه امرأة شريفة وذات تربية ومتعلقة ببيتها وعشها هو قطعة من الجنة. والأصوات والأنفاس التي تتردد فيه لا تختلف كثيراً عن أصوات الحور العين والغلمان المخلدن في الجنة^(٢). ويتناول الأستاذ مسألة "قوامه الرجل على المرأة" والتي أسيء فهمها وتطبيقها، فيقول: "فالرجل يفضل المرأة في نواح عديدة، ولكن يجب تقييم هذا التفاضل والنظر إليه كالتفاضل الموجود بين أعضاء الجسم الواحد. فإذا كان الرجل مثلاً في موقع العين، كانت المرأة في موقع الأذن. وإذا كان الرجل في مرتبة الدماغ، كانت المرأة في مرتبة القلب، أي هناك رابطة وثيقة بينهما. فالقلب يضخ الدم ليعيش الدماغ، وإذا حدث نزيف في الدماغ مات القلب. فحياة كلا العضوين متداخلة، وهما يشكلان عضوين مختلفين ولكن لجسد واحد.

(١) محمد باباعمي: أرباب المستوى، ص: ٢١٤-٢١٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٣٧.

ومع هذا فإننا لا نستطيع إنكار تفوق الرجل على المرأة إن نظرنا إلى الموضوع نظرة كلية وشاملة. الرجل يقضي عامه كاملاً في فعالية ونشاط، ويقوم أحياناً بأشق الأعمال. وهو أقوى من المرأة من الناحية الجسدية والنفسية. وتُسند أشق الأعمال إلى الرجل حتى في الغرب، فعمال المناجم من الرجال على الدوام. أما المرأة فهي تحيض -بحكم طبيعة تكوينها- أياماً معدودة كل شهر، وفي حالة النفاس تبقى ملازمة للفراش ما يقارب الشهرين. وهي أضعف من ناحية القوة الجسمية وقوة الإرادة، ولا تستطيع حضور جميع المحافل الاجتماعية في جميع الأوقات^(١).

المرأة قيمتها الحقيقية في جوهرها لا في مظهرها، ولذا يقول الأستاذ: "إن الإنسان عندما يرى أحياناً امرأة مسحوقة تحت مظاهر الزينة لا يملك إلا أن يتساءل "ترى هل تلقى العفة والشرف والفضيلة التي هي زينتها الداخلية كل هذا الاهتمام لديها؟"

إن الشيء الذي يرفع بالمرأة إلى مستوى أعلى من الملائكة ويجعلها أثمن من الماس هو عمق عالمها الداخلي وعفتها ووقارها. فالمرأة غير العفيفة تشبه عملة زائفة، والخالية من الوقار لعبة وموضوع استهزاء. وفي الجو الخانق لأمثالهن لا يمكن الحديث عن عش صحي ولا عن جيل صحي^(٢).

أما من ينادون بحقوق المرأة، ويريدون استرجال المرأة هم في الحقيقة يصادمون الفطرة، فيقول الأستاذ: "إن حقوق المرأة المقدمة

(١) محمد فتح الله كولن: أسئلة العصر المحيرة، ص: ١٨١.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٣٧-١٣٨.

من قبل أنصار المرأة (Feminists) لا تفيد إلا في الهبوط بمنزلة المرأة من مكانها السامي وإهانتها وجعلها تحت الأقدام. واسترجال المرأة عملية حمقاء تشبه تجول أحدهم عارياً في الشتاء، ولبس المعاطف في الصيف. فالمرأة عزيزة ما بقيت في موقعها الصحيح. والرجل يستحق الاحترام ما بقي داخل حدوده ولم يتجاوزها. والذين يريدون تبديل مواقعهم يتعرضون إلى لعنة الرسول ﷺ لأنهم يصادمون الفطرة. فالفوضى التي تحصل بالجسم عندما تتغير أماكن أعضائه فتكون الأذن على الركبة والأنف في وسط البطن والعين تحت الرجل.. مثل هذه الفوضى تحصل عندما يستبدل الرجل والمرأة مكانيهما. فالمرأة يجب أن تبقى امرأة، والرجل يجب أن يبقى رجلاً. فهذا هو حكم الفطرة والذين يبذلون جهودهم لتبديل هذه المواقع إنما يحاربون الفطرة وطبيعة الأشياء^(١).

المرأة جوهرة نفيسة، وجمالها الحقيقي بنضجها الروحي، لذا فالمرأة التي لم توسع ملكاتها الروحية مع نمو جسدها تبدو كزهرة تزين الرؤوس مدة من الزمن، إلا أنها سرعان ما تذبل ذبول أوراق الخريف، فتقع على الأرض وتدوسها الأقدام. فما أفجعها من نهاية للذين ضلوا طريقهم فلم يجدوا الطريق الموصل إلى الحياة الأبدية. المرأة جوهرة نفيسة لا تستحق الوقوع في الأحوال. ولم نفقد بعدُ أملاً في أن الأجيال المحظوظة القادمة ستكرمها وتعزها وتحافظ عليها محافظتها على عينيها.

المرأة عندنا أساس متين في شرف الأمة ونجاتها. وحصتها في

(١) محمد فتح الله كولن: أسئلة العصر المحيرة، ص: ١٨٣.

إنشاء تاريخ أمتنا المجيدة لا تقل بحال عن حصّة المجاهدين الذين قاتلوا الأعداء وفتحوا البلدان. معظم حواريّ حرية المرأة وحقوقها لا يفعلون شيئاً سوى دفع المرأة إلى طريق الرغبات الجسدية وطعن حياتها المعنوية والروحية.

المرأة الواصلة إلى النضوج الروحي تستطيع إدامة الأجواء العطرة لبيتها بالخلف الصالح لها. لذا يظل بيتها مكاناً فوق كل وصف... مكاناً يشبه الجنة في أجوائها وعطرها وسعادتها. والمرأة التي فتحت قلبها لنور الإيمان وعقلها للعلم وللتربية الاجتماعية تضيف كل يوم جمالاً جديداً لبيتها وكأنها تنشئه من جديد. أما السفينة فتقوم بهدم البيوت القائمة وتحويلها إلى خرائب، بل إلى مقابر^(١).

٥. الإساءة إلى النبي ﷺ

أصدر الأستاذ محمد فتح الله كولن بياناً هاماً وضح فيه الأيدي الخفية وراء إنتاج الفلم المسيء إلى النبي ﷺ يدعو فيه إلى التصرف بحكمة، والابتعاد عن ردة الفعل غير المدروسة، وكما أن الغايات مشروعة فكذا لا بد أن تكون الوسائل مشروعة، فيقول:

"ومن حق المسلمين الطبيعي الاستنكار والتنديد ولكن بشكل يليق بوقار المسلمين وبجديتهم وبإسلامهم والرد عليهم بأسلوب راق وليس بتصرفات لا أخلاقية للمقابل الذي يحاول إظهار شخصية المسلم كما يريدون هم.

يقول الأديب العربي الجاحظ عن المشركين: "ففي عصر النبوة والسعادة عجز المشركون معارضة القرآن المعجز البيان بالحروف،

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٣٧-١٤١.

لذا لجأوا إلى المقارعة بالسيوف". فعدم الرد للكلمة بالكلمة والتشبث بالسلاح يعني العجز.

فالتنديد والاستنكار المناسب والأمثل لمثل هذا الفيلم المشمئز هو إنتاج فيلم. وعندما يساء استعمال الفن كما هو في هذا الفيلم فإن الرد المناسب هو إظهار الفن الحقيقي. فالعنف والإرهاب لا يكون وسيلة للاحتجاج والتنديد.

فيحاول بعض المهرجين والدجالين ممن لا يملكون أي قيمة أخلاقية في الفن ولا هم أصحاب الاختصاص في هذا المجال بالتحريض والهجوم على نقاط الضعف في جسد المسلمين فيهاجمون تلك النقاط ويحاولون إظهار صورة المسلمين للعالم بأنهم إرهابيون. وعندما تترك القضية ولا تعالج وتقتصر الاحتجاجات عن طريق الإعلام فإن ذلك للأسف لا يعدو عن هذيان لتلطيف صورة المسلمين المتسمة بالصلح والسلام. ماذا جنوا من الحوادث التي حصلت جراء أزمة الكاريكاتير؟ فهل عبروا بذلك عن احترامهم وحبهم للنبي محمد ﷺ بهذه الطريقة؟ أليس الحب والاحترام الحقيقي للنبي هو اتباع سنته السنية؟ فالمسلم يحتاج ويندد بالطرق السلمية. وكلما يكون هكذا فلن يكون المسلم موضوع التحريض في لعبة بعض السياسيين. ولكن مع الأسف رأينا كيف أنهم يفجرون الشارع ويلعبون بالمسلمين كيف يشاؤون. ومن خلال المسلمين يحصلون على حساباتهم وغاياتهم السياسية.

ويختتم الأستاذ محمد فتح الله كولن بقوله: "كما أن الدين الإسلامي يركز ويطلب من المسلم أن تكون أهدافه في حياته

مشروعة في كل حركاته وفعالياته، وكذلك ينبغي أن يكون الطريق المؤدي لهذه الأهداف مشروعاً أيضاً^(١).

٦. العلمانية

وفي العصر الحديث لقي الدعاة والمربون والمفكرون الكثير من صنوف العنت وصور الإيذاء، على أيدي أنظمة الجور وسلطات الطغيان، ولما كانت تركيا من أكثر الدول تطبيقاً للعلمانية المتطرفة، ومن أكثرها شراسةً في دفع قطار تركيا بعيداً عن سكة ماضيها المجيد، فقد سلطت نيران الإيذاء على أبناء الخدمة وأستاذهم فتح الله، لكن رحمة الله وعنايته بهذا الدين جعلت من هذه النيران برداً وسلاماً على تيار الخدمة، حيث ساهمت في إنصاحه وامتلاكه البوصلة الفكرية السليمة.

لقد تحولت نيران العلمانية إلى برد وسلام بفضل العناية الإلهية واللفظ الرباني، حيث وضعت في لب "المحن" عدداً من "المنح"^(٢). ويشرح الأستاذ كولن دور "محن" العلمانية في استنزال هذه "المنحة"، حيث يقول: "والآن هناك الكثير من الضغوط وأنواع من الإكراه والظلم والتحكم والاستبداد، مما يسر لنا إمكانية اكتشاف ذاتنا"^(٣). فإن تسليط النيران على هذه الكتلة المتنوعة يذيب المعادن الرديئة ويكشف عن العناصر الأصلية ويهيل التراب عن معدن الإنسان

(١) حازم ناظم فاضل: بيان الأستاذ محمد فتح الله كولن حول الفلم المسيء إلى النبي ﷺ، مقال منشور في: www.dunyatimes.com.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٦٢.

(٣) محمد فتح الله كولن: ترانيم روح وأشجان قلب، ص: ١٨٥.

النفيس. وقد أدت نار العلمانية المتطرفة إلى تطهير تيار الخدمة من الشوائب الطبيعية، ومكنته من الوصول إلى الرؤية المستبصرة والمراجعات القوية. وبجانب إحراق النيران للزوائد التي تمنع ائتلاف الصفوف، فإنها أذابت الفوارق غير الطبيعية، وأدى ذلك إلى تقارب أبناء الخدمة، وائتلافهم على الحب حبهم للائتلاف.

فكثرة التحديات التي أطلقتها العلمانية ضد الخدمة في تركيا أدت إلى انطلاق جهاز المناعة للعمل بأقصى إمكاناته، مما أبرز فاعلية كيان الخدمة، فقد مضت سنن الحياة -التي أوجدتها مشيئة الله- بأن لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الإتجاه... وهذا هو بالضبط ما فعلته العلمانية بكولن وتلاميذه من تيار الخدمة، حيث خلقت فيهم روح التحدي، وأطلقت فاعليتهم، وهدتهم إلى أقوم السبل وأرشد الأفكار ودفعتهم إلى إثارة العمل الهادئ، والحذر من الوقوع أو الإصطدام أو الانحراف.

وعندما أوجد كولن تيار الخدمة، كانت تتوزع جهوده الكثير من الجبهات والجهات التي تحتاج إلى عمل، وقد استغرقت المواعظ التي استهدف بها عامة الناس جزءاً كبيراً من وقته وطاقته، ولا شك أن هذا سيكون له بعض التأثيرات غير المستحبة على تلاميذه الحقيقيين الذين سيكونون مدماك هذا التيار ويتحملون أعباءه الجسام، وقد لا يستطيع بعضهم حمل المسؤولية بمنتهى الكفاءة، فيتعثر أو يسقط.

ولهذا "مَنَحَ" الله هذا التيار فرصة لتمتين البناء، وجاءت الفرصة على صورة "محنة"، عندما حدث الانقلاب العسكري سنة ١٩٨٠م تحت قيادة الجنرال كنعان إيفرين، فقد كان كولن أحد المطلوبين

للقبض عليه، لكنه اختفى بين تلاميذه، فتفرغ لتنميتهم وتزكيتهم، والعروج بهم في سماوات الفاعلية، طيلة ست سنوات كاملة^(١). ويقول الأستاذ في حديثه عن الاستهداف العلماني لأبناء الخدمة وما خلفه من تoux للحيطرة والحذر: "نقوم نحن بإنشاء بناء لبنة لبنة وحقراً حقراً، كما نقوم بحراسة الجزء المشيد من البناية"^(٢).

وتركزت الطاقات مرة أخرى في ميادين أخرى في ميادين المعاني أكثر من المباني، وفي الألباب أكثر من الأشكال، وفي المضامين أكثر من الأسماء، ولهذا لم يجدوا فراغاً للحديث عن الإسلام، إذ سخروا كل الطاقات المتوفرة من أجل العمل بالإسلام، والدعوة إليه بالسلوكيات المستقيمة وصناعة الأسوة الحسنة^(٣).

إن المحن تستجلب المنح، والنقم تستمطر النعم، واشتداد البلاء يرفع الدرجات ويضاعف الأجور. وهذا ما يؤكده الأستاذ بقوله: "لذا يتعرض الذين تعهدوا هذه الوظيفة الجسيمة -أي التبليغ- في يومنا هذا إلى مضايقات ومشقات أشد ممن تعرضوا لها في العصور السابقة. فهذه الظروف العسيرة جداً هي التي تؤهل مرشدي عصرنا ومبلغي الدعوة فيه أن يسبقوا الذين أتوا من قبلهم، ونأمل أن يتسمنوا موضعاً خلف الصحابة الكرام مباشرة. فالنفس مهما كانت أدنى من الكل إلا أن الوظيفة أسمى من الكل. واللفظ الإلهي سبحانه يرد بقدر حاجة الناس. وعندما تقسم الرحمة الإلهية إلى الناس كافة

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٦٤-١٦٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: أسئلة العصر المحيرة، ص: ١٧١.

(٣) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ١٦٦-١٦٧.

توزع على الأغلب بنسبة متعاكسة مع اقتدار الشخص؛ فمن كان أعجز وأضعف فالله سبحانه أرحم به^(١).

٧. تصريحات بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر

أصدر الأستاذ محمد فتح الله كولن بياناً حول تصريحات البابا بنديكت السادس عشر المسيئة للإسلام وللنبي ﷺ، بعنوان: "تصريحات بابا الفاتيكان مؤسفة ولا تخدم السلام العالمي" يقول فيه:

"لا نجد في جميع رسائل الأنبياء والمرسلين (عليهم صلوات الله وسلامه) منذ عهد آدم ﷺ حتى عهد رسولنا الأكرم ﷺ أي مناقضة لروح الرسالة الأصلية. فإذا أتينا إلى الخلافات الموجودة بين أتباع الديانات السماوية وإلى النزاعات والصراعات والحروب التي نتجت منها رأينا أنها غير نابعة من الدين، بل عن الحقد والنفور والمصالح الذاتية للمتسيين الجهلاء وعن التفسيرات الخاطئة لهم وعن الانحرافات وعن الأهواء النفسية.

إن الذين يتناولون الإسلام وينظرون إليه من الزاوية السياسية والأيدولوجية لم يستطيعوا الخلاص من تأثير بعض الأفكار المسيئة وأحياناً من تأثير القدوة السيئة لبعض من يبدوون مسلمين، وبالتالي من تأثير التفسيرات الخاطئة النابعة من الأفكار الأيدولوجية. وأحد التفسيرات الخاطئة هو النظر إلى الإسلام وكأنه نظام يقترن بالعنف، وكأنه فلسفة تتبنى ردود الأفعال. أما صدور مثل هذه الأخطاء -المؤدية إلى الإثارة وإلى الانفعال الاجتماعي- من رجال الدين فهو شيء مؤسف جداً. بينما تدعو كل رسالة من رسائل الإسلام إلى السلم وإلى التلاؤم

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٢٥.

الاجتماعي وإلى المسامحة والحوار وتقبل الآخرين. أما الخشونة والرعونة والحقد والنفور والعداء والارتباط بهذه المشاعر والنظر إلى الإسلام بأفكار وأحكام مسبقة صادرة عن الانعكاسات الموجودة في أرواح وقلوب المنتسبين الجهلاء وعدم تعودهم على المسامحة فتؤدي إلى مثل هذا الغثيان. لأن كل قلب دخل فيه الإسلام وسكن لا يحتوي إلا على حب المخلوقين النابع من حب الله، وعلى مشاعر المودة والمسامحة.

من جانب آخر فإن عالمنا هذا الذي سقط تبعاً من الصراعات والحروب التي دامت عصوراً عدة يبدو قابلاً لصراعات جديدة نابعة عن الشهوات الإنسانية غير القابلة للإشباع. لذا وجب على كل إنسان يشعر بالمسؤولية، ولا سيما على كل منتسبي الأديان أن يكونوا رسل سلام وحوار لكي يتحول هذا العالم إلى مهد للمحبة والصدقة. لذا أحس الفاتيكان قبل سنوات بضرورة إصدار إعلان يعرب عن أسفه لدور الفاتيكان في الحروب الصليبية.

ولكن قام البابا بنديكت السادس عشر مع الأسف في المحاضرة التي ألقاها في جامعة ريجينيسبورج باتخاذ نظرة الإمبراطور البيزنطي أساساً لرأي شخصي لا يتفق مع شعور الفاتيكان بضرورة إصدار ذلك الأسف السابق المذكور.

ونحن نتمنى ألا يكون تصريح هذا البابا سبباً في حوادث مؤسفة وفي حَبْك مؤامرات غير مقبولة، لأن هذا التصريح أظهر استخفافاً بعقيدة الألوهية في الإسلام، ووجه اتهامات سائنة لرسولنا الأكرم ﷺ، مما أدى إلى جرح مشاعر المسلمين. إن مثل هذه الكلمات

والتصريحات الصادرة من قبل أعلى قمة في العالم الكاثوليكي يعطي مبررات للمجموعات المتطرفة للقيام بسفك الدماء مثلما حدث في عهد الحروب الصليبية.

نحن نتمنى صدور ردود فعل حضارية من الفاتيكان، فهذا حق مشروع للمسلمين الذي جاء رسولهم ﷺ بأسس أخلاقية من الرحمة والشفقة، وعدم الانزلاق إلى الألاعيب وسوء التصرفات التي فتحت الرسوم الكاريكاتورية الأبواب لها.

لقد دلت تصريحات البابا بنديكت السادس عشر على مدى حاجة الإنسانية إلى الحوار. والمهم هو قدرة المسلمين على إظهار المبادئ السامية للإسلام للجميع، والتي جاء بها رسول الله ﷺ، ولا سيما في ظل هذه العولمة التي يحتاج الإنسان فيها إلى العيش معاً، وتقاسم هذا العالم معاً، وتجاوز جميع الخلافات والفروق الدينية والسياسية والثقافية والأيدولوجية. فالإنسان في حاجة ماسة إلى هذا وإلى العيش حسب الفطرة السليمة التي فطره عليها الخالق جل وعلا^(١).



(١) محمد فتح الله كولن: تصريحات بابا الفاتيكان مؤسفة ولا تخدم السلام العالمي، بيان منشور على موقع الأستاذ كولن: www.fgulen.com.

الفصل الخامس

تجربة الأستاذ محمد فتح الله كولن في الميزان

- ♦ عوامل نجاح حركة الأستاذ كولن
- ♦ إنجازات الحركة العملية
- ♦ مآخذ حول الأستاذ والحركة



تجربة الأستاذ محمد فتح الله كولن في الميزان

أولاً: عوامل نجاح حركة الأستاذ كولن

أهل الخدمة يقولون: "نحن لا نستخدم كلمة النجاح، نحن نتمنى من الله عز وجل التوفيق، فالعلماء والمفكرون كثيرًا ما أثنوا علينا حين أتوا من البلاد العربية، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى نظر، نحن أبدأً لم نقل إننا أنجح الناس وحتى إننا لم نفكر في هذا مجرد تفكير، بل نحن نحاول دائماً الاستفادة من الحركات الموجودة على الساحة الإسلامية، نحن نقول لمن يأتي إلينا أنقدونا، وهذا هو النظر إلى الذات من خلال المرآة (الآخر)"^(١).

وفي لقاء مع الأستاذ نوزاد صواش يقول: "أما الأستاذ كولن فهو نهم في الدعوة، ويبدل فيها أقصى الجهد، ويأخذ بكل أسباب التوفيق، ومن ذلك:

الواقعية: علمنا رسول الله ﷺ بأن نكون واقعيين، فأبي مشروع تطرحه لا بد أن ينسجم مع متطلبات الواقع (قابل للتطبيق)، وهكذا هو منهج الأستاذ.

المعقولة: استخدم الأستاذ أسلوب المعقولة في القرآن الكريم

^(١) لقاء خاص مع الأستاذ محمد أنس أركنه.

والمعقولية في السنة النبوية، والمعقولية هي كل قول أو فعل ينسجم مع طبيعة المرحلة والسنة الكونية.

المرحلية: نؤسس أرضية الإيمان، كنا نمر في مرحلة الإلحاد، الإيمان مهدد... فإذا جاء الإيمان فلا بد من بناء الإنسان، فعليك أن تكون ابن المرحلة وهذا لا يعني أن تصوغك المرحلة كما تريد هي بل أن تكون واعيًا لها وتحسن أخذ الزمام وإدارة المرحلة.

البعد الروحي: البعد الروحي محرك أساسي، ما لم يُفتح على العالم الداخلي (الروحي) لا يمكن أن يأتي الفتح الخارجي، وأي فتح خارجي إن لم يكن قبله فتح داخلي فهو وهمي وليس حقيقيًا. ويحاول الأستاذ أن يقيم موازنة فيوجه أتباعه إلى أن يكونوا في الخدمة والعمل والدعوة في الصف الأول وحين يُبحث عنهم للثناء أو الشكر أو المكافأة يتأخرون إلى آخر الصف. وهذا هو مسلك الصحابة رضي الله عنهم فحين وزع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم، قال أحد الصحابة، ما على هذا اتبعتك ولكن على أن أضرب بسهم هاهنا أو هاهنا.

الانمحاء في حساب الله: ففي كتبه يقول الأستاذ: "كن فاتح القسطنطينية (نقطة محورية) يبحثون عنك فلا يجدونك، لأنه عليك أن تنسى أنك فعلت ثم عليك أن تنسى أنك نسيت. لا تحشر نفسك فيما ليس هو لك، هو سبحانه وتعالى سخرك واستخدمك... إذا أردت أن تقول فقل: يد الله مع الجماعة.

المنزج بين الخلوة والجلوة: خلوتنا ليست الابتعاد عن الناس، بل وسط الخلق، ولكن مع الحق... من ليس عنده خلوة لا يمكن أن يفهم الأستاذ، فالأستاذ رجل واقعي يعالج الواقع... يقول: "عامل الناس

بأخلاق الله تكن مع الناس ومع الله في آن واحد"، الله عاملك
برحمة فعامل الخلق برحمة تكن مع الله ووسط الخلق، المعاملة
بالحكمة من أخلاق الله، فحين تعامل الناس بالحكمة فأنت وسط
الخلق ولكن مع الحق، وكذلك الهبة والعطاء... فأنت مع الله في
كل آن ووسط الخلق"^(١).

الركيزة الأساسية في الإصلاح عند الأستاذ كولن هو الإنسان،
ويسعى إلى أن يتحرر من أغلال المادة والمادية، ولا يمكن أن يكون
ذلك إلا إذا عاد الإنسان إلى خالقه، فيقول الأستاذ:

"أنعم -يا الإنسان- النظر،

ومن سجن نفسك تحرر،

ولمحات الجمال تشرب...

ودع قلبك يطر فرحاً،

وروحك يرقص طرباً...

واسشرف جمال "الجميل" في كل جمال

تطمئن نفسك،

ويزدد إيمانك، وإلى ربك تعد إنساناً،

خالصاً في إنسانيتك..."^(٢).

في كل دروسه في البداية كان يركز على موضوع الإصلاح "الذين
يصلحون ما أفسد الناس" ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ

(١) لقاء خاص مع الأستاذ نوزاد صواش.

(٢) محمد فتح الله كولن: ألوان وظلال في مرايا الوجدان، ترجمة أديب إبراهيم الدباغ، دار

الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) كان يقول اعمل في المتاح، وسيهيئ ربنا لك غير المتاح، "وليتلطف": ليعمل بلطف وشفافية، من دون استفزاز الآخرين، هذه هي إستراتيجيته.

فشبكة المدارس الواسعة التي أنشأها طلاب الأستاذ كولن في مختلف أنحاء العالم أصبحت تحقق نتائج عالية من مستويات التكوين والمردودية التربوية، وتبعاً لذلك أصبحت السمعة العلمية لبعض هذه المؤسسات تضاهي في سمعتها الأكاديمية بعضاً من أعرق المؤسسات التعليمية في العالم، وإذا كان هذا الأمر مفهوماً في بعض الدول النامية من العالم الثالث (تم في عام ٢٠٠٧ فتح مدرسة في ليبيا و في السنة الثانية أصبحت أحسن مدرسة في البلد)، نتيجة لحمل خبرات في التعليم من مختلف دول العالم إلى البلد، فإن الأمر لم يختلف كثيراً في دول معروفة بسعة تجربتها في المجال التعليمي بما في ذلك تركيا نفسها المعروفة بجودة بعض مؤسسات التعليم فيها بشكل عام.

و حين تتم دراسة تجربة هذه المدارس عن قرب فإن أهم الخلاصات التي يخرج بها الباحث أن لهذا النجاح أسباباً لا أسراراً، بمعنى أن هذا النجاح فضلاً عن النموذج الإنساني المتميز، والمجتمع العريق والحي الذي يقف وراءه داعماً بجد واستماتة منقطعة النظير، فهو نجاح مستحق لجهد من الإعداد الفني والاستعانة بكل ما قد يساعد عليه من أسباب ووسائل وخبرات وتجارب، سواء منها ما تعلق بالمستوى المادي من حيث البناء والتجهيز، أو ما يتصل بالكوادر البشرية التربوية والإدارية، وخاصة

معايير الاختيار ومسارات التكوين المستمر للمدارس، أو متطلبات العملية التعليمية من وسائل ومناهج^(١).

١. الموازنة بين القلب والعقل

ويرى الأستاذ أن أساس أزمة المجتمع الحديث هو تمزق روابط التكامل بين العقل والقلب في التربية والفكر العلمي. ويقول إن الفكر العلمي الحديث والنظام التعليمي قطع الرابطة بين جميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية وبين المقدسات بطريقة وضعية منذ عدة عصور. ومن ثم فهما يمثلان لدى الأستاذ المصادر المهمة للأزمات الأخلاقية والمعنوية والفكرية التي تتعرض لها المجتمعات الحالية. كما يرى كولن أن الحل لهذه المشكلة يكمن في تحقيق التكامل بين العقل والقلب في التربية بالنظر بشمولية إلى العلاقة بين الإنسان والكون والله.

يعتبر كولن بأن شخصية الإنسان تتكون من العناصر الجسمية والذهنية والروحية. ويجب أن تتحقق كافة الإمكانيات الإنسانية بشكل منظم، وإنه يعتقد بأن هذا التطور سوف يتم من خلال التربية. يضع فكرته هذه في محور الفهم التربوي والإنساني. ويرى أن التربية الشمولية تعد بمثابة حجر الأساس لتنشئة "الجيل الذهبي"^(٢).

^(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ورقة مقدمة في مؤتمر "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، ص: ٣٤٥-٣٤٦.

^(٢) رجب قايماقچان: مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ١٠، ٢٠١١م. ص: ٣٥١-٣٥٢.

مدرسة فكرية أصيلة ذات منهج فكري وعلمي ونظرة إلى مختلف العلوم من منظور القرآن والسنة، بنظرة تواكب العصر وتنطلق منه، وهو أمر يتجلى كأوضح ما يكون في النشاط التربوي والتعليمي داخل المدارس، المنضبط لنظرة تزاوج بين تكوين العقل وتربية القلب، أي بعدي العلم والخلق في مسارين متوازيين، لا أحد هذين الجانبين على حساب الآخر، وتقديم نظام تربوي يقدمهما معاً في تعليم يغذي الفكر، ممزوجاً بتربية تقوّم السلوك تكون الكلمة العليا فيها للنموذج الصالح، أي التربية بالقُدوة أو "لسان الحال"^(١).

أحد الأسباب المعرفية التي تعرقل تكامل القلب والعقل هو زعم الصراع العلمي الديني الذي أثر في ظهور الحداثة والذي يظهر كنتيجة للفلسفة الوضعية في الغرب. لا يمكن الحديث عن مفهوم للتربية يتناول الإنسان ككل من كافة الزوايا في الوسط الذي تسيطر فيه فلسفة ترى الخلاف بين العلم والدين وبين الميتافيزيقيا وتنبأ بأن أحدهما سيكون مسيطراً والآخر سيكون بدون تأثير بل حتى غير موجود. ومن أجل أن تنشأ تربية تحقق التكامل بين العقل والقلب، يجب حدوث تغير في العقلية التي تنبأ بصراع حاد وتوتر بين العلم والدين وبين المادة والميتافيزيقيا. يقول كولن إن العلم والتربية اللذين يقطعان علاقة الإنسان بالدين والميتافيزيقيا لن يجلبا له السعادة.

وفي الواقع، لا يمكن الوصول إلى الاتحاد السامي ولا يمكن جلب النور إلى وجه الأشياء بالعلم الذي لا يفيد الإتصال بـ"المطلق". مثل هذا العلم يؤدي إلى إلحاد ينكر الأسرار المتعددة الموجودة في

(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم: السباحة في المجال الحيوي، ص: ٣٤٠.

الكون أو إلى شك يخنق القلوب بالتردد. أما الأستاذ الذي يصل بطالبه إلى هذه الحال فإنه إما ملحد أو مشكك. لكنه ليس معلمًا على الإطلاق^(١).

من أراد العروج فعليه بالتوازن بين جناحي العقل والقلب. فالإسلام يقيم هذا التوازن الدقيق، ولكن في تدين المسلمين النسبي وتفاعلهم الكسبي، كثيرًا ما يكون التعمق في المفردات العقلية على حساب القلب والروح، وكثيرًا ما يكون التوسع في الشؤون الروحية على حساب العقل، مع وجود فوارق نسبية بين الحركات والتيارات والشخصيات. أما دعوة فتح الله كولن فإن حضور الروح فيها يظهرها لأول وهلة كأنها حركة صوفية بحتة، حيث يتسع الحديث عن الروح أفقيًا، ويتعمق رأسيًا في كتابات ومحاضرات وخطب ومناشط كولن، وهذا واضح حتى من عناوين كتبه المترجمة إلى العربية، مثل: "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح"، "ونحن نقيم صرح الروح"، "القلوب الضارعة"، "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، "ترانيم روح وأشجان قلب".

وأما مكانة الفكر في دعوة فتح الله كولن، فهو من القوة بمكان، بحيث يجعل اهتمامها بالفكر حركةً فكرية من طراز رفيع، ولا سيما أن صاحبها قام ببحث الأراضية الثقافية للفكر الإسلامي، مستخرجًا منها نقاط القوة لتعزيزها وتجسيدها، ونقاط الضعف لتجاوزها إن أمكن^(٢).

(١) رجب قايماقجان: مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، مؤتمر "مستقبل

الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٧٠-٧١.

نتيجة الجزر الحضاري والتخلف الثقافي اللذين كانت تركيا -كبلدان المسلمين الأخرى- ترزح تحت وطأتها، حدث شرخ في ذات الأمة بين العقل والروح، مما أوجد انفصامًا بين عالم الغيب والشهادة، وأظهر تناقضًا بين الأفكار والمشاعر، حتى بدا الإسلام في شعور كثير من المسلمين وسلوكياتهم كأنه دين "لاهوتي" لا علاقة له بعمارة الحياة.

نجح كولن في إعادة الروح إلى العقل الإسلامي، وتمكن من روحنة العقل وعقلنة الروح، بحيث أعاد طاقتهما إلى دائرة "التكامل" بعد أن انزلق بها التخلف إلى دائرة "التآكل"، فكانت الثمرة غنائية مرّغت وجه الأمة في أحوال الهزائم والمذلات.

ولأن مشاريعنا هي انعكاس لشخصياتنا، فأول ما ظهر هذا الدمج في شخصية كولن نفسه، فقد امتلك عددًا من "الموازين" الدقيقة بين مكوني الفاعلية الفردية والاجتماعية، حيث جمع بين "استنارة" المفكر و"حرارة" الداعية، وجمع بين "بصر" و"بصيرة" القلب^(١).

٢. الاستفادة من التجارب السابقة

استفاد الأستاذ من موروثات العلماء السابقين، فهو مهتم بالفقه الحنفي وبالعقيدة الماتريدية، وتواصل مع مصادر أخرى مثل الفقه والحديث، ولقد قرأ على المذاهب الأربعة، وعندما أحاول أن أشبه الأستاذ بشخص ما أشبهه بالإمام أبو حامد الغزالي، فهو مجدد القرن الخامس، فالأستاذ ينظر إلى الأمر من جهة المجددين.

الأستاذ قرأ للإمام الغزالي في بداية حياته حين كان شابًا "المستصفي"،

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٨٧.

وهو يختلف معه في بعض المسائل من ناحية تصنيفه لبعض العلوم، والأستاذ له ميول إلى المجددين المتصوفة مثل المحاسبي فهو يحبه كثيرًا، وهو من علماء القرن الثالث، ويعجب بالإمام الشعراني وهو غير معروف بأنه مجدد ولكن الأستاذ يعتبره مجددًا، وحين ننظر إليه نجد أنه إنسان عظيم، والإمام الرباني والعز بن عبد السلام فهو يذكرهم كثيرًا ويتحدث عن كتبهم، والأئمة الأربعة يُعتبرون في القمة عند الأستاذ، والأسماء كثيرة من الصعب أن نحيط بها الآن.

الشخص الوحيد الذي قرأ له الأستاذ قراءة الإمام الملهم، هو بديع الزمان النورسي، وهو معجب ومتعلق به وفي كل قراءة يكتشف جانبًا جديدًا عنده. ما قاله في الإمام النورسي لم يقله في حق الآخرين وإن كان أثنى على الكثير من العلماء ولكن لم نسمع أنه أثنى على الآخرين مثل الإمام النورسي والأستاذ يستخدم الإمام النورسي كمصفاة فيقول: "أنا أختار الأفكار عن طريق تصفيتها بمصفاة بديع الزمان النورسي".

ولقد فكرت كثيرًا في سر مكانة النورسي عند الأستاذ، لكن حين ننظر إلى شخصية النورسي ندرك عظمته وعظمة ما كتبه وما ألفه نظرًا إلى منازل المخاطبين وعقليتهم، وهذا لا يتناقض مع المنهج العلمي، فهو ينظر إلى الأمور نظرة جامعة موسوعية شاملة، وإذا قرأنا له نرى أن له أصولاً فقهية وعقائدية قوية، وحياته وواقعه شيء غني عن التعريف.

والإمام النورسي شكل آخر للإمام الغزالي في القرن العشرين، فمثلاً قيل في الغزالي - لو ذهبت كل الكتب وبقي الإحياء لأحيا الدين -

يمكننا قول هذا في حق النورسي، واللغة التي يستخدمها الإمام لغة شاملة موسوعية، فيمكن أن نبنى عليها حضارة حتى إننا لا نستطيع أن نغير كلمة واحدة من حيث اللغة فيما كتبه. لماذا نقول ذلك؟ لأنه استطاع أن يجمع الثلاثية؛ الفقه والحديث وعلم الكلام، فقد جمعها بشكل ممتاز وعبر عنها بتفوق، وله لغة اصطلاحية قوية هي التي تعبر عن الرؤية الكونية الشاملة. وقد يكون هذا الأمر ليس له مكانة حين ينظر إليه العرب، لكن حين ننظر إليه من بلد مثل تركيا حدث فيها ثورة لغوية فهذا يعتبر شيئاً عظيماً عندنا. هناك شخصيات تُعتبر أمة لوحدها فهو يُعتبر في تركيا هكذا، فكان الإمام يمتلك قدرات ومواهب عظيمة، فهو استطاع أن يجمع كل هذه العلوم الإسلامية في نفسه، وهو وحده قادر أن يحيي هذا التراث، فهو يعتبر جامعاً بمفرده^(١).

٣. الملاءمة لروح العصر

إن ثقافة العصر هي السلاح الذي يستخدمه الداعية للوصول إلى هدفه، فقد ضرب علماء المسلمين أروع الأمثلة في الإمام بثقافة العصر، وعلى رأس هؤلاء حجة الإسلام (الغزالي)، الذي كانت ثقافة عصره هي "الفلسفة"، فعكف على دراستها حتى فاق علماءها في المعرفة بها، ورد عليهم شبههم الدينية بنفس سلاحهم وجرّد إليهم سيفه "تهافت الفلاسفة"... كما هضم علماؤنا علم المنطق الأرسطوطاليسي وعلم المنطق الحديث لدرجة أنهم "منطقوا" أي فرضوا المنهج المنطقي الصوري على علوم اللغة العربية وعلم الكلام. ونحن في عصرنا هذا تسود ثقافة "الأرقام"، وثقافة علوم

(١) لقاء خاص مع الأستاذ محمد أنس أركنه.

"الرياضيات" و"الطب" و"البيولوجيا" و"الفيزياء"، فلو أخذ الداعية من هذه الثقافة نصيباً لخرج من استخدامها بحظ وافر من النجاح^(١). إن من لا يعرف مجريات عصره كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثاً يحاول أن يبلغ شيئاً عن الدين والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث ستفقدته التأثير إن عاجلاً أو آجلاً. ومن هنا فعلى المؤمن أن يفهم ويبلغ ما ينبغي أن يفهم بأسلوب ملائم ومنسجم مع المستوى الفكري والعلمي والثقافي لعصره، ولعلي أجزم أن مرشداً وداعية -في يومنا هذا- إذا ما تمكن من تطبيق هذه النقطة المذكورة يسبق الأولياء والأقطاب في الآخرة، إذ يقف خلف الأنبياء عليهم السلام. نعم إن هذه النقطة سامية وجليلة إلى هذا الحد. علماً أن التمسك بها وتنفيذها صعب أيضاً مثلما أنها ضرورية جداً. إن من لا يعرف عصره لا يختلف عمن يعيش تحت الأرض، بينما المبلّغ أو الداعية يجوب في الفضاءات. تأملوا في كلام النبي ﷺ لماذا لقي قبولاً وتأثيراً لدى مخاطبيه؟ لأنه تعامل مع عصره بمثل ما يتعاملون به بينهم. ولا شك أن جميع الأوامر الآتية من الرب الجليل لا تخالف الحوادث الجارية في الكائنات، ويكفي للإنسان أن يدرك حكمة الوجود وروحه، فينسّق ما يريد أن يتلغّه وفق ذلك. وكذا الأمر لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أخذوا ظروف واقعهم ومستوى مخاطبيهم بنظر الاعتبار لدى تبليغهم ودعوتهم، وذلك ما تعلموه من الرسول الكريم ﷺ، ولذا سمّوا إلى مستوى رفيع في قوة التأثير مما جعل الدنيا تجتو أمامهم في أقصر وقت. وكذلك فعل جميع العظماء الذين

(١) عبد الحليم عويس: فتح الله كولن إمام النهضة الإسلامية في تركيا المعاصرة، ص: ٥٢.

أتوا بعدهم من الوارثين الحقيقيين للرسول الكريم ﷺ، سلكوا الأسلوب نفسه في التبليغ وإن تخالفت مسالكهم، حيث أدركوا مدارك عصرهم، فدام تأثيرهم إلى يومنا هذا، كالإمام الغزالي والإمام الرباني ومولانا جلال الدين الرومي وأمثالهم من الدعاة الأثبات^(١).

٤. التكيف مع الواقع

بلدان العالم الإسلامي وتركيا من بينها صارت في موقف سلبي فيما يتعلق بالتأثيرات السالبة للعولمة، لأنها حاولت أن تأخذ الكل دون تمحيص، لكن حركة "فتح الله كولن" اختلفت من حيث دعوتها للاستفادة من ميزات العولمة وتنميتها وتطويرها، حيث كان يؤكد ولا يزال على مسألة إقامة المدارس بالذات والتعليم الفعال وجسور الحوار^(٢). مدارس الحركة تعطي الأولوية في التكوين اللغوي للغة المحلية في أي بلد، بحيث تكون اللغة العربية مثلاً أو اليابانية، أو الروسية أهم درس في البرنامج الدراسي المحلي للمدارس داخل البلد. ولعل ذلك ما يفسر التسمية التي أصبحت تطلق على أغلب هذه المدارس حيث تسمى مثلاً المدارس الأفغانية، التركية، أو المدارس البوسنية التركية^(٣). إن حركة فتح الله كولن، من زاوية علم الاجتماع وظاهرة التجمع تقدم أنموذجاً مثالياً. فإن أرضيتها الجماهيرية ليست محصورة

(١) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٩٤-٩٥.

(٢) محمود الكردي: الخدمة من أجل التغيير، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص: ٣١٦.

(٣) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، ص: ٣٤٥.

بالطبقات الفقيرة والوسطى، وفي النازحين من القرى والأرياف إلى المدن، وغير محصورة بالطوائف المحرومة والفقيرة والمعزولة والمهمشة عن المجتمع. بل إن معظمها من الأفراد الذين لهم مكانة مرموقة وسمعة طيبة، ووظائف مهمة، وخدمات يُركن إليها في المجتمع، وهم من الذين اتحدوا وتأقلموا بهوية المجتمع كاملاً، ثم إنهم من المتمرنين المتدربين واسعي الآفاق، ومن المنفتحين على العلاقات الاجتماعية، المسهمين في مجتمعاتهم.

وتقوم الحركة بتشجيع أفرادها بتقوية علاقاتهم مع المجتمع. صحيح أن المجتمع يتعد أحياناً عن بعض القيم الأخلاقية، ولكن الحل لا يكمن هنا في إقصاء هذا المجتمع والابتعاد عنه بل بإصلاحه^(١). ويتم الالتزام في المقررات المحلية بالمقررات الخاصة بكل بلد، بحيث يتم توزيع الكتب المطبوعة على مجزوءات ليتمكن الانتقاء منها حسب ما تفرضه المقررات المحلية، وحسب ما يقبل في بلد ما، واستبعاد ما لا يقبل. إضافة إلى طباعة كتب خاصة بالبلاد أو استخدام الكتب الدولية المقبولة لدى الدولة من دول ذات خبرة في الموضوع التعليمي^(٢).

في جواب رجب قايماقجان عن سؤال حول كيفية انتشار فكرة الأستاذ كولن داخل وخارج تركيا قال: "في أوائل التسعينات من القرن العشرين كان هناك داخل تركيا العديد من الحركات الدينية المشابهة لحركة كولن، ثم صارت الحركة هي الأولى بينها. أعتقد أن أحد

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ١١٦ -

(٢) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ص: ٣٤٨.

أسباب ذلك هو استيعاب الحركة جيداً لما يحدث في العالم ومحاولتها الاستفادة من العولمة وخطابات حقوق الإنسان والديمقراطية، والتي قد يكون لها آثار جانبية ولكنها استفادت من جوانبها الإيجابية^(١).

٥. التصالح مع الإنسانية

الأستاذ متصلح مع الجميع، ويدعو إلى الحب والتسامح فيقول مخاطباً السيوف المشهرات بل كل سيوف الكون، وكل آلات الحرب والدمار:

"متى يا سيوف أقلاماً تعودين؟!

متى يا دماء على الأرض تجفين؟!

والسيف إن عاد قلم،

مسح الألم،

وهتك الظلم والظلم،

وعالج الداء،

وجاء بالدواء.

فمداد الأقلام في عقول الأجيال،

أوقع اليوم،

من سيف كزار،

ودم هدار،

وهو في الميزان كنسيج الشهداء في الميدان"^(٢).

(١) رجب قايماقجان: مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، مؤتمر "مستقبل

الإصلاح في العالم الإسلامي"، القاهرة، ٢٠٠٩، المناقشات، ص: ٣٨٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: ألوان وظلال، ص: ١٨.

وسعى طيلة حياته لإطلاق نموذج الإنسان المسلم المثالي المتمسك بجذوره الروحية، المنفتح على ثقافات العالم ومتطلبات العصر، الموفق بين العقل والقلب والسلوك، الواقف نفسه لخدمة الإنسانية كسباً لمرضاة الله تعالى، إيماناً منه بأن هذه هي رسالة الإسلام الحقيقية والسبيل التي سار عليها كافة الأنبياء ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، لذا تميزت كافة المشاريع التي حث على إنجازها ببعدها الإنساني الشامل حيث حرصت على خدمة الإنسان من حيث هو إنسان، دون تمييز بين عرق أو لغة أو دين أو ثقافة^(١).

من يقرأ فكر فتح الله كولن يُحسّ بحدّبه نحو المسلمين بل نحو الإنسانية جمعاء، فهو يعتبر جميع المسلمين إخوة في الدين، وينظر إلى جميع البشر بأنهم إخوة في الإنسانية، إذ ينتمي الجميع إلى آدم وحواء، ومن هنا تأتي سمة الوحدة في فكره وبروز الحسّ الأخوي والجمعي في مناشطه وممارسات تيار الخدمة الذي يجسد فكره على الواقع.

إنه رجل جمع الله شمله فانعكس ذلك على فكره الموحد، ولذلك جاءت حركة موحدة حتى ولو لم تكن حركة منظمة كالتنظيمات المعروفة في هذا العصر، إذ حث تلاميذه على التوحد مع بقاء التنوع، وعلى التحابب مع بقاء التعدد، بحيث تكون آراؤهم تحت راية الوحدة، وبرامجهم وفق منهج واحد^(٢).

(١) محمد علي شاهين: مجلة الغرباء، محمد فتح الله بن رامز أفندي كولن (جولن-غولن)، ٤

أيار ٢٠١٢م.

(٢) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٧٦.

ويحذر الأستاذ من ادعاء أي أحد امتلاك الحقيقة المطلقة، حيث قال: "الاحتكار الفكري وادعاء صاحبه بأن الحق دائماً معه ليس إلا تعبيراً عن عبادة الوسيلة وإشارة إلى غياب الهدف. وإلا فكيف يمكن تفسير مشاعر الحقد والنفور والكرهية عند بعضهم نحو أناس يشاركونهم العقيدة والمشاعر والمبادئ نفسها؟ أليس هذا دليلاً على عدم وجود هدف؟ آه من هؤلاء المساكين عبيد أنفسهم الذين يطمحون إلى إدارة العالم حسب أفكارهم العرجاء"^(١).

والحقيقة أنه حسب آية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وآية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) فالذين توجد بينهم رابطة الإيمان ورابطة الإسلام عليهم أن يتحابوا ويحترموا أسلافهم، بل ويغضوا النظر عن بعض قصورهم المحتمل، وأن يدعوا بالخير لمن سبقوهم، وألا يحملوا على الإطلاق أي حقد أو غل أو عداة تجاههم. والذين يدعون انتسابهم للرسول ﷺ عليهم ألا يفكروا وألا يتكلموا إلا بخير وألا يتصرفوا إلا بخير تحقيقاً للآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢) كم نحن في حاجة إلى مثل هذا الأمر ولا سيما في مثل أيامنا هذه^(٢).

ويرى الأستاذ أنه لا بد من المحاوراة والإقناع مع الآخر، والرحمة والشفقة، والتواضع مع المؤمنين، فيقول: "لذا فالغلبة الآن تتم عن طريق الإقناع وعن طريق العلم وعن طريق المحاوراة والكلام أكثر مما تتم عن طريق القوة والعنف. وفي مقابل هذا فقد نمت الفردية

(١) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ٢٣.

(٢) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٢٨-٣٢٩.

بين الناس وضعفت العلاقات الرابطة بينهم. وبما أنه أصبح الدور الآن هو دور الجماعة والشعور الجماعي أكثر من دور الأشخاص والأفراد المتميزين والفريردين، فإن المطلوب ليس التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر ليناً وتواضعاً، أي أدلة على المؤمنين، لا يقابل الشتم منهم إلا بالسكوت ولا يقابل عدوانهم إلا بالصبر، أي يضع رأسه تحت أقدام المؤمنين. ودرجة الرحمة المطلوب تأسيسها بين المؤمنين أعلى بكثير من درجة الشدة المطلوبة نحو الكافرين والملحدين. علمًا بأن أول شرط في تأسيس الوفاق في هذه الخدمة المدنية بعد حب الله وابتغاء رضاه هو تأسيس جو هذا التذلل بين المؤمنين، أي حال التواضع الشديد. ومهما بذلنا من جهد في هذا السبيل فلن يغلى على هذا الهدف"^(١).

إن إنساننا في الوقت الحاضر أحوج ما يكون إلى المحبة والشفقة والكلام الطيب والصوت الأنوس الحنون بدلاً عن القسوة والعنف والضرب والقتل. فالمنتظر منا اليوم خفض جناح الرحمة والشفقة على الجميع حتى نسمع أناتهم في قلوبنا، ونستشعر قلقهم واضطرابهم في نفوسنا، فنشاركهم في الأفراح والأتراح. ومتى ما تحقق هذا فقد تحقق إذن عمل مهم تنتظره الإنسانية"^(٢).

٦. التخطيط

يرى الأستاذ كولن أن التخطيط في الكون يوجب علينا التخطيط في خلافة الله في الأرض ووراثته، فيقول: "لا شك أننا عندما نقوم

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٢٧.

(٢) محمد فتح الله كولن: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص: ٣٠.

بمشروع بناء أو عمل ساعة، فإننا نبدأ أولاً بوضع تصميم وتخطيط بمواصفات معينة؛ فنبداً نقدر ونحسب كل ما يمكن أن يظهر في المستقبل ضمن هذه المواصفات سلفاً. فلئن كان هذا التخطيط والتصميم في بناء بسيط أو في آلة بسيطة، فكيف يمكن تصور هذه الأنظمة الدقيقة والتوازن الدقيق المحير للعقول بدء من الذرات ووصولاً إلى الإنسان، دون تخطيط أو منهاج؟ ترى هل هذا النظام البديع المشاهد في الكون أقل شأنًا من نظام البناء أو الساعة؟!^(١).

ويطلق الأستاذ على سيدنا محمد ﷺ عنوان "إنسان التخطيط" لملازمة صفة التخطيط له في سائر حياته، فامتاز بوحدة الفكر والتطبيق، ولم يكن الرسول ﷺ يملك كومبيوترًا ولا عقلاً إلكترونيًا ولا هيئة تخطيط، ولكنه كان يعطي القرارات الصائبة في التو واللحظة ثم يخطو لتنفيذها... كان يعطي قراراته لمسائل بعمر مئات من السنين، ولم يكن يترك أي مشكلة في أي مسألة من هذه المسائل. أي لم يقل أحد شيئاً ضد ما قاله حول أي مسألة من المسائل ولم يستطع أن يقول^(٢).

وإذا كان التخطيط ملكة وسجية عند رسول الله ﷺ، فهو اكتساب ومهارة وتعلم لدى غيره، من هنا وجب على المسلمين الحرص على اقتفاء أثره، والتأسي به، ومن جملة ذلك تعلم التخطيط، وتعليم التخطيط، والعمل بالتخطيط، وتسطير المخططات، وتنفيذها، وصياغة الأهداف بناء على الغايات... لا بروح مدنية باردة، لكن بأبعاد إيمانية

(١) محمد فتح الله كولن: القدر في ضوء الكتاب والسنة، دار النبل، القاهرة، ط ٦، ٢٠١٠م،

ص: ١٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص: ٣٧٥.

نافذة؛ ويكون التخطيط بناء على هذا المنطلق والتصور نوعاً من العبادة، بل من أكثر العبادات فضلاً وأجرًا ومثوبة عند الله تعالى^(١).
 على كل مسلم أن يسير وفق مخطط ونظام ولا يتخذ أمره عبثاً فيخسر الدنيا والآخرة، فالتخطيط أساس لنجاح أي عمل، لذلك على كل إنسان أن يتناول كل عمل ضمن خطة مسبقة وتدبير، وعليه تجنب كل شيء لا يؤدي في النتيجة إلى فائدة مادية وفضيلة معنوية تجنباً قطعياً. فكل محاولة لم يؤخذ لها مثل هذا التدبير منذ البداية تعد عبثاً. والاشتغال بالعبث يدل على نقصان عقل ذلك الشخص وطفولة عقله. إن أي شخص يستطيع أن يظهر قدره وقيمه ويبرهن عليها عندما ينجح في اجتياز الامتحانات الصعبة والظروف غير المواتية. ونجاح الدعوة في ظل هذه الشروط يستند قبل كل شيء إلى خطة محكمة، والتصرف والحركة ضمن هذه الخطة. وعلى هذا فقدّر أي شخص وقيمه تتناسب مع مقدار نجاحه، ويتناسب نجاحه مع صحة القرارات التي اتخذها قبل البدء في مشروعه وعمله تناسباً طردياً^(٢).
 والمؤمن يجب ألا يقع في التشاؤم وهو يرى الإمكانيات المحدودة لديه. وعليه أن يستعمل ما أعطاه الله من فضل استعمالاً حكيماً وألا يستعمله دون حساب. أي يقوم بـ"ضرب عصفورين بحجر واحد" كما يقال في المثل الدارج. أجل! على المسلم أن يخطط على الدوام ويرمج كيف يضرب بحجر واحد مئات العصافير، مثلما نرى في العديد من الإجراءات الربانية. فكما نحصل من بذرة واحدة نبذرها

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١٤٨.

(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٦.

في الحقل على سبع، أو سبعين أو سبعمائة من البذور، علينا أن نخطط في كل خدمة نريد تحقيقها في سبيل الإيمان وفي سبيل الملة للحصول على سبع، أو سبعين أو سبعمائة ضعف^(١).

٧. الرقي الروحي

هؤلاء التلامذة والأنصار الذين ينتشرون بمئات الآلاف داخل تركيا، وينبثون خارجها في أصقاع الأرض شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، رجالاً ونساءً، أغلبهم من جيل الشباب، وبعضهم من الكهول والشيخوخ، وكلهم "داخل نطاق الخدمة" بالمعنى الاصطلاحي لكلمة "الخدمة" كما فهموها من الأستاذ. إذا رأيت أولهم، ورأيت آخرهم، ستجد أن سَمْتَهُم الروحي متشابه، كأنهم شخص واحد، أو هكذا يُخيل إليك كلما دقت فيهم النظر، أو كلما أطلت مراقبتهم. فهم في تفاعلهم وتواصلهم مع من حولهم، في حلهم وترحالهم، في حركتهم وسكونهم، في أقوالهم وأفعالهم، في نطقهم وصمتهم؛ كأنما هم توائم روحية، لا تكاد تميز أحدهم عن الآخر، اللهم إلا بالأوصاف الجسمانية. تجدهم في حالة امتلاء روحاني مستقر ومستمر. وقد وفرت هذه السمة حالة من الهدوء والسلام الداخلي مكنت حركة الخدمة من مواصلة عملها بانتظام، وأكسبتها قدرة إضافية على التوسع الإجتماعي والثقافي داخل تركيا وخارجها خلال عقود قليلة من الزمن، وأضحت اليوم حركة عالمية ذات رسالة إنسانية، إسلامية، أو إسلامية، إنسانية، لا فرق^(٢).

(١) محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٢٨.

(٢) إبراهيم البيومي غانم: معالم في سيرة "خوجه أفندي"، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح، ٢٠٠٩م، ص: ٢١٦.

٨. العمل المؤسسي

قد يكون هنالك سؤال: ماذا بعد "كولن"؟
أقول بعد "كولن"، المؤسسة، لأن هذا السؤال قد دار عبر تاريخنا،
فقيل، ماذا بعد النبي ﷺ؟ بعد النبي ﷺ كان الفتح لأن النبي ﷺ قد
خرج من هذه الدنيا وحركة الإسلام لم تتجاوز المائتي ألف في
مثلث الحجاز، ولكن بعد ثلاثين سنة امتدت إلى شمال إفريقيا وإلى
مصر وإلى آسيا... إلخ.

فإذا كان ما بعد "النورسي" جاء "كولن". فما بعد "كولن" إن
شاء الله الفتح وبعد الفتح المدد للإصلاح والتغيير، والمدد للأمة.
وحيثما تتجدد الأمة داخليًا وخارجيًا فإنها تكون قادرة على "الولادة
الذاتية" وتكون قادرة على إنجاز القيادات والعظماء^(١).

لم يبق كولن مفكرًا فرديًا كحال أكثر المفكرين، ولم يكتف بأَن
يكون داعية محاطًا بعدد من المعجبين والمنفعلين، بل صار بعقريته
وتوفيق الله له تيارًا عظيمًا داخل تركيا وخارجها، عرف بأنه تيار
"الخدمة"، وصار هذا التيار الخارج من تحت عباءة كولن، ملء السمع
والبصر، إذ يملك في تركيا مئات المدارس وعشرات الجامعات،
ومئات المدن الجامعية، وعشرات المستشفيات والمستشفيات
الطبية، وعشرات الجمعيات والمنتديات المتنوعة الأغراض.
وفي مجال الإعلام والثقافة، يمتلك تيار الخدمة عشرات

(١) حسن مكّي: الشيخ والخدمة، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي
"خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١
أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م. ص: ٢٧٨.

المؤسسات، ومنها ثلاثون دار نشر تصدر سنوياً مائة كتاب جديد في المتوسط، وخمس عشرة مجلة ثقافية، وتسع قنوات تلفزيونية، أصبحت الآن قرابة عشرين محطة مع وجود أقسام للترجمة في دور النشر، أنجزت مئات الكتب المترجمة إلى عشرات اللغات في العالم، إضافة إلى عشرات المواقع الإلكترونية بعدد من اللغات^(١).

٩. المواءمة بين التراث والحداثة

للتغلب على المرض المزمن الذي يستنزف طاقة أي تجديد واعد، ويقف لنجاحه بالمرصاد، وأعنى به الانقسام التقليدي إزاء "التراث والحداثة" إلى تيار متشبث بالتراث كما هو، وتيار متغرب يدير ظهره للتراث، ثم تيار إصلاحى خافت الصوت لا يكاد يبين. وهذا الاختلاف -في حد ذاته- أمر طبيعي وظاهرة مقبولة، لكنه ليس مقبولاً ولا طبيعياً أن يتحول الموقف كله من مواجهة خارجية إلى صراع داخلي يترك الساحة خالية لفرسان أجنب يسحقون الجميع. وقد لاحظنا في تجارب القرن الماضي أن أصحاب التيار الأول كانوا يراهنون على أن بالإمكان العيش في إطار التقليد الضيق، الموروث عن السلف، وإبصاد الأبواب في وجه أمواج الحضارة الغربية وثقافتها المتدفقة غير أنهم ما لبثوا أن تراجعوا دون أن يهيئوا المجتمع لأن يتعامل مع المتغيرات العالمية بأسلوب مدرّوس، وكانت النتيجة أن أصبح المجتمع أعزل أمام ثقافة غربية مكتسحة، والشيء نفسه يمكن أن يقال على "المتغربين"، الذين أداروا ظهرهم للتراث، ولم يجدوا في الاستهزاء به والسخرية منه حرجاً ولا حياءً، وأعلنوا

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٨٩.

مقاطعة التراث شرطاً لا مفر منه في حداثة التجديد والإصلاح. وكانت النتيجة أن أدارت الأمة ظهورها لهم، بعد ما تبينت أنهم لا يعبرون عن آلامها وآمالها، وأنهم يغردون وحدهم خارج السرب، هؤلاء خسروا المعركة أيضاً، ولم يحلوا مشكلة واحدة من مشكلات المجتمع، إن لم نقل زادوا الأمور ظلاماً على ظلام.

أما التيار الإصلاحية "الوسطي" فإننا نحسبه التيار المؤهل لحمل الأمانة، والجدير بمهمة "التجديد" الحقيقي، الذي تتطلع إليه الأمة، وهو -وحده- القادر على تجديد الدين بعيداً عن إغائه أو تشويهه، ولكن شريطة أن يتفادى الصراع الذي يستنزف طاقته من اليمين واليسار^(١).

والمفيد أن يلجأ اللاجئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني السرهندي والشاه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورسي، وأن يقتربوا بحماس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بالحركة لخالد وعقبة وصالح الدين ومحمد الفاتح وياووز سليم... نعم، وخطوتنا الثانية هي أن نمزج عشقهم وشوقهم الطافح غير المقيد بالأزمة والأمكنة كلها، بأصول عصرنا وأساليبه ووسائله، في بيدر واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يبلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كونية^(٢).

^(١) الشيخ أحمد الطيب: عقبات في طريق الإصلاح، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م. ص: ٣٧-٣٨.

^(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ٣٦.

١٠. المورد البشري

وهو الأساس في أي تغيير اجتماعي منشود، فهذه الحركة تمتلك جميع النماذج، فهي تسترشد بنهج الصحابة؛ تخرج نموذجها من داخلها على كافة المستويات، يدخل في هذا الإطار الرجل والمرأة، والشاب والمسن، ورجل الأعمال والعامل. هذا النموذج موجود في داخل كل المستويات. فمثلاً كما وجد المعلم معلمين غيره أمثال مصعب بن عمير رضي الله عنه قد رحلوا إلى كل مكان في العالم وأوقفوا أنفسهم على الخدمة في المؤسسات التعليمية، فسيجد كذلك رجل الأعمال رجال أعمال آخرين يطربون بالتضحية والكرم، ويعملون على فتح المؤسسات التعليمية أو تعزيز فتحها خدمةً للقيم الإيمانية والإنسانية. على رجل الأعمال المتحمس بفكر التضحية والكرم أن يفتح مؤسسات تعليمية في أماكن متعددة لخدمة الإيمان والقيم الإنسانية، أو يدعم المؤسسات الموجودة بالفعل، كما يوجد العديد من معلمين كمثل مصعب بن عمير رضي الله عنه تماماً يتوجهون إلى كل مكان في العالم وينذرون أنفسهم لتقديم الخدمة في المؤسسات التعليمية. ولذلك تعد هذه الحركة حركة نماذجها من داخلها بسبب حركيتها وأفكارها ومصادرها الخدمية^(١).

ومن أهم أسباب نجاح المدارس أن المعلم الذي يمتهن التدريس كعشق أو هواية؛ ولذلك يكون الإقبال على العمل في هذه المؤسسات بالتطوع أو الاختيار، ويمكن إدراك قيمة هذا الجانب حين يتعلق

(١) أركون جابان: فلسفة الخدمة لدى الأستاذ محمد فتح الله كولن، ورقة مقدمة في مؤتمر

الأمر بالعمل بالمدارس في بعض البيئات شديدة الصعوبة كالعراق وأفغانستان التي توجد بها مدارس عاملة، كما يبدأ فتح المدارس عادة في المناطق النائية من البلد، ويكون لهذا الأمر تأثير لافت على مستوى عطاء الأستاذ وتواصله مع الطلاب، إذ لا سأم من أسألهم وتطلعاتهم للمعرفة، وبالتالي فالأستاذ يملك الحد الأدنى -ضمنًا- من المقدرة على تحقيق الأهداف التربوية العامة على أرض الواقع تطبيقياً.

ولعل القيم التي يتربى عليها طلاب الأستاذ كولن ممن يتجهون إلى مهن المعلمين والأساتذة، ويتعلمونها في مجالسه وعبر كتبه من قبيل المحبة للناس جميعاً، ومساعدة الغير، وربط علاقات طيبة مع الجميع ما أمكن، تفسر جانباً مهماً في هذه السمة التي يشترك فيها أكثر معلمي هذه المدارس، يساعد على ذلك القرب الشديد من الطلاب^(١).

المعلم هو أستاذ مقدس يقوم بصياغة الحياة، على مدى حياة كاملة من الميلاد إلى الوفاة. يرشد الأمة في الحزن، ويعلو بأخلاقها وشخصيتها، ويلقنها بالشعور الأدبي، ولا يمكن إظهار مخلوق ثان على سطح الأرض مماثل لهذا الكائن السامي. إن تأثير المعلم على الفرد يفوق كثيراً تأثير الأم والأب والمجتمع. في الواقع فإنه هو الذي يعجن الأم والأب وكذلك المجتمع. وإن كل عجين لم يدخل يده يعد بلا طعم^(٢).

الأستاذ كولن جعل دوره وطلابه الذين تخرجوا من حلقاته في غاية واحدة، ومهمة مركزية في الحياة ألا وهي التبليغ، فقد كان يخاطب النابغين من طلبته منذ بداية دعوته موجهاً إياهم إلى

(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ص: ٣٤٦-٣٤٧.

(٢) رجب قايماقجان: مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، ص: ٣٦٧.

التخصص في مجال التدريس، داعيًا إلى الاتجاه إليه رغم ما تتيحه العلامات المتقدمة لهؤلاء الطلاب من ولوج كليات القمة كالطب والعلوم السياسية والهندسة المتقدمة، ولعل هذا الأمر هو ما يفسر جزئيًا المستوى العلمي للمدرسين والأطر التربوية في المؤسسات التعليمية التي نشأت بتأثير من دعوة الأستاذ كولن^(١).

ذلك أن المعلم هو إنسان الحب الذي يضيء أمام أبنائه بشعلة الحب التي في يده ويعدّهم للغد المشرق. المعلم هو بطل المحبة والتسامح الذي يعرف طلابه بجميع صفاتهم. ويحتضنهم دائمًا بمودة، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ويصفق لنجاحهم، ويغض الطرف عن جوانبهم السلبية. المعلم هو مُرَبِّ مثالي يوافق قوله فعله، ويظهر بحياته تمامًا الأشياء التي يتمنى وجودها لدى طلابه^(٢).

١١. المورد المالي

المورد المادي هام في العمل الدعوي. وفي الخدمة ينبثق من الإيمان بالإنفاق والتصدق، كما تتأتى هذه الموارد أيضًا من الأهمية التي يوليها رجال الخدمة لتربية أجيال تفيد الإنسانية؛ حرصًا منهم على كسب مرضاة الله سبحانه وتعالى. ومن الصعب على الإنسان الذي لم يتصدق في حياته ولم يفعل خيرًا بدون مقابل أن يتفهم هذا الأمر، ولكن المسلمين يفهمون ذلك بسهولة؛ لأن المسلمين عاشوا هذا في عهد الصحابة ومن بعدهم. والأستاذ فتح الله كولن قد فعل مفهوم التصدق في الإسلام؛ فقد عايشه هو نفسه وعايشه

(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ص: ٣٣٥.

(٢) رجب قايماقجان: مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، ص: ٣٦٨.

كذلك من حوله، وجعلوه غاية حياتهم.

وكثير من الناس استرشد بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿المؤمنون: ٣-٤﴾، وأقبلوا على عمل الخير متطوعين، عملوا وكدحوا وكسبوا وأنفقوا ودعموا هذه الأنشطة التعليمية بأموالهم وأنفسهم^(١).

الأصناف وهي صفة تطلق على التجار داخل هذه الحركة يجعلها تختلف عن غيرها من الحركات الإسلامية والتي فيها قد يتبرع بعض التجار ببعض المال والأشياء ثم يتراجعون ويتركون الأمر، هنا الأمر يختلف، هنا المعية الدائمة، التجار مع المدرسين والتربويين والمفكرين ونفس الحركة التي تكون عندهم تكون عند التجار، فيكونون جميعاً في صف واحد مما يزيد من الحركية والفاعلية ويجعل الجميع في سلك واحد ويزيد من الأخوة والتعاون، المعلمون يهاجرون، والتجار يهاجرون والجميع يبذلون ويقدمون^(٢).

ويرجع العامل الأساسي لهذا النجاح في حركة البذل الواسعة التي أطلقتها دعوة الأستاذ كولن، والتي تدفع الموسرين ورجال الأعمال إلى بناء المدارس كلياً أو جزئياً، أو التكفل بمدرسة منها في بلد في خارج تركيا، غير أن دور هذا النوع من التمويل نفسه أصبح جزئياً، بعد أن استطاعت كثير من هذه المؤسسات أن تدير

(١) أركون جابان: المناقشات عقب الجلسة الأولى (من هو فتح الله كولن)، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص: ٢٨٠.

(٢) لقاء خاص مع الأستاذ محمد أنس أركنه.

نفسها بطريقة اقتصادية فعالة من جهة، وبعد أن تم إنشاء مؤسسات هي بمثابة الإطار الموازي لمؤسسات التعليم، تتكفل بالتمويل الاقتصادي لإنشاء وإدارة مؤسسات أخرى، كمؤسسات الطباعة مثلاً، والمختصة منها في طباعة الكتاب المدرسي خاصة^(١).

ويتحدث الحاج "علي رضا تانريسور" عن رجال الأعمال الذين آمنوا بفكرة الخدمة، ونذروا حياتهم لتولي أمرها بكل تفان وإخلاص، فيقول: "الآن في إسطنبول يوجد عشرات الآلاف من رجال الأعمال، وفي تركيا مئات الآلاف من المتولين الذين نذروا حياتهم لله ولهذه الفكرة، والمتولي هو من تولى هذا الأمر وأصبح مجنوناً فيه (الخدمة) فهو ينفق بغير حساب، وما ينفقه أحب إليه بمئات المرات مما يقيه في جيبه.

المتولون هم الذين يربون هذا الجيل.. وهم الذين ينفقون بسخاء.. لا يريدون مقابل ذلك أي شيء ولا يريدون أبداً أن يُعرفوا بين الناس أنهم ينفقون حتى يبقى ذلك خالصاً لله تعالى. ومن سياسة هؤلاء التجار أنهم لا يكتفون بأنهم ينفقون أموالهم، وإنما يسيحون في الأرض هنا وهناك ليحثوا الناس على أن ينفقوا كذلك^(٢).

١٢. شخصية الأستاذ وسمعته

الأستاذ شخصية مرموقة ومعروفة تتميز بالتقدير والاحترام من الذين عرفوه ممن أيده أو عارضوه، ومما يشهد لمكانة الأستاذ

(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، ص: ٣٤٢.

(٢) لقاء خاص مع الحاج علي رضا تانريسور، إسطنبول، ٢٠١٣/٥/٥ م. وهو (رجل الأعمال) من أوائل الرجال الذين بدأوا مع الأستاذ كولن رحلته الدعوية في الخدمة.

حصوله على المرتبة الأولى في قائمة "أهم مائة مثقف معاصر في العالم"، وذلك لتجاوز تأثيره حدود بلده، وذيوخ صيته الثقافي في مختلف أنحاء العالم؛" بحسب نتائج الاستطلاع الذي أجرته في صيف ٢٠٠٨ مجلة السياسة الخارجية "Foreign Policy" الأمريكية بالتعاون مع مجلة "Prospect" البريطانية، التي ذكرت أن أكثر من خمسمائة ألف شخص صوتوا لصالح الشيخ فتح الله كولن، وبعد أن نشرت صحيفة "زمان" التركية المقربة من الشيخ نبأ الاستطلاع على صدر صفحتها الأولى، استنتجت المجلة البريطانية من ذلك أن أتباع الشيخ كولن لهم تنظيم محكم قادر على تعبئة هذا العدد الهائل من الأصوات^(١).

سار الأستاذ في حياته على نهج الصحابة. فقد كانت سيرة الصحابة الأولى حية ترزق في المنزل الذي نشأ فيه، وكانت ذلك المثل الأعلى في عملية التنشئة... فلا عجب أن تكون صفات تكريس الذات للجهاد الأكبر، واحتقار المال، والنزوع للتضحية، وخوض غمار المستحيل، وكثرة البكاء والتضرع لله جزءاً من هذه الشخصية. فكلها نماذج تجسدت بشكل أو بآخر في سير كبار صحابة النبي رضوان الله عليهم^(٢).

(١) إبراهيم البيومي غانم: معالم في سيرة "خوجه أفندي"، مؤتمر مستقبل الإصلاح، ص: ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) أماني صالح: تعقيب مكتوب على بحث إبراهيم البيومي غانم "معالم في سيرة" خوجه أفندي": محمد فتح الله "البسام" الأناضولي". مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط ١، ٢٠١١م، ص: ٢٧٣-٢٧٤.

الأستاذ في كتابه "ونحن نقيم صرح الروح" وفي مقاله "إنسان الفكر والحركة" تحدث عن أساتذته ومدرسته التي ينتمي إليها بشكل واضح، حيث اختار حوالي عشرين اسمًا من كبار المفكرين والمصلحين في التاريخ الحديث -أي أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين- عندما نظرت في هذه الأسماء وجدت أن أغلبها غير معروف، فكنت مضطراً إلى أن أعود إلى بعض الموسوعات والقواميس والدوائر التي تعرف بالشخصيات على شاكلة موسوعة "Who is Who" وإلى آخره، حتى أعرفهم لأنهم ليسوا معروفين في أغلبهم، ولكن وجدت أنهم ينتمون تقريباً إلى كل الأعراق والأقوام التي كانت تحت عباءة الدولة العثمانية، فمنهم من كان من أصل بلغاري، ومنهم الكردي، ومنهم العربي، ومنهم التركي، ومنهم الهندي^(١).

وفي الستينيات من القرن الماضي وعندما اشتد الصراع بين الشيوعيين والعسكر انسحبت القوى الإسلامية من هذا الصراع، وانشغلت عنه بإعادة بناء نفسها من حيث التربية والإصلاح الفكري والانفتاح المتحضر على كل القوى الأخرى. وكان المُنظّر الفكري لهذه الحركة هو الأستاذ "فتح الله كولن" الإمام والخطيب الذي عرف بين جميع الأتراك بزهده وورعه وفكره المعتدل، والداعي دائماً إلى إقامة الحوار والتواصل مع كل الآخرين. فتمتع بسمعة

(١) إبراهيم البيومي غانم: المناقشات عقب الجلسة الأولى (من هو فتح الله كولن)، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص: ٢٨١.

طبية ومصداقية عالية بين معظم أطراف المجتمع التركي وهو ما تحول فيما بعد إلى سمعة ومصداقية للحركة كلها^(١).

الأستاذ فتح الله كولن إذا نظرنا إلى شخصيته سنجد أنه يتمتع بشخصية العالم المثقف، لم يطلع إلى العلوم الإسلامية من حديث وتفسير وفقه وتصوف فحسب، بل أفاد أيضاً من العلوم الحديثة، فتعرف عن كتب بالعالم المعاصر أيضاً. إنه كما يقول بديع الزمان سعيد النورسي قد جمع بين الحسنين، وهذه هي الصورة القيادية التي نحن في أمس الحاجة إليها؛ لأن علماءنا التقليديين ينقلون دون دراية بالعالم المعاصر. أما مثقفونا فهم أميون، لا يعرفون شيئاً عن العلوم والثقافة الإسلامية^(٢).

كذلك بالنسبة للتصوف في أصوله القديمة طبعاً يعود إلى "ابن الرومي" و"القشيري" و"الحارث المحاسبي" و"الجنيد" فيعود الشيخ "كولن" إلى هؤلاء الأقطاب، ويعود إلى الإمام الغزالي، ويعود إلى "السعدي التفتازاني" في مجالات أخرى، بمعنى آخر هو لم يترك باباً من أبواب التراث إلا وامتص منه رحيقه وأخذ منه ما يريد. الأستاذ كولن لديه عقل الإمام "محمد عبده"، وروحية "سعيد النورسي"، وحركية وجماهيرية الإمام "حسن البنا"، ووجدان ورهافة حس "سيد قطب"^(٣).

(١) إيمان قنديل: إحياء عصر الصحابة في تركيا-١، مقال منشور في حزب الوسط الجديد، ٤ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) علي بولاج: الدين في تركيا والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، مستقبل الإصلاح، ص: ٢٩١-٢٩٢.

(٣) إبراهيم البيومي غانم: المناقشات عقب الجلسة الأولى (من هو فتح الله كولن)، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٢٨٢.

ومما تختلف فيه الحركة عن غيرها من الحركات شدة اتباع الأستاذ فتح الله كولن للقرآن والسنة، وهذا أمر مهم جداً، فهو يعمل فكره ويشحذ قريحته وفقاً للأسس والأصول الإسلامية، كما أن اللغة التي يستخدمها لغة راقية، ليست علمانية كالتى يستخدمها بعض أساتذة كلية الإلهيات على أنها لغة راقية، ويتبعون المنهج الأكاديمي عند تلقيهم العلم، وتنميتهم لأفكارهم. إن لغة الأستاذ فتح الله هي لغة الدين، لغة الإسلام، والأصول التي يرجع إليها ويستخدمها هي أصول الإسلام المشهورة المستخدمة في التاريخ الإسلامي، يعني الأصول التي يستند إليها الإمام السرخسي والإمام الشاطبي، أي القرآن والسنة^(١).

هناك الكثيرون الذين يتساءلون عن سر التأثير عند الأستاذ وعن القبول الذي يحظى به بين أنصاره، ولم يتكشف سبب "واضح ومحدد" أو عدة أسباب واضحة ومحددة، ويمكن قياسها بمنهجية "علم اجتماع المعرفة"، تفسر سرعة ترجمة أقواله إلى أفعال وإنجازات مؤسسية وبرامج عملية. وتفسر لنا أيضاً لماذا لا تكون الاستجابة له هي النوم أثناء الدروس والخطب والمواعظ، وينتهي أثرها قبل خروج مستمعيه من مجلسه. سنبقى فقط نتساءل عن سر تأثيره، هل لأنه صوفي اجتمعت لديه معرفة الحقيقة ومعرفة الشريعة و"ذاق فعرف، ومن عرف اغترف"، وذاق أنصاره فعرفوا واغترفوا أيضاً؟ أم لأنه فيلسوف أدرك مجمع الفضائل الإنسانية في ضوء مرجعيته الإسلامية التي غاص فيها واستخرج منها لآلئ الحكمة؟ أم لأنه أديب وشاعر مرهف الحس،

(١) علي بولاج: الدين في تركيا والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، مؤتمر مستقبل

يعرف كيف يقول للناس في أنفسهم قولاً بليغاً يصل إلى مكنونات القلب ويحرك كوامن النفس؟ أم لكونه قبل ذلك وفوق ذلك كله فقيهاً وأصولياً. أم أن هناك ما لا يمكن حسابه، أو إخضاعه للدراسة، وما يخرج عن طاقاتنا، في رد المسببات إلى أسبابها؟

هذا الأستاذ الذي يلقيه أنصاره "خوجة أفندي" تعبيراً عن عميق تقديرهم واحترامهم له، ونادراً ما يستخدمون لقبه العائلي "كولن"، الذي يعني بالعربي "البسام"، وأكثر ما يثير الدهشة هو أنك ترى البسمات والضحكات لا تفارق محيا أنصاره ومحبيه، وهم يعملون ليل نهار بجهد وعزيمة لا تفتر، أما حضرة "خوجة أفندي البسام" فلا يزال يبكي بعد أن جاوز السبعين بكاءً وهو يبكي في العشرين، يبكي أحوال أمته والإنسانية، ولا يزال يتضرع إلى الله تعالى ويسبح بحمده، وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً^(١).

١٣. العمل بدل التنظير

إن تحويل الفكر إلى واقع عملي هو جعل الفكر نموذجاً، ولقد ذكر كثير من الناس أموراً شبيهة بهذا، لكنني أظن أن اختلاف الأستاذ فتح الله عن غيره يكمن في النماذج التي طرحها، والمؤسسات التعليمية المختلفة التي دعا إلى إنشائها، والقنوات التلفزيونية والصحف والمجلات التي شجع على إصدارها، والتي باتت نموذجاً لمثيلاتها بمخاطبتها لجميع شرائح المجتمع ونواحيه المتعددة، علاوة على تحويله الفكر إلى نموذج واقعي. والأستاذ فتح الله يكرر دائماً أن كل

(١) إبراهيم البيومي غانم: معالم في سيرة "خوجة أفندي"، مؤتمر مستقبل الإصلاح، ص:

هذه الإنجازات ما هي إلا لطف من الله وحده، وأنها الطاف ربانية أظهرها الله بيد الإنسان^(١).

هناك العديد من الجماعات الدينية والمفكرين الذين وجهوا النقد لمفهوم التربية الحديثة والآلية في تركيا. لكن يُلاحظ أن هذه الانتقادات غالبًا ما تظل في المرحلة النظرية والفكرية. وبلا شك فإن الانتقادات النظرية الموجهة إلى التربية الحديثة مهمة أيضًا. أما كولن فلا يكتفي بالنقد النظري للتربية الحديثة التي تقترب جزئيًا من الشخصية الإنسانية، ويحث على افتتاح المدارس من أجل تنشئة الإنسان الذي في مخيلته.

بدأ كولن في ثمانينيات القرن الماضي فتح المدارس الخاصة ومعاهد الدروس الخاصة في تركيا. واليوم تدير حركة كولن معاهد للدروس الخاصة ومدارس خاصة في مرحلة التعليم الابتدائي والإعدادي تتجاوز أعدادها المئات. بعد تسعينيات القرن الماضي في فترة ما بعد الحرب الباردة صار فتح المدارس نشاطًا في جميع أنحاء العالم متجاوزًا حدود تركيا. يوجد اليوم مدارس خاصة يطلق عليها "المدارس التركية" وقد فتحت فيما يزيد عن مئة وسبعين دولة في العالم من قبل محبي الأستاذ كولن^(٢).

ومما تمتاز به الحركة أنها متعددة الأنشطة ومتنوعة بحيث يجد كل شخص فيها وفي مؤسساتها العديدة ما يناسبه من ألوان النشاط.

(١) أركون جابان: المناقشات عقب الجلسة الأولى (من هو فتح الله كولن)، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، ص: ٢٧٩.

(٢) رجب قايماقجان: مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٣٦٣-٣٦٤.

وهذا هو السبب في تأثيرها على مختلف أنواع الكتل الجماهيرية. وهي تطالب منتسبيها بتضحيات جسيمة. كما أنها لا تشبه الحركات الأيدلوجية التي تحاول جمع الأنصار والسيطرة على الشارع بإطلاق الشعارات. ولا تستمد قوتها وتأثيرها من الشارع، بل من قلوب الناس الذين نذروا أنفسهم للخدمة^(١).

فلم نسمع عن أناس وهبوا أنفسهم وأموالهم منذ أربعين عاماً لله، وينكرون ذواتهم، ولا يعترفون بذلك... أناس اتخذوا العمل منهاجاً لخدمة الإنسانية... أناس آثروا البذل والعطاء عن التنظير والشخصانية والتغني بالشعارات. ولم نكن نعرف مؤسس أكبر تجمع إسلامي في تركيا "محمد فتح الله كولن" أمد الله في عمره ونفع به وجعله ذخراً للإسلام والمسلمين، بالرغم من اهتمامنا بشؤون المسلمين في الخارج. رجال في سن الشباب، وتجار شعارهم البذل، وعلامة ملهم... ثالث النهضة الفكرية والثقافية والعلمية في تركيا. إنهم استلهموا من السيرة النبوية كيفية تغيير الواقع المزري بالتدرج من خلال التربية والبناء والتعليم، بعيداً عن السياسة ورفع الشعارات الإسلامية، والغني بالصور الخارجية والمظاهر دونما النظر لحجم الإنتاج العملي.

وعلى الرغم من إيمان هؤلاء بأن المبادئ الإسلامية ثابتة لا تتغير كما أنزلت في القرآن، فإنهم على قناعة أنها لا بد أن تتكيف مع ظروف كل عصر، وأن يتم تفسيرها من جديد لملاءمة ذلك العصر، كما يرون أن توافر العلوم الحديثة هو السبيل لفهم الذات الإلهية بالعقل عن طريق البحث في المخلوقات، ويقولون إن المجتمع لا

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٩١.

يمكن أن يتغير إلا إذا تغير الفرد، والسبيل إلى ذلك هو العلم، لذا فشعار "كولن" في ذلك هو "ابنوا مدارس جديدة بدلاً من المساجد". وهنا يقصد الأستاذ أن المساجد موجودة بطبيعة الحال، أما المدارس التربوية الحقيقية فالناس عنها في غفلة^(١).

١٤. التقييم المستمر

من أسباب نجاح المدارس التركية هو "نظام التقييم المستمر". ويسمح هذا النظام الموجه المتعلق بتحصيل التلميذ وأداء الأستاذ برصد دقيق لمستويات التعليم، واكتشاف مكامن الضعف وتقويمه بصورة دورية ومنتظمة، حيث هنالك كشف تعيين المستوى (SBS)، وامتحان التحصيل الأسبوعي (HKS) وهو نظام تقويم لتحصيل الطلاب في مستوى عال من الدقة، يقدم حصيلة أسبوعية توجه للأولياء، وفي هذا السياق تبدو لافتة علاقة المدرس بالأسرة من خلال استدعاء الأولياء للمدرسة والتعرف عليهم والتعامل معهم. ويعتبر تقويم التحصيل العلمي للطلاب، وبالتالي حصيلة عمل الأستاذ، وبشكل دائم (أسبوعي) عنصراً آخر مهماً من عناصر النجاح. بالإضافة إلى الاستعداد النفسي والخلقي لدى الأستاذ، فإنه يواكب بالتكوين والتقويم المستمرين، فكل الأساتذة في هذه المؤسسات يحضرون على الأقل مؤتمرين سنويين لصالح الأساتذة خلال الفصلين، بالإضافة إلى ورشات العمل واللقاءات المستمرة الخاصة بالأساتذة (سنوياً مرة أو مرتين على مستوى كل دولة)، ما

(١) عبادة السيد نوح: رحلة "حراء"، مجلة "الوعي الإسلامي" الكويتية، العدد: ٥٢٨ (أغسطس

يسهم في تطوير التكوين الأكاديمي بين الأساتذة. وعلى مستوى أساتذة كل تخصص على حدة يأتي "نظام الزمر" من خلال الاجتماعات المستمرة للمعلمين في المادة، والمدراء، ويمتاز هذا النظام بهيكلية على مستوى فروع المدرسة وهكذا، إذ يجتمع الأساتذة المتخصصون في المادة على مستوى المدرسة اجتماعاً أسبوعياً، مما يجعل المعلم غير مكثف بتكوينه الأكاديمي وخبراته الشخصية، إذ يسمح له "نظام الزمر" بالترقي باستمرار بناء على الخبرات المكتسبة، كما يتيح هذا النظام تبادل التجارب بين المعلمين الجدد والقدامى ما يشكل واحداً من أهم أسباب نجاح المعلم في أداء مهماته التربوية، كما يركز لديه الخبرة في وقت وجيز. وكذلك المتابعة الدائمة والتقييم المستمر والمراقبة الدقيقة للمناهج الدراسية والمواد التعليمية، إذ تعتبر جودة الكتاب المدرسي سمة أساسية من سمات العمل بهذه المدارس، ويرجع ذلك إلى الخبرات الواسعة التي تمت مراكمتها على هذا المستوى، إذ تتجدد الكتب الدراسية بالاعتماد على آراء المعلمين والمربين وتقييمهم لها، وفق نظام التأليف الجماعي عبر الاستفادة من آراء كل أساتذة المدارس على مستوى العالم (بما في ذلك بعض الخبراء من معاهد عريقة بأكسفورد مثلاً..)^(١).

١٥. الإخلاص

والإخلاص عمل قلبي، وإن الله يقدر الأعمال وفق الميول

^(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ورقة مقدمة في مؤتمر "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي"، ص: ٣٤٧.

القلبية... والإخلاص وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيراً والضحل عميقاً والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة. حتى يستطيع الإنسان بوساطتها أن يطلب أعلى ما في سوق الدنيا والآخرة. ويتمكن بفضلها أن يقابل بالاحترام والتوقير رغم كثرة الطالبين. ولأجل هذه القوة الخفية للإخلاص، يقول الرسول ﷺ: "أخلص دينك يكفك القليل من العمل" (رواه البيهقي)، وينبه أن تكون الأعمال خالصة لله "أخلصوا أعمالكم فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خالص" (رواه البيهقي). فإن كان العمل جسداً فروحه الإخلاص. وإن كان العمل جناحاً فجناحه الآخر الإخلاص. فلا جسد بلا روح، ولا يوصل إلى مكان بجناح واحد^(١).

فالإخلاص والنجاح في الدعوة متلازمان تلازم الماء والحياة، وتلازم النار والإحراق، وتلازم النور والإضاءة... أي تلازم السبب والنتيجة؛ فمتى وجد الإخلاص كان النجاح، وهذا -بتعبير الأستاذ كولن- هو "قانون إلهي" لا يتخلف أبداً؛ لكن قد يختلف الناس في تقديره وشكله وحجمه وأوانه^(٢).

ولا يجوز لأي إنسان مهما كان، بله المؤمن والمرشد، أن ينسب الأعمال إلى ذاته وإلى نفسه، كأن يقول: "أنا الذي فعلت"، أو "من غيري يفعل كذا"، أو "لولاي لما كان كذا وكذا"... ومن كان هذا اعتقاده حشر مع قارون القائل: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨)، أو مع كافر الجنتين، الذي دخل جنته وهو ظالم

(١) محمد فتح الله كولن: التلال الزمردية، ص: ١٠٥-١٠٦.

(٢) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١١١.

لنفسه، و﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (الكهف: ٣٥)، بل من أتى الله بمثل هذا الفساد العقدي، حتى وإن لبس لبوس الأئمة والخطباء والورعين، فإنه يتحول إلى فرعون صغير، يردد مع فرعون الكبير: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩).

ولقد نقد العديد من المفكرين حركات قامت ثم بادت، ولم تحقق المأمول، وأرجع البعض منهم الأمر إلى أسباب ظاهرية مادية مباشرة، لكنهم غفلوا عن السبب الحقيقي والأساسي وهو "مدى قرب تلك الحركة من الله تعالى وبعدها عنه"، "مدى إخلاصها فيما تأتي وما تذر". الله كان قيامها أم لغيره؟^(١).

كل السنة الذين سألناهم عن سر نجاح الأستاذ في منهجه أحالونا إلى "قلبه الذي ينبض برقة" فائقة، فهو شفق على كل المخلوقات، بكاء لكل ألم قد يلّم بأي إنسان، مهما بدا هذا الألم صغيراً أو حقيراً في عيون عامة الناس.^(٢)

١٦. الابتعاد عن السياسة

لقد نأى الأستاذ فتح الله كولن بنفسه عن السياسة من البداية، واهتم بالأنشطة التعليمية، وقدّر كل ما هو جميل، وشجع على كل الأنشطة التي تفيد الوطن والمجتمع وتنسجم مع القيم التي يؤمن بها. ولم ينتم لأي حزب سياسي ولم يشترك في أي أنشطة سياسية، وتعامل بالسوية مع جميع طوائف المجتمع. لا يعني هذا أنه لا يقدر من يخدم القيم الإسلامية والإنسانية، بل إنه شجع كل

(١) محمد باباعمي: البراديم كولن، ص: ١١٢-١١٣.

(٢) محمد باباعمي: المرجع السابق، ص: ١٤٠.

الخدمات التي تقدم من أجل الإنسانية، ولكنه لم يتبع أي حزب سياسي ولم يشترك في أنشطته. كل الذي أحاول عرضه هنا أن علاقة الشيخ فتح الله كولن بالسياسة هو مجرد نصحه لأحبائه أن يرشح كل منهم الحزب الذي يطمئن إليه بإرادته الحرة، ثم يعود إلى مواصلة خدماته الدينية، وقيمه التي يؤمن بها^(١).

لأن السياسة تعني الدخول في خلافات وشقاقيات مع الآخرين، وهذا عكس توجه حركة الخدمة، فهي تتجنب الدخول في صراعات مع غيرها من الحركات الدينية أو التيارات السياسية. وتسعى دائماً لبذر بذور الوفاق والتواصل والاتفاق والحوار والانفتاح مع الجميع، وهذه القيم العظيمة قد تختفي عند الانخراط في العمل السياسي.

١٧. التوازن

نجح الأستاذ كولن في إيجاد ميزان دقيق لحركته، فشكل لها جناحين طارت بهما إلى آفاق العلو، وما زالت في ارتقاء وصعود بكل قوة متجاوزة الكثير من الحركات التي سبقتها بسنوات. والسر في ذلك هو التوازن في كل شيء، فمن أهم سمات التجديد في حركة الخدمة التي أرسى دعائمها الأستاذ، التوازن بين الكثير من الدوائر الثنائية، كالتوازن بين المثالية والواقعية، وبين السببية والتوكل.

وفي هذه السمة التجديدية سنفرد الحديث عن التوازن بين الأزمنة الثلاثة في أفكار وأفعال هذه الحركة، فهي حركة سلفية من حيث المناهج (الزمن الماضي)، وحركة عصرية (الحاضر) من

(١) أركون جابان: المناقشات عقب الجلسة الأولى (من هو فتح الله كولن)، مؤتمر مستقبل

حيث البرامج؛ سلفية في الثوابت وعصرية في المتغيرات، تستظل تحت "راية" السلف، وتستنير بـ"آراء" الخلف، تعتز بالانتماء إلى الآباء وتفتح على الغرباء لتستفيد وتفيد، لتأخذ وتعطي؛ تحسن قراءة الماضي، وتبني الحاضر، وتخطط للمستقبل... وبالجملة فهي حركة سلفية حدائية في آن واحد، استطاعت أن تمسك بأزمة الأزمنة الثلاثة في آن واحد، وبتوازن عجيب^(١).

يقول الأستاذ: "نعم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا. فإن استطعنا أن نعجنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهزنا خميرة أبديتنا"^(٢).

ويقول: "إن تماسك أجيال الغد وقوامها وسعادتها، حاصل من حواصل الأرواح والأنفاس المضحية هذا اليوم. وإن انتظار مستقبل متكامل ومنظم من ركام البشر الضجر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلا محض وهم وسلوان كاذب. المستقبل يتطور إلى براعم في رحم اليوم، ويربو برضاع اليوم، ليماسك قوامه. وكما يحمل وجودنا اليوم سمات أمسنا، بخيرها وشرها، كذلك يكون الغد نسخة من اليوم بصورتها المطورة والموسعة والمتحولة من الفردية إلى الاجتماعية"^(٣). وبفضل هذا التوازن بين الأزمنة الثلاثة، فإن تيار الخدمة أجاد قراءة الماضي دون أن يصاب بالرهاب، وهكذا بين استقراء الماضي واستشراف المستقبل تمتد جسور الحاضر التي أجاد كولن

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٧٤.

(٢) محمد فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص: ١٢٧.

(٣) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١١٥.

بناءها بعقله المستنير وقلبه الرحيم ودمعه الغزير وكلماته القوية^(١).

١٨. وضوح الهدف

وضوح الرؤية، وتحديد الهدف، ثم الصبر على المتابعة والإصرار على تحقيق الهدف كفيل بصناعة القائد القادر على التأثير في مجتمعه، بل وتغيير ذلك المجتمع ليس عبر العنف والانقلابات العسكرية ولا عبر الغرق في تفاصيل العمل السياسي اليومي، بل عبر العمل الاجتماعي والتربوي الموصول والمحدد الهدف^(٢).

وتحدد هذه النوعية من المدارس جملة من الأهداف الحاكمة لعملها، وهذه الأهداف الثمانية معلنة ومسطرة، أي ما يسمى بالأهداف التربوية العامة للمدارس هي:

أ- تلقين الطالب المواد التعليمية بالشكل والمستوى المطلوب (جودة الجانب الأكاديمي).

ب- تهيئة الطلاب ذوي المواهب الخاصة بما يناسب كفاءاتهم واستعداداتهم، حيث انتقلت هذه المدارس كما هو الحال في تركيا مثلاً من التنافس في الأولمبياد (مسابقات الرياضيات) مع غيرها إلى التنافس فيما بينها.

ج- استهداف أن تكون عند الطالب خريج المرحلة الابتدائية على الأقل هويتان لتغطية وشغل أوقات الفراغ، من خلال الأنشطة الموازية (نوادي الهوايات الثقافية في الجانب الثقافي إضافة إلى الأنشطة الرياضية).

(١) فؤاد بنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٧٦.

(٢) بلال حسن التل: أيام الله في تركيا-١، مقال منشور في جريدة "اللواء" الأردنية، ١٩ أبريل

د- تأهيل قدرات الطلاب على استخدام تكنولوجيا المعلومات.
ه- تنمية تعليم اللغات الأجنبية عند الطالب (على الأقل لغة أجنبية واحدة).

و- العناية بالجانب الخلقي من العملية التربوية (المستوى العالي من الآداب والسلوك).

ز- تنمية مستوى اللغة المحلية (التركية، الإنجليزية، العربية...).

ح- تنمية مستوى الوعي التاريخي للطلاب، بهدف أن يصير الطالب طرفاً متفاعلاً مع تاريخه وبالتالي مع واقعه^(١).

١٩. إيجابية الحركة ومثلها العليا

تتوجه الدعوة إلى كل فرد، وتحاول قلب كل علاقة دنيوية إلى علاقة أخروية وأبدية. وكل نشاط من أنشطتها مزينة بسمه من سمات الآخرة. لذا تأخذ العلاقات الداخلية للحركة سمة الوفاء والتضحية وتكون الأولوية لها، ولا تدعو إلى أي هدف نفعي أو دنيوي.

فهذه هي المثل التي تهدف حركة فتح الله كولن الوصول إليها. وكل مجتمع ضعفت فيه القيم الأخلاقية والإنسانية، وبهتت فيه الأهداف الفطرية النبيلة، يقوم بالتوجه إلى خلق حركات كمثال هذه الحركات، حيث لا توجد هذه القيم في الحركات الهامشية والأيدولوجية. فالصبر والتحمل والتضحية واللائانية، ليست من المثل الأخلاقية التي تستطيع الروح الرادكالية والارتكاسية إنجابها، بل هي قيم لا ينتجها إلا حركة وأدمغة اعتمدت على الحركات

^(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل

الإيجابية في نطاق فردي واجتماعي. وحركة فتح الله كولن اتخذت الحركة الإيجابية أساسًا لها. لأن الشجار والصراع والنقد والتهميش يهدم هذه المثل العليا. فلا يمكن في كيان الحركة الإيجابية نمو مشاعر حاقدة أو نوايا حادة^(١).

بدأ فتح المدارس في دول أخرى خارج تركيا منذ بداية التسعينيات، حيث تأسست أول المدارس خارج البلاد سنة ١٩٩١، وذلك في آسيا الوسطى إثر انهيار الاتحاد السوفياتي، فيما كانت التجربة قد بدأت قبل ذلك بسنوات داخل تركيا. ففي صيف عام ١٩٩٠ وجه الأستاذ فتح الله كولن دعوته التاريخية إلى الشعب التركي من على كرسي الوعظ في المساجد السلطانية داعيًا إياه "إلى نجدة إخوانه في الدم والدين، الذين خرجوا من الاستعمار (الروسي) قبل أن يدخلوا تحت سيطرة استعمار ثان"، وبأثر من تلك الدعوة استضاف الشعب التركي في تلك السنة ما يناهز الثلاثين ألف عائلة من آسيا الوسطى، وهو ما أعطى المدارس فيما بعد قاعدة شعبية من كل الناس بعد موجة التعاطف والانخراط الشعبي في تلك المبادرة حينها.

إثر ذلك بدأت الدعوة إلى تحويل العلاقات مع الشعوب المسلمة في آسيا الوسطى من أبناء الجمهوريات الإسلامية الخارجة من حكم الاتحاد السوفياتي إلى علاقات ملموسة عبر استقدام الطلاب من آسيا الوسطى، والاهتمام بهم وبدراساتهم وعودتهم إلى بلادهم، ثم لما تعذر ذلك بسبب الأوضاع الإدارية والعامة في

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ١١١-

البلاد، دعا الأستاذ كولن إلى فتح طريق آخر (كتجّل لطبيعة تفكيره العملية والإيجابية) إلى فتح المدارس في تلك البلاد التي انتشرت فيها هذه المدارس، بل أصبحت تحتل فيها مكانة متميزة، ومنها انتشرت الفكرة إلى جميع أنحاء العالم؛ باستثناء دول قليلة لا زالت تمنع فتح هذه المدارس مثل إيران وكوريا الشمالية والصين^(١).

٢٠. السرية والكتمان

السر كالعرض، فمن صان سرًا -سواءً أكان له أم لغيره- فكأنه صان عرضه. ومن باح به فكأنه خان شرفه وكرامته ولم يراع حرمة ذلك السر حق الرعاية. يجب أن يكون الشخص الذي يودع أي إنسان سره لديه أمينًا أمانة من لا يتردد في إيداع عرضه عنده، وأن يكون واثقًا أنه سيدي نفس حرصه هو في صيانة عرضه. فكما لا يجوز إيداع أمانة لدى شخص غير أمين كذلك لا يجوز إيداع السر لدى من لا يعد السر عرضه وشرفه. صيانة السر واحترام أسرار الآخرين ميزة إنسانية مرتبطة بالإرادة والإدراك. فالذين يفتقرون إلى الإرادة لا يستطيعون حفظ السر، كما أن السذج والبسطاء الذين لا يدركون عواقب ما يعملون أو ما يقولون لا يمكن أن يكونوا كتومين^(٢).

السر منبع لقوة لا تقاوم، ومثل جيش لا يمكن هزيمته. قلب الأحمق على طرف لسانه، أما لسان العاقل ففي أغوار صدره. والذي يحبس لسانه، ينقذ نفسه من أسر كلامه. والسكوت حكمة أيضًا،

^(١) سمير بودينار: فلسفة التعليم، السباحة في المجال الحيوي، مؤتمر مستقبل الإصلاح في

العالم الإسلامي، ص: ٣٤٣-٣٤٤.

^(٢) محمد فتح الله كولن: الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٣.

ولكن مثل هذا الحكيم قليل أو يكاد لا يوجد^(١).

ثانياً: إنجازات الحركة العملية

حقق تلامذة الأستاذ وخريجو مدرسته في الدعوة والإصلاح الكثير من الإنجازات. وتشمل هذه الإنجازات عشرات، بل مئات "المؤسسات" والمشروعات والبرامج التي تغطي مجالات تربية النشء وتعليمه، والإعلام والفنون والتثقيف العام، والعلاج والرعاية الصحية، ومحاربة الفقر ومساعدة ذوي الحاجة، وأعمال الإغاثة والمساعدات الإنسانية، والحوار بين أتباع الديانات وأبناء الحضارات والثقافات المختلفة.

يحرص تلامذته ومحبه وأنصاره على إنكار ذواتهم عند الحديث عن الإنجازات التي يحققونها في تلك المجالات داخل تركيا وخارجها، ويرون أن الفضل بعد الله سبحانه وتعالى، إنما يرجع إلى توجيهات وإرشادات "خوجه أفندي". بينما يرى هو عكس ذلك، ويؤكد على أن الفضل لله أولاً وأخيراً. وأن من الله عليه وعليهم، قيامهم (هو وهم) بالخدمة^(٢).

عمل الأستاذ فتح الله كولن على تشخيص أهم أمراض المجتمع التركي، وتركز اهتمامه على ثلاثة جوانب أساسية هي: الجهل والفقر والاختلاف... وعكف على مداواة هذه الأمراض عن طريق الخطب والتحرك للوصول إلى كل الناس في كل مكان سواء الإسلاميين

(١) محمد فتح الله كولن: المرجع السابق، ص: ١٨٩.

(٢) إبراهيم البيومي غانم: معالم في سيرة "خوجه أفندي"، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٢١٦-٢١٧.

لتعليمهم وغرس هذه الأفكار والمبادئ فيهم، أو أصحاب الاتجاهات الأخرى مرسياً قواعد التحاور وإعلاء مصالح الوطن فوق كل اعتبار ومصلحة^(١).

١. المدارس

تعد المدارس التي فتحت بتشجيع من فتح الله كولن مهمة لنظام التعليم التركي من ناحيتين:

١- من الناحية الاجتماعية.

٢- من ناحية النوعية الجيدة للتعليم.

لقد نفتت هذه المدارس الحركة والحيوية لنظام التعليم في تركيا، وكانت عاملاً في زيادة الاهتمام بنظام التعليم سواء في الأوساط المؤيدة لهذه المدارس أو المعارضة لها. وعندما تبين نجاح هذه المدارس في إعداد الطلاب للجامعات، ونجاحها الباهر في المباريات العلمية العالمية، وانعكست أخبار هذه النجاحات في وسائل الإعلام ووصلت إلى أسماع الرأي العام، توجه العديد إلى ساحة التعليم، إلى درجة أنه لم يحدث مثل هذا الاهتمام المتزايد نحو التعليم في تركيا في العهود السابقة. حتى لقد أصبح من المعتاد الآن وجود برامج خاصة للتعليم في وسائل الإعلام، وخصّصت الجرائد صفحات لموضوع التعليم وأخباره. وزاد إقبال العديد من الأوساط إلى التعليم بعد أن كانت لا تربطها به أي علاقة. ونما قطاع التعليم وأصبح من القطاعات الخاصة المهمة.

تم كل هذا بواسطة المدارس التي شجع على فتحها فتح الله

(١) إيمان قنديل: إحياء عصر الصحابة في تركيا-١، حزب الوسط الجديد، ٤ يوليو ٢٠٠٩.

كولن، وبفضل النجاحات التي حققتها. وانعكست هذه الحركة الاجتماعية على مستوى التعليم في تركيا، ورفعت من مستواه. وبينما عدّت بعض الأوساط هذه المدارس كنذر خطر في المستقبل، نظرت إليها أوساط أخرى بأنها نذر خير، وعدتها أوساط أخرى نشاطات ناجحة تستهدف الربح. وسواء أكانت الدوافع أيديولوجية أو سياسية أو إنسانية أو ربحية، فقد زاد الإقبال اجتماعيًا على إنشاء المدارس. ويُعد هذا -طبعًا- تطورًا إيجابيًا في البلد^(١).

اقتنع الأستاذ فتح الله كولن بأهمية العملية التعليمية والتربوية كعلاج أول وهام لكل أمراض المجتمع الأخرى. فالجهل آفة الآفات، والتطور الاجتماعي والثقافي والحضاري لكل أمة مرهون بالعملية التعليمية فيه؛ فكانت البداية لهذه الحركة بالتشجيع على إنشاء المدارس والداخليات والجامعات خاصة مع ما تعرضت له تركيا من أزمات اقتصادية حادة أثرت على مستويات التعليم والصحة مما اضطر الحكومة لفتح الباب للقطاع الخاص والأهلي للدخول في العملية التعليمية والصحية. وقاموا بحملة شهيرة لبناء المدارس والمستشفيات، ولكن المهم أن هذه الحملة اهتمت بحث الناس على الاهتمام بالجانب التربوي كما الجانب الاقتصادي. ومن هنا جاءت الفرصة لهذا التيار المتأثر بفكر الأستاذ فتح الله أن يبدأ بناء سلسلة المدارس المتنوعة على امتداد الدولة التركية مستفيدًا من البنية التحتية البشرية التي أعدها سابقًا أيام

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٨٨-

فترة السكون. فكانوا هؤلاء هم المدرسين والتربويين الذين قامت بهم وعليهم نجاحات هذه المدارس^(١).

جلب فتح الله كولن مفهوم التضحية إلى نظام التعليم، لأن التعليم سباق طويل المدى وصعب؛ فهو يستلزم تضحية جدية، وتحملاً وصبراً على الآلام والمشاكل.. والتضحية كانت أهم عامل في نجاح هذه المدارس؛ فهناك الآلاف من الذين هرعوا إلى خدمة التعليم بكل شوق وبكل رغبة. وأدوا هذه الخدمة ناذرين أنفسهم لخدمة الإنسانية، وراضين بالعيش بكل تقشف وزهد. كان مثل هذا الأمر قد غاب تماماً عن نظام التعليم في تركيا من زمن بعيد.

لقد كان من الصعب جذب المربين والمعلمين إلى المناطق الفقيرة. ومع أنه تم وضع نظام مضاعفة الرواتب في بعض هذه المناطق الفقيرة، إلا أنه لم ينفذ كثيراً، وبقي ميل هؤلاء ورغبتهم في البقاء في جو المدينة في المدن الكبيرة. ولكن هذه الصعوبة لم تكن موجودة في هذه المدارس، بل تم إرسال المربين والمعلمين إلى أرجاء الدنيا، وإلى مناطق بدائية محرومة من العديد من الحاجات العصرية، بل أرسلوا حتى إلى مناطق تحتدم فيها المعارك، وإلى مناطق خطيرة لا يتوفر فيها عنصر الأمان.. ومع كل هذه المخاطر فقد هرع المربون إلى هذه المناطق متوكلين على الله ومسلمين أمورهم ومستقبلهم له^(٢).

(١) إيمان قنديل: الإصلاح في التربية والتعليم، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٢، مقال منشور في صحيفة حزب الوسط الجديد، ١٥ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية"، ص: ٢٨٩-

قامت هذه المدارس بتغيير عقلية ونمط التعليم المتشاكل والمتجمد المستند إلى الحفظ والتكرار وتحت شعارات معينة لا حياة فيها؛ إذ لا يزال نظام التعليم في تركيا مستنداً إلى أسلوب الحفظ والتكرار ولم يتخلص بعد من آثار المنطق الصوري في العديد من الساحات. وبدلاً من نظام التعليم المستند إلى الحفظ اختارت هذه المدارس المنطق الرياضي والتجريبي وطريقَ الفكر المنفتح المتطور، وبذلك جلبت الحركة والنشاط إلى النظام التعليمي، وقامت بتجديد معايير التعليم وبرفع مستواه^(١).

هذه المدارس مبنية بأجمل الطرز المعمارية وبها أفضل تأثير، بالإضافة إلى التجهيزات الكاملة للمعامل والأنشطة الرياضية والثقافية. وقد تم تحديد سعة الفصول بحيث لا تزيد على اثنين وعشرين طالباً وطالبة، وتحديد عدد أعضاء هيئة التدريس بحيث يكون مدرس لكل عشرة طلاب، ويكون التواصل بين المدرس والطلاب في كل مجالات الحياة. وهناك نشاطات خاصة بالآباء والأمهات، بحيث يكونون على اتصال دائم بنشاطات المدرسة وضمن العملية التعليمية والتربوية الخاصة بأبنائهم. وفي هذه المدارس يعتمدون على المناهج الحكومية المقررة، ولكن التميز الحقيقي يكون في كفاءة المدرس وحسه التربوي العالي، وكذلك النشاطات التي يمارسها الطلاب باختيارهم طوال الموسم المدرسي والصيفي^(٢).

(١) محمد أنس أركن: المرجع السابق، ص: ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) إيمان قنديل: الإصلاح في التربية والتعليم، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٢، مقال منشور في صحيفة حزب الوسط الجديد، ١٥ يوليو ٢٠٠٩.

والتجديد المهم الآخر لهذه المدارس نراه في صدد العلاقات بين الطالب والمعلم، وبين المدرسة والأسرة والمحيط الاجتماعي حيث أُرست علاقاتٍ حميمة دافئة وعاطفية. هذه المدارس أحيت العلاقات العائلية الحميمة السابقة، وأحيت المشاعر والعواطف الحميمة الظاهرة عادةً في العائلة والمحلة والبيئة الاجتماعية الصغيرة، وبعثت من جديد الأنموذج الماضي للإنسان البطل المضحى، الذي ينذر نفسه لأمته ولوطنه وللإنسانية جمعاء بكل المحبة، والذي اختفى أنموذجه في هذا العصر المادي الأناني اللاهث وراء المصالح الذاتية^(١).

المدارس تشكل ساحة مهمة في العلاقات الدولية من الناحية الاجتماعية والثقافية مع الدول المحيطة بها. وهناك دول -مثل إنجلترا وفرنسا- لا تقوم بفتح مؤسسات علمانية معاصرة كالمدراس فحسب، بل تشجع جميع النشاطات الخارجية والدينية للكنيسة، وتدعمها مادياً ومعنوياً من زاوية سياستها الدولية. علماً بأن لفرنسا مشاكل كثيرة مع الكنيسة الفرنسية، ولكن مع هذا تؤيد جميع نشاطات الكنيسة وفعاليتها في شمالي إفريقيا وفي الشرق الأقصى، لأنها ترى أن هذه الفعاليات تصب في صالح المصالح الوطنية الفرنسية.

فإذا نظرنا إلى الموضوع من هذا المنظور الشامل، نرى أن هذه المدارس ساهمت وتسامم مساهمة إيجابية في الثقافة التركية وفي علاقاتها الخارجية. لقد اتبعت تركيا ومنذ عصور سياسة منغلقة نحو الخارج، فضعت جراتها ورغبتها في الانفتاح على الخارج، وكانت

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٩٤.

تبدي ردود فعل غريزية وقلقاً ضد الانفتاح على الخارج. الفوائد الإيجابية لهذه المدارس وثمرتها ستظهر بشكل أوضح في المدى البعيد، لأن التربية والتعليم مشروع طويل المدى. ولا شك أنه لأول مرة في تاريخنا الطويل يظهر هذا الصدى الواسع لمشروع تعليمي، فقد أحدث حركةً واسعة وتأثيراً على النطاق الدولي في الساحة الثقافية والاجتماعية والدولية. ومع أن مؤسسات وتنظيمات أخرى غير هذه المدارس تتولى موضوع الحوار بين الحضارات، إلا أن هذه المدارس خرّجت أشخاصاً عديدين تصدوا لهذا الموضوع وحملوا هذه المهمة.

لقد قامت هذه المدارس بمدرسيها وأساتذتها وكوادر الإدارة فيها بصنع نسيج لين ورقيق من العلاقات الحميمة المشتركة بين أناس يختلفون في الدين والثقافة والحضارة. وستزداد ساحة هذا التأثير وتعمق إلى درجة قد يفوق حتى توقعات القائمين عليها، لأن تربيةً وتهيةً أشخاص مدنيين مستعدين للحوار مع الآخرين على الرغم من الفروق الدينية والثقافية والاجتماعية عنصر مهم جداً، يشكل في المستقبل أساساً وقاعدة للحوار بين الحضارات.

الحركة جعلت للمعلم مكانته وأعدت له دوره الذي كان يؤديه في ماضينا العريق. فالمعلم أهم مربٍّ ومهيئ للإنسان وللمجتمع؛ فرجال الإدارة والسياسة والعلم والفكر والعباقرة والعلماء تربوا على يديه، وهو حامل وناقل لكل أنواع الفضائل أيضاً، ولكنه فقد -مع الأسف- في أيامنا الحالية نفوذه الاجتماعي على الصعيد العملي، وفقد تجهيزاته المادية والمعنوية. بينما كان يلعب دوراً أساسياً في

السابق في مجتمعاتنا، حاملاً لكل الأعباء الاجتماعية والإنسانية، وناقلاً مقدسات المجتمع من جيل لآخر.. وكان المعلم أول ضحية لتفسخ النظام التعليمي. لذا كانت الحركة التعليمية التي قادها فتح الله كولن إحياءً لهذه المهنة من جديد. فالمعلم -عنده- المجهّز بالعلم والمعرفة، ظهر على مسرح التاريخ مرة أخرى ظهوراً أقوى من السابق وبتأثير أعظم بفضل ما تجهز به من تضحية ووفاء وعلم وعرفان. فكأن فتح الله كولن استنهض بطلاً من نومه^(١).

٢. الجامعات

جامعة الفاتح جامعة خاصة أنشئت عام ١٩٩٦م استكمالاً للجوانب العملية التعليمية والتربوية لهذه المدرسة الفكرية، ويطلقون عليها "الوجه اليافع والمشرق لتركيا" (The Bright and Young Face of Turkey) وهي جامعة وقفية متوافقة مع النظام المركزي التعليمي لتركيا، ولديهم الآن أكثر من عشرة آلاف طالب، وتحتضن أكبر عدد من الطلبة الأجانب الذين يقدمون لهم خصم خمسين بالمئة على المصروفات، وهو قرار إستراتيجي من أجل أن تكون جامعة دولية تحقق اللقاء والتعايش الثقافي بينهم وبين العالم. وترتيبها الثاني عشر بين مئة وخمس عشرة جامعة تركية، والخامسة بين الجامعات الخاصة. ويهدفون إلى أن تكون الجامعة الأولى في تركيا.

قاموا بإنشاء أول جامعة لهم في أفريقيا في أبوجا بنيجيريا، لتكون بداية الانطلاق نحو القارة الأفريقية. وقد حاولوا هناك دراسة احتياجات البلد حتى تتحقق أقصى فائدة ممكنة، فكانت مجالات

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٣٠٠.

الدراسة هناك هي الزراعة والاستغلال الأمثل للمياه، وأبحاث تكنولوجيا البترول، والهندسة المدنية الإنشائية للطرق والمباني والكباري^(١). وقد أحصيت سبع عشرة جامعة فتحت بتشجيع الأستاذ كولن في مدن مختلفة بتركيا إلى جانب ثلاث عشرة جامعة خارج تركيا وذلك في عام ٢٠١٦.

٣. وقف الصحفيين والكتاب "منبر أبنت للحوار"^(٢)

قام فتح الله كولن بعد ذلك بمحاولات وتجارب أولية لمشروعه الكبير لإرساء قواعد الحوار بين الحضارات. فقام بعقد اجتماعات بين ممثلي مختلف الأفكار، وبين ممثلي مختلف أنماط المجتمع وأديانه، ومع الذين دخلوا في صراعات عملية فيما بينهم في الستينات وفي السبعينات، والذين استمرت خلافاتهم في الساحات الفكرية والاجتماعية، وانقسموا إلى معسكرات مختلفة.. وجد هؤلاء أنفسهم يجلسون لأول مرة حول مائدة واحدة مع مخالفينهم في الرأي والأيدولوجية. وللمرة الأولى كانوا يرون مخالفينهم عن قرب ويتحدثون معهم. كان هؤلاء من الذين ربما شهر أحدهم السلاح في وجه الآخر في السابق، أو على الأقل قادوا تيارات مختلفة ومتعارضة من الحركات الشبابية. جلسوا حول مائدة واحدة وجهاً لوجه يتناولون الطعام ويسأل أحدهم عن أحوال الآخر. صحيح أن الحديث كان في هذه اللقاءات الأولى لا يتجاوز

(١) إيمان قنديل: الإصلاح في التربية والتعليم، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٢، مقال منشور

في صحيفة حزب الوسط الجديد، ١٥ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) تأسس هذا الوقف عام ١٩٩٤م.

كلمات المجاملة، ولكن هناك من بين الحاضرين من أعجب بهذه الاجتماعات، وبدأت عنده أمارات الرغبة في إرساء القواعد الفكرية والفلسفية والاجتماعية لهذه الاجتماعات. وبمرور الزمن نتجت عن هذه الرغبة اجتماعات مدينة أُنْتُ (Abant)، أو ما أطلق عليه اسم "منبر أُنْتُ للحوار".

لم تعد هذه الاجتماعات اجتماعات مجاملة، فقد شكل هنا كادر علمي جاء أعضاؤه من مختلف الجامعات ومختلف الاختصاصات ومختلف المدارس الفكرية. وانقلب الصراع هنا إلى صراع فكري وعلمي.

لقد جاء هذا الكادر العلمي الذي ينتمي كل منهم إلى مدرسة فكرية مختلفة إلى هذه الاجتماعات لتأسيس ساحة مشتركة من التفاهم والعيش معاً في تركيا دون صراع. كان هذا دون شك مشروعاً كبيراً لا شبيه له. كان فتح الله كولن ومحبوه في أول الأمر هم الذين يديرون هذا المنبر، لكن ما إن اتسع مجال هذه الاجتماعات ونطاقها حتى انقلب هذا المنبر -نتيجة اشتراك عدد كبير من المفكرين والعلماء في ساحات الفكر والعلم والقانون والسياسية- إلى منبر مشترك وإلى برنامج عمل. ولا يشغل فتح الله كولن سوى الرئاسة الفخرية لوقف (جمعية) "الكتاب والصحفيين" التي تقوم بترتيب هذه الاجتماعات وتمويلها، أي إن اجتماعات الحوار هذه أخذت قلبها المؤسساتاتي على يد هؤلاء الأكاديميين وأصبحت تحت تصرفهم^(١).

الكبار لا يكفون عن التعملق، وفي هذا الزمان الذي تعولم، ونادى

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٤٣-٤٤.

بعض مفكره بـ"صدام الحضارات" كالمفكر الأمريكي صموئيل هنتجتون، وبشر آخرون بـ"نهاية التاريخ" كالأمركي الآخر فرانسيس فوكوياما، مما دفع أصحاب التعصب الديني والعرقى إلى دق طبول الحرب الدينية والصدام الحضاري، في هذه الأثناء رفع كولن صوته مدوياً في الآفاق، يصدح بالحب ويصدع بالدعوة للتسامح والسلام والأخوة الإنسانية، بادئاً بالدعوة إلى الحوار الباحث عن المشتركات الدينية والإنسانية، والذي يراعي الاختلافات ويرعاها وينطلق منها إلى آفاق التعاون في كل ما يحقق خيراً للبشرية.

وكعادته لم يكتف بمجرد الدعوة أو الكتابة، بل عزز ذلك بالعمل حيث أوجد مع العاملين معه عدداً من المؤسسات المنحازة إلى الحوار، لتنتفع له مقراتها وقلوب أبنائها، وتسخر له إمكاناتها^(١).
بدأ الحاضرون في المآدب من مختلف الاتجاهات والانتماءات بتأسيس صداقات جديدة. ظهر -ولأول مرة- أن الفرق والاتجاهات المختلفة تملك جاذبية خاصة وسحرًا متميزاً، لأنه سرعان ما أدرك جميع الأطراف كيف أن الفرق والاختلافات ليست سوى وجه من أوجه الغنى والثراء. فأصبح ثمة تلاؤم وانسجام تام بين معتنقي مختلف الأديان. كان هذا أول حوار حار بين هؤلاء، لأنهم لم يروا منذ سنوات عديدة -بل ربما منذ عدة عصور- أرضية مشتركة للحوار مثل هذه الأرضية. لذا فقد أيّدوا هذه الحوارات بحرارة. ولعلمهم توقعوا في البداية أن ينشأ جو مثل هذا الجو الحار، ولم يتوقعوا أيضاً تحول هذه الحوارات التي جرت على موائد الطعام إلى حوارات بين

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٩٠.

الأديان والحضارات^(١).

وسرعان ما تجسدت هذه الدعوة وتحولت إلى مؤسسة تتبناها تحت اسم "وقف الصحفيين والكتاب". وبرعاية من هذه المؤسسة تشكل منبر ثقافي باسم: "منبر أبننت". جمع هذا المنبر المئات من المفكرين والعلماء وأرباب السياسة والفن في البلد من المنتسبين إلى مختلف المدارس الثقافية ومختلف الأديان والأعراق والأيدولوجيات. اجتمع هؤلاء لبحثوا عن إمكانية تشكيل أرضية مشتركة للعيش والتفاهم في جو من الإحترام المتبادل. وبدؤوا بوضع العديد من مشاكل البلد والعديد من مسائلها كالديمقراطية وحرية العقيدة والفكر، ونماذج الدولة الوطنية الحديثة والتعددية السياسية والثقافية.. إلخ، على طاولة البحث والتدقيق والتشريح.. في البداية ارتفعت بعض الأصوات القلقة، وكان هنالك جو من عدم الثقة. ثم وبدؤوا بعد ذلك بالتأكيد على نقاط مشتركة. والحقيقة أن هذا المنبر بدأ يعطي الثقة بأنه في الإمكان أن يتوصل الناس -مع اختلاف أفكارهم وأمزجتهم في جميع الظروف- إلى أسس يمكن الاتفاق عليها. كان هذا المنبر في البداية تجربة للمواجهة مع الآخر، ثم تحول بالتدرج إلى قاعدة مشتركة للحوار والتفاهم وقبول الآخر^(٢).

وبعد أن رعى الأستاذ كولن عددًا من الحوارات بين مختلف التكوينات داخل تركيا، وأشاع ثقافة اللقاء والحوار، وأصل لفكر

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٤٣-٤٤.

(٢) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٢٤١.

التسامح والرحمة، ومد جسور اللقاء مع أكبر الأمم في الأرض وهي الأمة المسيحية، ووصل الأمر إلى أعلى المستويات، حيث زار عاصمة المسيحيين في العالم "الفايكان" وقابل البابا، محاورًا إياه في عدد من القضايا التي تهم العالمين الإسلامي والمسيحي.

لا شك أن ما وصل إليه فتح الله كولن، يُشعر كل مسلم بالفخر والاعتزاز، وفي ذات الوقت فإنه يقدم له نموذجًا عمليًا في النهوض الذي بدأ بالتقييم الصحيح لواقع الأمة وعللها ومعضلاتها، مع التركيز في الابتداء على بناء الإنسان، ثم صناعة الحياة من خلاله^(١).

وعندما سافر الأستاذ فتح الله كولن إلى أمريكا عام ١٩٩٩م كان يتابع عن قرب هذه الأعمال، وقد تم عقد منتديات في بلجيكا - فرنسا - مصر - واشنطن - لندن - أربيل... وكانت منتديات ضخمة تملك مخططات مستقبلية تهدف إلى المزيد من التواصل والتقارب.

وكان من بدايات أعمالهم كنموذج إقامة مباراة لكرة القدم بين الفريق القومي التركي وفريق مؤلف من نجوم العالم أثناء حرب البوسنة لإرسال نداء إلى العالم لإيقاف الحرب ولفت الأنظار إلى مأساة أهل البوسنة والأطفال بالأخص. وكان من بين المشاهدين النجم الأرجنتيني "دياجو مردونا"، وكان عائد هذه المباراة السبب في إقامة ثلاث مدارس^(٢).

(١) فؤاد البنا: عبقرية فتح الله كولن، ص: ٩٠-٩١.

(٢) إيمان قنديل: فلسفة الحوار والمؤسسات الإعلامية، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٤، مقال منشور في صحيفة حزب الوسط الجديد، ٢٧ يوليو ٢٠٠٩م.

٤. الجمعية الإغاثية "هَلْ مِنْ أَحَدٍ؟!" أو "كِيْمَسِي يُوْكَ مُو" (١)

تُوِّجَت هذه الأعمال الإنسانية المعنية بكرامة الإنسان ورسالة الرحمة المتوجهة إلى العالم كله بالجمعية الإغاثية العالمية والمسماة "كِيْمَسِي يُوْكَ مُو" أو "هَلْ مِنْ أَحَدٍ؟!" وقد بدأت هذه الجمعية أعمالها داخل تركيا كردّة فعل لما حدث في زلزال ١٩٩٩م من تضرر الكثير من المباني وتشرّد الكثير من أهلها. وقد جاءت التسمية بعد بثّ محطات التلفزيون لقطات لرجل مسنّ يستغيث من تحت أنقاض منزله "هل من أحد؟!". وكانت هذه البداية كبرنامج إغاثي تابع لمحطة التلفزيون، ثم توسعت أعمالهم الإغاثية واستقلّوا عن المحطة وقاموا بأعمال الإغاثة وإعانة المحتاجين طوال العام من المرضى والفقراء وأصحاب الاحتياجات الخاصة. ولأنّ نظرهم دائماً كانت تجاه الإنسانية بأسرها، فقد اعتبروا أنّ صرخة الاستغاثة التي سمعوها أول مرة هي صرخة إنسانية عامة. فقد تختلف اللغات والبلاد والأعراق، ولكن لغة الألم واحدة، وقد اعتبروا أنّ كل دمعة في أيّ عين هي نداء لهم لتقديم العون والمساعدة. فانطلقوا بأعمالهم في شتى أرجاء المعمورة وحيثما وُجد نداء، وكانوا يتوجهون إلى حكومة الدولة المنكوبة لسؤالهم عن الاحتياجات الحقيقية لهم، فتجدهم بينون المستشفيات المتنقلة لإسعاف المرضى في مكان ما، ويقدمون الغذاء والمؤن والخيام في مكان آخر، وبينون القرى هنا، ويحفرون الآبار هناك. وقد ذهبوا للإنقاذ بعد اجتياح تُسونامي في إندونيسيا، وذهبوا بعد زلزال باكستان، وأنشأوا قرية في دارفور، ثم كانوا في بُورما، ثم

جورجيا وأوسيتيا الجنوبية، وأخيرًا - وليس آخرًا- في فلسطين بعد حرب غزة، مقدمين العون لإخوانهم المجاهدين وأسْرهم، إذ قدموا لهم كل أنواع المؤن الطبيّة والغذائية، ثم شرعوا بعد ذلك في حفر الآبار التي يحتاجونها بشدة لمدهم بالمياه الصالحة^(١).

وعنيت الحركة بالاقتصاد ومجتمع رجال الأعمال فأشرفت على جمعيات ومنتديات رجال الأعمال المسلمين. لقد سعى الأستاذ فتح الله كولن طيلة حياته لإطلاق نموذج الإنسان المسلم المثالي المتمسك بجذوره الروحية، المنفتح على ثقافات العالم ومتطلبات العصر، الموفق بين العقل والقلب والسلوك، الواقف نفسه لخدمة الإنسانية كسبًا لمرضاة الله تعالى، إيمانًا منه بأن هذه هي رسالة الإسلام الحقيقية والسبيل التي سار عليها كافة الأنبياء ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، لذا تميزت كافة المشاريع التي حثّ على إنجازها ببعدها الإنساني الشامل حيث حرصت على خدمة الإنسان من حيث هو إنسان، دون تمييز بين عرق أو لغة أو دين أو ثقافة^(٢).

لقد انخرطت "الخدمة" في المساهمة في مكافحة الفقر، فبذلت أقصى الجهود لتصبح ثقافة عامة في المجتمع تتنافس من أجلها كل القوى السياسية والاجتماعية التي تريد أن تكسب تأييد الشعب. فكان التشجيع الدائم على التواصل بين الطبقات الاجتماعية المختلفة كما رأينا من تواصل بين أبناء مدارس الطبقة العليا والطبقات الفقيرة. وبما

(١) إيمان قنديل: السلام الاجتماعي ومكافحة الفقر، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٣، مقال منشور في صحيفة حزب الوسط الجديد، ٢٠ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) محمد علي شاهين: محمد فتح الله بن رامنز أفندي كولن (جولن- غولن)، مقال منشور في مجلة الغرباء، ٤ أيار ٢٠١٢م.

أن الدراسة المدرسية هي المكان والزمان الذي يتشكل فيه الوعي والإدراك لدى النشء، فإن البداية بهذا المجال كان له بليغ الأثر في تكوين فكر مجتمعي رائع للتواصل بين الطبقات الاجتماعية، وقد زاد من هذا الحس انتشار فكرة تبرع رجال الأعمال بالمنح الدراسية على مختلف أطراف المجتمع التركي، واعتبار ذلك جزء من كرامة الغني وشرفه ناهيك عن الإيمان العميق لدى المؤمنين منهم أن هذا يزيد الرزق ويملاؤه بركة. فكانت هذه أولى وأهم خطوات مكافحة الفقر حيث إن الاستثمار في التعليم هو أهم عوامل الارتقاء بالطبقات الاجتماعية والاقتصادية على المدى البعيد.

أما على المدى القصير، فعندما التف بعض رجال الأعمال حول دعوة الأستاذ فتح الله كولن، وأرادوا أن يعملوا بما آمنوا به من فكر إسلامي، إصلاحي، منفتح على الآخرين، وأرادوا أن يقوموا بما عليهم من واجب اجتماعي ناحية المحتاجين من أبناء أمتهم، دعاهم الأستاذ فتح الله إلى الذهاب إلى هؤلاء الفقراء، إلى قراهم وأماكنهم البعيدة والفقيرة لينشؤوا هناك المشاريع والمصانع الضخمة التي يمكن أن تحيي هذه المناطق النائية اقتصادياً واجتماعياً^(١).

٥. مجموعة "قَيْنَق" للنشر

لا يتوقف الجهد الإعلامي لتيار الخدمة الإيمانية، الذي أسسه الداعية فتح الله كولن عند مجموعة "زمان"، فهناك أيضاً مجموعة "قَيْنَق" للنشر والتي هي بدورها منظومة فكرية متكاملة بدأت بمجلة

(١) إيمان قنديل: السلام الاجتماعي ومكافحة الفقر، إحياء عصر الصحابة في تركيا-٣، مقال

"الرشحة" (Sızıntı) التي بدأت صدورها قبل سبعة وثلاثين عامًا سنة ١٩٧٩، بهدف تربية جيل على أساس علمي إيماني، باعتبار أن كل ما في الكون آية من آيات الله في العلوم، وقد صار لـ"الرشحة" الآن أكثر من إحدى عشرة أختًا، هي مجلات تصدر بعدد من اللغات من بينها مجلة "حراء" التي تصدر باللغة العربية، مثلما أن من بينها مجلات متخصصة بالطفل والمرأة... إلخ. بالإضافة إلى مجموعة المجلات، التي تُصدرها مجموعة "قَيْنِق" فإنها تمتلك ثلاثين دارًا للنشر، تصدر شهريًا حوالي ثلاثين كتابًا بلغات مختلفة، منها العربية. كما تمتلك المجموعة ثلاثين موقعًا إلكترونيًا، بلغات مختلفة. كما تصدر كتبًا مدرسية متطورة. وهي المؤسسة الأولى على مستوى تركيا في تأمين تجهيزات لوجيستك التعليم كذلك إلى معظم أنحاء العالم.

٦. مجموعة "درب التبانة" (Samanyolu)

إضافة للإعلام المكتوب والإلكتروني، فقد نجح تيار الخدمة الإيمانية الذي يستلهم روح وتوجيهات الأستاذ فتح الله كولن، في تأسيس منظومة إعلام مرئي ومسموع، تجسده مجموعة "درب التبانة" (Samanyolu) التي تمتلك ثلاث عشرة قناة تلفزيونية، وثلاث إذاعات مسموعة. ولديها قنوات متخصصة. مثلما أنها نجحت في اقتحام مجال الدراما؛ فأنتجت العديد من المسلسلات الهادفة. غير أن التحدي الكبير الذي نجحت فيه مجموعة "درب التبانة" أنها انطلقت وهي تفتقر إلى الكوادر البشرية المدربة، غير أنها وبعد خمس سنوات من انطلاقتها صارت ترفد السوق التركي بالكوادر الفنية المدربة.

غير تفوقها الإعلامي، فإن مجموعة درب التبانة تجسد أيضًا

حالة التحدي، والتفاف الناس حول المشاريع الرسالية. فأثناء الأزمة الاقتصادية التي مرت بها تركيا عام ١٩٩٥م برزت روح التضحية لدى العاملين في المجموعة، الذين قبلوا بتخفيض رواتبهم، بل وبعدم استلامها لفترات طويلة، حفاظاً على المشروع الرسالي الذي آمنوا به. أما في أزمة عام ٢٠٠٠ الاقتصادية، والتي هددت المشروع بالإغلاق، فقد تدافع الناس من أبناء تيار الخدمة الإيمانية للتبرع بما يملكون للمحافظة على مشروعهم الرسالي، حتى لقد تبرعت النساء بمصاغهن للحفاظ على استمرارية المشروع. غير أن من أعظم ما تتميز به المنظومة الإعلامية لتيار الخدمة الإيمانية، أنها رغم التزامها بتعليم الإسلام الحنيف، ورغم اتصافها بكل صفات الإعلام الرسالي، الذي يؤمن بأن الإعلام وسيلة أساسية لإحداث الإصلاح في المجتمع، رغم ذلك كله فإنك لا تجد في المنظومة الإعلامية للتيار ذلك التجهم وسوء الإخراج الذي تجده عادة في الوسائل الإعلامية المصنفة على أنها إسلامية. مثلما لا تلمس فيها ذلك الوعظ الغليظ المنفر الذي تجده في الكثير من الوسائل الأخرى^(١).

ثالثاً: مأخذ حول الأستاذ والحركة

أي تجربة لا تخلو من السلبيات ولا تنزه عن الخطأ، ولكن هناك من ينظر إلى التجارب بعين الناقد البصير المحب للإصلاح وللخير والداعي له، وهذا نقد إيجابي يقبله الجميع ويرضاه.. وهناك من ينظر إلى التجارب بنظر الحاقد المتربص الباحث عن

(١) بلال حسن التل: أيام الله في تركيا-٣، مقال منشور في جريدة "اللواء" الأردنية، ٣ مايو

المآخذ والأخطاء، ولا شك أن مثل هذا الداء سيكون كيده في نحره. فالصواب والعمل المتقن هو صخرة صلبة في وجه الحاقدين وهو عجينة لينة أمام الناقد المخلصين، لهذا فهناك العديد من المآخذ التي أخذت على الأستاذ وحركته، ومنها:

١. حركة إسلامية ذات أهداف سياسية

حركة فتح الله كولن وكغيرها من الحركات الناجحة اتهمت بأنها ذات أبعاد سياسية، وأصبح من المعروف النية الحقيقية المبطنة للذين اعتادوا أن يرجعوا أنشطة المسلمين وكأنها موجهة لتحقيق أهداف سياسية. فهم كي لا يواجهاوا رد فعل جماهيري غاضب إن قاموا بعداء واضح للإسلام بشكل مباشر، قد اختاروا -لإخفاء عدائهم هذا- عدداً كل نشاط أو حركة إسلامية وكأنها حركة سياسية. فالإسلام السياسي أو "الإسلامية التاريخية" على أي حال متهم على الدوام.

وقد وجهت حركة فتح الله كولن ضربة إلى هذا الوهم الذي يملك ماضيًا طويلًا. فقد أرادوا أن ينظروا إلى هذه الحركة بالمنظار المعتاد نفسه، أي باعتبارها حركة إسلامية ذات أهداف سياسية، ولكنهم لم يستطيعوا الحصول على أي دليل في هذا الصدد. ولن يستطيعوا أن يجدوا.. لأن جميع آليات وديناميكيات هذه الحركة وماضيها التاريخي لم تتوجه إلى أي هدف سياسي أو غاية سياسية. فهي حركة مثالية تجمع القيم الدينية مع القيم الإنسانية والاجتماعية في وحدة متكاملة. وهي تقدم تجربة فريدة في هذا الخصوص^(١).

بينما تاريخ هذه الحركة البالغة أكثر من ربع قرن يفند هذه

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٩٠.

الادعاءات. فهذه الجماعة لا تحمل أي هوية سياسية أو أيديولوجية إلى درجة أنها تعرضت لاتهام بعض الأوساط الدينية، وانتقدت لأنها بقيت خارج الحلبات السياسية.

إن عدم حمل هذه الحركة لأي هدف سياسي من الوضوح إلى درجة أنه ما من حركة سياسية ادّعت أنها قريبة منها. أما علاقتها مع الطبقة السياسية ومع الإداريين للبلد فقائمة على المصالح الواقعية. فمن الطبيعي أنها وقد اهتمت بالتعليم -الذي يعد من أهم نشاطاتها- أن تكون لها علاقة واقعية مع القائمين بإدارة البلد. وقد تحققت هذه العلاقات دون أن تنقلب إلى أهداف أو آمال سياسية، بل بقيت محصورة في الساحة التعليمية وكيفية أداء الخدمة فيها وتطويرها، ولا يمكن أصلاً تصور العكس. لذا فلا تعني هذه العلاقة أن للحركة أهدافاً سياسية. ولو كان لها أهدافاً سياسية لظهرت في الساحة السياسية على شكل تشكيل حزب سياسي.

ثم إن فتح الله كولن لم ينخرط في أي وقت من الأوقات في أي فعالية سياسية أو حزبية. فمثل هذه الفعاليات عادةً ما تكون مغامرات ذات عمر قصير. لذا فقد كثف نشاطه ليهب المجتمع فوائد اجتماعية وثقافية على المدى البعيد، علاوة على كل ما يتعلق بسعادته الأخروية والأبدية وبكل ما يؤدي إلى شخصية مؤمنة حقيقية. وحياته التي قاربت السبعين عاماً ونشاطاته لخمسين عاماً شاهد بارز على هذا^(١).

كثير الحديث عن أن هذه الحركة تبتعد عن السياسة وأنها ترفض

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص ٩٨-٩٩.

المنطق التفرقي النزاعي الصراعى الذى تمليه السياسة، ولكن هذا صحيح إذا ما تبيننا التعريف الضيق للسياسة باعتبارها حكم الدولة والوصول إلى السلطة، ولكن إذا نظرنا إلى السياسة باعتبارها ما يرتبط بكل ما هو حياتي ويومي، ويشكل النمط العام للحياة، فهذا هو ما أعتقد أنه السياسة، ولكن بمفهوم أشمل، ولو تبيننا هذا المفهوم الآخر أرى أن هذه الحركة تتعامل بالسياسة. وأعلم أن هذا ربما كلام يتحفظ عليه كثير من الإخوة الأتراك ولكنه يتعلق بعملية تعريف السياسة، وفي النهاية إن التغيير يأتي من الفرد ثم المجتمع، ثم يخلق مناخاً عاماً، فالهدف ليس مخاطبة الدولة، ولا تغييرها، ولا تحييدها، بقدر ما هو التأثير على المجال العام وتغييره بشكل تدريجي، وفي رأيي هذه هي السياسة بمعناها الشامل أو الأوسع^(١).

٢. الحركة امتداد لحركات سابقة

تقوم بعض الأوساط المعنية في تركيا بمقارنة حركة فتح الله كولن ببعض الحركات في العالم الإسلامي، أو تدعي أنها متأثرة بها ومدعومة من قبلها. علمًا بأنه لا يوجد أي أساس علمي لمثل هذه الادعاءات، ولا تستند هذه المزاعم إلى أي قوة من القوى الداخلية المحركة لحركة فتح الله كولن. ومع أن ميزة حركة فتح الله كولن واضحة أمام الرأي العام، إلا أن هذه الأوساط تحاول جر النخبة التي تتبنى الأيدولوجية الرسمية للدولة إلى اعتقادات خاطئة، فتنشر هذه

^(١) باكينام الشرقاوي: مجالات العمل وخبرات الممارسة من المحلية إلى العالمية، ورقة مقدمة في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي "خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص: ٤٢٩.

الادعاءات. لذا فمن المفيد بيان ميزة حركة فتح الله كولن عن هذه الحركات بإيجاز:

تعتقد معظم الأوساط الغربية أن أساس الراديكالية الدينية المعاصرة وُضعت من قبل حركة الإخوان المسلمين في مصر، وحركة الجماعات الإسلامية في باكستان. حتى إنهم ادعوا أن الثورة الإيرانية كذلك امتداد راديكالي لهاتين الحركتين. وقد أخذ هذا التحليل مكان الصدارة والاتفاق بين المحللين الغربيين. وترى هذه التحاليل أن جميع الحركات الدينية في العالم الإسلامي تتشابه مع هاتين الحركتين، ولها روابط تاريخية معهما؛ حيث أظهر هذا الأمر طبيعة العقلية الغربية، لأن تاريخ الفكر السياسي في الغرب يقوم على أساس أن المذاهب والمدارس المختلفة هناك ظهرت باندماج العناصر المختلفة لهذه الحركات، أو ظهرت كردود فعل نتيجة الصراعات بينها. هذا ما جعل المخيلة الغربية العلمية والاجتماعية تنظر بالمنظار نفسه إلى الحركات المعاصرة. وهم يقومون هذه الحركات إما على اعتبار أن إحداها امتداد للأخرى أو أنها مناقضة لها وفي صراع معها. لكنهم اتحدوا على أن جميعها تأثرت ببعضها بشكل من الأشكال.

٣. الحركة تمثل قاعدة جماهيرية معينة

ومما اتهمت به الحركة أن قاعدتها الاجتماعية تمثل طبقة أو فئة أو قومية أو عنصرية معينة، ولكن في الحقيقة أن الحركة لا تستند إلى أية فئة اجتماعية أو دينية معزولة عن المجتمع، أو مضطهدة. ومن جهة أخرى فإن الحركات الاجتماعية التقليدية تستند في الغالب

إلى جماهير الريف والمدن الصغيرة والفئات الاقتصادية والاجتماعية التي تمثلها. وقد استغلت الحركات الراديكالية هذه الفئات الاقتصادية والعنصرية مدة طويلة. ونتيجة لمشاعر الحرمان التي تعاني منها هذه الفئات كانت مستعدة في كل آن لأي حركة متطرفة. وكل نوع من أنواع المعارضة تكسب هذه الحركات هوية اجتماعية وسياسية. لذا فالراديكالية من هذا المنطق تُكسب هذه الجماهير والفئات هوية معينة. بينما كتل الجماهير التي تستند إليها حركة فتح الله كولن ليست طبقة معزولة سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً عن المجتمع، بل تكتسب التأييد والعون من الفئات والجماهير المختلفة الريفية منها والحضرية. إن قاعدتها الجماهيرية متكونة من الطبقة الدنيا والوسطى والغنية في الريف وفي المدن. أما جهاز الحركة فيسبّر من قِبل أفراد متعلمين ومثقفين قد تخرجوا من الجامعات الراقية في المدن المختلفة. ولا تتصرف هذه الفئات المختلفة للحركة بدافع من مشاعر العزلة عن القيم الاجتماعية والسياسية المركزية للبلد، ولا تحمل أي ضغينة أو حقد للطبقة المنتجة التي تدير البلد، ولا للأوساط الاجتماعية والاقتصادية الحاملة للقيم الغربية. لذا لا يمكن مشاهدة أي ميل انفصالي وراديكالي عندها عن المجتمع مثلما يلاحظ في الحركات المتطرفة، ولا مشاهدة أي أيديولوجية معاكسة ومعارضة. فنشاطاتها موجّهة بأجمعها وجهة إيجابية. وهي تفضّل عرض جو من الائتلاف والتفاعل الإيجابي وسماع الآخر. والهوية التي تكسبها الحركة لأفرادها ليست معزولة عن هوية القيم الاجتماعية والدينية المركزية

للمجتمع، بل هي تقوي تلك القيم وتدعمها^(١). حاولت بعض المقالات والبحوث التي تناولت تحليل حركة فتح الله كولن، إضعاف مشروعية هذه الحركة وإظهارها كحركة أيديولوجية وضمن قوالب معينة؛ أي كأنها حركة رد فعل تحاول تقديم بديل للهوية الاجتماعية، ولكنها لم تنجح طبعاً في هذا المسعى، لأن هذه الحركة وُجدت في جو القيم المركزية للمجتمع، وهذا هو السبب وراء مشروعيتها الاجتماعية. وعلى الرغم من حملات التشنيع ضدها، فإنها لم تستطع هز مشروعيتها في وجدان الأمة. إن هذه الحركة ليست حركة منظمة أيديولوجية، فهي لا تتبغى تطبيق أي ضغط أو إكراه؛ لا على المجتمع ككل ولا على أفكار منتسبيها وقراراتهم الوجدانية والاجتماعية ولا على سلوكهم وتصرفاتهم، بل هي تعدّ كل نوع من أنواع الضغط الاجتماعي والأيدولوجي مناقضاً لروح الدعوة الدينية. فالدعوة الدينية تخاطب الإرادة الحرة والوجدان الحر وحرية الاختيار بشكل مباشر^(٢).

٤. الحركة تسعى وراء انقلاب إسلامي كالإيراني

أثارت بعض الأوساط -عن قصد- شبهة أن هذه الحركة تسعى وراء انقلاب إسلامي مثل الانقلاب الإيراني. ولا تستطيع هذه الأوساط -بالطبع- إيراد أي دليل على هذا الادعاء. ولو استطاعوا ذلك لأقاموا الدنيا وأقعدوها. والغاية من إرسال هذه الافتراءات إثارة بعض القوى الحاكمة في البلد ضد هذه الحركة، والحط من منزلة الحركة أمام الرأي العام. بينما يعلم أصحاب هذه الفرية جيداً أن حركة فتح الله

(١) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٩٥.

(٢) محمد أنس أركنه: المرجع السابق، ص: ١١٠.

كولن لا تسعى وراء أي مشروع سياسي، ولا القبض على أزمة الحكم. إن الانقلاب الإيراني يستند إلى مفاهيم وأسس اجتماعية وتاريخية معينة، ولا يمكن تكراره أو تقليده في العالم السني، فهذا غير ممكن من الزاوية الاجتماعية. ولا أجد هنا حاجة لإيراد الفرق بين الذهنية المذهبية الشيعية وبين البنية الاجتماعية السنية في العالم السني، وإنما أكتفي بالقول بأن هذه الفروق المذهبية والعقائدية تؤدي إلى فروق في النظام الاجتماعي وفي شكل التنظيم السياسي بين المجتمعين الشيعي والسني.

٥. الحركة تمول من الخارج

افترى على الحركة أنها تمول من الخارج، وهو افتراء مضحك لا يستحق الوقوف عنده. ولكن أذكر ملاحظة حول حساسية معينة، أرى أنها تساعد على تحليل هذه الحركة فأقول إن من أهم أسباب ثقة الجماهير والرأي العام بهذه الحركة هي هذه الحساسية، أي إن الحركة إضافة إلى قيامها بوضع قيمها الاجتماعية والثقافية بنفسها، فهي تصنع مصادرها المادية بنفسها أيضًا. إن الأعباء المادية والمعنوية للحركة تقع على كاهل المواطن التركي المؤمن والمضحى، وعلى المسلمين المفعمين بمشاعر الحب لعقيدتهم ودينهم. ولم يقبل فتح الله كولن أية مساعدة خارجية في أي أمر من الأمور أو في أي ساحة من الساحات. لأنه عدّ هذا استحقاقًا لمشاعر الكرم والجود والسخاء الموجودة لدى الشعب التركي. أنا أعتقد أن هذا التصرف يكفي لرد الاتهامات عن الحركة في هذا الصدد^(١).

(١) محمد أسس أركنه: فتح الله كولن "جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"، ص: ٩٩-١٠٠.

٦. ضعف دور المرأة في الحركة

هناك الكثير ممن يردد السؤال: ما نظرة الشيخ للنساء، وما مكانة النساء في الخدمة؟ في عام ٢٠٠٦م أجرت إحدى المجلات الأمريكية حوارًا صحفيًا مع الشيخ، به تفصيل شامل حول هذا الموضوع، فضلًا عن مقالات الشيخ عن النساء.

يمكننا اليوم أن نرى عديدًا من النساء قد اعتنقن أفكار وآراء الشيخ كما هو الحال عند كثير من الرجال. وبإمكاننا أيضًا رؤية النساء اللاتي يعملن مع الرجال، عند زيارتنا للمؤسسات التعليمية المنتشرة في جميع أنحاء العالم، والتي تنعدم فيها أي تفرقة بين الرجال والنساء؛ حيث إن النساء يخدمن الإنسانية تقريبًا في كل المجالات بفطرتهن ومن خلال هذا الإطار الذي حدده الإسلام. وأعتقد أن العروج على بعض هذه المؤسسات يكفي للتعرف على هذا الواقع^(١). والخدمة في جناحها النسائي تسير بشكل متوازٍ مع جناحها الذكوري.. وكل يؤدي دوره ويخدم رسالته حسب ما وُضع له من برامج وترتيبات.



(١) أركون جابان: المناقشات عقب الجلسة الأولى (من هو فتح الله كولن)، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٢٨٠.



الخاتمة

لقد كان من الصعوبة بمكان أن يتحدث باحث عن شخصية هامة مثل الأستاذ محمد فتح الله كولن.. فالأستاذ أمة في رجل.. ومدارس في فكر.. ومن يتعرض لدراسة تاريخه سيخوض في تاريخ أمة.. ويغوص في مناهج وطرق وأساليب عدة على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان.

عاش الأستاذ كولن وهو يحمل في قلبه أملاً جديداً نذر حياته لأجله، وهو تحقيق ذلك الوعد الذي أطلقه النبي ﷺ بأن هذا الأمر سيصل ما وصل إليه الليل والنهار. فبذل جهده وفكره وروحه وقلبه وماله وعصبه وعرقه وحياته لأجل ذلك.. وهو يوجه أبناءه في هذه الحركة إلى أعظم السبل وأفضلها لتحقيق الهدف.. ويرشدهم إلى أقصر الطرق الموصلة إليه، وهو أن يسلكوا مسلك الصحابة وينهجوا نهجهم ويعيشوا على ما عاشوا عليه، فكان يقول لهم "كونوا مثلهم أو موتوا"^(١). لذلك أقدم اعتذاري وعذري عن هذا البحث القاصر عن إدراك هذا البحر الزاخر من العطاء والنقاء.. فهو بحرٌ قد تناهى عمقه، فكلما نزلت متعمقاً في البحث عن درره وكوامن أسراره، كلما زاد

(١) لقاء خاص مع الأستاذ جمال الترك، (المدير العام لوقف مركز الدراسات الأكاديمية والإنترنت في إسطنبول)، إسطنبول، ٥/٥/٢٠١٣م.

البحث عمقاً وبعداً عن الإدراك.. وازداد الباحث عجزاً وتقصيراً عن أن يؤدي الأمانة.. كما ينبغي لها أن تكون.

قمت ببحثي هذا متوخياً الحقيقة العلمية والموضوعية، ومن هذا المنطلق رأيت الرجل الذي عرّف برسائله وعرّفت رسالته به، وكانت صفته البارزة أنه رجل الحق والهمة والإخلاص والتضحية في تركيا.. وكان دائماً على استعداد لأن يتساهل في كل شيء، وأن يتسامح في كل شيء، فيما عدا رسالته التي نذر حياته لأجلها.. وأراد لمن حوله أن يفعلوا كذلك، فكان ينادي دائماً "أريد حفنة من المجانيين".

رفع الأستاذ كولن راية الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والحنكة والصبر والتضحية والفكر والقلب والعقل والروح، وأطرها بإطار الإخلاص والتفاني والانمحاء وإنكار الذات، بل ونسيان الذات. عاش لدينه، لرسالته، لغيره.. وسلك مسلك العزاب ولم يأمر تلامذته بذلك.. سلك هذا المسلك حتى لا يكون هناك ما يشغله عن دينه ودعوته ورسالته.. فلم يعيش لنفسه ولم يجمع لشخصه، فهو لا يملك من حطام الدنيا شيئاً.. وهو لا ينسب لنفسه أي نجاح أو فتح.. وإنما الفضل عنده لله وحده.. ثم لإخوانه الذين وقفوا إلى جانبه.

تواكبت حياة الأستاذ كولن منذ ولادته وحتى يومنا هذا مع تداعيات الحالة التركية وتطورها.. فعاش جميع ظروفها وأحوالها وتقلباتها.. ولكنه ضمن هذه الظروف الصعبة والأحوال الجارفة تمكن من الوقوف والصمود وراء فكرته ورسالته، ولم يجرفه التيار الإعصاري الشديد كما جرف الكثير غيره تجاه التشدد والعنف أو تجاه الانبطاح والتخلي عن المبادئ.. صمد في وجه العواصف، معتمداً على الذي نذر حياته وكيانه لأجله، فنجح وكان سبباً في نجاة من حوله وربما وطنه.. هو

الأستاذ كولن صاحب البصمة الأوضح في نهضة تركيا وانبعائها الحضاري على أسس ثابتة ومخطط علمي وإستراتيجي محكم على أرضية فكر مستنير رسخت قناعاته واستقرت دعائمه، وتوطدت خياراته. "لن يكتب النجاح لأي إستراتيجية ما لم تكن تستند على فكر محصّف، وعزيمة قاطعة، وتصميم متبصر في الرؤية والتوقعات. ولكلّ فكر خلاق احتياطٌ من المعارف والقيم والضوابط تجنبه العُطلّة، وتتجاوز به الطوارئ والعوائق وحوادث الطريق. ولا تتمايز الأعمال الناجزة والمهام النافذة، إلا بالتخطيط المحكم الذي تتم فيه. وكل صرح مادي أو معنوي استكمل بنيته، واستوى على دعائم الكمال، لا يولد إلا في كنف تفكير سديد، وتروّ قويم. تلك هي المبادئ والأبعاد التي يركز عليها الأستاذ كولن"^(١).

لقد كان من الصعوبة بمكان على أي باحث أن يتابع هذه المساحات الواسعة التي تمتد عليها مؤسسات الخدمة داخل الأراضي التركية المترامية الأطراف أو على امتداد البسيطة شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.. ولكنني ورغبة في الوصول إلى الحقيقة العلمية بأمانة حاولت الوصول إلى أي مكان أستطيع الوصول إليه، فزرت تركيا وخاصة إسطنبول وأدرنة حوالي عشر مرات. ولأجل هذا الهدف زرت المؤسسات التركية في المغرب العربي حيث وصلت إلى الجزائر، وكذلك سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لنفس الغاية.

اطلعت بنفسني على هذه الإنجازات العظيمة، وقرأت أفكارها ودروسها ومناهجها التي قامت عليها كما بينت خلال بحثي هذا. ولم يكن أمر متابعة هذه الحركة بأدق تفاصيلها من الأمور السهلة

(١) سليمان عشراطي: الانبعث الحضاري في فكر فتح الله كولن، ص: ٢٣٧.

أبدًا.. فمن أهم المصاعب التي تواجه أي تحليل يقوم بمراقبة حركة اجتماعية وثقافية ومتابعتها في خضم تحولاتها هي تعيين ثوابت تلك الحركة وكذلك تعيين متغيراتها، وبما أن أمر الثوابت والمتغيرات مهم جدًا فيجب البدء في تحليل أي حركة بتناول هذه الديناميكيات. تُشكل الثوابت ديناميكيات الحركة الرئيسية. أما المتغيرات فتشكل النواحي الظرفية لها. وإذا كان هناك ما يقال عن حركة فتح الله كولن فهو أنها حركة تستحق التحليل، إذ هي تحمل الكثير من العناصر المهمة المستحقة للتحليل. وعملية تحليل مثل هذه الحركة تحليلًا منظمًا وعلميًا ليست عملية سهلة.

لا شك أنني واجهت صعوبات جمة وحاولت أن أفِي الموضوع حقه بأمانة وإخلاص، ولكن هيايت لباحث أن يستطيع استكمال بحثه من غير نقصان. فكيف إذا كان البحث يخوض في موضوع أشغل العالم الآن بكل أطرافه واستغرق من الباحثين والعلماء والأكاديميين والمؤسسات البحثية والفكرية الساعات الطوال لدراسة هذه الظاهرة. علمًا أن ما كتب حول الأستاذ وحركته (الخدمة) في العالم الغربي وحده يزيد عن أربعمئة وثلاثين بحثًا.. ما بين كتاب أو مقالة أو بحث أكاديمي^(١). وهؤلاء بمعظمهم توجهوا في دراساتهم إلى الاطلاع إلى واقع الخدمة وحققتها. فالخدمة نماذجها من الداخل، وما لم يتمكن الدارس من الدخول إلى عمقها لا يمكن أن يستوعب حقيقتها. إنه الخوض في الإنسان قبل الخوض في الزمان والمكان والمؤسسات والبنیان.

(١) لقاء مع الأستاذ إحسان يلماز، (أستاذ العلاقات الدولية والعلوم السياسية / جامعة الفاتح

لقد كان من الصعوبة بمكان أن يتحدث باحث عن شخصية هامة مثل الأستاذ محمد فتح الله كولن.. فالأستاذ أمة في رجل، ومدارس في فكر.. ومن يتعرض لدراسة تاريخه يخوض في تاريخ أمة، ويغوص في مناهج وطرق وأساليب عدة على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان. عاش الأستاذ كولن وهو يحمل في قلبه أملاً جديداً نذر حياته لأجله، وهو تحقيق ذلك الوعد الذي أطلقه النبي ﷺ بأن هذا الأمر سيبلغ ما بلغ إليه الليل والنهار.. فبذل جهده وفكره وروحه وقلبه وماله وعصبه وعرقه وحياته لأجل ذلك.. وهو يوجه محبته في هذا المشروع إلى أعظم السبل وأفضلها لتحقيق الهدف، ويرشدهم إلى أقصر الطرق الموصلة إليه؛ وهو أن يسلكوا مسلك الصحابة وينهجوا نهجهم ويعيشوا على ما عاشوا عليه، فكان يقول لهم: "كونوا مثلهم أو موتوا".

لذلك أقدم اعتذاري وعذري عن هذا البحث القاصر عن إدراك هذا البحر الزاخر بالمعطاء والنقاء.. فهو بحر قد تنهى عمقه.. فكلما نزلت متعمقاً في البحث عن درره وكوامن أسراره؛ كلما زاد البحث عمقاً وبعداً عن الإدراك، وازداد الباحث عجزاً وتقصيراً عن أن يؤدي الأمانة كما ينبغي لها أن تكون. فقمتم ببحثي هذا متوخيًا الحقيقة العلمية والموضوعية، ومن هذا المنطلق رأيت الرجل الذي عرف برسالته وعرفت رسالته به، وكانت صفته البارزة أنه رجل الحق والهمة والإخلاص والتضحية.

ISBN 978-977-6704-08-4



9 789776 704084

للنشر والتوزيع
دار المنهجيات